



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمران
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

التفسير والمفسرون
في العصر الحديث

عبدالقادر محمد صالح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث

كاتب:

عبد القادر محمد صالح

نشرت فى الطباعة:

دار المعرفة

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٤	التفسير و المفسرون فى العصر الحديث
٢٤	اشارة
٢٤	تقديم
٢٥	المقدمة
٢٥	اشارة
٢٥	المعجزة و المنهج: الكتاب «القرآن»:
٢٧	و ختاماً:
٢٨	الباب الأول القرآن الكريم لمحة عامة عن معنى الأحرف السبعة، و ظاهرة الوحي، و علوم القرآن و نشأتها، و التفسير و تطوره.
٢٨	الفصل الأول القرآن
٢٨	اشارة
٢٨	لفظ القرآن و معناه:
٣٠	القرآن و لغة العرب:
٣٢	دليل نزول القرآن الكريم على الأحرف السبعة:
٣٢	أقوال العلماء فى المقصود بالأحرف السبعة:
٣٣	ما كل كلمة فى القرآن تقرأ على سبع لغات:
٣٥	ابن حجر يجمع بين القولين:
٣٥	رأى ابن قتيبة فى الأحرف السبعة:
٣٦	رأى أبى الفضل الرازى فى الأحرف السبعة:
٣٦	آراء أخرى:
٣٧	رأى الإمام الطبرى فى الأحرف السبعة:
٣٧	الخلاصة فى مسألة القراءات السبع و الأحرف السبعة:
٣٧	مكى بن أبى طالب القيسى يجزم أن الأحرف السبعة غير القراءات السبع:

- ٣٩ كيفية إنزال القرآن الكريم:
- ٣٩ الحكمة من نزول القرآن منجما:
- ٤٠ معرفة أسباب النزول:
- ٤٢ ما كل الآيات لها سبب نزول:
- ٤٣ السبيل إلى معرفة سبب النزول:
- ٤٤ الفصل الثاني الوحي و القرآن
- ٤٤ اشارة
- ٤٥ ظاهرة الوحي:
- ٤٥ معانى الوحي:
- ٤٧ كيفيات الوحي:
- ٤٨ موقف العلم من مسألة الوحي:
- ٥١ الأدلة العقلية على ثبوت ظاهرة الوحي:
- ٥٢ من الشبه المطروحة حول مسألة الوحي:
- ٥٥ الفصل الثالث نشأة علوم القرآن
- ٥٥ نشأة علوم القرآن
- ٥٥ علوم القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه و بقية الصحابة الخلفاء و لمححة عن موضوع جمع القرآن:
- ٥٧ المكى و المدنى من القرآن الكريم:
- ٥٨ فائدة العلم بالمكى و المدنى:
- ٥٩ عدد السور المكية و المدنية:
- ٥٩ خصائص الآيات المكية:
- ٥٩ أولا- من حيث الأسلوب:
- ٥٩ ثانيا- من حيث الموضوع:
- ٥٩ خصائص الآيات المدنية:
- ٦٠ علم الناسخ و المنسوخ:

- ٦١ الناسخ و المنسوخ و كلام أهل العلم فيه:
- ٦٣ علم المحكم و المتشابه:
- ٦٤ خلاصة في المحكم و المتشابه:
- ٦٥ رأى أبى الراغب الأصفهاني:
- ٦٦ و للعلماء في متشابه الصفات مذهبان:
- ٦٦ نماذج من الآيات القرآنية لتوضيح المذهبين من المتشابه:
- ٦٦ المعالجة و المناقشة:
- ٦٧ الفصل الرابع التفسير و التأويل
- ٦٧ اشارة
- ٦٧ التفسير و التأويل
- ٦٨ معنى التفسير لغة، و اصطلاحا:
- ٦٩ التفسير فى الاصطلاح:
- ٧٠ التفسير فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته الكرام
- ٧٠ تمهيد:
- ٧٠ النبى صلى الله عليه و سلم و فهمه للقرآن الكريم:
- ٧١ تفاوت الصحابة فى فهمهم القرآن:
- ٧٣ المصدر الثانى لتفسير القرآن: النبى صلى الله عليه و سلم:
- ٧٤ السنة المفسرة للقرآن الكريم:
- ٧٥ مناقشة آراء الفريقين:
- ٧٥ التفسير فى عهد الصحابة:
- ٧٦ وسائل الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة:
- ٧٦ التفسير فى عهد التابعين:
- ٧٧ طبقة التابعين من أهل المدينة:
- ٧٧ طبقة أهل العراق:

٧٨	تطور الأوضاع التفسيرية:
٨٠	ترجمة القرآن الكريم
٨١	المعنى الاصطلاحى للترجمة:
٨١	أنواع الترجمة:
٨٢	شروط لا بد من توافرها فى الترجمتين الحرفية و التفسيرية:
٨٢	فى الترجمة الحرفية بعد الشروط السابقة لا بد من أمرين:
٨٢	التفسير و الترجمة:
٨٢	معنى الترجمة و دلالتها:
٨٣	التأويل:
٨٤	الفرق بين التفسير و التأويل:
٨٤	رأى الشاطبى فى ترجمة القرآن:
٨٥	موقف الشاطبى من الترجمة الحرفية:
٨٥	الباب الثانى الدراسات القرآنية الحديثة
٨٥	إشارة
٨٦	الفصل الأول التفسير العام
٨٦	إشارة
٨٦	أولاً: تفسير التحرير و التنوير لمحمد الطاهر بن عاشور
٨٦	محمد الطاهر بن عاشور ١٢٩٦-١٣٩٣ هـ ١٨٧٩-١٩٧٣ م صاحب «التحرير و التنوير تفسير قرآن كريم»:
٨٦	ابن عاشور و موقفه من قدماء المفسرين:
٨٧	موقف ابن عاشور من التفاسير السابقة:
٨٧	مقدمة ابن عاشور الأولى فى التفسير و التأويل:
٨٨	التأويل عند ابن عاشور:
٩١	موقف ابن عاشور من التفسير بالرأى:
٩٤	ما الأغراض المقصودة من التفسير حسب ابن عاشور:

- هل يشتمل القرآن على كل العلوم؟ ٩٦
- ابن عاشور و اللغة: ٩٨
- ترجيحات لابن عاشور فى معانى لعل: ١٠١
- الجانب الفقهي فى تفسير ابن عاشور (التحرير و التنوير): ١٠٢
- ابن عاشور و مسائل العقيدة: ١٠٦
- اشارة ١٠٦
- ١- مسألة الوحي كما طرحها ابن عاشور: ١٠٦
- ٢- موقف ابن عاشور من صفة الكلام: ١٠٩
- تفسير ابن عاشور و النظريات العلمية: ١١٢
- تفسير ابن عاشور و الحديث النبوى الشريف: ١١٤
- موقفه من الإسرائيليات: ١١٥
- خاتمة: ١١٦
- ثانيا: تفسير محاسن التأويل لجلال الدين القاسمى ١١٦
- تفسير القاسمى المستمى: محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمى: ١١٦
- التعريف بالمؤلف ١١٧
- عقيدته: ١١٧
- مؤلفاته: ١١٧
- قاعدة فى أمهات مأخذه [مأخذ التفسير]: ١١٨
- قاعدة فى معرفة صحيح التفسير، و أصح التفاسير عند الاختلاف: ١٢٠
- أما مراتب التفسير: ١٢٠
- قاعدة فى معرفة سبب النزول: ١٢٢
- قاعدة فى النسخ و المنسوخ: ١٢٤
- قاعدة فى القراءة الشاذة و المدرج: ١٢٥
- قاعدة فى قصص الأنبياء و الاستشهاد بالإسرائيليات: ١٢٥

- ١٢٥ شرط المفسر أمران:
- ١٢٦ الأولى:
- ١٢٦ الثاني:
- ١٢٦ القاسمى و معنى ما نقل أن للقرآن ظاهرا و باطنا:
- ١٢٧ متى يكون الباطن مرادا:
- ١٣١ وجهة نظر أخرى حول وجود المجاز فى لغة العرب:
- ١٣٣ رأى القاسمى بفواتح السور:
- ١٣٣ التصوير فى القرآن عند القاسمى:
- ١٣٤ الأسماء و الصفات عند القاسمى:
- ١٣٥ اللغة عند القاسمى فى المحاسن:
- ١٣٥ تفسير القاسمى و الأحكام الفقهيّة:
- ١٣٦ القاسمى و الحديث الشريف:
- ١٣٦ القاسمى و الإسرائيليات:
- ١٣٦ الخاتمة:
- ١٣٧ ثالثا: صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى
- ١٣٧ صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى:
- ١٣٧ مصادر هذا التفسير:
- ١٣٧ رأى العلماء بهذا التفسير:
- ١٣٧ الأسباب الداعية لتأليف «صفوة التفاسير»:
- ١٣٨ منهج صفوة التفاسير:
- ١٣٨ الجانب الفقهي:
- ١٣٩ الاهتمام بالحديث الشريف فى صفوة التفاسير:
- ١٣٩ الجانب اللغوى فى صفوة التفاسير:
- ١٤٠ البلاغة فى صفوة التفاسير:

- ١٤٠ المحكم و المتشابه في صفوة التفاسير:
- ١٤٢ الجانب العقيدى في صفوة التفاسير:
- ١٤٣ النسخ في صفوة التفاسير: -
- ١٤٣ خاتمة:
- ١٤٤ الفصل الثانى التفسير المنهجى
- ١٤٤ اشارة
- ١٤٤ أولا: التفسير الواضح لمحمود حجازى
- ١٤٤ التفسير الواضح لمحمد محمود حجازى:
- ١٤٥ منهجه فى التفسير:
- ١٤٥ الجانب العقيدى فى سورة الاعراف: -
- ١٤٥ اشارة
- ١٤٦ المعنى:
- ١٤٧ المسألة الفقهية فى التفسير الواضح:
- ١٤٨ ملاحظات: -
- ١٤٨ الاستشهادات بالأحاديث الشريفة بالتفسير:
- ١٤٨ الإسرائيليات فى التفسير الواضح: -
- ١٤٨ اللغة فى التفسير الواضح:
- ١٤٩ الناسخ و المنسوخ فى التفسير الواضح:
- ١٤٩ هل كان النسخ لجهل الشارع بالحكم:
- ١٥٠ خاتمة:
- ١٥٠ ثانيا: التفسير الوسيط للدكتور وهبة الزحيلي
- ١٥٠ التفسير الوسيط لوهبة الزحيلي:
- ١٥٠ مؤلفاته:
- ١٥١ ميزات التفسير الوسيط:

- ١٥١ مثال:
- ١٥١ - محارم النساء:
- ١٥٢ اللغة في التفسير الوسيط:
- ١٥٢ التفسير الوسيط و التوسل:
- ١٥٣ التفسير الوسيط و الحديث الشريف:
- ١٥٤ من مسائل العقيدة في تفسير الوسيط:
- ١٥٥ معجزة القرآن الكريم كما في الوسيط:
- ١٥٦ طلب المشركين آيات تعجيزية:
- ١٥٧ تفسير الوسيط و آيات الصفات:
- ١٥٧ تفسير الوسيط و الموقف من صفة الكلام:
- ١٥٧ التفسير الوسيط و المسألة الفقهية:
- ١٥٨ واجب الشهود في شهاداتهم:
- ١٥٩ التفسير الوسيط و الإسرائيليات و الأحاديث الواهية:
- ١٥٩ الخاتمة:
- ١٦٠ ثالثا: تفسير الشعراوى الشيخ محمد متولى الشعراوى
- ١٦٠ جهد الشعراوى في تفسيره:
- ١٦٠ القرآن لا يمكن تفسيره:
- ١٦٢ منطقية الرسول صلى الله عليه و سلم مع قدراته:
- ١٦٢ القرآن معجزة مستمرة لكل الأجيال في كل العصور:
- ١٦٣ الجانب البلاغى في تفسير الشعراوى:
- ١٦٣ دلالة النكرة و المعرفة في سياق الآية:
- ١٦٣ دلالة مفهوم الأمة في القرآن وفق فهم الشعراوى:
- ١٦٤ جمالية التشبيه و حسن الأداء في القرآن على سبيل المثال لا الحصر:
- ١٦٥ خواطر الشعراوى حول «الصبغة» أو في ظلال الصبغة:

- ١٦٥ الدقة البلاغية في القرآن:
- ١٦٦ الإشارات العلمية في تفسير الشعراوي:
- ١٦٦ دوران الأرض في القرآن الكريم:
- ١٦٧ مرور الجبال مّر السحاب في الدنيا و ليس في الآخرة:
- ١٦٧ تحديد معنى العلم عند الشعراوي:
- ١٦٨ لما ذا كان تحدى القرآن بالعلم:
- ١٦٨ تحدى القرآن بحقائق الكون:
- ١٦٨ دقة اللفظة القرآنية في التعبير عن حركة الجبال:
- ١٦٩ مدى اعتماد الشعراوي على الحديث في تفسيره:
- ١٧٠ «إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلّى الجبار بالمغفرة»:
- ١٧٠ مناقشة القرآن للكافرين كما ورد في تفسير الشعراوي:
- ١٧٢ نكت الشعراوي اللغوية وفق تجليات النص:
- ١٧٥ خاتمة:
- ١٧٥ رابعا: التفسير السهل الميسر المختار من تفاسير القرآن الكريم د. أحمد إسماعيل الصباغ
- ١٧٥ اشارة
- ١٧٥ موجز عن حياة المؤلف:
- ١٧٦ ظروف نشأة التفسير السهل الميسر:
- ١٧٦ منهج المؤلف في إعداده التفسير السهل الميسر:
- ١٧٧ الجانب اللغوي:
- ١٧٧ صرفه العبارات إلى غير ظاهرها تحقيقا لمقاصد النص:
- ١٧٨ عدم دخول الصباغ في الفروع و الجزئيات:
- ١٧٨ محاولات الصباغ التوفيق بين القرآن و العلم الحديث:
- ١٧٨ الحديث النبوي في تفسير الصباغ «السهل الميسر»:
- ١٧٩ التفسير الميسر و آيات الصفات:

- ١٧٩ خاتمة:
- ١٧٩ الفصل الثالث التفسير الموضوعى
- ١٧٩ اشارة
- ١٨٠ أولاً: أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن لمؤلفه محمد الأمين بن المختار الجكنى الشنقى المورىانى المالكى الإفريقى ١٣٢٠-١٣٩٣ هـ .
- ١٨٠ موجز حياة المؤلف:
- ١٨٠ نسب قبيلته:
- ١٨١ أعماله:
- ١٨١ خروجه من بلاده:
- ١٨٢ منهجه و دراسته العلمىة:
- ١٨٢ منهجه فى أضواء البيان:
- ١٨٣ و أما المقصود بتأليف أضواء البيان فأمران:
- ١٨٣ القراءة التى اعتمدها فى بيان القرآن بالقرآن:
- ١٨٣ مسائل أخرى حواها «أضواء البيان»:
- ١٨٥ من أنواع البيان فى القرآن كما بينه صاحب أضواء البيان:
- ١٩١ أقسام البيان بالنسبة إلى المنطوق و المفهوم:
- ١٩٣ المسائل الفقهىة فى تفسير «أضواء البيان»:
- ١٩٥ مسائل تتعلق بالاضطرار إلى أكل الميتة:
- ١٩٦ هل يجب أكل الميتة و نحوها إن خاف الهلاك أو يباح من غير وجوب؟
- ١٩٧ الشنقى و طريقته بالترجىح:
- ١٩٧ أهمية الحديث النبوى فى تفسير القرآن بالقرآن:
- ١٩٨ استعانة الشنقى بأقوال المفسرىن السابقىن:
- ١٩٨ فهم الشنقى للتأويل، و علاقة ذلك بفهم آيات الصفات:
- ٢٠٠ مناقشة الشنقى لأقوال العلماء فى تفسيرهم الآية وَ الرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ ... «٥»:
- ٢٠١ الشنقى و آيات الصفات:

- ٢٠٥ خلاصة رأى الشنقيطى فى آيات الصفات:
- ٢٠٥ الشنقيطى يبرئى أبا الحسن الأشعري من التأويل:
- ٢٠٦ وجهة نظر فى آيات الصفات:
- ٢٠٧ موقف صاحب أضواء البيان من التقليد:
- ٢٠٩ الجانب اللغوى فى أضواء البيان:
- ٢١١ خاتمة:
- ٢١١ ثانيا: الدراسات القرآنية عند عبد الله سراج الدين
- ٢١١ الشيخ عبد الله سراج الدين و التفسير:
- ٢١٢ اللغة فى دراسات عبد الله سراج الدين القرآنية:
- ٢١٤ الدراسات القرآنية و الحديث الشريف عند الشيخ عبد الله سراج الدين:
- ٢١٤ خاتمة:
- ٢١٥ الفصل الرابع التفسير الأدبى الاجتماعى
- ٢١٥ اشارة
- ٢١٥ أولا: تفسير القرآن الحكيم للشيخ محمد رشيد رضا و معه تفسير الشيخ محمد عبده
- ٢١٥ مقدمة: اللون الأدبى الاجتماعى:
- ٢١٥ تفسير المنار لمؤلفيه محمد عبده و رشيد رضا
- ٢١٥ ١- الشيخ محمد عبده (١٢٦٦- ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩- ١٩٠٥ م):
- ٢١٦ ٢- محمد رشيد رضا (١٢٨٢- ١٣٥٤ / ١٨٦٥- ١٩٣٥ م):
- ٢١٧ تفسير المنار: أحد نماذج التفسير الأدبى الاجتماعى:
- ٢١٧ تمهيد:
- ٢١٧ طلب الجمعية الخيرية الإسلامية من محمد عبده أن يفسر لها جزء عم:
- ٢١٨ منهاج محمد عبده فى التفسير:
- ٢١٩ القرآن و العقيدة الإسلامية كما بينها المنار:
- ٢١٩ عدم اعتماد محمد عبده على كتاب عند ما فسر القرآن:

- ٢٢٠ محمد رشيد رضا يتحدث عن طريقه محمد عبده في التفسير:
- ٢٢٠ محمد عبده يركز على أهمية التدبر و العمل بما ورد في القرآن:
- ٢٢١ محمد عبده و الإسرائيليات:
- ٢٢٢ كيف عالج محمد عبده المسألة الاجتماعية في تفسيره؟
- ٢٢٣ محمد عبده يربط بين الفرد و المجتمع ربطا محكما:
- ٢٢٣ القرآن و العلوم الحديثة في تفسير محمد عبده:
- ٢٢٤ موقف محمد عبده من حقيقة الملائكة و إبليس:
- ٢٢٥ محمد عبده و موقفه من السحر كما ورد في المنار:
- ٢٢٥ إنكار محمد عبده لبعض الأحاديث الصحيحة:
- ٢٢٦ محمد رشيد رضا و اتصاله بمحمد عبده:
- ٢٢٦ محمد رشيد رضا و إنتاجه التفسيري:
- ٢٢٧ مصادر رشيد رضا في تفسيره:
- ٢٢٧ هدفه من التفسير:
- ٢٢٧ منهج محمد رشيد رضا في التفسير:
- ٢٢٨ آراؤه في التفسير:
- ٢٢٨ رأى رشيد رضا في من ارتكب الكبائر من الذنوب:
- ٢٢٩ آراؤه في قصة آدم:
- ٢٢٩ لجوء رشيد رضا إلى المجاز و التشبيه:
- ٢٣٠ رأيه في السحر:
- ٢٣٠ رأيه في الشياطين و سلطانهم على البشر:
- ٢٣٠ رأيه في الجن:
- ٢٣٠ رأيه في معجزات الرسول صلى الله عليه و سلم:
- ٢٣١ بعض الآراء الفقهية لرشيد رضا:
- ٢٣١ ثانيا: تفسير المراغي أحمد بن مصطفى المراغي

- ٢٣١ المراغى (،،،، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م):
- ٢٣٢ المراغى يعلل كتابته التفسير «المراغى»:
- ٢٣٣ منهج المراغى فى التفسير:
- ٢٣٣ موقفه من التفاسير السابقة:
- ٢٣٣ قصة استخلاف الإنسان و حوار الملائكة مع الله تعالى و تأثر المؤلف بمحمد عبده:
- ٢٣٥ تفسير المراغى و الوقوف عند النص القرآنى فى قصصه:
- ٢٣٦ الحديث النبوى فى تفسير المراغى، و مراعاته أسباب النزول:
- ٢٣٨ تفسير المراغى و استفادته من المعارف الحديثية:
- ٢٤٠ تفسير المراغى و الأحكام الفقهية:
- ٢٤١ حالات أجاز البعض فيها الفصل:
- ٢٤١ اللغة و الأسلوب فى تفسير المراغى:
- ٢٤٢ تفسير المراغى و علم الكلام:
- ٢٤٢ خاتمة:
- ٢٤٢ تعليق و مناقشة لآراء محمد عبده و رشيد رضا و المراغى:
- ٢٤٤ ثالثا: فى ظلال القرآن لسيد قطب:
- ٢٤٤ اشارة:
- ٢٤٥ مرحلة البدايات (المرحلة الفطرية):
- ٢٤٥ اشارة:
- ٢٤٥ ١- تصوير المعانى الذهنية:
- ٢٤٦ ٢- تصوير الحالات النفسية:
- ٢٤٧ ٣- تصوير الحالات الواقعية:
- ٢٤٨ ٤- التصوير بضرب المثل:
- ٢٤٩ مشاهد الطبيعة المصورة:
- ٢٤٩ تصوير مشاهد القيامة:

- ٢٥٠ تصوير مشاهد النعيم:
- ٢٥٠ المسائل الفقهية:
- ٢٥١ صاحب الظلال يرد على من يقول أن الترخص بالعبادات قد يؤدي إلى إهمال هذه العبادات:
- ٢٥٢ خاتمة:
- ٢٥٣ الفصل الخامس التفسير الفقهي
- ٢٥٣ اشارة
- ٢٥٣ أولا: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام لمحمد على الصابوني
- ٢٥٣ «روائع البيان، تفسير آيات الأحكام من القرآن» لمحمد على الصابوني
- ٢٥٤ الطلاق قبل المساس:
- ٢٥٤ وجوه القراءات:
- ٢٥٧ وجوه الإعراب:
- ٢٥٧ الأحكام الشرعية:
- ٢٥٧ الحكم الأول: هل يقع الطلاق قبل النكاح؟
- ٢٥٧ أدلة الشافعية و الحنابلة:
- ٢٥٨ أدلة المالكية و الحنفية:
- ٢٥٨ اشارة
- ٢٥٨ الحكم الثاني: هل الخلوة الصحيحة توجب العدة و المهر:
- ٢٥٨ الحكم الثالث: ما حكم المطلقة رجعيًا، فيما إذا طلقها زوجها بعد المراجعة قبل أن يمسه على أقوال:
- ٢٥٩ الحديث الشريف في تفسير آيات الأحكام:
- ٢٥٩ اللغة في تفسير آيات الأحكام:
- ٢٥٩ الخاتمة:
- ٢٦٠ ثانيا: تفسير آيات الأحكام للسايس و آخرون
- ٢٦٠ تفسير آيات الأحكام للسايس:
- ٢٦٠ المنهج المتبع في الكتاب:

- ٢٦١ رأى الكتاب فى الناسخ و المنسوخ:
- ٢٦٢ الموقف من إعجاز القرآن:
- ٢٦٢ الموقف من آيات الصفات فى تفسير الأحكام:
- ٢٦٣ ١- الوسطية و الاعتدال فى أمة الإسلام:
- ٢٦٥ حدّ الزنى:
- ٢٦٦ الزانية و الزانى يشمل المسلم و غيره:
- ٢٦٦ أما فى حكم التغريب بعد الجلد:
- ٢٦٦ أدلة الخوارج المنكرة للرجم:
- ٢٦٧ الردّ على أدلة الخوارج:
- ٢٦٧ الحديث فى تفسير آيات الأحكام:
- ٢٦٧ اللغة فى تفسير آيات الأحكام:
- ٢٦٧ الخاتمة:
- ٢٦٨ الفصل السادس التفسير الإشارى
- ٢٦٨ اشارة
- ٢٦٨ المنح الفاخرة فى معالم الآخرة لمحمد شاكرا الحمصى المصرى
- ٢٦٨ حياة المؤلف:
- ٢٦٨ علومه:
- ٢٦٨ شيوخه:
- ٢٦٨ طريقته الصوفية:
- ٢٦٩ المناصب التى تولاهها:
- ٢٦٩ أهم مؤلفاته «١»:
- ٢٦٩ عنوان الكتاب: المنح الفاخرة فى عوالم الآخرة:
- ٢٦٩ سبب تأليف الكتاب:
- ٢٧٠ لمنح الفاخرة فى أحوال الآخرة، لما ذا؟

- ٢٧٠ مصادر المؤلف فى كتابه المنح الفاخرة فى عوالم الآخرة:
- ٢٧٠ مصادره:
- ٢٧١ ميزات كتاب المنح الفاخرة فى معالم الآخرة:
- ٢٧٢ من مزايا هذا التفسير:
- ٢٧٣ المعاصرة فى تفسير المنح الفاخرة فى معالم الآخرة:
- ٢٧٣ الحروف المقطعة فى المنح الفاخرة فى عوالم الآخرة:
- ٢٧٤ تحليل تمثيل الحق بما ينفع و تمثيل الباطل بزبد يدفع:
- ٢٧٥ الجانب الصوفى فى المنح الفاخرة فى معالم الآخرة:
- ٢٧٥ وجوه الشبه:
- ٢٧٦ بين يدى الساعة:
- ٢٧٧ خاتمة:
- ٢٧٨ الفصل السابع التفسير البلاغى
- ٢٧٨ اشارة
- ٢٧٨ أولا: الإعجاز البيانى فى القرآن لعائشة عبد الرحمن
- ٢٧٨ مقدمة فى تاريخ التأليف فى الإعجاز البيانى:
- ٢٨١ هدف تأليف كتاب الإعجاز البيانى لعائشة عبد الرحمن:
- ٢٨١ مفهوم الإعجاز:
- ٢٨٢ فواتح السور و سرّ الحرف:
- ٢٨٢ أول ما لفت الباحثة إلى سر الحرف و الكلمة القرآنية:
- ٢٨٣ دلالات الألفاظ و سر الكلمة فى القرآن:
- ٢٨٤ أمثلة تطبيقية على دلالة الألفاظ و سر الكلمة:
- ٢٨٤ ١- الرؤيا و الحلم:
- ٢٨٦ ٢- التأى و البعد:
- ٢٨٧ ٣- النعمة و النعيم:

- ٢٨٩ الأساليب و سرّ التعبير:
- ٢٨٩ الاستغناء عن الفاعل:
- ٢٩١ من مسائل نافع (أبو راشد الذهلي رأس الأزارقة (٦٥ هـ) و ما كان من حرصه على طلب العلم و تحريره عن الحق قبل الابتلاء بالفتنة):
- ٢٩١ اشارة
- ٢٩٢ ١- شرعة و منهاجا:
- ٢٩٢ ٢- ريشا:
- ٢٩٣ ٣- يياس:
- ٢٩٤ ٤- يحور:
- ٢٩٥ ٥- أدنى أآ تعولوا:
- ٢٩٥ خاتمة:
- ٢٩٦ ثانيا: إعراب القرآن و بيانه محيي الدين درويش
- ٢٩٦ محيي الدين درويش و كتابه (إعراب القرآن و بيانه):
- ٢٩٧ الإعراب:
- ٢٩٧ البلاغة:
- ٢٩٨ مثال آخر:
- ٢٩٩ الإعراب
- ٢٩٩ البلاغة:
- ٣٠١ أهم الجوانب البلاغية في الآيات الكريمة:
- ٣٠١ ١- التعليل:
- ٣٠١ ٢- الاحتراس:
- ٣٠٢ المسائل العقيدية في إعراب القرآن و بيانه:
- ٣٠٢ رأى القرطبي:
- ٣٠٤ الحكمة من المتشابه كما في إعراب القرآن و بيانه:
- ٣٠٥ خاتمة:

- ٣٠٥ ثالثا: تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه لمحمد على طه الدرّة
- ٣٠٥ اشارة
- ٣٠٥ منهج المؤلف فى تفسير القرآن الكريم و إعرابه:
- ٣٠٦ السنة النبوية فى تفسير القرآن الكريم و إعرابه:
- ٣٠٨ الأسماء و الصفات فى تفسير القرآن و إعرابه و بيانه:
- ٣٠٩ تفسير القرآن و إعرابه و بيانه و الناسخ و المنسوخ:
- ٣٠٩ الظاهرة النحوية و الصرفية فى تفسير القرآن و إعرابه و بيانه:
- ٣١٠ خاتمة:
- ٣١١ الفصل الثامن التفسير الحدائى
- ٣١١ اشارة
- ٣١١ الكتاب و القرآن: قراءة معاصرة محمد شحور
- ٣١١ محمد شحور و مؤلفه: الكتاب و القرآن - قراءة معاصرة:
- ٣١٢ المسائل اللغوية فى كتاب محمد شحور:
- ٣١٢ مصطلحات المصحف عند محمد شحور:
- ٣١٢ - الكتاب و القرآن:
- ٣١٦ لا وجود للأشياء إلا فى عالم الكتب:
- ٣١٧ آيات من الكتاب الكريم أساء المؤلف فهمها:
- ٣١٩ القرآن غير الفرقان فى القراءة المعاصرة:
- ٣٢١ القراءة المعاصرة:
- ٣٢١ التعليق:
- ٣٢١ القراءة المعاصرة و المرأة:
- ٣٢٣ مسألة فى دراسة فهمه «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ» «١»:
- ٣٢٥ وقفه عند الجيب و الجيوب:
- ٣٢٦ «كلمات الله» فى القراءة المعاصرة:

٣٢٨ القدر و القضاء فى القراءة المعاصرة:

٣٢٨ خاتمة:

٣٢٩ الفهرس

٣٣٣ تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث

إشارة

نام كتاب: التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)

نويسنده: عبد القادر محمد صالح

موضوع: روشها و گرايشهاى تفسيرى

تاريخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربى

تعداد جلد: ١

ناشر: دار المعرفة

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ١٤٢٤ / ٢٠٠٣

نوبت چاپ: اول

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم شكنا بعض الناس فى أعقاب معارض الكتب، من كثرة الإقبال على الكتب الدينية و التراثية، تأليفا و قراءة. و قد يكون الإقبال على هذا الصنف من الكتب سابقا لغيره من الأصناف، لكنه ليس مسرفا كما تذهب الشكوى، فحجم التأليف و النشر فى مجال الدرس القرآنى ما يزال قليلا جدا قياسا إلى أمة كبيرة فى أعدادها و طاقاتها، و قليلا قياسا إلى «الكتاب المقدس»، الكتاب الأكثر نشرا و درسا فى العالم. و مع إقرارنا بالقلّة النسبية للدرس القرآنى، لا نستطيع إلا أن نسلم بأن هذا الدرس أصبح حركة فى العصر الحديث، و لا سيما فى القرن العشرين الميلادى.

و قد جهد المؤلف فى استقصاء كتب التفسير فى القرن الماضى، فدرس تفاسير كثيرة تتعدّد فى توجهاتها، كما تتعدّد فى أمصار أصحابها، فكان منها الذائع المشهور، و منها الخافت المغمور، و منها بالطبع ما هو ذائع هنا و خافت هناك، فكان تتبع تلك التفاسير على تعددها عملا مجهدا يحمده المؤلف عليه. و مع توخى الاستقصاء غاب عن الكتاب مجموعة من التفاسير الحديثة، بعضها لم يقع عليه المؤلف، و ضاقت الطبعة الحاضرة عن بعض آخر، فكل ذلك قابل للاستدراك فى جزء ثان أو طبعة لاحقة.

و غاب عن الكتاب أيضا مجموعة أخرى من التفاسير كانت جديرة بالعرض و الدرس، و يبدو أن المؤلف آثر تجنبها خشية الخوض فى جدال مذهبي قد ينجم عنه ضرر على وحدة الأمة.

و قد عنى المؤلف بترجمات المفسرين، و تبيان مناهجهم و توجهاتهم، و لم يقتصر عمله على العرض و الوصف، و هذا مهم على كل حال، و إنما جنح إلى التحليل و المناقشة و النقد و التقييم. و لعله يقدم لنا، فى مقبل الأيام، نظرا شموليا إلى التفاسير بوصفها حركة تأليف، فيبين لنا، بعد أن عرفنا خصائص كل تفسير، خصائص الحركة فى عمومها، و ما ذا يميزها عن حركة التفسير فى العصور الخاليات، و مدى تأثير التحديات المستجدة فى طبع التفاسير الحديثة بطواع عامة لم تكن لتظهر من قبل.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦

هذا عن الكتاب الذى يقدمه عنوانه الصريح، خلافا لكتب كثيرة أضحى النسب بينها و بين عنواناتها واهيا أو معدوما. أما مؤلفه الذى اكتهل، فقد عرفته فى أواخر السبعينات من القرن الخالى زميلا على مقاعد الدرس فى الجامعة، فانعقدت بينى و بينه صداقة لا تبلى.

كان الأستاذ عبد القادر محمد صالح شعله من النشاط، كلما لقيته اطلعت على كتب جديدة يتأبطها، و كلما دخلت معه فى حوار خرجت بشذرات لم تكن عندك من قبل.

كان بيننا جوامع كثيرة، لكن لم يكن بيننا تطابق فى الآراء، و لا تماثل فى التوجهات، فما كان التباين ليحدث بيننا جفوة أو فتورا، بل على العكس، كان من شأن ذلك أن يديم الحوار بيننا، بغرض التفكير و التمحيص.

كانت نظرتة بعيدة دوما، تتجاوز العرض إلى الجوهر و كان منفتحا إلى أبعد الحدود، متقبلا للآخر و إن وقف على الطرف النقيض، ليس بسبب تردد فى داخله أو تخلخل فى بنيته الفكرية، و لكن لإدراكه العميق بأن أحدا، أى أحد، ليس بوسعه ادعاء امتلاك الحقيقة بعد اختتام الوحي، و أن الحوار البناء هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة.

كانت عندنا طموحات علمية كثيرة، فى التأليف و التحقيق المشترك، و مرت السنون، و لم نفرغ لإنجاز شىء منها، فأراد- و قد انتهى من تأليف هذا الكتاب- أن يحمل اسمى مع اسمه، و لو على سبيل التقديم، على أمل أن نرفد المكتبة العربية بكتاب مشترك فى مقبل الأيام. و إنى إذ أفخر بأن أقدم للمكتبة العربية هذا الكتاب المهم، أفخر أكثر بأن أقدم المؤلف زميلا و صديقا و أخا، و إنسانا.

د. محمد صالح آلوسى كلية الآداب- حلب

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٧

المقدمة

إشارة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب، و لم يجعل له عوجا، و الصلاة و السلام على محمد العبد الرسول المبعوث هدى و رحمة للعالمين، فكان نعم المبلغ للرسالة، و نعم المؤدى للأمانة، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ... و بعد، برهان محمد صلى الله عليه و سلم القرآن، و برهان الأنبياء المرسلين قبله العصا التى تشق البحر، أو إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص.

إننا لو أردنا أن نشهد الآن معجزتى موسى و عيسى عليهم السلام بأمر العين لما استطعنا لأنهما رسولان أرسلنا إلى قومهما فقط ..

و هنا يجب الملاحظة: أن معجزة موسى عليه السلام العصا، و منهجه التوراة، و أن معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص، و منهجه الإنجيل ... و السر فى ذلك أن معجزة الرسول و برهانه الدماغ يكونا مناسبين للبيئة الاجتماعية المرسل إليها ... ففى عهدى موسى و عيسى عليهم السلام ازدهر علم السحر، و ازدهر علم الطب، فجاءت عصا موسى لتلتهم ما كاد السحرة، و جاءت معجزة عيسى لتخرس دعواهم التقدم فى علم الطب.

و لكن كانت معجزة محمد صلى الله عليه و سلم القرآن و منهجه القرآن أيضا.

المعجزة و المنهج: الكتاب «القرآن»:

الكتاب «القرآن» كان الحجج العقلية، و البرهان الأساس الذى قدّمه محمد صلى الله عليه و سلم و وثيقه بيان للبشرية- للعرب فى جزيرتهم- و للعالمين من بعدهم.

تحدى القرآن العرب أن يأتوا بمثله فسقطوا فى التحدى، و تحداهم بعشر سور من مثله فعجزوا، و تحداهم بالسورة الواحدة الوحيدة من مثله فعجزوا أيضا ... و هذا لعمر الحق ذروة التحدى لا سيما إذا كان موجهها لأساطين شعراء العرب و العربية، و لأرباب الكلمة و

البلاغة ساعتئذ ... و ما زال التحدى مستمرا حتى يرث الله الأرض و من عليها.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٨

و قد يسأل سائل: ما السر فى كون الكتاب «القرآن» معجزة لمحمد رسول الله صلى الله عليه و سلم؟

الحق: أن المعجزة العقلية ثابتة خالدة، فى حين أن المعجزة الكونية فقط - كأن ينشق البحر، أو ينفلق القمر، أو يحيى الموتى - مؤقتة، فهى حجة على من شاهدها أو نقلت له نقلا متواترا أفاد اليقين.

لذا كان القرآن المعجزة دليلا عقليا على صحة دعوى محمد صلى الله عليه و سلم بالنبوة و الرسالة، بل كان القرآن الناقل بالتواتر معجزتى موسى و عيسى و معجزات الرسل الآخرين، فتوجب على من آمن برسالة محمد و صدق بكتابه المعجز الإيمان بمعجزات الرسل السابقين التى حفظها لنا القرآن.

و لم يكن القرآن حافظا لأخبار الآخرين من الأقسام، و لا حافظا لمعجزات المرسلين السابقين، إنما كان كتاب هداية و رحمة للعالمين و فيه خير العباد، و نظم حياتهم فى الأولى و الآخرة.

لهذا و لغيره كان القرآن محل اهتمام عظيم من المسلمين فى صدر الدعوة الإسلامية، و ازداد الاهتمام فيما بعد، و كتبت المؤلفات و الدراسات حوله، فمن هذه الدراسات:

اللغوية بأنواعها البلاغية و الصرفية و النحوية ..

ثم كان علم القراءات المترافق مع علوم التفسير ... بل لا أظن نفسى مجانيا الحقيقة، و لا مبتعدا عن جادة الصواب إذا قلت: إن كل علوم القرآن نشأت بفترة واحدة يتقدم هذا العلم على غيره خطوة أو أكثر، إلا أن البحث فى علومه و أسرارها كانت محل جهد عظيم، و نظر مستمر من قبل العلماء الذين بذلوا ما بذلوا من جهود قل نظيرها ...

و لم تمض فترة غير طويلة حتى وجد المسلمون أنفسهم يمتلكون زادا معرفيا ثقافيا و مرجعية شاملة مؤسسه على الدرس و التمحيص لا على الهوى و الانفعال ... كل ذلك كان الفضل فيه للقرآن الذى أثر فى النفوس و العقول: هذب الأولى و ربأها فإذا بالعقل ينطلق قويا متحركا مبدعا ليضخ فى المكتبة الوليدة ثراء علميا لا مثيل له، فإذا بهذه المكتبة تصبح الرائدة فى العالم فى فترة قصيرة جدا. فكانت التفاسير القرآنية أحد أعمدة هذه المكتبة.

و قد تطوّر التفسير الذى ظهرت بواكيره منذ صدر الإسلام الأول حتى ظهرت دراسات فذة، و أعمال ناضجة على يد المفسر القيروانى فى إفريقيا، و على يد ابن جرير الطبرى ثم ما تلاهما من دراسات الزركشى فى «برهانه» و السيوطى فى «إتقانه» و ما بينهما ظهرت كتب و تفاسير عدة أسهمت قديما، و ما زالت تسهم حديثا فى تجلية الفهم، و إيضاح ما يحتاج إلى توضيح من الكتاب الكريم.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٩

و وفق سنن الله فى الحياة، و ما اقتضته من تطورات ثقافية و اجتماعية و من صعديات، و هبطات، و ارتفاعات و وهادات، فتجمد البحث اللغوى، و تقيدت اللغة فى فترة من الفترات بأسر القوالب الجامدة. و بحكم عظمة هذه اللغة الشريفة فإنها سرعان ما نفصت عنها الغبار، فانطلقت حيوية قوية فى حياتنا المعاصرة. فظهرت دراسات و تفاسير قرآنية ذات اتجاهات مختلفة لاختلاف الينابيع التى يستقى منها أصحابها. فانبرى بعض العلماء المخلصين دارسين للتفاسير السابقة و اللاحقة، منقبين، و محصين، و مصنفين لاتجاهات هذه الأعمال العلمية التفسيرية، و قدموا بذلك الفائدة الكبرى، و النفع الجرم، فجزاهم الله خيرا عنا و عن الكتاب الكريم «القرآن العظيم». أخص من هؤلاء بالذكر «الدكتور محمد حسين الذهبى» صاحب «التفسير و المفسرون». هذا الكتاب كان بحثا تفصيليا فى نشأة التفسير و مذاهبه و تطوراتها. و فيه درس التفاسير القديمة و الحديثة التى كان آخرها حسب كتابه «تفسير المراغى» المتوفى عام ١٩٤٥ م.

و قد أردنا من بحثنا هذا أن يسهم إسهاما متواضعا فى خدمة الكتاب الكريم، و اللغة العربية الشريفة، إذ درسنا التفاسير الحديثة بأشهرها، و لا ندعى الإحاطة بها ... فتناولنا عددا كبيرا مهما من التفاسير التى لم تكن قد وردت فى دراسة العلامة الذهبى رحمه الله،

إذ أن كتابه قدّم لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ فى علوم القرآن سنة (١٩٤٦) «١». وهذا لا يعنى أن عملنا لم يذكر بعض التفاسير التى وردت فى «التفسير و المفسرون» للشيخ الذهبى ... لا بل تطرقنا إلى بعض التفاسير الحديثة، وهذا ليس من باب الاستدراك على المؤلف، إنما أردنا أن نسلط الضوء على بعض التفاسير الحديثة لأن بعضها كان يؤثر فى الآخر ... ثم إننا أكثرنا بعض الشىء من الاقتباسات من هذه التفاسير كى تزداد صورتها إشراقا فى ذهن الباحث القارئ. ثم إن عملنا اقتصر فى دراسته على الدراسات القرآنية و التفاسير الحديثة ..

غير أننا قدمنا لهذه الدراسات بفصول عن تاريخ القرآن و علومه، لتشتمل على العلاقة بين القرآن و لغة العرب و الأحرف السبعة، و كيفية نزول القرآن، و أسباب نزول القرآن منجما، و الدواعى الباعثة لمعرفة أسباب النزول، ثم تناولنا ظاهرة الوحي بالدراسة منوهين إلى أنواعه، و كيفية نزوله و مناقشة الشبه التى ساقها بعض المستشرقين فى هذه المسألة.

ثم تم تناول نشأة علوم القرآن و الدراسات القرآنية التى وضّحت الفرق بين مكّيّة و مدنيّة ... و بعدئذ فرقنا بين مفهومي التفسير و التأويل، ثم سرنا ملاحظين مراحل تطور علم (١) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون، (١/ ٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٠

التفسير فى عهود الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة و التابعين و العلماء من بعدهم، ثم قادنا البحث إلى أنواع التفاسير الحديثة المنتمة إلى اتجاهات و مدارس عامة اجتماعية، و أدبية، و نحوية و بلاغية و صرفية، و حدائيه، و صوفية و علمية، أو تلك التى فسرت القرآن بالقرآن، أو التى اختصت بالأحكام الفقهية كتفسير أحكام القرآن للسايس و الصابونى.

لقد بذلنا جهدا فى بحث هذا الموضوع الذى تناول هذه التفاسير، محاولين قدر الإمكان دراستها وفق قواعد و عناصر محددة، كنا نخرج عليها أحيانا لاختلاف هذه التفاسير عن بعضها و إن كان أكثرها خضع لهذه العناصر، فلو أردنا أن نمثل بتفسير ابن عاشور: حياة المؤلف و ثقافته و دراساته العلمية، تفسيره و المسألة الفقهية، تفسير ابن عاشور و مسائل العقيدة و علم الكلام، تفسير ابن عاشور و الحديث الشريف، موقفه من المفسرين السابقين، اللغة فى تفسير ابن عاشور، مواقفه من الناسخ و المنسوخ ... و غير ذلك.

و أثبتنا بالأمثلة و الشواهد من التفسير موضوع الدراسة. و إذا رأينا الحاجة إلى مناقشة بعض الآراء ناقشناها حسب المستطاع، و أترك للقارئ الحكم على بعض المعالجات المتضمنة فى هذه الدراسة و خاصة مناقشة الدراسات الحديثة الواردة فى هذا المجال.

و استفدنا كثيرا من بعض المقدمات النافعة التى وضعها أصحاب التفاسير لتفاسيرهم، و أخص بالذكر منهم محمد الأمين الشنقيطى فى «الإيضاح بتفسير القرآن بالقرآن»، و مقدمات ابن عاشور فى تفسيره، و مقدمات القاسمى فى تفسيره و غيرهم.

و حاولت تخريج الأحاديث و ذكر أرقامها ما استطعت إلى ذلك سبيلا. و حاولت عزو بعض نقول المفسرين إلى مصادرهم التى أخذوا عنها بذكر رقم الصفحة من الكتاب الذى أخذوا عنه، و ذلك توثيقا و دفعا للناشطين من الباحثين و القراء للعودة إلى هذه المظان و المراجع إن أرادوا فعلهم يجدون جديدا.

و ختاماً:

لا أدعى أن البحث أتمم بالكمال و الخلو من النقص و العيوب.

إنما أقرّ بالنقص سلفا فهذا من طبع البشر أولا-... و ثانيا لم أستطع قراءة هذه التفاسير قراءة شاملة كى يكون البحث على نحو من الشمولية و الدقة. و لم تتوفر لدى المراجع الوفيرة السهلة التناول، عدا عن ضيق الوقت و الانشغال فى مناح أخرى من مناح الحياة. فمن وجد عيبا أو نقصا، أو شرودا علميا عن الحقيقة و الصواب فليراسل الدار الناشرة مشكورا مأجورا إن شاء الله.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١

و لا بد لي فى هذه الخاتمة أن أسجل خالص شكرى لمن أسهم و ساعد فى إصدار هذه الدراسة بالتوجيه بالرأى الشفهى أو المكتوب

أو تزويدنا ببعض من مراجعه المتوفرة بمكتبته الخاصة و العامة. أو ساعدنى بمراجعة البحث و تدقيقه، و أخصّ منهم الأخ عبد المجيد طعمة الحلبي الذى أسهم إسهاما هاما فى إعداد مخطط البحث، و جعله مستقرًا على هذه الحال، عدا عن إسهامه فى تقديمه المراجع و المصادر التى لو لا هذه و تلك لكان البحث واجه صعوبات أكثر مما واجهه.

و إنى لأرجو الله أن يحشرنى فى زمرة خدم القرآن الكريم يوم لا- ينفع فيه مال و لا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم. و ختاماً اللهم اغفر لى و لوالدى و ارحمهما كما ربيانى صغيراً، و أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ و أن أعمل صالحاً ترضاه، و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

و كتبه: عبد القادر محمد صالح

الباب الأول القرآن الكريم لمحة عامة عن معنى الأحرف السبعة، و ظاهرة الوحي، و علوم القرآن و نشأتها، و التفسير و تطوره.

الفصل الأول القرآن

إشارة

- لفظ القرآن و معناه.
 - القرآن و لغة العرب.
 - دليل نزول القرآن الكريم على الأحرف السبعة.
 - أقوال العلماء فى المقصود بالأحرف السبعة.
 - ما كل كلمة فى القرآن تقرأ على سبع لغات.
 - ابن حجر يجمع بين القولين.
 - رأى ابن قتيبة بالأحرف السبعة.
 - رأى أبى الفضل الرازى فى الأحرف السبعة.
 - كيفية إنزال القرآن الكريم.
 - الحكمة من نزول القرآن منجماً.
 - معرفة أسباب النزول.
 - ليس كل الآيات لها سبب نزول.
 - السبيل إلى معرفة سبب النزول.
- التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧
- القرآن

لفظ القرآن و معناه:

القرآن فى اللغة مصدر مرادف للقراءة، ثم نقل من معناه اللغوى إلى معناه الاصطلاحى الدال على الكلام المعجز المنزل على النبى صلى الله عليه و سلم، قال تعالى: **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) «١»**. و قال آخرون: القرآن اسم غير مشتق من شىء و هو اسم خاص بكلام الله مثل التوراة و الإنجيل، و هو اسم غير مهموز، و لم يؤخذ من قرأت، و لو أخذ من قرأت لكان كل ما أخذ قرآناً، و روى هذا الرأى عن الشافعى، و قال البيهقى: «كان الشافعى يهزم «قرأت»، و

لا- يهزم القرآن. و يقول: «هو اسم لكتاب الله غير مهموز، قال الواحدى: قول الشافعى يعنى أنه اسم لكتاب الله، يعنى أنه اسم غير مشتق» (٢).

و قال آخرون: «أنه مشتق من قرنت الشىء بالشىء إذا ضمته إليه فسمى بذلك القرآن السور والآيات و الحروف فيه، و منه قيل للجمع بين الحج و العمرة قران، قال: و إلى هذا المعنى ذهب الأشعرى» (٣).

و قال القرطبى: «القرآن بغير همز مأخوذ من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا و يشابه بعضها بعضا، فهى حينئذ قرائن» (٤).
(١) سورة القيامة، الآيتان: (١٧، ١٨).

(٢) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، (١/ ٢٧٨)، ط، دار الجيل (١٩٨٨) ت محمد أبو الفضل إبراهيم.
(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٨

قال الزجاج: و هذا القول سهو، و الصحيح: أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف و نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها؛ و هذا ما أشار إليه الفارسى «١» فى الحلبيات.

و توسع علماء التفسير فى توضيح الأسماء التى سُمى بها القرآن الكريم. قال الفارسى فى معنى قوله تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ» (١٧) «٢»: أى جمعه فى قلبك حفظا، و على لسانك تلاوة، و فى سمعك فهما و علما «٣».

و أما الكلام فمشتق من التأثير، يقال: كلمه إذا أثر فيه بالجرح، فسمى الكلام كلاما، لأنه يؤثر فى ذهن السامع فائدة لم تكن عنده «٤». و للقرآن أسماء كثيرة سُمى بها و هذه المسميات تكشف عن الوظائف و الآثار الحسنه لهذا الكتاب الكريم.

أما «النور» فلأنه يدرك به غوامض الحلال و الحرام ... و أما تسميته «هدى» فلأن فيه دلالة بينة إلى الحق، و تفريقا بينه و بين الباطل، و أما تسميته «ذكرا» فلما فيه من المواعظ و التحذير و أخبار الأمم الماضيه، و هو مصدر ذكرت ذكرا ...

و أما تسميته «تبياناً»: فلأنه بين فيه أنواع الحق، و كشف أدلته. و أما تسميته «إبلاغاً» فلأنه لم يصل إليهم حال أخبار النبى صلى الله عليه و سلم و إبلاغه إليهم إلا به. و أما تسميته «مبيناً» فلأنه أبان و فرق بين الحق و الباطل، و أما تسميته «بشيراً و نذيراً» فلأنه بشر بالجنة و أندر من النار.

و أما تسميته «عزيزاً» أى يعجز و يعز على من يروم أن يأتى بمثله، فيتعدّر ذلك عليه، لقوله تعالى: قُلْ لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً «٥». و القديم لا يكون له مثل، إنما المراد أن يأتوا بمثل هذا الإبلاغ و الإخبار و القراءة بالوضع البديع، و قيل المراد بالعزير نفى المهانة عن قارئه إذا عمل به «٦».

و أما تسميته «فرقاناً» فلأنه فرق بين الحق و الباطل، و المسلم و الكافر، و المؤمن (١) الفارسى: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، توفى سنة (٣٧٧ هـ) ببغداد، و الحلبيات أحد كتبه التى أسماها الحلبيات، إنباء الرواة: (١/ ٢٧٣).

(٢) سورة القيامة، الآية: (١٧).

(٣) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، (١/ ٢٧٨).

(٤) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، (١/ ٢٧٩).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (٨٨).

(٦) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، (١/ ٢٧٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٩

و المنافق، و به سُمى عمر بن الخطاب الفاروق.

و أما تسميته «مثنى» فلأن فيه بيان قصص الكتب الماضية، فيكون البيان ثانيا للأول الذى تقدمه فيبين الأول للثانى، وقيل: سمي «مثنى» لتكرار الحكم و القصص و المواعظ ... و أما تسميته «وحيا» و معناه تعريف الشىء خفية، سواء كان بالكلام كالأنبياء و الملائكة، أو بإلهام كالحل، أو إشارة كالنمل؛ فهو مشتق من الوحي و العجلة، لأن فيه إلهاما بسرعة و خفية، و أما تسميته «حكيمًا» فلأن آياته أحكمت بذكر الحلال و الحرام، فأحكمت عن الإتيان بمثلها، و من حكمته أن علامته من علمه و عمل به ارتدع عن الفواحش «١» ... و قد ورد قوله تعالى: الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) «٢». أى: «نظمت نظما رصيفا محكما لا يقع فيه نقص و لا خلل، كالبناء المحكم المرصف» «٣».

«و ألفاظ هذا الكتاب بلغت فى الفصاحة و الجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة و هذا أيضا مشعر بالقوة و الإحكام» «٤».

و أما تسمية القرآن «مصدقا» فإنه صدق الأنبياء الماضين أو كتبهم قبل أن تغير أو تبدل، و أما تسميته «مهيمنًا» فلأنه الشاهد للكتب المتقدمة بأنها من عند الله «٥».

و أما تسميته «بلاغًا» فلأنه كان فى الإعلام و الإبلاغ و أداء الرسالة، و أما تسميته «شفاء» فلأنه من آمن به كان له شفاء من سقم الكفر، و من علمه و عمل به كان له شفاء من سقم الجهل «٦».

و أما تسميته «رحمة» فإن من فهمه و عقله كان رحمة له «٧».

و أما تسميته «قصصًا» فلأن فيه قصص الأمم الماضين و أخبارهم. و أما تسميته «مجيدًا» و المجيد الشريف، فمن شرفه أنه حفظ عن التغير و التبديل و الزيادة و النقصان، و جعله الله معجزا فى نفسه عن أن يؤتى بمثله.

و أما تسميته «تنزيلا» فلأنه مصدر نزلته؛ لأنه منزل من عند الله على لسان جبريل، (١) الزركشى، البرهان، (١/ ٢٨٠).

(٢) سورة هود، الآية: (١).

(٣) الفخر الرازى، التفسير الكبير، بيروت، دار إحياء التراث العربى، ط (٢)، (١٩٩٧)، (٦/ ٣١٢).

(٤) الرازى، التفسير الكبير، (٦/ ٣١٣).

(٥) الزركشى، البرهان، (١/ ٢٨٠).

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٠

لأن الله تعالى أسمع جبريل كلامه و فهمه إياه كما شاء من غير وصف و لا كيفية نزل به على نبيه فأداه هو كما فهمه و علمه «١».

و أما تسميته «بصائر» فلأنه مشتق من البصر و البصيرة، ... و أما تسميته «ذكرى» فلأنه ذكر المؤمنين ما فطهم الله عليه من التوحيد «٢».

و الحق: أن ما نقلناه عن الزركشى يؤكد أن هذه صفات للكتاب الكريم و ليست أسماء له، و هذه الصفات تؤكد وظيفة القرآن فى الحياة الدنيا فهو هاد و هو مذكر، و هو مبين، و هو محكم ... الخ.

و بعض العلماء أوصل تسميات القرآن الكريم «إلى نيف و تسعين اسما، و يبدو أنهم لم يفرقوا بين الأسماء و الصفات، و اعتبروا كل لفظه وردت فى إطار الدلالة على القرآن من أسماء القرآن، و هذا أمر مبالغ فيه، و لو اقتصرنا على الأسماء التى استعملها القرآن و أراد بها تسمية القرآن لكان أولى» «٣».

القرآن و لغة العرب:

قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا «٤». و قال تعالى: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) «٥».

قال الشاطبى: «إن هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن العجمية ...

و إن القرآن ليس فيه كلمة أعجمية عند جماعة من الأصوليين، أو فيه ألفاظ أعجمية تكلمت بها العرب و جاء القرآن وفق ذلك فوقع فيه المعرب الذى ليس من أصل كلامها» (٦).

و الملخص النافع فى ذلك: «أن القرآن الكريم نزل بلسان عربى على الجملة فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة» (٧).
و قال تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا (٨). «مما (١) الزركشى، البرهان، (١/ ٢٨١).
(٢) المصدر نفسه.

(٣) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية. ط (١٩٩٥)، عن وزارة الأوقاف المغربية، ص (٢٥).

(٤) سورة يوسف، الآية: (٢).

(٥) سورة الشعراء، الآية: (١٩٥).

(٦) الشاطبى، الموافقات، (٢/ ٦٤) دار المعرفة، بيروت، ت د. عبد الله دراز.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) سورة فصلت، الآية: (٤٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١

يدل على أنه عربى و بلسان العرب، لا أنه أعجمى، و لا بلسان العجم، فمن جهة لسان العرب يفهم، و لا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة» (١).

و يوضح الشاطبى مسألة ورود بعض ألفاظ العجم فى القرآن أو عدم ورود مثل هذه الألفاظ، فيقول: «إذا كانت العرب قد تكلمت به، و جرى فى خطابها، و فهمت معناه، فإن العرب إذا تكلمت به صار من كلامها» (٢).

و نقل عبد الله دراز عن الآمدى: «اختلفوا فى اشتمال القرآن على كلمة غير عربية فأثبتته ابن عباس و عكرمة، و نفاه آخرون، و محلله أسماء الأجناس لا الأعلام» (٣).

و هذا الخلاف حول وجود بعض الألفاظ العجمية فى القرآن الكريم «لا ينبغى عليه حكم شرعى، و لا يستفاد منه مسألة فقهية، و إنما يمكن أن توضع فيها مسألة كلامية يبنى عليها اعتقاد.

و قد كفى الله مثونة البحث فيها بما استقر عليه كلام أهل العربية فى الأسماء الأعجمية» (٤).

و لعل فى كلام القاسم بن سلام أبى عبيد: الذى صدق القولين - أى القائلين بوجود بعض الألفاظ الأعجمية، و الآخر الذى قال بعدم وجود ألفاظ أعجمية-: «و الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعا، و ذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، إلما أنها سقطت إلى العرب فعربتها بألسنتها، و حوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن، و قد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق و من قال أعجمية فصادق» (٥).

و هناك من يقول: إن القرآن نزل بلغة قريش و هذا يجب توضيحه: أى أن قريش كانت تصطفى من كلام العرب أو ضحه و أفصحه: «و حكى عن أبى الأسود الدؤلى أنه نزل بلسان الكعبيين: كعب بن لؤى جد قريش و كعب بن عمرو جد خزاعة.

و قال أبو عبيد فى كتابه: «فضائل القرآن» عن ابن عباس رضى الله عنه: نزل بلغة الكعبيين:

كعب قريش و كعب خزاعة. قيل: و كيف ذاك؟ قال: لأن الدار واحدة.

و فضل «الفراء» لغة قريش على سائر لغات العرب، لأنهم كانوا يسمعون كلام العرب فيختارون من كل لغة أحسنها فصفا كلامهم» (٦).

(١) الشاطبى، الموافقات، (٢/ ٦٤).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، و الاقتباس من كلام عبد الله دراز محقق الكتاب.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) عن محمد فاروق النبهان فى المقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٢٦).

(٦) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢

دليل نزول القرآن الكريم على الأحرف السبعة:

أدلة نزول القرآن على حروف سبعة:

عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «أقرأنى جبريل على حرف فلم أزل أستريده حتى انتهى إلى سبعة أحرف» (١).

و أخرج البخارى بإسناده: أن المسور بن مخرمة و عبد الرحمن بن عبد القارىّ حدّثاه:

أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله صلى الله عليه و سلم فكادت أساوره فى الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلبتته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقلت: كذبت، فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئها، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أرسله، اقرأ يا هشام».

فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر»، فقرأت القراءة التى أقرأنى، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقراءوا ما تيسر منه» (٢).

و ساق ابن حجر فى الفتح حديثاً رواه الطبرى من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه عن جده قال: «قرأ رجل فغير عليه عمر، فاخصما عند النبى صلى الله عليه و سلم فقال الرجل: أ لم تقرئنى يا رسول الله؟ قال: «بلى»، قال: فوقع فى صدر عمر شيء عرفه النبى صلى الله عليه و سلم فى وجهه، قال: فضرب عمر فى صدره، و قال: «أبعد شيطاناً»، قالها ثلاثاً. ثم قال: «يا عمر، القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة» (٣).

أقوال العلماء فى المقصود بالأحرف السبعة:

تكاثرت الآراء فى «المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة بلغها أبو حاتم بن حبان إلى خمسة و ثلاثين قولاً، و قال المنذرى: أكثرها غير مختار» (٤).

١- قال ابن حجر فى شرحه لقوله صلى الله عليه و سلم: «فاقراءوا ما تيسر منه» أى: من المنزل (٥). (١) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٣٢١٩).

(٢) أخرجه البخارى، فى (الحديث: ٤٩٩٢).

(٣) ابن حجر، الفتح، ط دار السلام، الرياض، (١٩٩٧)، (٣٤/٩).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣

و قال ابن حجر: «و فيه إشارة إلى الحكمة فى التعدد المذكور، و أنه لتيسر على القارى، و هذا يقوى قول من قال: المراد بالأحرف

تأدية المعنى باللفظ المرادف و لو كان من لغة واحدة، لأن لغة هشام بلسان قريش و كذلك عمر، و مع ذلك فقد اختلفت قراءتهما. تبه على ذلك ابن عبد البر، و نقل عن أكثر أهل العلم أن هذا هو المراد بالأحرف السبعة (١).
 ٢- و ذهب آخرون- منهم أبو عبيد- إلى أن المراد بالأحرف السبعة اختلاف اللغات، و هو اختيار ابن عطية، و تعقب بأن لغات العرب أكثر من سبعة، و أوجب أن المراد أفصحها، فجاء عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «نزل القرآن على سبع لغات: منها خمس بلغة العجز من هوازن، قال: و العجز: سعد بن بكر و جشم بن بكر، و نصر بن معاوية و ثقيف و هؤلاء كلهم من هوازن، و يقال لهم عليا هوازن، و لهذا قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن، و سفلى تميم، يعنى بنى دارم (٢).
 «و هناك رواية أخرى عن ابن عباس تقول: نزل القرآن بلغة الكعبيين: كعب قريش و كعب خزاعة، و قيل: و كيف ذاك؟ قال: لأن الدار واحدة. يعنى أن خزاعة كانوا جيران قريش فسهلت عليهم لغتهم» (٣).
 ٣- و قال أبو حاتم السجستاني: نزل بلغة قريش و هذيل و تيم الرباب، و الأزدي و ربيعة و هوازن، و سعد بن بكر» (٤) يريد أبو حاتم أن الأحرف السبعة تعبير عن لغة هذه القبائل، ... بيد أن ابن قتيبة أنكر على أبي حاتم قوله، و احتج بقوله تعالى: «و ما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ» (٥). فعلى هذا فتكون اللغات السبع فى بطون قريش، و بذلك جزم أبو على الأهوازي.

ما كل كلمة فى القرآن تقرأ على سبع لغات:

قال أبو عبيد: «ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات، بل اللغات السبع مفرقة فيه، فبعضه بلغة قريش، و بعضه بلغة هذيل، و بعضه بلغة هوازن، و بعضه بلغة اليمن و غيرهم. قال: و بعض اللغات أسعد بها من بعض و أكثر نصيبا، و قيل: نزل بلغة مضر (١) ابن حجر، الفتح، (٣٤/٩)
 (٢) المصدر نفسه، (٣٤/٩، ٣٥).
 (٣) المصدر نفسه (٣٥/٩).
 (٤) المصدر نفسه.
 (٥) سورة إبراهيم، الآية: (٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤

خاصة لقول عمر: نزل القرآن بلغة مضر، و عين بعضهم فيما حكاه ابن عبد البر السبع من مضر أنهم هذيل و كنانة و قيس و ضبة و تيم الرباب، و أسد بن خزيمه، و قريش، فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات، و نقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال: أنزل القرآن أولا بلسان قريش و من جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أتيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ و الإعراب، و لم يكلف أحد منهم الانتقال من لغته إلى لغة أخرى للمشقة، و لما كان فيهم من الحمية، و لطلب تسهيل فهم المراد، كل ذلك مع اتفاق المعنى. و على هذا ينتزل اختلافهم فى القراءة كما تقدم، و تصويب رسول الله صلى الله عليه و سلم كلا منهم.

قلت: و تتمه ذلك أن يقال: إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهى، أى أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته، بل المراعى فى ذلك السماع من النبى صلى الله عليه و سلم، و يشير إلى ذلك قول كل من عمر و هشام رضى الله عنهما فى حديث الباب (١). و قد قال ابن عبد البر موضحا المقولة التى تقول: ليس المراد بالأحرف السبعة أن كل لفظ منه تقرأ على سبعة أوجه. قال ابن عبد البر: «هذا مجمع عليه، بل هو غير ممكن، بل لا يوجد فى القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا الشىء القليل مثل: «عبد الطاغوت» (٢).

و هناك بعض النقول التى تشير أن القرآن نزل بلغة قريش، ثم سهل على الأمة أن تقرأه بغير لسان قريش «و ذلك بعد أن كثر دخول العرب فى الإسلام، فقد ثبت أن ورود التخفيف بذلك كان بعد الهجرة وفقا لحديث أبى بن كعب الذى أخرجه مسلم، قال أبى:

«كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءه صاحبه، فلما قضينا الصلاة، دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، و دخل آخر فقرأ سوى قراءه صاحبه، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه و سلم فقراء، فحسّن النبي صلى الله عليه و سلم شأنهما قال: فسقط فى نفسى من التكذيب، ولا- إذ كنت فى الجاهلية، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم ما قد غشيتنى ضرب فى صدرى ففضت عرقا و كأنما أنظر إلى الله فرقا، فقال لى: «يا أبى، أرسل لى أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوّن على أمتى»، و فى رواية له: «إن أمتى لا تطيق ذلك»، و لأبى داود من وجه آخر عن أبى: «فقال لى الملك الذى معى: قل على حرفين، حتى بلغت سبعة أحرف» (٣). (١) سقنا الحديث برقم (٤٩٩٢)، و كلام ابن حجر مأخوذ من الفتح، (٣٥ /٩).

(٢) ابن حجر، الفتح (٣٦ /٩).

(٣) انظر الفتح، (٣١ /٩)، و أخرجه مسلم فى (الحديث: ١٩٠١)، و أخرجه أبو داود فى (الحديث:

١٤٧٨) مختصرا.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥

و أخرج البخارى بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «أقرانى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده و يزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف» (١).

و على هذا فهذا الفريق وجه القول: «أنزل على سبعة أحرف» (٢) أى: أنزل موسعا على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه، أى يقرأ بأى حرف أراد منها على البدل من صاحبه كأنه قال: أنزل على هذا الشرط أو على هذه التوسعة و ذلك لتسهيل قراءته، إذ لو أخذوا بأن يقرءوه على حرف واحد لشق عليهم ..» (٣).

و نقل ابن حجر عن ابن قتيبة فى أول تفسير المشكل له:

كان من تيسير الله أن أمر نبيه أن يقرأ كل قوم بلغتهم: فالهذلى يقرأ: عتى حين يريد: «حتى حين»، و الأسدى يقرأ «تعلمون» بكسر أوله، و التميمى يهزم و القرشى لا- يهزم، قال: و لو أراد كل فريق أن يزول عن لغته و ما جرى عليه لسانه طفلا و ناشئا و كهلا لشق عليه غاية المشقة، فيسير عليهم بذلك بمنه، و لو كان المراد أن كل كلمة تقرأ على سبعة أوجه لقال مثلا: أنزل سبعة أحرف، و إنما المراد أن يأتى فى الكلمة وجه أو وجهان أو ثلاثة أو أكثر إلى سبعة. و قال ابن عبد البر: أنكر أكثر أهل العلم أن يكون معنى الأحرف:

اللغات، لما تقدم من اختلاف هشام و عمر و لغتهما واحدة» (٤). و من خلال الحديث الذى سقناه سابقا. إذ أن هشام و عمر يتحدثان بلغة واحدة و لو أن الأحرف أريد بها اللغة لما جاز لعمر و هشام أن يختلفا.

و يرى ابن عبد البر أن المراد بالأحرف السبعة: سبعة أوجه من المعانى المتفقه بالألفاظ المختلفة، نحو: أقبل و تعال، و هلم، ثم ساق أحاديث، و لعل حديث الترمذى أنه صلى الله عليه و سلم قال: «يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز و الشيخ الكبير، و الغلام و الجارية، و الرجل الذى لم يقرأ كتابا قط» (٥) و هناك حديث أخرجه أحمد فى المسند عن أبى بكره: «كلها كاف كقولك هلم و تعال ما لم تختتم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب» (٦) و هذه الأحاديث قال عنها ابن حجر أنها تقوى قول القائلين: «إن المعنى (١) أخرجه البخارى، فى (الحديث: ٤٩٩١) كتاب: فضائل القرآن.

(٢) أخرجه البخارى (الحديث: ٤٩٩٢)، و أخرجه الترمذى فى (الحديث: ٢٩٤٣)، و ساقه ابن حجر بالفتح، (٣٢ /٩).

(٣) ابن حجر، الفتح (٣٦ /٩).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) أخرجه الترمذى فى (الحديث: ٢٩٤٤) و انفرد به.

(٦) أخرجه أحمد فى المسند، و ساقه ابن حجر فى الفتح (٣٢ / ٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦

بالأحرف اللغات أو القراءات» (١). و رأينا ما نقله ابن حجر عن ابن عبد البر أنه استدل بهذه الأحاديث على أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه من المعانى المتفقة بالألفاظ المختلفة، نحو: أقبل و تعال و هلم. قال ابن حجر: ثم ساق (أى القائل ابن عبد البر) الأحاديث الماضية و منها هذين الحديثين اللذين أخرجهما الترمذى فى السنن و أحمد فى «المسند».

ابن حجر يجمع بين القولين:

قال ابن حجر: «و يمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى، مع انحصار ذلك فى سبع لغات». غير أن ابن حجر يرى أن (لاختلاف) القولين فائدة هامة «و هى ما نبه عليه أبو عمر الدانى أن الأحرف السبعة ليست متفرقة فى القرآن كلها و لا موجودة فيه فى ختمه واحدة، فإذا قرأ القارئ برواية واحدة فإنما قرأ ببعض الأحرف السبعة لا بكلها، و هذا إنما يتأتى على القول بأن المراد بالأحرف اللغات، و أما قول من يقول بالقول الآخر فيتأتى ذلك فى ختمه واحدة بلا ريب، بل يمكن على ذلك القول أن تحصل الأوجه السبعة فى بعض القرآن» (٢).

رأى ابن قتيبة فى الأحرف السبعة:

حمل ابن قتيبة الأحرف على الوجه التى يقع بها التغاير فى سبعة أشياء:
الأول: ما يتغير حركته و لا يزول معناه و لا صورته مثل: و لا يُضَارَّ كَاتِبٌ و لا شَهِيدٌ (٣) بنصب الراء و رفعها.
الثانى: ما يتغير بتغير الفعل مثل بَاعِدَ بَيْنَ أَشْفَارِنَا. و بَاعِدَ بَيْنَ أَشْفَارِنَا (٤) بصيغة الطلب و الفعل الماضى.
الثالث: ما يتغير بنقط بعض الحروف المهملة مثل كَيْفَ نُشِيرُهَا (٥) بالراء و الزاى.
الرابع: ما يتغير بإبدال حرف قريب من مخرج الآخر مثل و طَلِحَ مَنْصُودٍ (٦). فى قراءة على: «و طلع منضود». (١) ابن حجر، الفتح، (٩ / ٣٦).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٢).

(٤) سورة سبأ، الآية: (١٩).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٥٩).

(٦) سورة الواقعة، الآية: (٢٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧

الخامس: ما يتغير بالتقديم و التأخير مثل و جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ (١).

السادس: ما يتغير بزيادة أو نقصان كما فى التفسير عن ابن مسعود و أبى الدرداء:

و اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (٢) هذا فى النقصان و أما فى الزيادة فكما تقدم فى تفسير تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ (٣) فى حديث ابن عباس «و أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، و رهطك منهم المخلصين» (٤).

السابع: ما يتغير بإبدال كلمة بكلمة ترادفها مثل: «العهن المنفوش».

فى قراءة ابن مسعود و سعيد بن جبير «كالصوف المنفوش» (٥).

قال ابن حجر: «و هذا وجه حسن» (أى كلام ابن قتيبة) لكن استبعده قاسم بن ثابت فى «الدلائل» لكون الرخصة فى القراءات إنما

وقعت و أكثرهم يومئذ لا يكتب و لا يعرف الرسم، و إنما كانوا يعرفون الحروف بمخارجها» (٤٠).

رأى أبى الفضل الرازى فى الأحرف السبعة:

قال أبى الفضل الرازى: «الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه فى الاختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء من أفراد و تثنية و جمع أو تذكير أو تأنيث.

الثانى: اختلاف تصريف الأفعال من ماض و مضارع و أمر.

الثالث: وجوه الإعراب.

الرابع: النقص و الزيادة.

الخامس: التقديم و التأخير.

السادس: الإبدال.

السابع: اختلاف اللغات كالفتح و الإمالة و الترقيق و التفتيح، و الإدغام و الإظهار، و نحو ذلك» (٧٠). قلت: (أى ابن حجر): و قد أخذ

أى: (الرازى) كلام ابن قتيبة و نقحه. (١) سورة ق، الآية: (١٩).

(٢) سورة الليل، الآيات: (١-٣).

(٣) سورة المسد، الآية: (١).

(٤) ابن حجر، الفتح، (٩/٣٧).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨

آراء أخرى:

إن السبعة الأحرف سبعة أصناف من الكلام، و احتجوا بحديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه و سلم. قال: «كان الكتاب الأول

ينزل من باب واحد على حرف واحد، و نزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر و أمر و حلال و حرام و محكم و متشابه

و أمثال، فأحلوا حلاله و حرموا حرامه، و افعلوا ما أمرتم به و انتهوا عما نهيتهم عنه و اعتبروا بأمثاله و اعملوا بمحكمه، و آمنوا بمتشابهه

و قولوا آمننا كل من عند ربنا» قال ابن حجر: «و إن هذا الحديث أخرجه أبو عبيد و غيره، قال ابن عبد البر: «هذا حديث لا يثبت» لأنه

من رواية أبى سلمة ابن عبد الرحمن عن ابن مسعود و لم يلق ابن مسعود، و قد رد قوم من أهل النظر منهم أبو جعفر أحمد بن أبى

عمران. قلت: و أظن الطبرى فى مقدمته تفسيره فى الرد على من قال به، و حاصله أنه يستحيل أن يجتمع فى الحرف الواحد هذه

الأوجه السبعة» (١). إلا أن ابن حبان صحح حديث «نزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف...». قال ابن حجر:

«فى تصحيح ابن حبان نظر لانقطاعه بين أبى سلمة و ابن مسعود.

و قد أخرج الحديث البيهقى من وجه آخر عن الزهرى عن أبى سلمة مرسلًا، و قال هذا مرسل جيد» (٢)، لكن البيهقى وجه دلالة

الحديث باتجاه آخر عند ما قال: «إن صح (أى الحديث) فمعنى قوله فى هذا الحديث سبعة أحرف أى: سبعة أوجه كما فسرت فى

الحديث» (٣).

رأى الإمام الطبرى فى الأحرف السبعة:

لا- علاقة بين القراءات السبع و الأحرف السبعة، إنما اقتصار الصحابة على هذه القراءات جاء على سبيل التيسير و الترخيص، قال الطبرى: «و صار ما اتفق عليه الصحابة من الاقتصار كمن اقتصر مِمَّا خيّر فيه على خصلة واحدة، لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة لم يكن على سبيل الإيجاب بل على سبيل الرخصة. قلت: (أى ابن حجر):

و يدل عليه قول صلى الله عليه و سلم فى حديث الباب «فاقروا ما تيسر منه» و قد قرر الطبرى ذلك تقريراً أطنب فيه و وهى من قال بخلافه، و وافقه على ذلك جماعة منهم أبو العباس بن عمار فى «شرح الهداية» و قال: أصح ما عليه الحدائق أن الذى يقرأ الآن بعض الحروف السبعة المأذون فى قراءتها لا كلها، و ضابطه ما رافق رسم المصحف فأما ما خالفه مثل «إن تبتغوا (١) ابن حجر، الفتح، (٩/ ٣٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، (٩/ ٣٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٩

فضلاً من ربكم فى موسم الحج» و مثل «إذا جاء فتح الله و النصر» فهو من تلك القراءات التى تركت- إن صحّ سندها- فى إثبات كونها قرآناً، و لا سيما و الكثير مما يحتمل أن يكون من التأويل الذى قرن إلى التنزيل فصار يظنّ منه «١».

الخلاصة فى مسألة القراءات السبع و الأحرف السبعة:

على الراجح الغالب أن القراءات السبع غير الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن، و كلمة القراءات السبع هى التى أوجدت ذلك اللبس فى المصطلحات و القراءات ليس منحصرة بسبع قراءات فهناك أكثر من ذلك «٢».

و قال أبو شامة: «ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث و هو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة» «٣».

«غير أن ابن مجاهد «٤» شيخ قراء عصره فى بغداد ... حاول أن يضبط القراءات الكثيرة التى انتشرت فى البلاد الإسلامية، و كان بعضها ليس موثقاً فحاول أن يجمع القراءات و أن يستخرج منها ما كان ثابتاً عن طريق الرواية المتواترة بنقل الثقات من القراء، فاعتمد سبع قراءات و وثّقها، و ثبت لديه أن قراءها عرفوا بالثقة و الضبط و الأمانة؛ و عرفت هذه القراءات بالقراءات السبع. و تحديد القراءات بسبع قراءات جاءت على غير قصد، و من دون إرادة، و كان يمكن أن يكون أكثر من ذلك أو أقل، و أدى هذا العدد إلى التباس كبير لدى كثير من الناس بين الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن، و القراءات السبع التى اعتمدها ابن مجاهد فى القرن الثالث و اختارها من القراءات الكثيرة التى شاعت فى عصره» «٥».

مكى بن أبى طالب القيسى يجزم أن الأحرف السبعة غير القراءات السبع:

قال مكي بن أبى طالب: «هذه القراءات التى يقرأ بها اليوم، و صحت رواياتها عن الأئمة جزء من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ...» ثم قال: «و أما من ظن أن قراءة (١) ابن حجر، الفتح، (٩/ ٣٩).

(٢) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٢٦٥).

(٣) ابن حجر، الفتح (٩/ ٣٩).

(٤) ابن مجاهد: أحمد بن موسى بن العباس أبو بكر البغدادي، عرف بابن مجاهد المقرئ، ولد سنة (٢٤٥ هـ) و توفى فى (٣٢٣ هـ) من تصانيفه: الحجة فى القراءات السبعة، القراءة الصغيرة، القراءة الكبيرة و كتاب الشواذ فى القراء ... الخ».

(إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين و أسماء المؤلفين و آثار المصنفين، ص (٥٩) و عدّ هذا من مكملات كشف الظنون. و أعطى رقم الجزء الخامس).

(٥) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٢٦٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠

هؤلاء القراء كناع و عاصم هى الأحرف السبعة التى فى الحديث «نزل القرآن على سبعة أحرف». قد غلط غلطا عظيما...» قال: «و يلزم من هذا أن من خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة غيرهم و وافق خط المصحف أن لا يكون قرآنا، و هذا غلط عظيم، فإن الذين صنفوا القراءات من الأئمة المتقدمين، كأبى عبيد القاسم بن سلام، و أبى حاتم السجستاني، و أبى جعفر الطبرى و إسماعيل بن إسحاق و القاضى قد ذكروا أضعاف هؤلاء... و كان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة أبى عمرو و يعقوب، و بالكوفة على قراءة حمزة و عاصم، و بالشام على قراءة ابن عامر، و بمكة على قراءة ابن كثير، و بالمدينة على قراءة نافع، و استمروا على ذلك. فلما كان على رأس الثلاث مائة أثبت ابن مجاهد اسم الكسائى و حذف يعقوب قال:

و السبب فى الاقتصار على السبعة مع أن فى أئمة القراء فيهم من هو أجلّ منهم قدرا، و مثلهم أكثر من عددهم أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرا جدا، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف - على ما يسهل حفظه، و تنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة و الأمانة و طول العمر فى ملازمة القراءة، و الاتفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إماما واحدا» (١).

و قال أبو طالب القيسى: «و إذا كان المصحف قد كتب على لغة قريش على حرف واحد ليزول الاختلاف بين المسلمين فى القرآن، و لم ينقُط و لم يشكّل فاحتمل التأويل لذلك.

و إذا كان المصحف بلا خلاف كتب على حرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن و على لغة واحدة - أى لهجة واحدة - و القراءة التى يقرأ بها، و لا يخرج شىء منها عن خط المصحف، فليست هى إذا السبعة الأحرف التى نزل بها القرآن كلها، و لو كانت هى السبعة كلها، و هى موافقة للمصحف، لكان المصحف قد كتب على سبع قراءات، و لكان عثمان قد أبقى على الاختلاف الذى كرهه. و إنما جمع الناس على المصحف ليزول الاختلاف، فصحّ من ذلك أن الذى يقرأ به الأئمة، و كل ما صحت روايته مما يوافق خط المصحف، إنما هو كلّ حرف من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن، و وافق لفظها على اختلافه خط المصحف، و جازت القراءة بذلك إذ هو غير خارج عن خط المصاحف التى وجه بها عثمان إلى الأمصار، و جمعهم على ذلك و سقط العمل بما يخالف خط المصحف من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن بالإجماع على خط المصحف» (٢). (١) ابن حجر، الفتح، (٩/ ٤٠). و انظر الإتقان للسيوطى، (١/ ٢٢٤).

(٢) مكى بن طالب القيسى، ص (٣١، ٣٢) مع تصرف قليل غير مخل بالمعنى الذى أراداه المؤلف.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١

«و صفوة القول: إن الخلاف قائم بين العلماء فى تفسير المقصود بالأحرف السبعة، و الأقوال و الآراء التى سقناها كلها محتملة و ممكنة. و يبدو أن المتأخرين حاولوا تقريب الأمر و رجحوا أن يكون المراد بتعدد الأحرف تيسير الأداء القرآنى و تيسير التلاوة على العرب بحيث تتمكن القبائل العربية المختلفة من القراءة باللغة التى تستطيع النطق بها، من حيث التفخيم و الإمالة و الإظهار و الإدغام، و المهم فى ذلك كلّ التيسير على الأمة بحيث لا يكلف المسلم بما لا يطبق بشرط ألا يؤدى ذلك إلى تغيير فى المعانى، فالأداء اللفظى تحكمه استعدادات موروثية أو قابليات فطرية، و لا يؤثر ذلك فى سلامة النصّ القرآنى، و لا فى المعانى المستنبطة منه، و يؤكّد هذا المعنى ما رواه الترمذى عن أبى بن كعب أنه لقي الرسول صلى الله عليه و سلّم جبريل فقال:

«يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز و الشيخ الكبير و الغلام و الجارية و الرجل الذى لم يقرأ كتابا قط» فقال يا محمد: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف» (١).

كيفية إنزال القرآن الكريم:

قال تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴿٢﴾. و قال سبحانه: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) «٣».

أما كيفية نزول القرآن الكريم، فالأقوال فيه ثلاثة:

أحدها: أنه نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجما فى عشرين سنة أو فى ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين على حسب الاختلاف فى مدة إقامته بمكة بعد النبوة.

والقول الثانى: أنه نزل إلى سماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر من عشرين سنة، وقيل فى ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة، وقيل: فى خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة، فى كل ليلة ما يقدر الله سبحانه إنزاله فى كل السنة ثم ينزل بعد ذلك منجما فى جميع السنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والقول الثالث: أنه ابتدئ إنزاله فى ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجما فى أوقات مختلفة من سائر الأوقات.

والقول الأول أشهر وأصح وإليه ذهب الأَكثَرُونَ، ويؤيده ما رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ثم نزل بعد (١) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٢٩، ٣٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٣) سورة القدر، الآية: (١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢

ذلك فى عشرين سنة، قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين «(١)».

الحكمة من نزول القرآن منجما:

قد يتساءل الناس، و حقا وقع السؤال من المشركين ساعة نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: و هلا نزل جملة كسائر الكتب؟

فقال الله تعالى ردا على سؤالهم: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً يَعْنُونَ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى مَنْ قَبْلِهِ مِنَ الرُّسُلِ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: كَذَلِكَ أَى أَنْزَلْنَاهُ مَفْرَقًا لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴿٢﴾ أَى لِنَقْوَى بِهِ قَلْبَكَ، فَإِنِ الْوَحَى إِذَا كَانَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ كَانَ أَقْوَى لِلْقَلْبِ وَ أَشَدَّ عَنَايَةً بِالْمُرْسَلِ إِلَيْهِ؛ وَ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ كَثْرَةَ نَزُولِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ وَ تَجْدِيدِ الْعَهْدِ بِهِ وَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الرِّسَالَةِ الْوَارِدَةِ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ الْعَزِيزِ، فَحَدَّثَ لَهُ مِنَ السَّرُورِ مَا تَقْصُرُ عَنْهُ الْعِبَارَةُ؛ وَ لِهَذَا كَانَ أَجُودَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ لِكَثْرَةِ نَزُولِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «(٣)».

و الحق أن الله تعالى قادر على تنزيل القرآن جملة واحدة، و قادر على تثبيت النبى صلى الله عليه وسلم على هذه الحال و كل حال. «لكن ليس كل ممكن لازم الوقوع» «(٤) هذا عدا عن القول أن نزول القرآن منجما كان لمواكبة الدعوة الإسلامية و التحديات التى تواجهها، و الأسئلة و الإشكالات التى كان يواجهها النبى صلى الله عليه وسلم، إذ كان القرآن ينزل مسددا، و موضحا، و موجهها و مثبتا؛ و الآيات الكريمة أوضحت المقاصد من نزوله مفرقا، قال تعالى: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) «(٥)»، و قال أيضا: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدًى وَ بَشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) «(٦)».

كذلك فإن «فى آيات القرآن أجوبة عن أسئلة؛ فهو سبب من أسباب تفرق النزول، و لأن بعضه منسوخ و بعضه ناسخ، و لا يتأتى ذلك إلّا فيما أنزل مفرقا، و قال ابن فورك «(٧)»:

«قيل أنزلت التوراة جملةً لأنها نزلت على نبي يقرأ و يكتب - هو موسى - و أنزل القرآن مفرّقاً لأنه أنزل على نبي أمى، و قيل مما ينزل لأجله جملةً واحدةً أن منه الناسخ و المنسوخ (١) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، (١/ ٢٢٨).

(٢) سورة الفرقان، الآية: (٣٢).

(٣) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، (١/ ٢٣١).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة الشعراء، الآيات: (١٩٢ - ١٩٥).

(٦) سورة النحل، الآية: (١٠٢).

(٧) ابن فورك: أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك الأديب المتكلم، الأصولى. ت (٤٠٦ هـ) انظر أنباء الرواة (٣/ ١١٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣

و منه ما هو جواب لمن يسأل عن أمور و منه ما هو إنكار لما كان «١».

وفقاً لما سبق يمكن تلخيص أسباب نزول القرآن مفرّقاً على النحو التالى:

١- تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه و سلم.

٢- تيسير الحفظ و الفهم.

٣- مواكبة الحوادث و التدرج فى التشريع.

معرفة أسباب النزول:

لقد ارتبط علم التفسير بعلم أسباب النزول إلى درجة كبيرة، و ألفت كتب كثيرة، و دراسات عديدة فى موضوع أسباب النزول، و من أبرزها ما كتبه على بن المدينى شيخ البخارى، و ما كتبه الواحدى، و ابن حجر العسقلانى، و ما ألفه السيوطى فى الموضوع «لباب النقول فى أسباب النزول» و علم أسباب النزول يبحث «عن أسباب نزول آية سورة، و وقتها و مكانها و غير ذلك فهو فرع من فروع التفسير» «٢».

و أما الفوائد التى يحصلها المفسر من معرفته أسباب النزول يمكن حصرها بما يلى:

أولاً: «معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم و لا سبيل إلى ذلك على وجه الدقة إلا عن طريق معرفة السبب الذى أدى إلى نزول الحكم.

ثانياً: «تخصيص الحكم عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب» «٣». و أن اللفظ «قد يكون عاماً و يقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عداه» «٤».

ثالثاً: و من فوائده فهم معانى القرآن و استنباط الأحكام «٥». إذ أن الوقوف على السبب يعين على نحو جليّ واضح على فهم المراد من النص، قال الواحدى:

«لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها و بيان نزولها، و قالوا: «العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» «٦».

فمن هذا يظهر أهمية علم أسباب النزول للمفسر لأنه لا يمكن للمفسر أن يفسر على نحو صحيح أو أن يستنبط حكماً صحيحاً، أو يكتشف الحكمة من تشريع الحكم دون أن (١) الزركشى، البرهان، (١/ ٢٣١).

(٢) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير و قواعده، بيروت، دار النفائس، ط (٣)، (١٩٩٤)، ص (٩٩).

(٣) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٣٤).

(٤) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير و قواعده، ص (٩٩).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤

يتضح له سبب نزول الآية، و معرفة الأسباب المساعدة على ربط النص بالواقع.

«و لو أخذنا مطلق المعانى الواردة من بعض الآيات لتغيرت بعض الأحكام، و لكن معرفة السبب الذى أدى إلى نزول الآية يوجه الآية لى تكون كجواب عن سؤال، و إذا عرف السؤال كان الجواب واضحاً و خاصاً بالسؤال و لا- يتعداه إلى غيره» (١) و إذا أردنا أن نستدل بمثال يوضح أهمية معرفة أسباب النزول فى فهم النص و إزالة الإشكال لظهر لنا على نحو يبين فهما صحيحاً دون علم بأسباب ورود النص، قال تعالى: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ» (٢).

«فى هذه الآية لو ترك مدلول اللفظ على إطلاقه لأفاد بجواز الصلاة إلى أية جهة كانت فى السفر و الحضر، و هو أمر مخالف لما وقع الإجماع عليه، و يتضح المعنى المراد إذا عرف أن هذه الآية نزلت عند ما صلى النبى صلى الله عليه و سلم على راحلته من مكة إلى المدينة» (٣).

«ثم ليس للمفسر من غنى عن معرفة أسباب النزول الذى هو فرع من فروع علم التفسير و الذى فيه بيان مجمل، و إيضاح خفى، و موجز. و منه ما يكون وحده تفسيراً فى الموطأ عن هشام بن عروة بن الزبير أنه قال: «قلت لعائشة أم المؤمنين و أنا يومئذ حديث السن: أ رأيت قول الله تعالى: إِنَّ الصَّفا وَ المَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» (٤). فما على الرجل شىء، ألا- يطوف بهما؟ قالت: إنما نزلت هذه الآية فى الأنصار كانوا يهلون لمناء، و كان يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا و المروة، فلما جاء الإسلام سألو رسول الله صلى الله عليه و سلم عن ذلك فأنزل الله تعالى: إِنَّ الصَّفا وَ المَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ الآية» (٥). و يمكن أن نلخص أسباب النزول التى صحت أسانيدها فى خمسة أقسام:

الأول: «قسم هو المقصود من الآية يتوقف فهم المراد منه على علمه؛ فلا بد للمفسر من البحث عنه، و هذا منه تفسير مبهمات القرآن مثل قوله تعالى: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا (٦). و منه ما اقتضاه حال خاص نحو: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا (١) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٣٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١١٥).

(٣) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٣٥).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٥٨).

(٥) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير و قواعده، ص (٦٦) و الحديث بمعناه أخرجه البخارى فى (الحديث: ٤٤٩٥) و (الحديث:

٤٨٦١)، و أخرجه مسلم (الحديث: ٣٠٧٠)، و أخرجه الترمذى (الحديث: ٢٩٦٥)، و أخرجه النسائى (الحديث: ٢٩٦٧).

(٦) سورة المجادلة، الآية: (١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥

راعنا وَ قُولُوا أَنْظِرْنَا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) (١).

الثانى: «قسم هو حوادث تسببت عليها تشريعات أحكام، و صور تلك الحوادث لا- تبين مجمل، و لا- تخالف مدلول الآية بوجه تخصيص أو تعميم، أو تقييد، و لكنها إذا ذكرت أمثالها وجدت مساوية لمدلولات الآيات النازلة عند حدوثها، مثل حديث عويمر العجلانى الذى نزلت فيه آية اللعان، و مثل حديث كعب بن عجرة التى نزلت فيه آية: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ ... (٢) الآية. فقد قال كعب: هى لى خاصة و لكم عامة (٣)، و هذا القسم لا يفيد البحث فيه إلا زيادة فى فهم معنى الآية و تمثيلها لحكمها، و لا يخشى توهم تخصيص الحكم بتلك الحادثة، إذ قد اتفق العلماء، أو كادوا. على أن سبب النزول فى مثل

هذا لا يخصص، واتفقوا على أن أصل التشريع أن لا يكون خاصا «٤».

الثالث: قسم هو حوادث تكثر أمثالها ولا تختص بشخص واحد، فتنزل الآية لإعلانها، وبيان أحكامها، فكثيرا ما تجد المفسرين وغيرهم يقولون نزلت فى كذا و كذا و هم يريدون أن من الأحوال التى تشير إليها تلك الآية تلك الحالة الخاصة، فكأنهم يريدون التمثيل، ففى كتاب التفسير من صحيح البخارى أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من حلف على يمين صبر «٥» يقطع بها مال امرئ لقى الله و هو عليه غضبان» فأنزل الله تصديق ذلك «٦».

و مثله قول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا «٧» دخل الأشعث ابن قيس فقال: ما حدثكم أبو عبد الرحمن؟ قالوا: كذا و كذا، قال: فى أنزلت، كانت لى بئر فى أرض ابن عم لى ... إلخ. فابن مسعود جعل الآية عامة! لأنها جعلها تصديقا للحديث العام، و الأشعث بن قيس ظنها خاصة به، إذ قال فى أنزلت، بصيغته الحصر. و هذا القسم قد أكثر من ذكره أهل القصص و بعض المفسرين، مع أن القاعدة عند الأصوليين فى ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم لا فائدة فى ذكره على أن ذكره قد يوهم (١) سورة البقرة، الآية: (١٠٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٩٦).

(٣) الحديث بطوله أخرجه البخارى (الحديث: ٤٥١٧).

(٤) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير و قواعده، ص (١٠٠).

(٥) صبر: هنا الصبر الحبس أى من حلف يمينا كاذبة يحبس عليها. و انظر خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير و قواعده، ص (١٠٠).

(٦) أخرجه البخارى (الحديث: ٤٥٤٩).

(٧) سورة آل عمران، الآية: (٧٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦

القاصرين قصد الآية على تلك الحادثة، لعدم ظهور العموم من ألفاظ تلك الآيات «١».

الخامس: قسم يبين مجملات و يدفع متشابهات، مثل قوله تعالى: وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ «٢». فإذا ظن أحد أن «من» هنا لشروط أشكل عليه كيف يكون الجور فى الحكم كفرا، ثم إذا علم أن سبب النزول هم النصارى، علم أن «من» موصولة و علم أن الذين تركوا الحكم بالإنجيل لا يتعجب منهم أن يكفروا بمحمد صلى الله عليه و سلم، و كذلك حديث عبد الله بن مسعود، قال: لما نزل قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ «٣» شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و قالوا: أين لم يلبس إيمانه بظلم؟

ظنوا أن الظلم هو المعصية، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إنه ليس بذلك ألا تسمع قول لقمان لابنه: إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «٤».

ما كل الآيات لها سبب نزول:

عند ما نقول بضرورة معرفة المفسر لأسباب النزول، فهذا لا يعنى البتة أن لكل آية فى الكتاب الكريم أسباب نزول، و لا بد لكل آية من حادثة نزلت عليها أو بسببها، أو أنها نزلت جوابا على سؤال ... لأن القرآن كتاب بيان و هداية فقد يتنزل لسبب واقع فيكشف عن ملبساته و يبين أحكامه. بيد أن هناك آيات تنزلت مقررة لأحكام جديدة أو موضحة لقضايا «و ليست مرتبطة بأى سبب و غايتها تشريع أحكام، و بيان معالم العقيدة الإسلامية، و إقرار مبادئ الإسلام، و مثل هذه الآيات لا تحتاج إلى بيان سبب للنزول و هى كثيرة، و لم يتعرض لها علماء التفسير إلّا فى إطار تفسير معانيها المستفادة كما تفهم من الدلالة القرآنية» «٥».

السبيل إلى معرفة سبب النزول:

«و يعرف سبب النزول عن طريق النقل الصحيح و لا مجال للاجتهاد فى هذا الموطن، و الصحابه هم المؤهلون لمعرفة أسباب النزول، فإذا ورد سبب النزول عن صحابى فيعتد به لأنه لا يعقل أن يجتهد الصحابى فيه أو يورده من غير سماع أو مشاهدة» «٦». (١) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير و قواعده، ص (١٠١).

(٢) سورة المائدة، الآية: (١٤٤).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٨٢).

(٤) سورة لقمان، الآية: (١٣). و انظر خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير و قواعده، ص (١٠١، ١٠٢) و الحديث أخرجه البخارى فى (الحديث: ٤٧٧٦).

(٥) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٣٦).

(٦) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧

و من باب تقريب موضوع ضرورة معرفة أسباب النزول فإننا نقول:

إن دراساتنا عن الشعر أو قصيدة من الشعر لا يستقيم تمام الاستقامة إلا إذا عرفنا جو القصيدة و الظروف التى نظمها الشاعر خلالها، فإن هذا يظهر لنا أن معرفة قصة الآية القرآنية و الأسباب الموحية أو الداعية لنزولها تعين عونا كبيرا على فهم النص فهما دقيقا، و تسدد بحثه، و تهديه إلى فهم المقصود و إدراكه تماما.

«و نحن من القرآن أيضا إزاء شىء فوق اللغة و قواعدها و آدابها، فإن خلال التعبير فى القرآن و إحياءات المفردات فى آياته، و ألوان التصوير فى قصصه و لوحاته لترتبط أوثق الارتباط بالوقائع الحية و الأحداث النواطق، و المشاهد الشواخص، كان أبطالها ما انفكوا على مسرح الحياة يغدون و يروحون فأنى للشروح اللغوية الجامدة، و الاصطلاحات البلاغية الجافة أن تستطلع فى الوقائع يقين أخبارها، أو تستبطن من الأحداث خفى أسرارها، و هى أعيا من أن ترجع فى الأذان أصداها الحلوة العذاب.

و نحن من القرآن آخر الأمر - أمام شىء فوق التاريخ نفسه، فإن وقفنا على سبب النزول التاريخي لم نكن قد تفحصنا كل شىء ... و كأى فى التاريخ من فجوات ينبغى أن تملأ، و ثغرات ينبغى أن تسد! أمام أسباب النزول - من وجهة النظر الدينية فليس لنا فيها إلا أن نستوحى الواقع لا صورته، و الإنسان لا شبيهه، و الحق لا صداه، فهل من عجب إذ حرم العلماء المحققون الإقدام على تفسير كتاب الله لمن جهل أسباب النزول» «١» - و أظن الواحدى «٢» غير مبالغ حين قال: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها و بيان نزولها».

و يؤكد الشاطبى فى الموافقات فى أصول الشريعة فى إيضاح المزايا المحصلة عن معرفة أسباب النزول فيقول:

معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن. و الدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعانى و البيان الذى يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلا على معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس المخاطب، أو المخاطب أو المخاطب، أو الجميع إذا الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، و بحسب مخاطبين، و بحسب غير ذلك كالأستفهام: لفظه واحد و يدخله أخرى من تقرير و توبيخ و غير ذلك، و كالأمر يدخله معنى الإباحة و التهديد و التعجيز (١) انظر د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ط، (١٩٨٢)، ص (١٢٩، ١٣٠).

(٢) الواحدى: على بن أحمد، و يكنى أبا الحسين نحوى، مفسر ت (٤٢٧ هـ). إنباء الرواة (١/ ١٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٨

و أشباهها.

ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة و عمدتها مقتضيات الأصول، و ليس كل حال ينقل، و لا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، و إذا فات بعض القرائن الدالة، فات منهم الكلام جملة، أو فهم الشيء منه، و معرفة الأسباب رافعة لكلّ مشكل فى هذا النمط فهى من المهمات فى فهم الكتاب بلا بد، و معنى معرفة السبب: هو معرفة مقتضى الحال «(١)».

و صفوة القول فى هذا:

«إن الجهل بأسباب التنزيل موقع فى الشبه، و الإشكالات و مورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الخلاف، و ذلك مظنة وقوع النزاع، و يوضح هذا المعنى ما روى أبو عبيد بن إبراهيم التيمي قال: خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة و نبيها واحد و قبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، و علمنا فيم نزل، و إنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن و لا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأى، فإذا كان لهم فيه رأى اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا، قال: فزجره عمر، و انتهره فانصرف ابن عباس، و نظر عمر فيما قال فعرفه»، فأرسل إليه، فقال: أعد على ما قلت فأعاد عليه، فعرف عمر قوله فأعجبه و ما قاله صحيح فى الاعتبار، و يتبين فيما هو أقرب، فقد روى ابن وهب عن بكير أن سأله نافع: كيف كان رأى ابن عمر فى «الحرورية» «(٢)»؟ قال: يراهم شرار خلق الله إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين» فهذا معنى الرأى الذى نبه إليه ابن عباس و هو الناشئ عن الجهل بالمعنى الذى نزل فيه القرآن «(٣)». (١) الشاطبي، الموافقات، ج ٣، ص (٣٤٧).

(٢) الحرورية: هم الخوارج التى حوّلت النصوص عن مقاصدها، و تكفّر من خالفها، و سميت بهذا الاسم لأنها أول نزولها كان بمكان يسمّى «حروراء». انظر مقالات الإسلاميين و اختلاف المصدرين للأشعري، ص (١٢٨).

(٣) الشاطبي، الموافقات، ج ٣، ص (٣٤٧-٣٤٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩

الفصل الثانى الوحي و القرآن

إشارة

- ظاهرة الوحي:

- معانى الوحي:

١- الإلهام الغريزى.

٢- الإلهام الإرادى.

٣- معنى الإشارة.

٤- الوسوسة.

- كيفية نزول الوحي.

الصورة الأولى: الوحي المباشر.

الصورة الثانية: الكلام من وراء حجاب.

الصورة الثالثة: الوحي عن طريق رسول الله صلى الله عليه و سلم.

- كيفية نزول الوحي عند السيوطى فى الإتيان.

١- مناقشة فكرة الوحي.

٢- موقف العلم من مسألة الوحي.

٣- الأدلة العقلية على ثبوت ظاهرة الوحي.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١

الوحي و القرآن

ظاهرة الوحي:

تتراوح كلمة «الوحي» بمعانيها اللغوية بين الإشارة، و الإلهام، و الكلام الخفى، و الكتابة و الرسالة، و ما يوحى الله إلى أنبيائه» (١). من البديهي أن نقول «لكل فكرة أساس ترتكز إليها». فركيزة الإيمان بالقرآن و نبوة محمد صلى الله عليه و سلم الإيمان بالوحي، و من لم يؤمن بوجود الوحي فليس من الممكن أن يؤمن برسالة الأنبياء المتصلين بالله تعالى المتلقين عن الله بوساطة الوحي. و هذا «على غير الطريقة المعتادة بين البشر» (٢). و بنمو المقاييس المادية لدى الباحثين و الدارسين فى القرن العشرين أصبح الإيمان بمسألة الوحي أمرا غير مقبول بسهولة، إن لم نقل إنهم «يلقون حبالا و عصيا فى سبيل المؤمنين» (٣).
فما حقيقة الوحي؟

الوحي بالمصطلح الشرعى: أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية و العلم، و لكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر» (٤).

معانى الوحي:

١- معنى الإلهام الغريزي: و هو واضح فى قوله تعالى: «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي (١) الْفَيْرُوزَ آبَادِي، الْمَحِيْطَ، مَادَّة: وحي. و انظر المعجم المدرسى مادة: وحي.

(٢) الزرقانى، مناهل العرفان، بديع السيد اللحام، دمشق، دار قتيبة، ط، (١/ ٩١).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢

مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) (١). فكلمة الوحي فى هذه الآية تفيد معنى التكوين الغريزي الذاتى و هو فى إطار الخلق و التكوين. و هذا معنى يختلف عن معنى «الوحي» الذى نتحدث عنه، و كلمة الخلق و التكوين و التوجيه أدق من كلمة الإلهام فى هذه الآية، لأن اتخاذ الجبال و الأشجار بيوتا للنحل صفة ذاتية و تكوين غريزي- و الإلهام يغلب عليه تكوين الاستعداد لسلوك غير مألوف. فإذا كان السلوك مألوفاً عن طريق التكوين الغريزي لا يسمى «إلهاما»، فلا يقال فى الأمور الغريزية إلهام إلا عن طريق تكوين الاستعداد عند الخلق» (٢).

٢- معنى الإلهام الإرادى: و هذا باد فى قول الله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)» (٣).

و واضح من الآية أن كلمة «و أوحينا» لا تقتصر معنى الإلهام؛ فالإلهام توجيه خفى لا يدرك مصدره، و فى هذه الآية توجيه ربانى مقترن بأوامر و تعليمات و فيه نهى عن الخوف و تبشير من الله بعودته إلى أمه، و أنه سيكون من المرسلين، و لا بد أن أم موسى أدركت مصدر هذا الإلهام، و عرفت أنه من الله، و لهذا نفذت ما أمرت به و اطمأنت، و لو لا ذلك لما نفذت هذا الأمر الذى لا يمكن لأم أن تفعله، و كيف يمكن لأم أن تلقى وليدها فى اليم لمجرد خاطر عابر لا تعرف مصدره و هو أمر خارج عن نطاق الفطرة،

فالفطرة تأبى أن تلقى الأم وليدها فى اليم» (٤).

٣- معنى الإشارة الآمرة الظاهرة: و هذا باد فى قول الله تعالى: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) «٥».

و معنى الوحي هنا: أمر يفيد «التوجيه و التعليم و ليس مجرد الإشارة» (٦).

٤- معنى الوسوسة: و هذا فى قول الله تعالى: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ (٧). و هذا المعنى لغوى، و كلمة الوسوسة ليست دقيقة، فالشياطين يوسوسون حيناً، و يأمرون أولياءهم حيناً آخر و يزينون لهم فعل الشر، و جاءت فى نفس المعنى فى (١) سورة النحل، الآية (٦٨).

(٢) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٤٥، ٤٦).

(٣) سورة القصص، الآية: (٧).

(٤) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٤٦). و الآية من سورة النحل.

(٥) المصدر نفسه. و الآية من سورة مريم، الآية (١١).

(٦) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية ص (٤٦).

(٧) سورة الأنعام، الآية: (١٢١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا (١).

و معظم معانى الوحي الواردة فى القرآن الكريم جاءت فى معنى الوحي المنزل من عند الله «و هى الكلمة القرآنية التى تردت فى القرآن فى كل آية أراد الله بها بيان طريقته توجيه الأمر الإلهى لرسله و أنبيائه و تعليمهم» (٢). و وحى الله إلى رسوله صلى الله عليه و سلم كان بوساطة الأمين جبريل عليه السلام «و هو ملك كريم ذو قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين- و هذا النوع كان من أشهر الأنواع، و أكثرها، و وحى القرآن كله من هذا القليل و هو المصطلح عليه «بالوحي الجلى» (٣) قال الله تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) (٤).

و هذا الوحي «الملك جبريل» كان ينزل على الرسول صلى الله عليه و سلم أو يظهر له بأشكال أو بأساليب شتى:

فتارة يظهر للرسول صلى الله عليه و سلم فى صورته الحقيقية الملكية. و تارة يظهر فى صورة إنسان يراه الحاضرون و يستمعون إليه- و هذه صور: «الوحي المباشر»: و فى هذا «يبرز معنى الإلهام أو النفث فى الروح و هو إلقاء المعنى الموحى به فى القلب، و القلب فى نظر القرآن هو مصدر المعرفة و هو موطن الفهم» (٥). «و يختلف الوحي المباشر عن الإلهام الغريزى أو الفطرى، فالإلهام قد يكون نابعا من الذات و قد يخطئ الإنسان فيه، أو يصيب فلا يعرف مصدره، فلا يلتبس الأمر عليهما، و هو خاص بالأنبياء، و لا يكون لغير الأنبياء بخلاف الإلهام الفطرى فقد يكون لغير الأنبياء، و قد يكون إلهام خير، أو إلهام شر، و يختلف مصدره» (٦).

و قد يهبط الوحي على رسول الله فى صورة إنسان يراه الحاضرون و يستمعون إليه، و تارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى و لكن يظهر أثر التغير و الانفعال على صاحب الرسالة، فيغط و يثقل ثقلا شديدا، و قد يتصبب منه الجبين عرقا فى اليوم الشديد البرد» (٧).

(١) سورة الأنعام، الآية: (١١٢).

(٢) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٤٧).

(٣) الزرقانى، مناهل العرفان، (١/ ٩٢).

(٤) سورة الشعراء، الآيات: (١٩٣-١٩٥).

(٥) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية ص (٥٠). راجع حديث بدء الوحي الذى رواه البخارى (الحديث: ٢).

(٦) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية ص (٥٠).

(٧) الزرقانى، مناهل العرفان، (١/ ٩٢، ٩٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤

و قد يكون وقع الوحي على الرسول صلى الله عليه و سلم كوقع الجرس إذا صلصل فى أذن سامعه، و ذلك أشد أنواعه و ربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول صلى الله عليه و سلم كأنه دوى النحل لكنهم لا يفقهون كلاما، و لا يفقهون حديثا- و قد روى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت:

«أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، و كان يخلو بغار حراء، حتى جاءه الحق و هو فى غار حراء فجاء الملك فقال: «اقرأ» (١).

و قد سأل الحارث بن هشام رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الكيفية التى يأتية الوحي بها فقال:

- يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟

- فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس و هو أشده على، فيفصم عنى و قد وعيت عنه ما قال، و أحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول»، قالت عائشة: و لقد رأيت يترى عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه و إن جبينه ليفصم عرقا» (٢).

كيفية الوحي:

و هنا أنقل كيفية الوحي عند السيوطى فى ملخص شاف:

ذكر السيوطى فى الإتقان كيفية الوحي بقوله:

ذكر العلماء للوحي كيفية:

إحداها: أن يأتية الملك مثل صلصلة الجرس كما فى الصحيح و فى مسند أحمد: عن عبد الله بن عمر، سألت النبى صلى الله عليه و سلم: هل تحس بالوحي، فقال: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسى تقبض». قال الخطابى: و المراد أنه صوت متدارك يسمعه و لا يبين له أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد، و قيل هو صوت خفق أجنحة الملك. و الحكمة فى تقدمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكانا لغيره، و فى الصحيح أن هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه، و قيل: إنه كان ينزل هكذا إذا نزلت آية و عيد و تهديد.

الثانية: أن ينفث فى روعه الكلام نفثا، كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن روح القدس نفث فى روعى ...» (٣) [أخرجه الحاكم، و هذا قد يرجع إلى الحالة الأولى أو التى بعدها، بأن يأتية فى إحدى الكيفيتين و ينفث فى روعه. (١) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٣) و (الحديث: ٤٩٥٣)، و أخرجه مسلم فى (الحديث: ٤٠١).

(٢) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٢) و (الحديث: ٣٢١٥).

(٣) رواه البغوى.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥

الثالثة: أن يأتية فى صورة الرجل فيكلمه كما فى الصحيح: «و أحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول» (١).

الرابعة: أن يأتية الملك فى النوم، و عدّ قوم من هذا «سورة الكوثر».

الخامسة: أن يكلمه الله إما فى اليقظة كما فى ليلة الإسراء أو فى النوم كما فى حديث معاذ: «أتانى ربي فقال: فيم يخنصم الملاء الأعلى

..» (٢).

مناقشة فكرة الوحي: بديهى أن تخضع ظاهرة الوحي لنقاش معمق خاصة من قبل أصحاب المنهج المادى الذين يجدون صعوبة فى الإيمان بالغيب ..، فى حين نجد المؤمنين حقا هم المؤمنون بفكرة الوحي لإيمانهم بالغيب لأن الإيمان بالغيب «يمنح الحياة المادية التوازن ... و يفسر بعض مظاهر الحياة، و يضبط مسارها، و يملأ ذلك الفراغ الثقيل فى حياة البشر» (٣).

أما الراضون لمسألة الوحي فمنطقهم يستند إلى نكران عالم الغيب لأنه غير مشاهد من قبل الحواس و يقولون: إنهم يحتكمون للعقل، فما أثبتته العقل من عالم الحواس أثبتوه، و ما أنكره العقل من عالم الحواس أنكروه ... و لكن السؤال: هل ينكر العقل المنصف وجود عالم الغيب أو عالم الروح؟

الجواب: «لم يستطع العقل أن يقيم الدليل على عدم وجود عالم الروح، بل إن العقل فى معظم الأحيان يسلّم بوجود عالم غير محسوس لا تراه الأبصار، و لا تدركه العقول، إلا أنه لا يتصور الحياة بدونه، و تقوم أدلة و قرائن على وجود عالم روحى أشمل من عامل المادة، و هو عالم غير محدود، يحيط بحياة الإنسان، و يفسر حركته» (٤).

ثم من جهة أخرى فإن منكرى الوحي عند ما يقولون: إنهم يؤمنون بما يثبتته العقل منهم «يؤمنون بالعقل على الطريقة التى يستسيغونها، و بالعلم الذى تواضعوا عليه فى اصطلاحهم الحديث و هو «جملة المعارف اليقينية التى أنتجها دستور البحث الجديد فى الوجود و كائناته» (٥).

و هؤلاء جعلوا «الشك أساسا للبحث و الاستناد إلى القاطع الذى يؤيده الحس دون (١) هو جزء من حديث أخرجه البخارى (الحديث: ٢) و (الحديث: ٤٩٥٣).

(٢) السيوطى، الإتقان (١/ ١٢٨ - ١٢٩).

(٣) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٥٣).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الزرقانى، مناهل العرفان، (١/ ٩٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦

سواء، فهم يقدمون الشك و يمعنون فيه ثم لا يعترفون إلا بالحسيات، و لا يحفلون بمجرد العقليات» (١). لذا فإن منهجهم قادهم إلى الحال التى أصبحوا فيها «ينكرون ما وراء المادة، و يسرفون فى الشكوك إلى أبعد الحدود و يستخفون بأمر الإلهيات و النبوات و الوحي إلى مدى بعيد» (٢).

و سوف نتدرج بمناقشة أدلة الوحي العلمية كى تساق على نحو عقلى منطقى و كى لا يضيع القارئ فى أجزاء البحث.

موقف العلم من مسألة الوحي:

و هى أدلة مهمتها إثبات إمكانية الوحي و تقريبه إلى العقول (٣).

و عند ما نقول بالإمكانية يعنى هذا أن وجود الوحي لا يناقض أحكام العقل، أى أن وجود ظاهرة الوحي ليس مستحيلا عقليا إنما هو من الممكنات العقلية. «و إمكان الوحي هو الخطوة الأولى فى الموضوع، و هو ملحوظ فى المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلى الآتى» (٤) لذا فإن الزرقانى رأى من الصواب و الحق أن تتقدم الأدلة العلمية على وجود الوحي أو وجوب الإيمان به و تتبوأ مكان الصدارة على ما سواها من الأدلة (٥).

الدليل الأول: التنويم الصناعى، أو التنويم المغناطيسى: و هو من المقررات العلمية الثابتة، كشفه الدكتور «مسمر» الألمانى فى القرن الثامن عشر، و جاهد هو و أتباعه على مدى قرن كامل فى سبيل إثباته ... فاعترف العلماء به علميا، بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق و اطمأنوا إلى تجاربه، و أخيرا أثبتوا بوساطته ما يأتى:

١- أن للإنسان عقلا باطنا أرقى من عقله المعتاد كثيرا.

٢- أنه و هو فى حالة التنويم يرى و يسمع من بعد شاسع و يقرأ من وراء حجب و يخبر عما سيحدث مما لا يوجد فى عالم الحس أقل علامة لحدوثه.

٣- أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل الباطن سموا بتنقله فيها.

٤- أنه قد يصل إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده و تمثل إلى جانبه غير مرئية، بينما يكون الجسم فى حالة تشبه الموت، لولا علاقة خفية بين الروح و الجسم. (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (١/٩٣).
(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، (١/٩٤)، بشيء من التصرف.

(٤) انظر فى مناهل العرفان (١/٩٤).

(٥) انظر فى مناهل العرفان (١/٩٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧

٥- أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحا.

٦- أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال.

٧- أن الروح لا تتحلل بانحلاله.

٨- أنها تتصل بالأرواح التى سبقتها إذا تجردت عن المادة» (١).

و يسوق صاحب مناهل العرفان ما رآه بعينه، و سمعه بأذنه، ... على مرأى و مسمع من جمهور مثقف كبير حضر ليشهد محاضرة مهمة فى التنويم المغناطيسى، و إثبات أنه يمكن أن يتخذ سلاحا مسموما لتغيير عقيدة الشخص و دينه:

قام المحاضر- و هو أستاذ فى التنويم المغناطيسى- و أحضر الوسيط و هو فتى فيه استعداد خاص للتأثر بالأستاذ، و الأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط. فالأول ضعيف النفس، و الثانى قويها، و للضعف و القوة وجوه ليس هذا هو موضع بيانها. نظر الأستاذ فى عين الوسيط نظرات عميقة نافذة و أجرى عليه حركات يسمونها سحبات، فما هى إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يغط غطيط النائم، و قد امتقع لونه، و همد جسمه، و فقد إحساسه المعتاد، حتى لقد كان أحدنا يخزه بالإبرة و خزات عدة، و يخزه كذلك ثان و ثالث، فلا يبدى الوسيط حراكا، و لا يظهر أى عرض لشعوره و إحساسه بها، و حينئذ تأكدنا أنه قد نام ذلك النوم الصناعى أو المغناطيسى. و هناك تسلط الأستاذ على الوسيط يسأله:

ما اسمك؟ فأجابته باسمه الحقيقى. فقال الأستاذ: ليس هذا هو اسمك، إنما اسمك كذا- و افترى عليه اسما آخر- ثم أخذ يقرر فى نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب، و يمحو منه أثر الاسم القديم الصادق بوساطة أغاليط يلقتها إياه فى صورة الأدلة، و بكلام يوجهه إليه فى صيغة الأمر و النهى، و هكذا أملى عليه هذه الأكذوبة إملاء، و فرضها عليه فرضا حتى خضع لها الوسيط و أذعن» (٢).
ثم يقول الزرقانى موضحا ما حصل بعد كل ذلك:

ثم «أخذ الأستاذ و أخذنا نناديه باسمه الحقيقى المرة بعد الأخرى فى فترات متقطعة و فى أثناء الحديث على حين غفلة، كل ذلك و هو لا يجيب. ثم ناديه كذلك باسمه الموضوع فيجيب دون تردد و لا تلثم ... ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائما أن هذا الاسم هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه و يقظه. ثم أيقظه و أخذ يتم محاضراته و نحن نفجأ الوسيط بالاسم الحقيقى فلا يجيب، ثم نفجؤه باسمه الثانى فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروبة عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (١/٩٤-٩٥).

(٢) المصدر نفسه، (١/٩٥-٩٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٨

الحقيقى باسمه الحقيقى» (١).

يقول الزرقانى معقبا على ما سبق:

«و بهذه التجربة أثبت الأستاذ أن المنوم- بكسر الواو- يستطيع أن يمحو من نفس وسيطه كل أثر يريد محوه، مهما كان ثابتا فى النفس، كاسم الإنسان عينه، و مهما كان مقدسا فيها كعقائد الدين.

و إنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين:

أحدهما: أن محو الدين عدوان أثير، و إجرام شنيع، لم تقبله نفسية المحاضر و لا المحاضرين.

ثانيهما: أن الاسم أثبت فى نفس صاحبه من دينه، فمحوه أعجب، و منه تعلم أن محو الدين فيها أيسر! و بهذه التجربة أيضا ثبت لى أنا من طريق علمى ما قَرَّب إلى الوحي عمليا، و ما جعلنى أعلله تعليلا علميا: فالوحي عن طريق الملك عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالا- يؤثر به الأول فى الثانى و يتأثر فيه الثانى بالأول، و ذلك باستعداد خاص فى كليهما، فالأول فيه قوة الإلغاء و التأثير لأنه روحانى محض، و الثانى فيه قابلية التلقى عن هذا الملك لصفاء روحانيته، و طهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك. و عند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية، و يظهر أثر التغيير عليه، و يستغرق فى الأخذ و التلقى عن الملك، و ينطبع ما تلقاه فى نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي و عاد إلى حالته الأولى وجد ما تلقاه ماثلا فى نفسه، حاضرا فى قلبه كأنما كتب فى صحيفة فواده كتابا» (٢).

فإذا كان المخلوق قادرا على أن يؤثر فى مخلوق على نحو ما رأينا من تأثير أستاذ التنويم المغناطيسى على تلميذه، فهل من الصعب على مالك القوى و خالقها أن يؤثر فى نفس عبد من عباده عن طريق الوحي الملك المرسل إلى ذلك العبد؟ كلا، ثم كلا، لأن الله على كل شىء قدير. ثم أنه الأعم و الأحكم فى اختيار الطريق المثلى للاتصال بعباده المرسل إليهم، و هو الأعم بالطريقة المؤثرة فى نفوس عباده ألا يعلم مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) «٣». (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (١/ ٩٦-٩٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة الملك، الآية: (١٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٩

الدليل العلمى الثانى: «إن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه و نشاهده و ننتفع به. مثل: (الهاتف- و اللاسلكى- و المذياع ..) و عن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان فى آفاق بعيدة عنه و أن يفهمه ما شاء و يرشده إلى ما أراد، فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر، عن أن يوحى إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملك أو غير الملك؟ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

الدليل الثالث: استطاع العلم أن يملأ أسطوانات أو أشرطة كاسيت أو ما نسميه بالقرص الليزرى و بوضع هذه الأدوات فى الأماكن المخصصة لها من أجهزتها تؤدى الكلام بدقة و إتقان- فهل يستبعد على الله القادر من أن يملأ نفوسا صافية طيبة بكلام طيب مبارك يهدى به الخلق سبل الرشاد! الدليل الرابع: قرر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية، تعتبر من الخوارق التى لم يكن يحلم بحدوثها العلماء على حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوا فى حالة ذهول، و قد استحال تحليل ما أتوا به تعليلا ماديا يستند إلى الحس، و قد اختبروا تلك الظواهر، و استحضروا لشهودها أكبر مشعوذى الأرض فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة فى شىء، و إنما هى أحداث روحانية، لا أثر فيها للمهارة و خفة اليد.

تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث الحاضر، يقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس فى حالة من حالات ذهولهم بانكشافات و ظواهر روحية فكيف يستبعد بجانب هذا الكشف العلمى أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق

الوحي، بينما هم من كمله العقول و الأخلاق؟ لقد أسفر الصبح لذى عينين» (١).

و فى هذه المناسبة لا بد لنا من التنويه و التذكير أن الشيخ الزرقانى رحمه الله لم يكن يريد أن يقرر أن الوحي الذى هو اتصال النبى صلى الله عليه و سلم بالملا- الأعلى- كاتصال المنوم أو الوسيط فى التقويم المغناطيسى أو الصناعى بالأرواح- وإنما أتى الزرقانى بهذا المثال من باب التقريب، أى يقرب فكرة الوحي إلى عقول الماديين و ليسين لهم: أن التواصل بين الأحياء و الأرواح لا ينكرها العقل العلمى بل أقام العلم الدليل على حصول مثل هذا التواصل» (٢). (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (١ / ١٠١).

(٢) من كلام بديع السيد اللحام فى تحقيقه لمناهل العرفان، (١ / ٩٤). بتصرف.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٥٠

الأدلة العقلية على ثبوت ظاهرة الوحي:

إن الدليل العقلى على وقوع الوحي هو ما أخبر عنه الصادق المعصوم فى الأحاديث السابقة التى قد سقناها من القرآن أو من السنة الثابتة فى الصحاح ... «فلو لا أن الكلمة وردت إلينا من هذه المصادر، لما كان لها وجود فى أفكارنا و لا فى أفكار أعداء الإسلام، و من ثم لم يكن ليقوم حولها أى بحث، و لم تكن لتفسر بأى نظرية من النظريات أو معنى من المعانى لا عندنا نحن المسلمين، و لا عند أولئك الآخرين» (١).

و ما دام المصدر الوحيد لوجود ظاهرة الوحي القرآن و السنة الصحيحة و هما الوثيقتان التاريخيتان الوحيدتان اللتان أكدتا ظاهرة الوحي، فمن غير الصحيح البتة أن «نضرب صفحا عن هذه النصوص عند ما تتولى لنا تفسير هذه الظاهرة و كشف اللثام عنها» (٢). و يعلل البوطى ذلك «لأن كل مفكر يعلم أن الباحث عليه أن يسلك أحد السبيلين: إما أن يضرب صفحا عن حديث التاريخ كله و عن هذه النصوص الواردة جميعها، و عندئذ فليس له أن يتحدث عن شىء اسمه الوحي فى حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم أصلا، لأن المفروض أنها كلمة غير موجودة فى حياته، و إما أن يعتمدها و لا يسعه إنكارها، و عندئذ فإن عليه أن يلقى السمع إلى كل ما تثبت و تنطق به هذه النصوص من الحقائق و الوقائع. و لذلك: صح لنا أن نقول فى غير مبالغة و لا تجن على الحقيقة: إن أولئك الذين يعمدون إلى نصوص القرآن و السنة و نصوص السيرة فيستلون منها كلمة «الوحي» مجردة و مشدبة عن كل ما يتولى تفسيرها و بيانها من تلك النصوص نفسها، ليرغموا الكلمة على أن تحمل معانى و تأويلات أخرى غير تلك المعانى التى تولّى التاريخ و تولّت النصوص إعطاءها إياها- نقول: إن أولئك العابثين لا- يعاندون العلم فقط، بل إنهم ليعاندون العقل فى أوضح مقتضياته البديهية المسلمة» (٣).

فالأحداث و الوقائع المجتمعة بنزول الوحي كما وصلت إلينا بالأسانيد الموثقة كلها تشير إلى عظيم الحكمة، و كبير العناية الإلهية برسول الله صلى الله عليه و سلم:

«لقد فوجئ محمد عليه السلام و هو فى غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه، و هو يقول له:

اقرأ» حتى يتبين له أن ظاهرة الوحي ليست أمرا ذاتيا داخليا مرده إلى حديث النفس المجرد (١) محمد سعيد رمضان البوطى، كبرى اليقينيات الكونية، ط (٥)، دار الفكر / دمشق، (١٣٩٧ هـ) ص (٢٠١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٠٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٥١

و إنما هو استقبال و تلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس و داخل الذات. و ضمّ الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلًا فى كل مرة: اقرأ- يعتبر تأكيدا لهذا التلقى الخارجى و مبالغة فى نفى ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالا داخليا فقط» (١).

«و لقد داخله الخوف و الرعب مما سمع و رأى حتى أنه قطع خلوته فى الغار و أسرع عائدا إلى البيت يرجف فواده» (٢).
من هنا يظهر لكل باحث منصف أو مفكر حر همه الوصول إلى الحقيقة أن الرسول لم يكن تواقا أو مشتاقا هذا الشوق الشديد للرسالة،
«و أن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما كان قد يتصوره أو يخطر فى باله و إنما طرأت طروءا مثيرا على حياته،
و فوجئ بها (بالرسالة) دون أى توقع سابق» (٣). «و لا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج فى التأمل و التفكير إلى أن تتكون فى نفسه-
بطريقة الكشف التدريجى المستمر- عقيدة يؤمن بالدعوة إليها ... ثم إن شيئا من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي
أو التأملات العلوية لا تستدعى الخوف و الرعب و اصفرار اللون. يدل على ذلك القياس اليقيني القائم على استقراء الحالات و جميع
الظروف المشابهة، و ليس ثمة أى انسجام بين التدرج فى التفكير و التأمل من ناحية، و مفاجأة الخوف و الرعب من ناحية أخرى، و إلا
لزم من ذلك أن يعيش عامة المفكرين و المتأملين نهبا لدفعات من الرعب و الخوف المفاجئة المتلاحقة. و أنت خبير أن الخوف و
الرعب و رجفان الجسم و تغير اللون- كل ذلك من الانفعالات القسرية التى لا سبيل إلى اصطناعها و التمثيل بها، حتى لو فرضنا!
إمكان صدور المخادعة و التمثيل منه عليه السلام و فرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثه من الصدق و الأمانة إلى
عكس ذلك تماما» (٤).

لقد خشى الرسول على نفسه عند ما قال لخديجة: «لقد خشيت على نفسى» أى من الجان، و لكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذى
الشياطين و الجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة و الصفات الحميدة. «و قد كان الله عزّ و جل قادرا أن يربط على قلب رسوله و يطمئن
نفسه بأن هذا الذى كلمه ليس إلا جبريل: ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس- و لكن الحكمة الإلهية الباهرة
تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد قبل البعثه، و شخصيته بعدها، و بيان أن شيئا من أركان العقيدة الإسلامية أو (١) محمد
سعيد رمضان البوطى، كبرى اليقنيات، ص (٢٠٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٥٢

التشريع الإسلامى لم يطبخ فى ذهن الرسول صلى الله عليه و سلم مسبقا، و لم يتصور الدعوة إلى شيء منه مطلقا» (١).
و كذلك فإن جواب ورقة بن نوفل لخديجة التى سألتها عما فوجئ به الرسول صلى الله عليه و سلم الذى أكد إنما هو الوحي الإلهي
الذى قد نزل على رسل الله السابقين ...

و أما فى انقطاع الوحي لفترة طويلة بلغت الأشهر فإن فيه ردا بليغا على ما قاله «محترفو الغزو الفكرى مفسرين به ظاهرة الوحي النبوي
من أنه الإشراق النفسى المنبعث لديه من طول التأمل و التفكير و أنه أمر داخلى منبعث من أعماقه» (٢) ...
هذا فضلا عن أن الرسول كان لا يجيب على كثير من الأسئلة التى تواجهه منتظرا وحي ربه، فلو كان الأمر إشراقات فليس بإمكانه أن
يستدعى هذه الإشراقات النفسية فى كل وقت يحتاجه، كأن يستحضر الإشراقات وقت توجه الأسئلة إليه أو فى أوقات المحاجة مع
خصومه فى الدعوة- ثم إن كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الحديث مختلف كل الاختلاف عن الذى بلغه للناس على أنه
قرآن. فهل الإشراق النفسى يتباين بين اللحظة و الأخرى!!

من الشبه المطروحة حول مسألة الوحي:

١- لما ذا ينتزل الوحي على محمد رسول الله دون أن تبصره عيون الصحابة و هم معه فى المجلس نفسه الذى تنزل الوحي فيه على
رسول الله صلى الله عليه و سلم؟

يجيب محمد سعيد رمضان البوطى: «أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار، إذ إن وسيلة الإبصار فينا محددة بحد معين، و إلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشئ معدوما إذا ابتعد عن البصر بعدا يمنع من رؤيته. على أن من اليسير على الله جلّ جلاله و هو الخالق لهذه العيون المبصرة أن يزيد فى قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى» (٣).

يقول مالك بن نبي: «إن عمى الألوان مثلا يقدم لنا حالة نموذجية لا يمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون، و هناك أيضا مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر و فوق الضوء البنفسجى لا تراها أعيننا، و لا شئ يثبت عمليا أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون، فقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية أمام تلك الأشعة كما يحدث فى حالة الخلية الضوئية الكهربية» (٤). هذا- ناهيك «أن ظاهرة الوحي (١) لمزيد من الاطلاع انظر: محمد سعيد رمضان البوطى، كبرى اليقينيّات، ص (٢٠٤)، (٢٠٥).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) محمد سعيد رمضان البوطى، كبرى اليقينيّات، ص (٢٠٦، ٢٠٧).

(٤) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص (١٥١)، دار الفكر، دمشق، ط ٢ (١٩٨٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٥٣

سيصحبها فيما بعد دلائل حسيّة يشعر بها بعض من شاهدوها خلال حدوثها» (١).

و قد أشرنا فيما سبق إلى حالات نزول الوحي: مثل صلصلة الجرس و ما رافقها من تفصّد جبين رسول الله صلى الله عليه و سلّم عرقا. ثم إن استمرار الوحي حقيقة قاطعة أنه ليس ظاهرة نفسية محضة وفق ما أراد المضللون أو المشككون، و هذا يمكن إجماله على النحو التالى:

١- التمييز الواضح بين القرآن و الحديث، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فورا، على حين يكتفى بأن يستودع الثانى ذاكرة أصحابه؛ لا لأن الحديث كلام من عنده لا- علاقة للنبوة به، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ و الحروف بواسطة جبريل عليه السّلام، أما الحديث فمعناه وحي من الله عزّ و جل، و لكن لفظه و تركيبه من عنده صلى الله عليه و سلّم.

٢- كان النبى صلى الله عليه و سلّم يسأل عن بعض الأمور فلا يجيب عليها و ربما مرّ على سكوته زمن طويل حتى إذا نزلت آية من القرآن فى شأن ذلك السؤال، طلب السائل و تلا عليه ما نزل من القرآن فى شأن سؤاله، و ربما تصرف الرسول على وجه معين فتزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه و ربما انطوت على عتب أو ملامة له.

٣- كان الرسول صلى الله عليه و سلّم أميا ... و ليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية» (٢) ... إذ أن تتابع نزول الوحي جعل الحقائق التاريخية و الاجتماعية تتراحم فى وعيه علما أن هذه المعارف التاريخية و الاجتماعية لم يسبق أن سجلت فى صفحة معارفه، بل حتى فى معارف عصره، و مناحى اهتمامه ... هذه الحقائق ليست مجرد تعميمات غامضة، و لكنها معلومات محددة تضم تفاصيل هامة عن تاريخ الوجدانية. فقصه يوسف عليه السّلام المفصلة، مثلا، أو التاريخ المفصل لهجرة بنى إسرائيل لا يمكن اعتبارهما مجرد اتفاق عارض، بل يجب حتما أن يأخذ لدى محمد صلى الله عليه و سلّم صفة الوحي العلوية» (٣).

و ما قلناه حول معرفته بقصه يوسف ينسحب على كل القصص مثل قصة أم موسى و إلقائها وليدها فى اليم، و قصة فرعون ... «و لقد كان هذا من جملة الحكم فى كونه أميا و ما كُنْتُ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخْطُهُ يَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطُلُونَ (٤٨)» (٤).

لذا كان حقا قول القرآن بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ مَا يُجْحَدُ (١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص (١٥١).

(٢) محمد سعيد رمضان البوطى، كبرى اليقينيّات، ص (٢٠٨).

(٣) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص (١٥٧).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: (٤٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٥٤

بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) «١».

٤- و لعل ادعاء أى شخص فى قضية من القضايا يخضع - عند الناس الذين عايشوه لفترة ليست قصيرة من الزمن - للاختبار و المقارنة بين ادعائه و ماضى حياته، أى أن الناس سيدرسون تاريخه الشخصى هل كان كاذبا أو صادقاً فى سيرته الذاتية الحياتية؟
فالتاريخ حدثنا حديثاً لا مراء فيه جازماً بصدق محمد «و هو قبل ذلك صادق مع نفسه، فدراسته الواقعية لحالته الغريبة يجب أن يكون نوعاً من الدرس الباطنى القرآنى، لتقضى هذه الدراسة على أى شك يخيل عينيه» «٢» ... إذا صدق الرسول سيدفعه لدفع كل الشكوك التى يمكن أن تبعد عنه حقيقة ما هو فيه. و على ذلك فإن محمداً رسول الله صلى الله عليه و سلم سيقوم بالدراسة التى ستجزم بحقيقة ما هو فيه وفق منهجين مختلفين:

الأول: ذاتى محض يقتصر على ملاحظته وجود الوحى خارج الإطار الشخصى.

و الثانى: موضوعى يقوم على الموازنة الواقعية بين الوحى المنزل، و ما ورد من التفاصيل المحددة فى كتب اليهود و النصارى مثلاً، و كأنما كان الوحى - أحياناً - يعلمه هذا المنهج الأخير الموضوعى عند ما لا يكون الأمر أمر اقتناعه هو - لأنه اقتنع منذ زمن طويل - بل أمر تأسيس و تربية للذات المحمدية، و لا سيما عند ما يجادل المشركين عن عقيدته، أو وفود النصارى الآتية من أطراف الجزيرة، كوفد نجران الذى أتاه ليناقد مع عقيدة التثليث و فى هذا يحدثه الوحى صراحةً «٣»:

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسِئَلِ الَّذِينَ يَلْقَوْنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) «٤».

فقال النبى صلى الله عليه و سلم عندئذ: «لا أشك و لا أسأل» «٥».

من ذلك ظهر لنا النهج الذى سلكناه فى تحديد فهمنا لمسألة الوحى فى حياة النبى صلى الله عليه و سلم، الذى يمكن أن نلخصه «بأننا نجد أنفسنا أولاً أمام خبر يقينى وصل إلينا بالتواتر، طبق شروطه المعروفة، ألا و هو خبر أن النبى صلى الله عليه و سلم قد أوحى إليه» «٦». (١) سورة العنكبوت، الآية: (٤٩)، و انظر كبرى اليقينيات، ص (٢٠٨).

(٢) مالك بن نبى، الظاهرة القرآنية، ص (١٥٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٥٧، ١٥٨).

(٤) سورة يونس، الآية: (٩٤).

(٥) أخرجه عبد الرزاق و ابن جبير عن قتادة.

(٦) محمد سعيد رمضان البوطى، كبرى اليقينيات، ص (٢٠٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٥٥

و بعد أن يجد الباحث الحقيقة ماثلة على صدق النبى صلى الله عليه و سلم بنزول الوحى عليه، وجدنا هذا الخبر الموحى يقدم لنا وقائع و أحداث كان لا بد من قبولها بالتصديق و الإثبات، بعد أن صدقناه فى إثبات أصل الوحى. و لما فرضنا (مع تصديق هذه الوقائع و اعتمادها) أن يكون الوحى شيئاً مما يقوله الجاحدون بنبوته عليه الصلاة و السلام، وجدنا هذه الفرضية تستلزم لزوماً بينا نتائج باطلة لا يقبلها عقل أى مفكر. فالملمهون و الشعراء لا يقعون فريسة لارتعاد الفرائص و اصفرار اللون عند ما يمارسون شيئاً من التفكير، و محمد صلى الله عليه و سلم لا يعقل أن يكون منطويماً فى وقت واحد على أدق صفات الأمانة و الصدق و على أحط مظاهر التجديج و الكذب و التمثيل. و إذا ظهر بطلان هذه النتائج فى ميزان أى عقل سليم ظهر بطلان الفرضية التى استلزمها. و إذا بطلت تلك الفرضيات، ثبت ما دلت عليه وقائع النصوص نفسها من أن الوحى لم يكن إلا تلقياً منه عليه الصلاة و السلام لحقيقة خارجة عن كيانه بعيدة عن إرادته، لم يكن مستشرفاً لها، و لا متوقفاً شيئاً منها» «١». (١) محمد سعيد رمضان البوطى، كبرى اليقينيات، ص (٢٠٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٥٧

الفصل الثالث نشأة علوم القرآن

نشأة علوم القرآن

قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) «١».

يقول الزركشى: «إن القرآن إنما أنزل بلسان عربى مبين فى زمن أفصح العرب؛ و كانوا يعلمون ظواهره و أحكامه» «٢». لأنهم عرب خُصّ فصحاء متدوقون لأساليب العرب الرفيعة، «فإذا أشكل عليهم فهم شىء من القرآن سألوا عنه النبى صلى الله عليه و سلم، كسؤالهم لما نزل:

وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ «٣». فقالوا: أينما لم يظلم نفسه! ففسره النبى صلى الله عليه و سلم بالشرک! و استدلل عليه بقوله تعالى: إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «٤»- و كسؤال عائشة- رضى الله عنها عن الحساب اليسير فقال: «ذلك العرض، و من نوقش الحساب عذب» «٥»- و كقصه عدى بن حاتم فى العقال الذى وضعه تحت رأسه» «٦» و غير ذلك.

و لم تكن الحاجة قائمة إلى وضع تفسير للقرآن فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم لأن الله تعالى آتى رسوله الكتاب و علمه. أما الصحابة رضى الله عنهم فكانوا عربا فصحاء يعلمون الكتاب على نحو عام و ما استغلق عليهم سألوا عنه رسول الله صلى الله عليه و سلم- «أما حادثة قصة عدى بن حاتم التى رواها مسلم فى صحيحه فإنها حادثة فردية لا تنطبق على جمهور الصحابة الكرام، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (١) سورة يوسف، الآية: (٢).

(٢) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن (١/ ١٤).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٨٢).

(٤) سورة لقمان، الآية: (١٣).

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى (الحديث: ٧١٥٦).

(٦) فى ذلك إشارة إلى الحديث الذى رواه مسلم فى كتاب الصيام (الحديث: ٢٥٢٨) عن عدى بن حاتم لما نزلت: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ [البقرة: ١٨٧].

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٠

لحاتم: «إن وسادتك لعريضة»، كناية عن الغفلة، و إن كان القاضى عياض ينكر هذا و يرى أن المراد (إنك ضخم)- أو كما ورد فى صحيح البخارى «إنك لعريض القفا» «١» و القصة فى صحيح مسلم على النحو الآتى:

لَمَّا نَزَلَتْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ قَالَ لَهُ عَدَى: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجْعَلُ تَحْتَ وَسَادَتِي عَقَالِينَ: عَقَالًا أبيض، و عقالا أسود أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن وسادك لعريض، إنما هو سواد الليل، و بياض النهار» «٢».

و كما قلنا فإن هذه الحادثة فردية لا تنطبق على جمهرة الصحابة، كذلك فإن أكثر الصحابة أميون، و لم تكن أدوات الكتابة متيسرة لديهم ... زد على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم نفسه قد نهاهم أن يكتبوا عنه شىئا غير القرآن، و قال لهم أول العهد بنزول الوحي «لا تكتبوا عنى، و من كتب عنى غير القرآن فليمحه، و حدثوا عنى و لا حرج، و من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» «٣». و ذلك حذرا من أن يخلط القرآن بغيره.

علوم القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه و بقية الصحابة الخلفاء و لمححة عن موضوع جمع القرآن:

«لقد ظلت علوم القرآن تروى بالتلقين و المشافهة على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم على عهد الشيخين أبى بكر و عمر رضى الله عنهما.

و فى خلافة عثمان رضى الله عنه بدأ اختلاط العرب بالأعاجم، و أمر عثمان أن يجتمعوا على مصحف إمام، و أن تنسخ منه مصاحف للأمصار، و أن يحرق الناس كل ما عداها، و الذى يهمننا الآن من هذا أن الخليفة الراشدى الثالث عثمان رضى الله عنه - بنسخ المصاحف قد وضع الأساس لما سمي فيما بعد بعلم رسم القرآن أو علم الرسم العثماني» (٤).

«و قد اشتهر أيضا أن عليا رضى الله عنه أمر أبى الأسود الدؤلى (ت ٦٩ هـ) بوضع بعض القواعد للمحافظة على سلامة اللغة العربية، فكان على بذلك واضح الأساس لعلم إعراب القرآن» (٥). (١) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (١١٩) هامش رقم (٤). (٢) أخرجه مسلم فى كتاب الصيام (الحديث: ٢٥٢٨).

(٣) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (١٢٠)، و الحديث: أخرجه مسلم فى (الحديث:

٧٤٣٥)، و أخرجه الترمذى فى (الحديث: ٢٦٦٥) ..

(٤) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (١٢٠).

(٥) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦١

«و فى وسعنا أن نقول: إن الممهدين لهذا العلم هم:

١- من الصحابة: الخلفاء الأربعة، و ابن عباس، و ابن مسعود، و زيد بن ثابت، و أبى بن كعب، و أبو موسى الأشعري و عبد الله الزبير رضى الله عنهم.

٢- من التابعين: مجاهد و عطاء بن يسار و عكرمة و قتادة و الحسن البصرى و سعيد بن جبير و زيد بن أسلم فى المدينة.

٣- مالك بن أنس من أتباع التابعين، و قد أخذ عن زيد بن أسلم.

«هؤلاء هم الواضعون لما نسميه علم التفسير، و علم أسباب النزول، و علم المكي و المدني و علم النسخ و المنسوخ، و علم غريب القرآن» (١).

إذا يعود الفضل لهؤلاء فى تأسيس هذا العلم؛ حتى جاء عصر التدوين فى القرن الثانى إذ ظهرت كوكبة من المشتغلين و المصنفين فى هذا العلم نذكر أبرزهم: «شعبة بن الحجاج» (٢)، و سفيان بن عيينة، و وكيع بن الجراح، ثم تلاهم ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ)، أما فى علوم القرآن الأخرى: على بن المدينى (٣)، و أبو عبيد القاسم بن سلام، فى النسخ و المنسوخ و فى القراءات و فضائل القرآن، و محمد بن أيوب الضريس (ت ٢٩٤ هـ) فيما نزل بمكة، و ما نزل بالمدينة، و محمد بن خلف المرزبان، (ت ٣٠٩ هـ): «الحاوى فى علوم القرآن» (٤).

و فى القرن الرابع: أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى: (ت ٣٢٨ هـ) «عجائب علوم القرآن» ... و أبو الحسن الأشعري «المختزن فى علوم القرآن» و هو عظيم جدا ... و أبو بكر السجستاني (ت ٣٣٠ هـ) و له فى «غريب القرآن» ... الخ.

و فى القرن الخامس: على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى، (ت ٤٣٠ هـ) «البرهان فى علوم القرآن» و «إعراب القرآن» و «أبو عمرو الدانى (ت ٤٤٢ هـ) «التيسير فى القراءات السبع».

و فى القرن السادس: أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسهلى (ت ٥٨١ هـ) «(٥).

و ظهرت مؤلفات فى القرن السابع و الثامن و لا سيما «البرهان فى علوم القرآن» (١) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (١٢٠، ١٢١).

(٢) هو محدث البصرة و أمير المؤمنين فى الحديث، ت (١٦٠ هـ).

(٣) شيخ أهل الحجاز فى التفسير، كوفى، ت (١٩٨ هـ).

(٤) ذكره الفهرست لابن النديم ص (٢٤١) و يقع فى ٢٧ جزء، بيروت دار الكتب العلمية، ط (١٩٩٦).

(٥) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (١٢١، ١٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٢

للزركشى. و فى القرن التاسع ظهر السيوطى بكتبه المتميزة مثل «الإتقان فى علوم القرآن» «١» و «مفحات الأقران فى علوم القرآن» و «التحبير فى علوم التفسير».

و فى القرن الأخير: أقبل كثير من العلماء على تصنيف الكتب حول القرآن و تاريخه و علومه «فألف الشيخ طاهر الجزائرى «البيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن» و محمد جمال الدين القاسمى «محاسن التأويل»، و محمد عبد العظيم الزرقانى «مناهل العرفان فى علوم القرآن» و محمد على سلامة «منهج الفرقان فى علوم القرآن»، و الشيخ طنطاوى جوهرى «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم»، و أديب العربية صادق الرافعى «إعجاز القرآن»، و سيد قطب «التصوير الفنى فى القرآن»، و «فى ظلال القرآن» و مالك بن نبي «الظاهرة القرآنية» و محمد رشيد رضا «تفسير القرآن، الحكيم» و فيه مباحث كثيرة فى علوم القرآن و محمد عبد الله دراز «النبأ العظيم» و «نظرات جديدة فى القرآن» «٢».

المكى و المدنى من القرآن الكريم:

من المعلوم أن الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم قضى قسما من حياته الدعوية فى مكة، و قسما آخر فى المدينة- لذا فإن العلماء اصطلاحوا على المكى معبرين عن القرآن الذى نزل قبل الهجرة، و اصطلاحوا بالمدنى على ما نزل من القرآن الكريم بعد الهجرة، هذا إجمال، و سيأتى تفصيله بعد قليل.

و معرفة القرآن المنزل بمكة و بالمدينة اكتسب ضرورة هامة لأن القرآن واكب المراحل التى قطعها الرسول صلى الله عليه و سلم بدعوته، كما أن المعرفة للمكى و المدنى أسهم فى تمييز الناسخ من منسوخه، وصولا- إلى الحكم النهائى فى موضوع من الموضوعات، خاصة أن التشريع الإسلامى نزل متدرجا مواكبا لمسيرة المجتمع الإسلامى، قال أبو القاسم الحسن بن محمد ابن حبيب النيسابورى فى كتابه «فضل علوم القرآن»:

«من أفضل علوم القرآن علم نزوله و جهاته و ترتيب ما نزل بمكة ابتداء و وسطا و انتهاء، و ترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة و حكمه مدنى، و ما نزل بالمدينة و حكمه مكى و ما نزل بمكة فى أهل المدينة، و ما نزل بالمدينة فى أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكى فى المدنى و ما يشبه نزول المدنى فى المكى» «٣». (١) هناك تشابه كبير بين الإتقان و البرهان، و هناك عبارات فى الإتقان مأخوذة كاملة، و خاصة أقوال العلماء.

(٢) انظر د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (١٢٥، ١٢٦).

(٣) الزركشى، البرهان، (١ / ١٦٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٣

و ورد فى الإتقان نقلا عن ابن العربى:

«الذى علمناه على الجملة من القرآن أن منه مكيا و مدنيا، و سفريا و حضريا، و ليليا و نهاريا و سمائيا و أرضيا، و ما نزل بين السماء و الأرض، و ما نزل تحت الأرض فى الغار» «١».

اصطلاحات العلماء فى المكى و المدنى و فيها ثلاثة اصطلاحات:

الاصطلاح الأول: «أن المكى ما نزل بمكة، و لو بعد الهجرة، و المدنى ما نزل بالمدينة». و يدخل فى مكة ضواحيها كالمنازل على

النبي صلى الله عليه و سلم بمنى و عرفات و الحديبية».

و يدخل فى «المدينة» ضواحيها كالمزمل عليه فى بدر و أحد.

و هذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول كما ترى. لكن يردّ عليه أنه غير ضابط، و لا حاصر، لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة و المدينة و ضواحيها، كقوله سبحانه فى سورة التوبة: لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيْباً وَ سَفِراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) «٢» فإنها نزلت بتبوك.

الاصطلاح الثانى: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة و المدنى و ما وقع خطابا لأهل المدينة.

و عليه يحمل قول من قال: إن ما صدر فى القرآن بلفظ: «يا أَيُّهَا النَّاسُ» فهو مكي! و ما صدر بلفظ: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فهو مدنى، لأن الكفر كان غالبا على أهل مكة فخطوبوا ب «يا أَيُّهَا النَّاسُ» و إن كان غيرهم داخلا- فيهم، و لأن الإيمان كان غالبا على أهل المدينة.

و هذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون، لكن يردّ عليه أمران:

أحدهما: ما ورد على سابقه من أنه غير ضابط و لا حاصر، فإن فى القرآن ما نزل غير مصدر بأحدهما نحو قوله تعالى فى فاتحة سورة الأحزاب: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّبِعِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْماً حَكِيْماً (١) «٣» و قوله تعالى فى فاتحة سورة المنافقين: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) «٤». (١) السيوطى، الإتقان، (١/ ٢٢). المكتبة العصرية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) سورة التوبة، الآية: (٤٢).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (١).

(٤) سورة المنافقين، الآية: (١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٤

ثانيهما: إن هذا التقسيم غير مطرد فى جميع موارد الصيغتين المذكورتين، بل إن هناك آيات مدنية صدرت بصفة «يا أَيُّهَا النَّاسُ» و هناك آيات مدنية صدرت بصفة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا». مثال الأولى: سورة النساء: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ «١» و فى سورة البقرة: يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ «٢» و مثال الثانية: سورة الحج فهى مكية مع أن فى أواخرها: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا «٣».

الاصطلاح الثالث: و هو المشهور: «أن المكي ما نزل قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة، و إن كان نزوله بغير مكة، و المدنى ما نزل بعد هذه الهجرة، و إن كان نزوله بمكة».

و هذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول و هو تقسيم صحيح سليم، لأنه ضابط حاصر و مطرد» «٤».

فائدة العلم بالمكى و المدنى:

من المؤكد أن عددا غير قليل من الفوائد نجنيها إذا عرفنا و ميزنا بين المكى و المدنى من القرآن، و يمكن إجمال بعض الفوائد على النحو التالى:

١- تمييز الناسخ و المنسوخ، فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم فى موضوع واحد، و كان الحكم فى إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفا للحكم فى غيرها، ثم عرف أن بعضها مكي و بعضها مدنى، فإننا نحكم بأن المدنى منها ناسخ للمكى نظرا إلى تأخر المدنى عن المكى.

٢- و من فوائده أيضا معرفة تاريخ التشريع و تدرجه الحكيم بوجه عام، و ذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية بتربية

الشعوب و الأفراد ...» (٥).

٣- و من فوائده أيضا الثقة بهذا القرآن و بوصوله إلينا سالما من التغيير و التحريف» (٥) ... و هذا ما يفسر اهتمام المسلمين بمواطن النزول المكاني و الزماني، مع ما رافق هذا النزول من الأحداث و المناسبات المساعدة على فهم النص و توجيهه على نحو سديد. و أما الطريق الموصلة إلى معرفة المكي و المدني فسيبيله النقل عن الصحابة و التابعين، (١) سورة النساء، الآية: (١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢١).

(٣) سورة الحج، الآية: (٧٧).

(٤) الزرقاني، مناهل العرفان، (١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٥) الزرقاني، مناهل العرفان، (١/ ٢٤٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٥

إذ لم يرد عن النبي صلى الله عليه و سلم نقل صحيح فى تحديد هذا الأمر، لأن القرآن كان ينزل على مشهد من جموع الصحابة هنا أو هناك.

عدد السور المكية و المدنية:

بلغ عدد السور المكية وفق ما ذكره الزركشى فى «البرهان» و السيوطى فى «الإتقان» خمسا و ثمانين سورة، و بلغت السور المدنية وفق هذين المصدرين تسعا و عشرين سورة ...

و وقع الاختلاف فى اثنتى عشرة سورة، و لعل سبب الخلاف أن بعض السور نزل بين مكة و المدينة، و إن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على جدية البحث فى هذا المضمرة» (١).

خصائص الآيات المكية:

أولا- من حيث الأسلوب:

امتاز أسلوب الخطاب فى الآيات المكية بالتعنيف و التهديد و الوعيد و التخويف، نظرا لقساوة قلوبهم، لذا استعمل القرآن: «كلا» للزجر و الردع ... و خاطبهم ب «يا أَيُّهَا النَّاسُ»، و قصّ عليهم قصص الأنبياء السابقين و أممهم. كما أن الآيات المكية قصيرة.

ثانيا- من حيث الموضوع:

حثت الآيات المكية على تصحيح الإيمان، و نبذ الشرك بأنواعه، و دعت إلى الإيمان بالبعث و النشور و الجنة و النار ... و نددت بعبادات المكيين و تقاليدهم الجاهلية، و حقرت عباداتهم الصّينية، و سلوكهم العدوانى ضد المرأة، كما امتاز القرآن المكي بخطابه العقلى النقدى لآليات تفكير المكيين المقدّسة لآراء الآباء و الأجداد، و دعاهم لتوظيف العقل الإنسانى توظيفا صحيحا يقوم على التفكير الحر، و المطالبة بالبرهان و العلم و السلطان، و المقارنة و الترجيح ... و الدعوة إلى الفضيلة و مكارم الأخلاق.

خصائص الآيات المدنية:

و كما جاءت الآيات المكية مستجيبة للسّمات العامة للمجتمع المكي، معالجة لعقائده و سلوكياته و عاداته و تقاليدته ... فالأمر نفسه يقال حول الآيات المدنية، إذ كان المجتمع المدني يختلف بظروفه الداخلية و الخارجية عن المجتمع المكي، ... و هذا بديهى أى أن

الخطاب يجب أن يعالج مشاكل المخاطب، ... و إلا كان الكلام لا طائل منه. (١) الزركشى، البرهان، (١/ ١٩٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٦

لذا فقد «اختلف أسلوب الخطاب القرآنى، و اختلفت موضوعاته، و توجه الخطاب إلى أهل المدينة من مؤمنين و منافقين و يهود، مشجعا المؤمنين على الدفاع عن وجودهم و كيانههم، محذرا المنافقين من مغبة ما يفعلونه فى الظلام من غدر، ناصحا إياهم بالتوبة، و التزام طريق المؤمنين» (١). و يمكن إجمال خصائص الآيات المدنية على النحو التالى:

- ١- بيان أحكام التشريع: من حدود و إرث و معاملات مادية، و بيان مناهج الحكم، لذا جاءت الآيات المدنية ذات طبيعة تشريعية» (٢).
- ٢- وضوح أحكام الجهاد: الذى لم يكن مشروعاً فى مكة» (٣).
- ٣- توجيه الخطاب إلى المؤمنين يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ .. «(٤).
و يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا «(٥).
و يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذُرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٧٨) «(٦).

علم الناسخ و المنسوخ:

لقد أنزل الله تعالى الكتاب (القرآن) تبياناً لكل شىء و هدى و رحمة، و فرض منه فرائض محكمة، و فرض فرائض آخر نسخها رحمة بعباده، و توسع عليهم، و تخفيفاً، فكل ما أثبتته الله تعالى من الفرائض أو ما نسخه بالمحصلة فى مصلحة العباد و رحمة بهم. «و أبان الله لهم أنه إنما نسخ ما نسخ من الكتاب بالكتاب، و أن السنة لا ناسخة للكتاب، و إنما هى تبع للكتاب بمثل ما نزل نصاً، و مفسرة معنى ما أنزل الله منه جملاً» (٧).

قال تعالى: وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلْتَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ (١٥) (٨). و قال تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) «٩». (١) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (١٣٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة المائدة، الآية: (٩٠).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٢٠٠).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٧٨).

(٧) الشافعى، الرسالة، ت محمد أحمد شاكر، ط دار الفكر، ص (١٠٦).

(٨) سورة يونس، الآية: (١٥).

(٩) سورة الرعد، الآية: (٣٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٧

قال الشافعى: «فى قوله تعالى: مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِي: بيان ما وضعت من أنه لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه، كما كان المبتدئ لفرضه، فهو المزيل المثبت لما شاء منه، جل ثناؤه، و لا يكون ذلك لأحد من خلقه» (١). و قال الشافعى: «بعض أهل العلم - فى هذه الآية. يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ «(٢).

و الله أعلم - دلالة على أن الله جعل لرسوله أن يقول من تلقاء نفسه بتوفيقه فيما لم ينزل به كتاباً. و الله أعلم - و قيل فى قوله: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ يمحو فرض ما يشاء، و يثبت فرض ما يشاء» (٢).

و بملاحظة قول الشافعى يظهر أن بعض أهل العلم قالوا بنسخ القرآن بالسنة. و لكن الآية الكريمة: ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها «٤».

«فأخبر الله أن نسخ القرآن و تأخير إنزاله لا يكون إلا بقرآن مثله» «٥».

و السنة ليست مثل الكتاب، و لا أفضل منه ... أما السنة فتسخها سنة، «و هكذا سنة رسول الله: لا ينسخها إلا سنة لرسول الله. و لو أحدث الله لرسوله فى أمر سنّ فيه غير ما سنّ رسول الله لسنّ فيما أحدث الله إليه، حتى يبين للناس أن له سنة ناسخه لتى قبلها، مما يخالفها.

و هذا مذكور فى سنته صلى الله عليه و سلم «٦». و بالمحصلة فإن فى النسخ و المنسوخ ما يدل الكتاب على بعضه، و السنة على بعضه» «٧».

و من رحمة الإسلام بالعباد، و دقة معرفته بطباع البشر، تدرجه مع الأحداث و المناسبات و الوقائع، كى لا يفجأ الطباع البشرية، و يطالبها بتغيير أنماط حياتها التى اعتادها لفترة طويلة من الزمن، و هى ليست مهياً لتغيير كهذا الذى يريده الدين الجديد (الإسلام) ... و عند ما يتتبع الباحث المراحل المتتالية تترا فى مكة و المدينة و ما واكبها من قرآن مكى و مدنى، يجد الحاجة ميسئة «إلى علم قرآنى يلقى الضوء ساطعا على هذه الخطوات، و يعين على تتبعها و رسمها بدقة بالغه، و هو علم النسخ و المنسوخ الذى يمكننا أن نعدّه ضربا من ضروب التدرج فى نزول الوحي، فمعرفتنا بما صح من وجوهه يتيسر (١) الشافعى، الرسالة، ت محمد أحمد شاكر، ص (١٠٧).

(٢) المصدر نفسه، و الآية من سورة الرعد، الآية: (٣٩).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٠٦).

(٥) الشافعى، الرسالة، ص (١٠٧).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٠٨).

(٧) المصدر نفسه، ص (١١٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٨

علينا تعيين السابق و المسبوق من النوازل القرآنية، و تظهرنا على جانب من حكمه الله فى تربية الخلق، و تقفنا على مصدر القرآن الحقيقى: و هو الله رب العالمين، لأنه يمحو ما يشاء و يثبت و يرفع حكما، و يبدل آخر من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل فى ذلك و لا شأن، حتى و لا خاتم النبیین نفسه» «١».

النسخ و المنسوخ و كلام أهل العلم فيه:

لما كانت كلمة النسخ من المشترك اللفظى، فإنها أوجدت أرضا للاختلاف و السجال الواسع، إذ النسخ يأتى بمعنى الإزالة، و منه قوله تعالى: فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ «٢». و منه: نسخت الشمس الظل، و نسخ الشيب الشباب «٣» ...

و جاءت نسخ بمعنى التحويل «كتناسخ الموارث» لأن تناسخ الموارث هو تحويل الميراث من واحد إلى واحد «٤». و أتى النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع و منه «نسخت الكتاب» إذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه و خطه. و قد أنكر بعض العلماء هذا الوجه الأخير محتجا «بأن النسخ لا يأتى بلفظ المنسوخ إنما يأتى بلفظ آخر» «٥» و احتج السعدى لمن احتج بهذا الفهم بقوله تعالى: إِنَّا كُنَّا نَسِيحِينَ مِمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ مع قوله: وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (٤) «٦» و ما أم الكتاب فى نظر السعدى - إلا اللوح المحفوظ أو الكتاب المكنون الذى لا يمسه إلا المطهرون» فقد أتى ناسخ القرآن فيه بلفظ المنسوخ فيما نزل من الوحي نجوما من أم الكتاب» «٧».

و وفقا لما أوردنا من المعانى اللغوية المتعددة لكلمة النسخ، مع تشابكها مع المعنى الاصطلاحي دار الجدل بين العلماء غير أن الراجح أن الاستخدام القرآنى لكلمة النسخ استعمل بمعنى الإزالة، لذا كان تعريف العلماء للنسخ هو «رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى»- هذا التعريف أدق تحديد اصطلاحى لهذه اللفظة، يتناسق فى آن واحد مع لسان العرب الذى يرى النسخ إزالة و رفعاً «٨». (١) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٥٩).

(٢) سورة الحج، الآية: (٥٢).

(٣) الزمخشري، أساس البلاغة، مادة: نسخ.

(٤) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٦٠)، و انظر الزركشى فى البرهان، (٢٩ / ٢).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الزخرف، الآية: (٤).

(٧) انظر، الزركشى فى البرهان (٢)، و انظر الزمخشري فى أساس البلاغة.

(٨) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٦١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٦٩

و لا أريد الإسهاب فى موضوع النسخ و المنسوخ حذرا من توجيه البحث توجيها أصوليا. إنما لا بد من الإشارة السريعة لأهمية النسخ و المنسوخ عند المفسر الدارس للقرآن. لذا أرى مناسبا القول: إن أبا مسلم الأصبهاني لم ينكر النسخ جملة و تفصيلا، إنما قال عن بعض الآيات التى جعلها بعضهم منسوخة «إنها مخصصة» و احتج بقوله تعالى داحضا رأى من قال بالنسخ: لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) «١» و تجنب استخدام كلمة النسخ كى لا يبطل حكما قرآنيا «٢». غير أن العلماء راحوا يفرقون بين النسخ و التخصيص فعرفوا «التخصيص قصر العام على بعض أفراد» «٣».

و الحق أن النسخ يكون فى حكم شرعى استقر لفترة طويلة أو مقيدة من الزمن ثم رفع.

و التخصيص يقع بوساطة الحس و العقل إلى جانب الكتاب و السنة، كقوله تعالى: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا «٤» خصص قوله صلى الله عليه و سلم: «لا قطع إلا فى ربع دينار» «٥». أما النسخ «فالدليل فيه شرعى محض» ... و يرى د. صبحى الصالح رحمه الله أن بعضهم قد توسع فى النسخ حتى خلط خلطا يجب تجنبه ... و مبالغت لهم فى هذا ما يجب أن يلجوها، و تحملات هم فى غنى عنها «٦».

و صفوة القول فى النسخ و المنسوخ:

«إن الأصل فى آيات القرآن الإحكام لا النسخ، إلا أن يقوم دليل صريح على النسخ فلا مفر من الأخذ به. و ما زال المحققون بالآيات التى قيل إنها منسوخة يبحثونها من وجوها المختلفة حتى حصروا ما يصلح منها لدعوى النسخ فى عدد قليل، و تعقب الآخرون هذا القليل نفسه فآثروا فى طائفة منه القول بالإحكام على القول بالنسخ، فالسيوطى مثلا حصر دعوى النسخ فى إحدى و عشرين آية على خلاف فى بعضها «٧»، ثم استثنى منها آيتى الاستئذان و القسمه فذكر أن الأصح فىهما أنهما محكمتان فصارت الآيات المنسوخة فى نظره لا تزيد على تسع عشرة آية» «٨».

فى حين أن د. صبحى الصالح يقول: «و لو لا خشية الاستطراد لتعقبناها فوجدنا (١) سورة فصلت، الآية: (٤٢).

(٢) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٦٢).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة المائدة، الآية: (٣٨).

(٥) انظر د. صبحى الصالح فى مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٦٣).

(٦) راجع د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٦٦، ٢٦٧).

(٧) السيوطى، الإتقان، (٢/ ٣٧، ٣٨).

(٨) المصدر السابق نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٧٠

الصالح منها للنسخ لا يزيد على عشر فقط بيد أننا نفضّل أن نحيل القارئ على ما ذكره السيوطى لعله يكتشف من تلقاء نفسه «(١)». و يقينى أن ما يقوله د. صبحى الصالح قريب جدا من الصواب أو هو الصواب. لأنه «لا يمكن تصور النسخ إلا فى حالات محدودة حيث يبرز النسخ حقيقة لا- يمكن إنكارها كما فى حالات نسخ التلاوة، و هذا نسخ حقيقى لا مجال لإنكاره» (٢) نعم هذا ما قاله محمد فاروق النبهان صحيح- لكن قوله بنسخ التلاوة حالة لا يمكن إنكارها: نكرها البعض و له فيها توجيه غير هين و لا سهل، إذ الأخبار الواردة بنسخ التلاوة أخبار آحاد، و أخبار الآحاد لا تثبت قرآنا أصلا. أما قول محمد فاروق النبهان «و هناك نسخ حكم سابق بحكم لاحق إذا تعذر الجمع بين الحكمين» (٣) فهو صحيح. و صحيح قوله أيضا: «و لا أظن أن توسيع دائرة النسخ فى القرآن من الأمور المطلوبة، فالأصل أن يكون كل ما فى القرآن خطابا للمكلفين إلا ما ثبت نسخ حكمه» (٤).

و من الأهمية القول إن كثيرا من السجلات الحادة حول النسخ و المنسوخ مردّها إلى علم الكلام الذى وُلد نقاشا فى هذا الموضوع و فى غيره، دون أن يقدم لنا فائدة تذكر على الأقل فى موضوع النسخ.

و إن كان من كلمة خاتمة فى هذا الموضوع: «فإن النسخ موجود لكنه قليل، ... و إن النسخ لا يقع إلا فى الأوامر و النواهي، لأنه رفع لحكم شرعى بدليل شرعى ... و أما الأخبار و الغيبات فلا يتصور وقوع النسخ فيها، لانعدام الفائدة، و عليه لا نسخ فى قضايا الإيمان و العقيدة، و حوارات القرآن للمشركين و المخالفين، و من أدخلها فى النسخ فقراً و أدخل فيه ما ليس منه.

علم المحكم و المتشابه:

القرآن الكريم كتاب محكم كَلِّهِ، و متشابه كَلِّهِ، إذا أردنا بالإحكام إتقانه و صفته اللفظية و المعنوية، و أردنا بالتشابه تشابهه بإحكامه المتقن، و صفته البديعة، و بلاغته الفريدة.

و جاءت كرائم الآيات مؤكدة لهذه المعانى، قال تعالى: كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (٥)، و قال تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي (٦) لذا يمكن (١) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٧٤).

(٢) محمد فاروق النبهان، مقدمة فى الدراسات القرآنية، ص (٢٠٩).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة هود، الآية: (١).

(٦) سورة الزمر، الآية: (٢٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٧١

القول: إن بحث المحكم و المتشابه الذى نريده لا علاقة له بهذين النصين إنما المحكم و المتشابه له علاقة بالنص القرآنى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) «(١)».

و واضح علاقة المقابلة فى هذه الآية الكريمة بين المحكم و المتشابه، و بين الراسخين فى العلم و الزائفة قلوبهم و عرّف بعضهم المحكم: «ما أحكمته بالأمر و النهى و بيان الحلال و الحرام» (٢). و قيل هو مثل قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ (٣). و قيل

فى المحكم «هو ما لا يحتمل فى التأويل إلا وجهها واحدا» (٤).

و أما المتشابه فأصله أن يشبه اللفظ فى الظاهر مع اختلاف المعانى، كما قال تعالى فى وصف ثمار الجنة: «وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» (٥) أى متفق المناظر مختلف الطعوم، و يقال للغامض متشابه ... و المتشابه مثل المشكل لأنه أشكل أى دخل فى شكل غيره و شاكله و قيل فيه أقوال أكتفى بذكر بعضها: هو الذى يشبه بعضه بعضا (٦) ...

و قيل هو: ما أمرت أن تؤمن به، و تكل علمه إلى عالمه (٧).

و قيل هو: ما لا يدرى إلا بالتأويل. و لا بد من صرفه إليه كقوله تعالى: تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا (٨) و قيل هو: «ما يحتمل وجوها، و المحكم ما يحتمل وجهها واحدا». و قال بعضهم:

«المتشابه: ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره» (٩) و يلاحظ أن كل هذه الأقوال متقاربة.

خلاصة فى المحكم و المتشابه:

قال تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (١٠). ثم (١) سورة آل عمران، الآية: (٧).

(٢) الزركشى، البرهان، (٢/ ٦٨).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٤٣).

(٤) الزركشى البرهان، (٢/ ٦٩).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٥).

(٦) الزركشى، البرهان، (٢/ ٦٩).

(٧) المصدر نفسه.

(٨) سورة القمر، الآية: (١٤).

(٩) الزركشى، البرهان، (٢/ ٧٠).

(١٠) سورة النحل، الآية: (٤٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٧٢

قال: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) «١». و البيان على لسان رسوله فالذكر فى الآية السابقة سنه رسوله صلى الله عليه و سلم. ثم يكون البيان من خلال الراسخين بالعلم.

و المتشابه سمي كذلك لتداخل المعانى المتضمنة فيه «لأن المعانى إذا دقت تداخلت، و اشتبهت على من لا علم له بها، كالأشجار إذا تقارب بعضها من بعض تداخلت أمثالها و اشتبهت؛ أى من لم يعنى النظر فى البحث عن منبعث كل فن منها، قال تعالى: * وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) (٢)»، و هو على اشتباكه غير متشابه، و كذلك سياق معانى القرآن العزيز قد تتقارب المعانى و يتقدم الخطاب بعضه على بعض، و يتأخر بعضه عن بعض؛ لحكمة الله فى ترتيب الخطاب و الوجود، فتشتبك المعانى، و تشكل إلا على أولى الأبواب، فيقال فى هذا الفن متشابه بعضه ببعض. و أما المتشابه من القرآن العزيز فهو يشابه بعضه بعضا فى الحق و الصدق و الإعجاز و البشارة و النذارة و كل ما جاء به و أنه من عند الله، فذم سبحانه الذين يتبعون ما تشابه منه عليهم افتتاناً و تضليلاً منهم بذلك يتبعون ما تشابه عليهم تناصراً و تعاضداً للفتنة و الإضلال» (٣).

من هذا يظهر «أن المحكم يغينا عن البحث عنه لأن قراءتنا له كافية لإفهامنا المراد منه».

و خفاء المتشابه جدير أن يشغلنا بنص الشىء، لكى نعرفه، ثم نجتنبه فلا نتبعه كالذين فى قلوبهم زيغ علما «أن أكثر العلماء يذهبون

إلى أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله و يوجبون فى الآية الوقف على اسم الجلالة «٤»، و هذه القراءة معتبرة، متواترة. أما الراسخون بالعلم فقد انتهى علمهم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا «٥». غير أن عالما كبيرا مثل أبى الحسن الأشعري كان يرى «الوقوف عند وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، فهم على ذلك يعلمون تأويل المتشابه» «٦». و انتصر أبو إسحاق الشيرازى لفهم الأشعري أبى الحسن، «ليس شىء استأثر الله (١) سورة القيامة، الآية: (١٩). (٢) سورة الأنعام، الآية: (١٤١). (٣) الزركشى، البرهان، (٢/ ٧٠-٧١). (٤) د. صبجى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص ٢٨٢. (٥) سورة آل عمران، الآية: (٧). (٦) د. صبجى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٨٢). التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٧٣ بعلمه، بل وقف العلماء عليه، لأن الله تعالى أورد هذا مدحا للعلماء، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامة» «١».

رأى أبى الراغب الأصفهاني:

كان أبو الراغب الأصفهاني القارئ الدارس المدقق فى الكتاب الكريم يقف موقفا وسطا، فقسم المتشابه إلى ثلاثة أضرب: «ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، و خروج الدابة، و نحو ذلك، و ضرب للإنسان أسباب إلى معرفته كالألفاظ الغريبة، و الأحكام المغلقة. و ضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين فى العلم و يخفى على من دونهم. و هو المشار إليه بقوله صلى الله عليه و سلم لابن عباس: «اللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل» «٢». و يظهر أن اعتدالا واضحا فى موقف الراغب من المحكم و المتشابه: «فذاً لله و حقائق صفاته من علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) (٣)». و أما فواتح السور فقد بقيت من المتشابه المستغلق المعنى، و كانت آراء العلماء تتناول «حكمة وجودها لا جوهر معناها ... و الآيات المشككة الواردة فى صفات الله تعالى كقوله: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) «٤» هى أهم ما يتعلق بهذا الضرب من المتشابه الذى لا سبيل لأحد من البشر إلى الوقوف عليه، و قد أفردا ابن اللبان بكتاب سماه «رد المتشابهات إلى الآيات المحكمات» «٥». و قد ذكر الرازى الحكمة من متشابه الصفات، فقال: «إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص و العوام، و طبائع العوام تنبو فى أكثر الأمور عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم و لا متحيز، و لا مشار إليه، ظن أن هذا عدم و نفى محض، فيقع فى التعطيل، فكان الأصح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه، و ما توهموه، و يكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول: و هو الذى يخاطبون به فى أول الأمر- من باب المتشابه- و القسم الثانى: و هو (١) د. صبجى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٨٢). (٢) السيوطى، الإتيقان، (٢/ ٧، ٨). (٣) سورة لقمان، الآية: (٣٤). (٤) سورة طه، الآية: (٥). (٥) د. صبجى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٨٣). التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٧٤

الذى يكشف عن الحق الصريح و هو المحكم» (١).

و الحكمة من المتشابه إقامة الحجة للإنسان على عجزه و جهالته، و الابتلاء و الاختبار لصفاء العقول و إخلاص النفوس، و المحكم و المتشابه يدفع العالم إلى تحصيل العلوم الكثيرة لفهمه (٢).

و للعلماء فى متشابه الصفات مذهبان:

«الأول: مذهب السلف: و هو الإيمان بهذه المتشابهات، و تفويض معرفتها إلى الله تعالى. سئل الإمام مالك عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم و الكيف مجهول، و السؤال عنه بدعة، و أظنك رجل سوء، أخرجوه عنى».

و الثانى: مذهب الخلف، و هو حمل اللفظ الذى يستحيل ظاهره على معنى يليق بذات الله، و ينسب هذا المذهب إلى إمام الحرمين (٣)، و جماعة من المتأخرين (٤).

نماذج من الآيات القرآنية لتوضيح المذهبين من المتشابه:

قال تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) (٥) «وَجَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) (٦). وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (٧). يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ (٨). وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ «٩» يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ «١٠». وَ لَتُصَنَعَنَّ عَلَى عَيْنِي «١١». وَ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ «١٢». (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (٢/ ٣٢٤).

(٢) و هناك حكم أخرى، راجعها فى مناهل العرفان للزرقانى (١/ ٣٢٥) و ما بعدها.

(٣) إمام الحرمين: هو عبد الملك بن أبى عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى الشافعى، العراقى، أبو المعالى، كان شيخ الغزالى، من أعلم أصحاب الشافعى، ت (٤٧٨ هـ).

(٤) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٢٨٤).

(٥) سورة طه، الآية: (٥).

(٦) سورة الفجر، الآية: (٢٢).

(٧) سورة الأنعام، الآية: (١٨).

(٨) سورة الزمر، الآية: (٥٦).

(٩) سورة الرحمن، الآية: (٢٧).

(١٠) سورة الفتح، الآية: (١٠).

(١١) سورة طه، الآية: (٣٩).

(١٢) سورة آل عمران، الآية: (٢٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٧٥

المعالجة و المناقشة:

«يتفق الجميع من سلف و خلف على أن ظاهر الاستواء على العرش هو الجلوس عليه مع التمكن و التميز، مستحيل لأن الأدلة القاطعة تنزه الله عن أن يشبه خلقه أو يحتاج إلى شىء منه، سواء أ كان مكانا يحل منه أم غيره، و كذلك اتفق السلف و الخلف على أن هذا الظاهر غير مراد لله قطعا، لأنه تعالى نفى عن نفسه المماثلة لخلقه، و أثبت لنفسه الغنى عنهم، فقال: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «١» و قال: هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ «٢». فلو أراد هذا الظاهر لكان متناقضا «٣».

و على كل حال منهج السلف يقوم على تنزيه الله عن هذه الظواهر المستحيلة، و يؤمنون بها بالغيب كما ذكرها الله، و يفوضون علم حقائقها إليه، أما الخلف فيحملون الاستواء على العلو المعنوى بالتدبير من غير معاناة، و مجيء الله على مجيء أمره، و فوقيته على العلو لا- فى جهة، و جنبه على حقه، و وجهه على ذاته و عينه على عنايته، و يده على قدرته، و نفسه على عفويته، و هكذا يؤولون كل ما ورد من رضى الله و حبه و سخطه، و حياته، بحملها على أقرب مجاز، و يقولون لا يراد من هذه الألفاظ إلا لازمها «٤».

و لا بد فى الختام من القول: إن مسألة المحكم و المتشابه قد سَعرت نار حرب ثقافية و عقيدية بين متكلمين و محدثين، و سلف و خلف، و الواقع لو أن العقول بحثت الأمر بأناء و وعى و تقى بعيدا عن نار العصبية لعذر كل فريق الآخر، لأن النصوص محتملة، و لولا الاحتمال لكانت محكمة قاطعة، و لما جاز الخلاف فى فهمهما ... و قد ذكرت الحكمة من وجود المحتمل المتشابه فى القرآن ... و هذا لا يمنع من ترجيح رأى على آخر وفق أدوات الترجيح المعتمدة ... لذا كان علم المحكم و المتشابه، واحدا من العلوم التى ينبغى للمفسر أن يكون عالما به كى يكون فهمه أقرب للسداد. (١) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٢) سورة فاطر، الآية: (١٥).

(٣) الزرقانى، مناهل العرفان، (٢/٣٣٣).

(٤) انظر السيوطى فى الإتيان، (٢/١٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٧٧

الفصل الرابع التفسير و التأويل

إشارة

- معنى التفسير لغة، و اصطلاحا.
- التفسير فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته الكرام.
- النبى صلى الله عليه و سلم و فهمه للقرآن الكريم.
- تفاوت الصحابة فى فهمهم القرآن.
- السنة المفسرة للقرآن الكريم.
- مناقشة آراء الفريقين.
- التفسير فى عهد الصحابة.
- وسائل الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة.
- التفسير فى عهد التابعين.
- طبقة التابعين من أهل المدينة.
- طبقة أهل العراق.
- ترجمة القرآن الكريم.
- رأى الشاطبى فى ترجمة القرآن.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٧٩

التفسير و التأويل

بديهى أن لكل خطاب غاية، و إذا انعدمت الغايات أصبحت الأفعال عبثا، و لونا من ألوان اللهو غير المبرر، و الخطاب يبغي غاية من مخاطبه و هى غاية الإفهام و البيان كى يغرس فى المخاطبين مفهوما، و ينتزع منهم آخر ... قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ «١»، .. و علة الإرسال بلسان القوم كى يبلغ القوم الفهم المراد من الخطاب.

و على ذلك فإن المعجزات التى أيد الله تعالى رسله كانت من جنس السائد من العلوم أو المعارف التى يمتلكها قومهم، و إلا لم تكن هذه المعجزات كافية لإثبات دعوى الرسالة لدى هؤلاء القوم المخاطبين ... فكانت دعوة موسى مؤيدة بمعجزة العصا التى أكلت ثعابين السحرة، لتشكل خارقه قاطعه، و برهانا بينا لكل ذى بصيرة على صحة ادعائه النبوة، و إحياء عيسى للموتى و إبرائه الأكمه و الأبرص شكلت معجزات و براهين قاطعه على صحة ادعائه الرسالة و النبوة فى وسط اجتماعى تقدم فيه علم الطب ...

تأسيسا على ذلك، و انسجاما مع نهج الرسل السابقين، كانت معجزة الرسول محمد صلى الله عليه و سلم مناسبة لما كان سائدا فى قومه من معارف، إذ كانت اللغة بلغت مرتبة عالية من صحة البيان و بلاغة الأداء، و فصاحة العبارة ... فكان القرآن الكريم الكتاب المعجزة، المنزل بلغة العرب و أساليبها التى تمكنوا منها أحسن التمكن ... جاء القرآن متحديا لهم مخاطبا إياهم بلسانهم: الر تَلِكْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) «٢» يظهر من النص السابق أن القرآن نزل بلغة العرب كى يفهمه العرب، و كى تقوم الحججة عليهم بعجزهم على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور أو بسورة، ... و عند ما (١) سورة إبراهيم، الآية: (٤).

(٢) سورة يوسف، الآيتان: (١، ٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٠

ينزل القرآن بلسانهم مع تمكنهم من البيان، و سيطرتهم على اللغة، متحديا أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور أو بسورة. فهذا ذروة التحدى، و هذا قمة الإعجاز.

و لكن معترضا يقول: «ما ذا يتغير فيما لو نزل القرآن بغير لغة العرب؟ فالكلام نفسه قد يقال. و نرد على المعترض قوله من وجهين: الوجه الأول: من القرآن الكريم نفسه حيث يقول تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا «١». و كأنى بالقرآن- و هو كلام الله، و من أصدق من الله قила- ينفى عن غير العربية، أيا كانت تلك اللغة قدرتها على تحمل الأمانة التى أشرنا إليها سابقا، بدليل أن اللسان الأعجمى و بتقرير القرآن نفسه لا يستطيع التفصيل بينما أسند ذلك التفصيل للغة العرب، و ما ظاهرة الإعجاز بكل صورها اللغوية و البيانية إلا دليل على صحة ما نذهب إليه.

و الوجه الثانى: ما قرره علماء اللغات و الألسنيون من أن لغة العرب من أكثر اللغات العالمية اتساعا فى التعبير و أقدرها على التعامل مع المعانى، و أساليب التعبير فيها خير شاهد على ذلك ... من من اللغات حوى أو تعامل فى أساليب التعبير بالمنطق نفسه الذى تعاملت به لغة العرب من مجاز و حقيقته، و تشبيه و كناية، و استعارة، و تقديم و تأخير و فصل و وصل و حذف و مضاف و تنوين و بناء، و استخدام الضمائر المنفصلة و المتصلة، المرفوعة منها و المنصوبة، فضلا عن النعت و الحال و التمييز، و عوامل الإعراب ...؟ الخ» «٢».

و مع التقدم المدنى، و اتساع الساحة العلمية و امتلائها بالغث و السمين، و الخوض بالتفسير من قبل المسلمين و غيرهم، يكون لزاما و على نحو مستمر جلاء الأفهام، و إزاحة اللثام حول ما يجب أن يكون عليه التفسير و التأويل المتعلق بكتاب الله الكريم (القرآن).

معنى التفسير لغة، و اصطلاحا:

لقد أوردت اللغة عددا من المعانى لكلمة «تفسير» و ذلك حسب السياقات أو الشىء الذى من أجله وضع اللفظ. ورد فى لسان العرب «الفسر البيان، فسر الشىء يفسره بالضم و الكسر فسرا، و فسره: (١) سورة فصلت، الآية: (٣). (٢) كامل موسى و على دحروج، كيف نفهم القرآن، ط، بيروت، (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م)، ص (٥٨، ٥٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨١

أبانه، و التفسير مثله أى الإبانة، و قوله عزّ و جل: «و أحسن تفسيراً» الفسر كشف المغطى، و التفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل» (١).

قال ابن فارس: «فسر» الفاء و السين و الراء كلمة واحدة تدل على بيان شىء و إيضاحه، من ذلك الفسر، يقال فسرت الشىء، و فسرتة، و الفسر و التفسر: نظر الطبيب إلى الماء و حكمه فيه» (٢). من هذا يبدو أن اللغة أرادت بالتفسير: الكشف عن المغطى الحسى و المعنوى ... و قد اشتهر لفظ التفسير مقرونا بالقرآن حتى أصبح التفسير علما و فنا إذا أطلق كأن تقول: «اقرأ فى التفسير» فيفهم منك أن تقرأ كتابا كاشفا لمعاني الكلمات أو التراكيب القرآنية.

التفسير فى الاصطلاح:

تعددت التعاريف الاصطلاحية لتفسير القرآن الكريم، و هذا التعدد و الاختلاف فى التعاريف يرجع إلى الأسس التى انطلق منها كل تعريف «يرى بعض العلماء أن التفسير ليس من العلوم التى يتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاوله القواعد كغيره من العلوم التى أمكن أن تشبه العلوم العقلية» (٣) و يرى بعضهم «أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية أو الملكات الناشئة من مزاوله القواعد فيتكلف له التعريف، فيذكر علوما أخرى يحتاج إليها فى فهم القرآن، كاللغة و الصرف و النحو و القراءات و غير ذلك» (٤).

و الحق إن التعاريف كثيرة مشتركة متداخلة، منها ما ذكره الزركشى «هو علم نزول الآية و سورتها و أفاصيصها، و الإشارات النازلة فيه، ثم ترتيب مكيتها و مدنيها، و محكمها و متشابهها، و ناسخها، و منسوخها، و خاصها و عامها، و مطلقها و مقيدها، و مجملها و مفسرها» (٥).

و لعل التعريف الذى نقله السيوطى عن أبى حيان أشمل التعاريف و أحسنها فالتفسير:

«علم يبحث عن كيفية النطق بالقرآن و مدلولاتها، و أحكامها الإفرادية و التركيبية، و معانيها (١) ابن منظور، لسان العرب، فسر، (٥) /٥٥، ط، دار صادر.

(٢) ابن فارس، مقاييس اللغة، (٤/٥٠٤)، مادة «فسر». ط (١)، دار الجيل، (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م).

(٣) كامل موسى و على دحروج، كيف نفهم القرآن: دراسة فى المذاهب التفسيرية و اتجاهاتها، ص (٦١).
(٤) المصدر نفسه.

(٥) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، (٢/١٤٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٢

التي تحمل عليها حالة التركيب، و تمتات ذلك» (١). و عزّفه الزركشى بأنه علم: يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه و سلم و بيان معانيه، و استخراج أحكامه و حكمه» (٢).

و نقل السيوطى فى التحبير تعريفا آخر عزاه إلى أبى حيان و هو «علم يبحث فيه عن أحوال القرآن العزيز من حيث دلالاته على مراده بحسب الطاقة البشرية» و يتناول التفسير ما يتعلق بالرواية و التأويل، أى ما يتعلق بالدراية» (٣) ..

ناقش محمد حسين الذهبى هذا التعريف بقوله: «و الناظر لأول وهلة فى هذين التفريقين الأخيرين يظن أن علم القراءات، و علم الرسم لا يدخلان فى علم التفسير، و الحق أنهما داخلان فيه؛ و ذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءات و القراءتين، كقراءة و إذا رأيت ثم رأيت نعيماً و ملكاً كبيراً (٢٠) (٤)، بضم الميم و إسكان اللام، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ ملكاً كبيراً بفتح الميم و كسر اللام. و كقراءة حتى يظهورن بالتسكين فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ (يظهورن) (٥) بالتشديد كما أن المعنى يختلف أيضا باختلاف الرسم

القرآنى فى المصحف، فمثلا قوله تعالى: يَمِثِّي سَوِيًّا «٦» بوصل (أمن)، يغير فى المعنى أم مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا «٧» بفصلها فإن المعنى تفيد بل دون الموصولة» «٨».

و على كل حال فإن التعاريف عامة تتفق أن علم التفسير يبحث عن مراد الله تعالى بعد بذل الوسع من البشر الذين توفرت فيهم الأهلية لفهم مراد الله سبحانه.

التفسير فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته الكرام

تمهيد:

العرب أمة أمية لا- تقرأ و لا- تحسب، و القرآن نزل بلغتهم، و الشعر كان منتشرًا بينهم، و الأمثال يتداولونها مستقاةً من تجاربهم فى الحياة. (١) السيوطى، التحبير فى علم التفسير، ص (٣٧، ٣٨).

(٢) السيوطى، الإتيان، (٢/ ١٧٤).

(٣) السيوطى، التحبير فى علم التفسير، ص (٣٧).

(٤) سورة الإنسان، الآية: (٤).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٢٢).

(٦) سورة تبارك، الآية: (٢٢).

(٧) سورة النساء، الآية: (١٠٩).

(٨) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون، (٢/ ١٥)، ط إحياء التراث العربى.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٣

و كلامهم فى أصله يشتمل على الحقيقة و المجاز، و التشبيه و الاستعارة، و الكناية، و التصريح و الإطناب و الإيجاز ... و معجزة سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم مثل باقى المعجزات جاءت مناسبة لحال العرب (القوم الذين خاطبهم القرآن، بلغتهم: و ما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) «١»).

و ما قيل من أن القرآن حوى ألفاظا أو كلمات ليست عربية فهذا إن وجد فهو قليل من جهة و من جهة أخرى فإن هذا الكلام القليل أصبح عربيا بحكم الاستعمال، و لأنه جرى على سنان لغة العرب. على ما قاله ابن فارس ما كان من الكلام على سنان العرب فهو من كلام العرب و إن لم تقله العرب.

النبى صلى الله عليه و سلم و فهمه للقرآن الكريم:

النبى واحد من العرب، تنزل عليه القرآن بلغته (التي هى لغة قومه العرب): و لما كان هذا الكتاب معجزة للنبى صلى الله عليه و سلم و حجة له على غيره يصدق ادعائه الرسالة و النبوة فكان «طبيعيا أن يفهم النبى صلى الله عليه و سلم القرآن جملة و تفصيلا، بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ و البيان إن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ «٢» ... كما كان طبيعيا أن يفهم أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم القرآن فى جملته، أى بالنسبة لظاهره و أحكامه، أما فهمه تفصيلا و معرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة، و لا واردة، فهذا غير ميسور بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث و النظر، و الرجوع إلى النبى صلى الله عليه و سلم فيما يشكل عليهم فهمه! و ذلك لأن القرآن فيه المجمل و المشكل و المتشابه، و غير ذلك مما لا بد من معرفته من أمور أخرى يرجع إليها» «٣». صحيح إن الصحابة كانوا يفهمون الكثير من القرآن، و لكنه كان يشكل عند بعضهم فحادثه و

كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴿٤﴾ أحد الشواهد على ذلك، ثم إن بعض آيات القرآن عامة بحاجة إلى تخصيص، لذا فإن سؤال الصحابة النبى صلى الله عليه وسلم كان يكشف لهم عن التخصيص، و عن بيان المجمل، و توضيح المشكل، و المتشابه و غير ذلك ... فى حين كان النبى مسددا بالوحى بتبليغ نص القرآن، و فهمه القرآن، لذا كان النبى صلى الله عليه وسلم محيطا بكل تفسير و فهم للقرآن فى محكمه و متشابهه، و عامه و خاصه، و محكمه و متشابهه ... الخ، لأن الله تعالى اختصه بالرسالة و عليه أن يبلغها الناس فاتاه الله (١) سورة إبراهيم، الآية: (٤).

(٢) سورة القيامة، الآيات: (١٧ - ١٩).

(٣) محمد حسين الذهبي، التفسير و المفسرون، (١/ ٣٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٨٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٤

القرآن و فهمه، لذا كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسيره القرآن، أو تخصيصه لعامه، أو تقييده لمطلقه من الدين و حجة على العباد، إن لم يعملوا فيه كانوا مخالفين لهدى الله و رسوله.

تفاوت الصحابة فى فهمهم القرآن:

صحيح أن جيل الصحابة الكرام مشهود له على العموم بالخيرية المطلقة، خيرية الاستقامة على الدين، و الخيرية فى فهم الدين، بيد أن الباحث فى تاريخ الصحابة رضى الله عنهم يجد تفاوتاً بين هذا الصحابى و ذاك فى فهم معانى القرآن. بل قد يكون هذا النص غامضاً أو تلك الكلمة من النص غامضة يغيب عنه معناها و فهمها، و يبين أحدهم له. و السبب أن الصحابى الواحد قد تغيب عنه مفردة من مفردات العربية الكثيرة العدد، غير أن العربية بمفرداتها جميعاً لا تغيب عن مجموع العرب من الصحابة الفطناء، أما مجموع العربية فقد تغيب عن الصحابى الواحد.

أخرج أبو عبيدة فى الفضائل عن أنس، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ على المنبر وَ فَكِّهَةٌ وَ أَبَا (٣١) «١» فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟» ثم رجع إلى نفسه، فقال: «إن هذا لهو التكلف يا عمر» «٢». و ما روى من أن عمر كان على المنبر فقراً أو يأخذهم على تخوفٍ فإن ربكم لرؤفٌ رحيمٌ (٤٧) «٣» ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشده:

تخوف الرجل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن «٤»

عندئذ قال عمر مقولته المشهورة المذكورة المتبته لأهمية حفظ أشعار العرب لفهم الكتاب الكريم: «أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم فى جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم» «٥».

و ما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، و الآخر يقول: أنا ابتدأتها» «٦». (١) سورة عبس، الآية: (٣١).

(٢) الشاطبى، الموافقات، (٢/ ٨٧).

(٣) سورة النحل، الآية: (٤٧).

(٤) الشاطبى، الموافقات، (٢/ ٨٧، ٨٨). و التامك: السنام. القرد: الذى تجعد شعره، فكان كأنه وقاية للسنام. النبع: شجر للقسى و السهام. و السفن: كل ما ينحت به غيره.

(٥) الشاطبى، الموافقات، (٢/ ٨٨).

(٦) السيوطى، الإتقان، (٢/ ١١٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٥

من هذا يظهر أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا على سوية واحدة فى فهم القرآن و بيان معانيه، «فقد كانوا يتفاوتون فى العلم بلغتهم فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملما بغريبها، و منهم دون ذلك، و منهم من كان يلزم النبى صلى الله عليه و سلم فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره. أضف إلى هذا و ذاك أن الصحابة لم يكونوا فى درجتهم العلمية و مواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين فى ذلك اختلافا عظيما» (١).

هذا إذا تذكرنا أن الرسول صلى الله عليه و سلم كان يعلم الصحابة التلاوة و الفهم و يوجه فهمهم و يصحح إدراكهم لدلالات القرآن و مقاصده «و كان النبى صلى الله عليه و سلم يبين المجمل، و يميز الناسخ من المنسوخ، و يعرف أصحابه عرفوه، و عرفوا سبب نزول الآيات، و مقتضى الحال منها منقولاً عنه». و فى هذا بيان أن معرفة اللغة العربية ليست كافية لمعرفة معانى القرآن الكريم، بل كانوا محتاجين إلى توجيه الرسول صلى الله عليه و سلم لفهمهم.

و يمكننا أن نوجز القول: إن تفسير القرآن فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة كان يستمد مصادره من:

١- القرآن الكريم: أى ما ورد من آيات القرآن المفصلة لآيات أخرى، لأن القرآن الكريم قد يجمل فى مكان و يبين فى مكان آخر، و ما جاء مطلقاً قد يقيد فى مكان ثان، و ما كان عاماً قد يخص فى آية أخرى و هكذا. و لنتمّن بعض الأمثلة.
قال تعالى فى سورة العنكبوت: الم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) «٢» ... و المعنى أن الناس لا يتركون دون فتنة: أى ابتلاء و اختبار لأجل قولهم آمنا بل إذا قالوا: آمنا فتنوا: أى امتحنوا و اختبروا بأنواع الابتلاء، حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق فى قوله آمنا من غير الصادق.

يقول الشنقيطى: «و هذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبينا فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَأْسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصِيرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) (٣)» و قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) (٤). و هناك آيات أخر استشهد بها الشنقيطى على أنها آيات (١) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون (١/ ٣٦).

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: (١)، (٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢١٤).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٤٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٦

موضحة لآية العنكبوت (١).

و من ذلك قوله تعالى: فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ (٢) فسرتها الآية فى سورة الأعراف: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) «٣».

و من تفسير القرآن حمل المطلق على المقيد، «ما نقله الغزالى عن أكثر الشافعية من حمل المطلق على المقيد فى صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، و مثل له بآية الوضوء و التيمم، فإن الأيدى مقيدة فى الوضوء بالغاىة فى قوله تعالى: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ (٤) و مطلقه فى التيمم فى قوله تعالى فى الآية نفسها: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ فقيدت بالتيمم بالمرافق أيضا (٥)».

و من الأدلة على تفسير القرآن حمل العام على الخاص:

قال تعالى: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى (٦) فالصلاة الوسطى مخصصة من عموم الصلاة على رأى من قال بهذا رأى.

من تفسير القرآن بالقرآن بالجمع بين ما يتوهم أنه متعارض أو متناقض «كخلق آدم من تراب فى بعض الآيات، و من طين فى غيرها، و

من حمأ مسنون، و من صلصال، فإن هذا ذكر للأطوار التى مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه. و من تفسير القرآن بالقرآن حمل بعض القراءات على غيرها، فبعض القراءات تختلف مع غيرها فى اللفظ و تتفق فى المعنى، فقراءة ابن مسعود رضى الله عنه «أو يكون لك بيت من ذهب» تفسر لفظ الزخرف فى القراءة المشهورة أو يكون لك بيت من زخرف (٧). كذلك فإن إحدى القراءات تساعد على فهم قراءة أخرى و ذلك مثل قوله تعالى فى آية تختلف اللفظ و اتفق المعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسرعوا إلى ذكر الله و ذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٩) (٨). فسرتها القراءة الأخرى: يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله لأن السعى عبارة (١) الشنقيطى، أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، (٢٢٩/٤). بيروت، دار إحياء التراث، ط (١٩٩٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٣٧).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٢٣). انظر التفسير و المفسرون لمحمد حسين الذهبى، (٣٨/١).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٦).

(٥) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون، (٣٨/١، ٣٩).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٣٨).

(٧) سورة الإسراء، الآية: (٩٣).

(٨) سورة الجمعة، الآية: (٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٧

عن المشى السريع، و هو و إن كان ظاهر اللفظ إلا أن المراد منه مجرد الذهاب» (١).

المصدر الثانى لتفسير القرآن: النبى صلى الله عليه و سلم:

من المعلوم أن القرآن تنزل على الرسول محمد صلى الله عليه و سلم من الله تعالى، و أوحى إلى رسوله فهم القرآن، لذا فإن الصحابى «إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله، رجع إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فى تفسيرها فيبين له ما خفى عليه، لأذن وظيفته البيان كما أخبر الله بذلك فى كتابه حيث قال: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (٢)، و كما نبه على ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما رواه أبو داود بسنده أن الرسول صلى الله عليه و سلم قال: «ألا إنى أوتيت الكتاب و مثله معه، لا- يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، و ما وجدتم فيه من حرام فحرموه...» (٣).

كما أن السنة النبوية حفلت بالكثير من النصوص النبوية المفسرة لبعض آى القرآن مثل: ما رواه الترمذى و ابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«صلاة الوسطى صلاة العصر» (٤).

و أخرج البخارى عن ابن مسعود قال: «لما نزلت هذه الآية: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، و أين لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إِنَّ الشُّرَكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (٥)؟ إنما هو الشرك» (٦).

و من المناسب التنويه، أن السنة المفسرة وضع فيها ما ليس منها، مثل ما أصاب الأحاديث الأخرى، و قد فصل العلماء ذلك، و ردّ المحذوثون الروايات الكاذبة، و أشاروا إلى الصحيحة منها، و هذا معروف فى صحاح السنة.

و يمكن القول: إن الرسول صلى الله عليه و سلم يبين للصحابة ما أشكل عليهم فهمه لأنه مبلغ معلم، و وظيفته البيان، علما أن العرب

كانت بوجه عام تعرف معانى القرآن، الذى نزل بلغتها و هذا لا يعنى أن يوجد إشكال فى بعض الأخبار حول المراد من آية من هذه الآيات- و واضح من الأمثلة السابقة أن الرسول صلى الله عليه و سلم أرشد إلى الآيات المفسرة إلى آيات أخرى. (١) محمد حسين الذهبي، التفسير و المفسرون، ج ١، ص (٤٠).

(٢) سورة النحل، الآية: (٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود فى (الحديث: ٤٤٣٦).

(٤) أخرجه مسلم فى (الحديث: ١٤٢٥)، و أخرجه الترمذى فى (الحديث: ١٨١).

(٥) سورة لقمان، الآية: (١٣).

(٦) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٤٧٧٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٨

السنة المفسرة للقرآن الكريم:

لقد سقنا سابقا بيان الرسول صلى الله عليه و سلم فى تحديده الصلاة الوسطى، فقال فى الصلاة الوسطى صلاة العصر. و من السنة المفسرة لقوله تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ ﴿١﴾ هو ما أخرجه البخارى بإسناده عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما فى غد إلا الله، و لا يعلم ما يغيص فى الأرحام إلا الله، و لا يعلم متى يأتى المطر إلا الله، و لا تدرى نفس بأى أرض تموت و لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» (٢).

و يلاحظ من هذه البيانات النبوية أن السنة جاءت مفسرة للقرآن إذا بينت المقصود بالصلاة الوسطى، و أرشدت إلى المقصود من قوله تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ و علاقته ذلك بالغيب، و من السنة المفسرة لكتاب الله الكريم، ما أخرجه الترمذى عن على قال: سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن يوم الحج الأكبر فقال: «يوم النحر» (٣).

و جلى للقارئ أن هذه النصوص النبوية تبين بألفاظ نبوية مفسرة لآيات قرآنية، و فى حين كانت الإرشادات النبوية السابقة تشير إلى الآيات القرآنية المفسرة لآيات قرآنية أخرى.

و الأمر الذى ينبغى الإشارة إليه أن بعض العلماء كان يقول إن الرسول صلى الله عليه و سلم بين للصحابه كل معانى القرآن و استدل بقوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾ «و البيان فى الآية يتناول بيان معانى القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه» (٥).

و استدلو بما أخرجه الإمام أحمد و ابن ماجه عن عمر رضى الله عنه أنه قال: «من آخر ما نزل آية الربا، و إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قبض قبل أن يفسرها» و هذا يدل بالفحوى على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل و أنه إنما لم يفسر هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها و إلا لم يكن للتخصيص بها وجه» (٦).

و أبرز القائلين بتفسير الرسول لكل معانى القرآن ابن تيمية و آخرون» (٧). (١) سورة الرعد، الآية: (٨).

(٢) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٤٦٩٧).

(٣) أخرجه الترمذى فى (الحديث: ٣٠٨٨).

(٤) سورة النحل، الآية: (٤٤).

(٥) محمد حسين الذهبي، التفسير و المفسرون، (١ / ٤٩).

(٦) المصدر نفسه، (١ / ٥٠).

(٧) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٨٩

و ذهب فريق آخر إلى القول إن النبى صلى الله عليه و سلم لم يبين لأصحابه إلا القليل من معانى القرآن، و استدلوا بما أخرجه البزار عن عائشة قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يفسر شيئا من القرآن إلّا آيا بعدد، علمه إياهن جبريل». و استدلوا بقولهم: «لو كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يبين لأصحابه كل معانى القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء له بقوله: «اللهم فقهه فى الدين، و علمه التأويل» فائدة لأنه يلزم من بيان رسول الله صلى الله عليه و سلم لأصحابه كل معانى القرآن استواؤهم فى معرفة تأويله فكيف يخص ابن عباس بهذا الدعاء» (١).

مناقشة آراء الفريقين:

واضح أن كلا من الفريقين غالى فيما ذهب إليه، فقول الفريق الأول مستدلا بآية سورة النحل: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ... تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه و سلم يبين ما أشكل عليهم فهمه من القرآن، لا كل معانيه ما أشكل منها، و ما لم يشكل» (٢).

و أما استدلالهم بأن الرسول قبض و لم يفسر آية الربا لا يدل على أنه صلى الله عليه و سلم كان يبين لهم كل معانى القرآن، فلعل هذه الآية مما أشكل على الصحابة، فكان لا بد من الرجوع فيها إلى النبى صلى الله عليه و سلم شأن غيرها من مشكلات القرآن» (٣). أما أدلة الفريق الثانى الذى نفى تفسير الرسول لكل معانى القرآن» و أثبت أن الرسول لم يفسر إلا آيات قليلة معدودة، فباطل أيضا لأن الحديث الذى أخرجه البزار عن عائشة منكر غريب، لأن راوى الحديث محمد بن جعفر الزبيرى مطعون فيه، قال البخارى عنه: «لا يتابع فى حديثه» (٤).

و أما استدلالهم بدعاء الرسول لابن عباس بأن «يعلمه الله التأويل» فلا يصح لأن دعاء رسول الله صلى الله عليه و سلم لابن عباس لا يفيد أن الرسول لم يبين إلا القليل، و إن كان يوحى أن الرسول لم يبين كل معانى القرآن» (٥). و الحق أن الرسول صلى الله عليه و سلم يبين الكثير من معانى القرآن لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح، و لم يبين كل معانى القرآن، و أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يفسر للصحابة ما يرجع فهمه إلى (١) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون (١) (٥١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، (١/ ٥٢).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، (١/ ٥٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٠

معرفة كلام العرب لأن القرآن نزل بلغتهم، و لم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته و هو الذى لا يعذر أحد بجهله، ... و لم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، و حقيقة الروح و غير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التى لم يطلع الله عليها نبيه» (١).

التفسير فى عهد الصحابة:

الصحابة عرب فصحاء خلص، و كانوا يجتهدون الرأى فى فهم القرآن ما لم يتيسر لهم نقل عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أو لم يجدوا آية قرآنية تفسر أخرى.

أما ما ورد من النصوص القرآنية التى تحتاج إلى لغة عربية لفهمها فكان ذلك مسيراً للصحابة دونما جهد لأنهم «عرب خلص يعرفون كلام العرب و مناحيهم فى القول، و يعرفون الألفاظ العربية فى الشعر الجاهلى الذى هو ديوان العرب، كما يقول عمر رضى الله عنه (٢)».

وسائل الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة:

الاجتهاد هو بذل واسع فى فهم النصوص، و الاجتهاد له وسائله التى يستعان بها لولوج بابه و من أهم وسائل الصحابة:
١- معرفة اللغة العربية و أسرارها- و معرفة عادات العرب- و معرفة أحوال اليهود و النصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن- قوة الفهم، وسعة الإدراك.

فمعرفة العربية تساعد على فهم الآيات لأنها نزلت عربية البيان، و معرفة العادات تعين على فهم الآيات ذات الصلة بالعادات، و ذلك مثل: **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ (٣)** و قوله تعالى: **وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا (٤)**. لا يمكن فهمه إلا لمن عرف عادات العرب.

و معرفة أحوال اليهود و النصارى تساعد على فهم الآيات النازلة بصددهم، و تعين على الرد عليهم. و أما قوة الفهم وسعة الإدراك فهذه نعمة ينعم الله على من يشاء من عباده، و هنا تفاوت الصحابة بمعرفتهم بالقرآن لتفاوتهم فى امتلاك الأدوات المساعدة على الاجتهاد.

و قد اشتهر بعض المفسرين من الصحابة: الخلفاء الأربعة، و ابن مسعود، و ابن عباس، و أبى بن كعب، و زيد بن ثابت، و أبو موسى الأشعري، و عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم. (١) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون، (١/ ٥٤).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٥٨).
(٣) سورة التوبة، الآية: (٣٧).
(٤) سورة البقرة، الآية: (١٨٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩١

و هناك من الصحابة من تكلم فى التفسير لم تكن لهم الشهرة التى كانت للصحابة العشرة الأوائل فى التفسير، كأنس بن مالك، و أبى هريرة و عبد الله بن عمر، و جابر بن عبد الله، و عبد الله بن عمرو بن العاص، و عائشة رضى الله عنهم. و أما أكثر الصحابة تفسيرا، و رواية عنه فى مجال تفسير القرآن فهو على رضى الله عنه «و السبب راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان و تأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفى عنهم من معانى القرآن، و ذلك ناشئ عن اتساع رقعة الإسلام، و دخول كثير من الأعاجم فى دين الله مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية» (١).

التفسير فى عهد التابعين:

إن مرحلة التفسير الأولى التى بدأت فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة رضى الله عنهم هى التى أسست لعلم التفسير، و هذه الفترة انتهت «بانصرام عهد الصحابة» لتفتح الباب لعهد جديد، و مرحلة جديدة من مراحل تفسير القرآن، و هذه المرة عن التابعين رضى الله عنهم الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم، و كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير و الرجوع إليهم فى استجلاء بعض ما خفى من كتاب الله اشتهر أيضا بالتفسير أعلام من التابعين، تكلموا فى التفسير، و وضحوا لمعاصريهم خفى معانيه» (٢).

و كان هؤلاء التابعون منتشرين فى الأمصار الإسلامية «نشأت فى مكة طبقة من المفسرين، و فى المدينة طبقة ثانية، و فى العراق ثالثة. طبقة أهل مكة:» و كانوا أعلم الناس بالتفسير على ما نقله السيوطى عن ابن تيمية أنه قال: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد و عطاء بن أبى رباح، و عكرمة مولى ابن عباس، و سعيد بن جبير، و طاوس». أما «مجاهد بن جبر» (٣) فقد كان أوثق من روى عن ابن عباس، و لذا يعتمد على تفسيره الشافعى و البخارى و غيرهما من أقطاب العلم و الدين» (٤).

و أما «عطاء بن أبى رباح» (٥) و «سعيد بن جبير» (٦) فقد كان كل منهما ثقة ثبتا فى الرواية عن ابن عباس، و قال سفيان الثورى: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، (١) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون، (١/٦٤).

(٢) الإتقان، (٢/١٢٣٣). و انظر مقدمة ابن تيمية (٦١).

(٣) مجاهد بن جبر ت (١٠٤هـ).

(٤) الزرقانى، مناهل العرفان، (٢/٢٦).

(٥) عطاء بن رباح ت (١١٤هـ).

(٦) سعيد بن جبير ت (٩٥هـ).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٢

و مجاهد، و عكرمة، و الضحاك. و قال قتادة: أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك، و كان سعيد بن جبير أعلمهم بالمناسك أو بالتفسير. و قال أبو حنيفة: ما لقيت أحدا أفضل من عطاء، و أما عكرمة مولى ابن عباس: فقد قال العلامة الشعبى: «ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة» (١). و قال عكرمة: كان ابن عباس يجعل فى رجلى الكيل (٢)، و يعلمنى القرآن و السنن». و منهم طاوس ابن كيسان الحميرى (٣):

طبقة التابعين من أهل المدينة:

زيد بن أسلم (٤): و أخذ عنه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة. و منهم أبو العالية رفيع بن مهران الرياحى (٥) - و منهم محمد بن كعب القرظى (٦) - الذى قال فيه ابن عود: ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن من القرظى».

طبقة أهل العراق:

و منهم مسروق بن الأجدع (٧)، و منهم قتادة بن دعامة السدوسى (٨)، و منهم التابعى المشهور المعروف بسعة علمه، و شدة تقواه و ورعه أبو سعيد الحسن البصرى، قال ابن سعد فيه: «كان ثقة مأمونا و عالما جليلا و فصيحاً جميلاً، و تقياً نقياً حتى قيل إنه سيد التابعين» (٩).

و منهم عطاء بن أبى مسلم الخراسانى (١٠). (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (١/٢٦-٢٧).

(٢) الكيل: القيد، القاموس المحيط: كيل.

(٣) طاوس بن كيسان الحميرى، ت (١٠٦هـ).

(٤) زيد بن أسلم ت (١٣٦هـ).

(٥) رفيع بن مهران الرياحى ت (٩٠ هـ).

(٦) محمد بن كعب القرظى، ت (١٢٠ هـ).

(٧) مسروق بن الأجدع ت (٦٣ هـ).

(٨) قتادة بن دعامة ت (١١٨ هـ).

(٩) الزرقانى، مناهل العرفان (١/ ٢٨).

(١٠) عطاء بن أبى مسلم ت (١٣٥ هـ).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٣

تطور الأوضاع التفسيرية:

هؤلاء أهم أعلام التابعين من المفسرين العلماء، و قد استمدوا علومهم من القرآن من الصحابة الكرام رضى الله عنهم. و عن التابعين أخذ تابعو التابعين، و هكذا حتى وصل إلينا و بهذا صنف العلماء التفاسير كما فعل سفيان بن عيينة، و وكيع بن الجراح، و شعبة بن الحجاج، فكان ذلك توطئة أو إرھاصا لظهور عالم مفسر كبير هو محمد بن جرير الطبرى، الذى يوشك المفسرون جميعا من بعده أن يكونوا عالمة عليه- و إن كان محمد الفاضل بن عاشور يرى أن الذين يجعلون محمد بن جرير الطبرى نتاج حركة التطور التفسيري فإنهم «يقطعون بذلك اتصال سلسلة التطور فى الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول و القرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التى تمثل منهج التفسير فى القرن الثانى، لأن تفسير ابن جرير الطبرى ألف فى أواخر القرن الثالث، و صاحبه توفى فى أوائل القرن الرابع، و الحال أن الحلقة التى يتم بها اتصال السلسلة، و ضاعت عن الكاتبين المحدثين فى تاريخ التفسير من المستشرقين، و غير المستشرقين، هى حلقة إفريقية تونسية، بالوقوف عليها يتضح كيف تطوّر فهم التفسير عما كان عليه فى عهد ابن جريج، إلى ما أصبح عليه فى تفسير الطبرى، و يتضح لمن كان الطبرى مدينا له بذلك المنهج الأثرى النظرى الذى درج عليه فى تفسيره العظيم.

و إنما عنى بهذا تفسيراً جليلاً من صميم آثار القرن الثانى و هو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق ألف بالقيروان و روى فيها و بقيت نسخته الوحيدة بين تونس و القيروان، و هو الذى يعتبر مؤسس طريقة التفسير النقدى، أو الأثرى النظرى، التى سار عليها بعده ابن جرير الطبرى و اشتهر بها هو تفسير «يحيى بن سلام التميمى البصرى الإفريقى» المتوفى سنة (٢٠٠ هـ) و هو تفسير يقع فى ثلاثين جزءاً من التجزئة القديمة أى فى ثلاثة مجلدات ضخمة، مبنى على إيراد الأخبار مسندة ثم تعقبها بالنقد و الاختيار، فبعد أن يورد الأخبار المروية مفتتحاً بقوله: «قال يحيى» و يجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوى، و التخريج الإعرابى، و يتدرج من اختيار المعنى إلى اختيار القراءة التى تتحاشى و إياه، مشيراً إلى اختياراته فى القراءة بما يقتضى أن له رواية- أو طريقاً- لا يبعد أن تكون راجعة إلى قراءة أبى عمرو بن العلاء البصرى لأن يحيى بن سلام بصرى النشأة... و قد نص ابن الجزرى على أن هذا الكتاب سمع من مؤلفه بإفريقية و شهد بأنه كتاب ليس لأحد من المتقدمين مثله» (١).

و إذا سلّمنا برأى ابن عاشور: أمكن القول إن يحيى بن سلام التميمى البصرى (١) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير و رجاله، تونس، دار سحنون، ط (١٩٩٨-١٩٩٩) ص (٣٤، ٣٥، ٣٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٤

مؤسس طريقة التفسير الأثرى النظرى فى القرن الثانى، و محمد بن جرير الطبرى هو ربيب تلك الطريقة و ثمرة ذلك الغراس» (١) و هو من الأئمة المجتهدين فى الفقه و الحديث، ...

و شارك البخارى فى كثير من شيوخه، و هو من رجال التاريخ و المعرفة الواسعة المفننة بالأحداث و الرجال.

و كان لتفسير الطبرى الشهرة الواسعة إذ نقل إلى الفارسية فى القرن الرابع، و اعتنى به دارسو المشرقيات اعتناء زائداً، لأن هذا التفسير

قد اكتسب على يد مؤلفه الطبرى «صبغة جديدة بحق، لعلها هي التي سمحت له أن يختار الدلالة على صبغة كلمه ما كان يختارها متعاطو التفسير من قبله، و هي كلمه التأويل فسمى تفسيره باسم «جامع البيان عن تأويل القرآن» و التزم كلمه التأويل فى ترجمه كل فصل من فصوله» (٢). و حاول بمنهجية علمية جادة التوفيق بين المعقول و المنقول بنقد الرواية و مقارنتها مع أشباهها أو مع ما يتقاطع معها.

و هكذا شق علم التفسير طريقه، و هذا الطريق كان له منعطفات و وديان و صعديات.

خاصه أن التفسير بالمأثور لقى نقدا شديدا عبر مسيرة التفسير لاختلاط مصطلح الأثر بالأخبار الواهية، أو بما ورد من واهنات أهل الكتاب، غير أن بعض العلماء انبرى بقوة للدود عنه ممحضا و منقرا و أبرزهم الإمام البخارى الذى عاصر الطبرى، الذى شاركه ببعض أشياخه كما ذكرنا سابقا.

راح البخارى العالم الناقد البصير يتحرى ألفاظ اللغة و صحة استعمالها و أصولها الاشتقاقية، و ينقر عن صحة الأقوال المنقولة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة رضى الله عنهم، متخذنا علم الإسناد وسيلة إلى ذلك. و ألف البخارى على هذا المنهج تفسيرا مستقلا لم يصل إلينا هو «التفسير الكبير» ... و لكن الذى وصل إلينا من عمل البخارى القسم المتضمن للتفسيرات النبوية، و آراء و أقوال الصحابة، و نقولاتهم عن الرسول صلى الله عليه و سلم و هذا القسم أودعه البخارى فى كتابه «الجامع الصحيح». و بهذا الصنع مهّد البخارى لأهل الأثر و النظر الطريق للتقارب ... إذ حصر الأحاديث المعتد بها فى التفسير فحكم على ما وراءها بالطرح و عدم الاعتداد» (٣).

ثم جاءت على إثر هذه المسيرة حركة اعتزالية فكرية ثقافية جارفة أفرزت علماء و مفسرين أسهموا فى دفع التفسير و التأويل قدما «و لكن نزعة من العصبية الغالية قد أوغلت (١) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير و رجاله، ص (٣٩).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٥٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٥

بهم فى مسالك التعسف كلما كانت المحامل الواضحة التى يستدعيها السياق و يقتضيها التركيب مخالفة لمذاهبهم الكلامية فى المعانى الاعتقادية، و نزعة من الغرور الذميم أركبتهم مركب ادعاء أن آله التأويل وقف عليهم، لا يحسن غيرهم أن يتعاطاها» (١). و ما من حركة ثقافية يطيش بها الغرور، أو تتقاذفها أهواء الاستبداد بالرأى إلّا و تحوى فى داخلها بذور فئائها و ضعفها ... و مصداقا لذلك:

«فإنه لم يكد لواء النبوغ فى تقرير نكت البلاغة القرآنية يعقد على مجالس الشريف الرضى المتوفى فى (٤٣٦ هـ) حتى نجم فى أفق أهل السنة فتى شافعى أشعري من عباقرة علماء العربية هو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى سنة (٤٧١ هـ) تمّرس بكتب أبى على الفارسى و تخرّج على طريقته فى النحو» (٢) ثم تسلق سلم البيان و البلاغة ليكون مبلور نظرية الإعجاز بجداره - مستثمرا ما قاله المعتزلة و الباقلانى مخرجا لنا كتابه دلائل الإعجاز «فبين فيه جهات الحسن البلاغى و عله، و ضبطها فى قوالب محكمة من التعبير فجاء عمله عملا أساسيا منهجيا» (٣).

ثم كان من الوالجين باب التأويل و البلاغة و التفسير: الإمام الزمخشري، و القاضى أبو محمد بن عبد الحق بن عطية الغرناطى الأندلسى. و قد أنتج كل منهما أعمالا فائقة النفع فى البلاغة و التأويل القرآنى: تفسير ابن عطية، و كشف الزمخشري.

و قد كان تفسير ابن عطية «يمثل صولة الغالب العنيد على المنهزم المتراجع» (٤).

و المقصود غلبة السنة على الاعتزال، ... و لقد قوى تفسير ابن عطية بما أضيف إليه من عاملى قوة بيانية يرجعان إلى شبابه و عروبه، فإن الشباب أفاده قريحه متقدة و نظرة حادة، يتناول بهما موضوعه فى قوة و سرعة و متانة و إلهام» (٥). فى حين كان تفسير الزمخشري

الكشاف اتسم «بالشيخوخة و العجمة، فإن أسلوبه البياني قد جاء متثاقلا كزا ترهقه كلفة الصناعة مع نبوة الطبع، و لذلك فلا يدع أن يوصف تفسيره بأنه «محرر» لا سيما و قد دفع الشبه، و خلص الحقائق، و حرّر ما هو محتاج إلى التحرير، و قد نوه بذلك فى مقدمته» (٦).

و هكذا تسير حركة التفسير قدما حتى وصلنا إلى القرن الرابع، إذ بدأت حدة الاعتزال (١) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير و رجاله، ص (٥٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (٥٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (٥٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (٧٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٧٥).

(٦) المصدر نفسه، ص (٧٥، ٧٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٦

تخف و تنكسر بظهور أحد الأئمة المشاهير الذى أسس لأصول فهم الإسلام متفقا مع الحكمة الصافية المهدبة من الشطط، عند ما أُلّف بين أهل الفقه و أهل الحديث و أهل التصوف- فما كدنا أن نصل إلى القرن السادس الهجرى إلا و أصبحت الثقافة الإسلامية راسخة القواعد، متينة البنيان، «تتراس فيه المعارف الحكيمية و المعارف الدينية، و تشد فيه الفلسفة الشرعية على أنها خادمة لها، كما هو مذهب الأشعرى، لا على أنها مسيطرة عليها كما كان مذهب المعتزلة» (١).

إن ذلك أذن بمولد مفسر عظيم: إنه الإمام الرازى، و كانت طريقته تقوم على إدراك الرازى «ما فى القرآن من أسرار حكيمية، و بث ما تضمنه من مطالب فلسفية و علوم طبيعية، و إنما هى طريقته الكلامية المختارة المتبعة لمنهج الغزالي، و إمام الحرمين و الباقلانى و أبى إسحاق الأصفهاني، و الإمام أبى الحسن الأشعرى» (٢).

ثم تالت التفاسير القرآنية الأخرى كتفسير البيضاوى الذى درج معتمدا على تفسيرين عظيمين هما «الكشاف» للزمخشري، و «التفسير الكبير» للفخر الرازى فجعل اعتماده فى بيان الألفاظ و التراكيب و تحليل المباني لاستخراج نكت المعانى على تفسير الكشاف، و اعتمد فى إبراز روح الحكمة القرآنية و عرض نظرياتها من نواحي الفلسفة و أصول الدين و أصول الفقه على المرجع فى ذلك و هو تفسير الإمام الرازى» (٣).

و عند ما نقول: إن البيضاوى اعتمد على تفسيري «الكشاف و الكبير» لا يعنى هذا أنه قلدهما دون أن يأتى بجديد، بل إن قيمة تفسير البيضاوى تأتى من كونه اعتمد الاختصار، و دقة التعبير، و التزام المصطلح العلمى، و الإشارة إلى ما يتفرع عن التعبير من معان يكتفى بحضورها فى الذهن عن ذكرها... بذلك عظم صيت الكتاب، و طار ذكره و أقبل الناس عليه إذ وجدوا فيه الضالة المنشودة من التفسير العلمى على الطريقة التحليلية اللفظية، التى عظمت بها من قبل شهرة تفسير الكشاف» (٤).

ثم تتابعت التفاسير مثل تفسير ابن عرفه و تفسير أبى السعود و الشهاب الألوسى الذى أخرج كتابه التفسير المشهور «روح المعانى» الذى جمع بين علم التصوف و الذوق و تحليل المعانى و دلالة التركيب. (١) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير و رجاله، ص (٨١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٨٧).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٠٧).

(٤) المصدر نفسه، ص (١١٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٧

المعنى الاصطلاحى للترجمة:

ساق الزرقانى تعريفًا بسيطًا صحيحًا للترجمة:

«هى التعبير عن معنى كلام فى لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه و مقاصده» (١) و التعريف واضح غير أن قوله: «مع الوفاء بجميع معانيه و مقاصده» يحتاج إلى المزيد من الإيضاح.

أى: أن الترجمة الصحيحة يجب أن تنقل الكلام نقلًا إلى لغة أخرى مغايرة مستوفية جميع المعانى و المقاصد المحتملة، لأن إهمال أى مقصد أو معنى محتمل يعتبر تحجيم للنص الأسمى المنقول، و تنقيص من سعته دلالاته ... بخلاف التفسير: فلا يشترط فيه الوفاء بكل معانى الأصل المفسر و مقاصده، بل يكفى فيه البيان و لو من وجه» (٢).

أنواع الترجمة:

تقسم الترجمة إلى معنيين: حرفية، و تفسيرية:

فالترجمة الحرفية: هى التى تراعى فيها محاكاة الأصل فى نظمه و ترتيبه. فهى تشبه وضع المرادف مكان مرادفه. و بعضهم يسمي هذه الترجمة ترجمة لفظية. و بعضهم يسميها: مساوية» (٣).

و الترجمة التفسيرية هى التى لا تراعى فيها تلك المحاكاة أى: محاكاة الأصل فى نظمه و ترتيبه، بل المهم فيها حسن تصوير المعانى و الأغراض كاملة ... و سميت تفسيرية لأن حسن تصوير المعانى و الأغراض جعلها تشبه التفسير و ما هى بتفسير» (٤).

أما الترجمة التفسيرية: فإنها تعتمد المعنى الذى يدل عليه تركيب الأصل في فهمه، ثم يصبّه بواديه من اللغة الأخرى» (٥).

و لا بأس من ضرب الأمثلة على كلا النوعين من الترجمة:

قال تعالى: **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعِدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** «٦» (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (٢/١٢٥).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. (١٢٥، ١٢٦).

(٥) المصدر نفسه، (١٢٦).

(٦) سورة الإسراء، الآية: (٢٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٨

فإنك إذا أردت ترجمتها ترجمة حرفية أتيت بكلام من لغة الترجمة، يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق و عن مداها غاية المد مع رعايته ترتيب الأصل و نظامه بأن تأتى بأداة نهى أولاً، يليها الفعل المنهى عنه، متصلًا بمفعوله، و مضمرًا فيه فاعله، و هكذا. و لكن هذا التعبير الجديد قد يخرج أسلوب غير معروف و لا مألوف فى تفهيم المترجم لهم ما يرمى إليه الأصل من النهى عن التقدير و التبذير. بل قد يستنكر المترجم لهم هذا الوضع الذى صيغ به هذا النهى و يقولون: ما باله ينهى عن ربط اليد بالعنق. و عن مداها غاية المد؟! و قد يلصقون هذا العيب بالأصل ظلمًا، و ما العيب إلا فيما يزعمونه ترجمة للقرآن من هذا النوع» (١).

«أما إذا أردت ترجمة هذا النظم الكريم ترجمة تفسيرية فإنك بعد أن تفهم المراد، و هو النهى عن التقدير و التبذير فى أشبع صورة

منفردة منها، تعتمد إلى هذه الترجمة فتأتى منها بعبارة تدل على هذا النهى المراد، فى أسلوب يترك فى نفس المترجم لهم أكبر الأثر فى استبشاع التقدير و التبذير. و لا عليك من عدم رعاية الأصل فى نظمه و ترتيبه اللفظى ..» (٢).

شروط لا بد من توافرها فى الترجمتين الحرفية و التفسيرية:

كى ننتج ترجمة تفسيرية أو حرفية لا بد من الشروط التالية:

أولها: معرفة المترجم لأوضاع اللغتين لغة الأصل، و لغة الترجمة.

ثانيها: معرفة لأساليهما و خصائصهما.

ثالثها: وفاء الترجمة بجميع معانى الأصل و مقاصده على وجه مطمئن.

رابعها: أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل، بحيث يمكن أن يستغنى عنه، و أن تحل محله، كأنه لا أصل هناك و لا فرع» (٣).

فى الترجمة الحرفية بعد الشروط السابقة لا بد من أمرين:

أحدهما: وجود مفردات فى لغة الترجمة مساوية للمفردات التى تألف منها الأصل حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل، كما هو ملحوظ فى معنى الترجمة الحرفية.

ثانيهما: تشابه اللغتين فى الضمائر المستترة، و الربط التى تربط المفردات لتأليف التراكيب. سواء فى هذا التشابه ذوات الروابط و أمكنتها. و إنما اشترطنا هذا التشابه، لأن (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (٢/١٢٦).

(٢) المصدر نفسه، (٢/١٢٦، ١٢٧).

(٣) المصدر نفسه، (٢/١٢٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٩٩

محاكاة هذه الترجمة لأصلها فى ترتيبه تقتضيه» (١).

و يرى الزرقانى: أن الترجمة الحرفية مستحيلة لعدم تساوى مفردات اللغة الأصل مع اللغة المنقول إليها. و قال بعضهم هى ممكنة فى بعض الكلام دون بعض.

أما الترجمة التفسيرية: فممكنة «لأن المعانى المرادة من لغة الأصل واضحة فيها غالبا و لهذا اعتمدوا عليها فى الترجمات الزمنية و فضّلها المترجمون و المشتغلون بالترجمات على الترجمة الحرفية» (٢).

التفسير و الترجمة:

لقد اختلفت الآراء حول فائدة ترجمة المعانى القرآنية، كما أن الخلاف كان شديدا حول جواز و حرمة ترجمة المعانى القرآنية ... أى ترجمة التفاسير.

و كى يكون الأمر واضحا لا بد من بيان معنى الترجمة لغة و اصطلاحا.

معنى الترجمة و دلالتها:

دلالة كلمة الترجمة فى اللغة العربية تنحصر فى أربعة معان:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يبلغه، و منه قول الشاعر:

إن الثمانين - وبلغتها* - قد أوجت سمعى إلى ترجمان ثانيها: تفسير الكلام بلغته التى جاء بها. و منه ما قيل فى ابن عباس: أنه ترجمان القرآن.

و لعل الزمخشري فى كتابه أساس البلاغة يقصد هذا المعنى إذ يقول: «كل ما ترجم عن حال الشىء فهو تفسير له» (٣).

ثالثها: تفسير الكلام بلغة غير لغته: و جاء فى لسان العرب و فى القاموس أن الترجمان هو المفسر للكلام، و قال شارح القاموس ما نصه: «و قد ترجمه و ترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر» (٤). (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (٢/١٢٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الزمخشري، أساس البلاغة، مادة «فسر». ص (٤٧٣)، ط، دار صادر، (١٩٩٢ م).

(٤) ابن منظور، اللسان، مادة: رجم.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٠٠

رابعها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى: الترجمان بالضم و الفتح، هو الذى يترجم الكلام أى ينقله و الجمع تراجم» (١).

التأويل:

أصله من أول الكلام تأويلا و تأوله: دبره و قدره، و فسر» (٢).

فإذا كان التفسير هو الكشف و البيان، فإن التأويل هو:

«عبارة عن احتمال يقصده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذى يدل عليه الظاهر» (٣) و يوضح الغزالي دور التأويل فى توجيه النص بقوله عن التأويل إنه «يشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز، و كذلك تخصيص العموم بردّ اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز...» (٤).

و يضرب الغزالي بعض الأمثلة:

مسألة تأويل آية مصارف الزكاة: قال قوم: قوله تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ (٥). الآية نص فى التشريك فالصرف إلى واحد إبطال له. و ليس كذلك عندنا- [أى عند الشافعية] بل هو عطف على قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَشِخَطُونَ (٥٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا (٦)- إلى قوله: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ. يعنى أن طمعهم فى الزكاة مع خلوهم عن شرط الاستحقاق باطل، ثم عدّد شروط الاستحقاق لبيان مصرف الزكاة، و من يجوز صرف الزكاة إليه، فهذا محتمل، فإن منعه فللقصور فى دليل التأويل لا لانتفاء الاحتمال» (٧).

و يمكن القول: إن التأويل إرجاع للنص و تعبيرة له، يقول الشافعي فى التأويل: إنه إرجاع لفظ النص و تعبيرة إلى واحد من تلك المعانى المحتملة فى النص و لا يكون ذلك إلا بدليل» (٨). (١) ابن منظور، اللسان، مادة رجم.

(٢) الفيروزآبادى، القاموس المحيط، «أول».

(٣) الغزالي، المستصفى، ١/ ٢٤٥. دار إحياء التراث العربى، ص (١) (١٩٩٧ م).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة التوبة، الآية: (٦٠).

(٦) سورة التوبة، الآيتان: (٥٨، ٥٩).

(٧) الغزالي، المستصفى، (١/ ٢٤٩).

(٨) الشافعي، الرسالة.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٠١

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير كما أسلفنا سابقا بيان و توضيح و كشف ... و هو: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا كتفسير الصراط بالطريق. أما التأويل: فهو «إخبار عن حقيقة المراد» و التفسير إخبار عن دليل المراد؛ لأن اللفظ يكشف عن المراد، و الكاشف دليل، مثاله قوله سبحانه: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ (١٤) «١» تفسير: أنه من الرصد. يقال رصدته. و تأويله: التحذير من التهاون بأمر الله سبحانه، و المشهور عند المتأخرين: أن التفسير هو: بيان المعانى التى تستفاد بالعبارء، و التأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة» «٢».

رأى الشاطبى فى ترجمة القرآن:

قال الشاطبى: «للغة العرب، من حيث هى ألفاظ دالة على معان مطلقة، و هى الدلالة الأصلية، و الثانى من جهة كونها ألفاظا و عبارات مقيدة، دالة على معان خادمة و هى الدلالة التابعة، فالجهة الأولى هى التى تشترك فيها الألسنة، و إليها تنتهى مقاصد المتكلمين، و لا تختص بأمة دون أخرى. فإنه إذا حصل فى الوجود فعل لزيد مثلا كالقيام، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام، تأتى له ما أراد من غير كلفة، و من هذه الجهة يمكن فى لسان الإخبار عن أقوال الأولين من ليسوا من أهل اللغة العربية، و حكاية كلامهم، و يتأتى فى لسان العجم حكاية أقوال العرب و الإخبار عنها و هذا لا إشكال فيه.

و أما الجهة الثانية: فهى التى يختص بها لسان العرب فى تلك الحكاية و ذلك الإخبار، فإن كلّ خبر يقتضى فى هذه الحالة أمورا خادمة لذلك الإخبار، بحسب المخبر و المخبر عنه و المخبر به، و نفس الإخبار فى الحال و المساق، و نوع الأسلوب من الإيضاح و الإخفاء و الإيجاز و الإطناب و غير ذلك».

ثم قال الشاطبى:

«بهذا النوع الثانى اختلفت العبارات و كثير من أقاصيص القرآن، لأنه يتأتى مساق القصء فى بعض السور على وجه، و فى بعضها على وجه آخر، و فى ثالثة على وجه ثالث و هكذا تقرر فيه من الإخبار، و لا بحسب النوع الأول إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل فى (١) سورة الفجر، الآية: (١٤).

(٢) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير و قواعده. ص (٥٢٠)، ط (٣)، (١٩٩٤ م).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٠٢

بعض، و نصّ عليه فى بعض. و ذلك أيضا لوجه اقتضاه الحال و الوقت «١» و ما كان رَبُّكَ نَسِيًّا «٢».

... ثم قال الشاطبى:

«و إذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبار هذا الوجه الأخير - أى الدلالة التابعة - أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام العجم، فضلا عن أن يترجم القرآن و ينقل إلى لسان غير عربى، إلما مع فرض استواء اللسانية فى استعمال ما تقدم تمثله و نحوه. فإذا ثبت ذلك فى اللسان المنقول إليه مع لسان العرب، أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر، و إثبات مثل هذا بوجه بين عسير، و قد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة فى القرآن يعنى على هذا الوجه الثانى.

فأما على الوجه الأول فهو ممكن، و من جهته صح تفسير القرآن و بيان معناه للعامء، و من ليس له فهم يقوى على تحصيل معناه، و كان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة فى صحة الترجمة على المعنى الأصلى» «٣».

و من هذا يظهر أن كلام الشاطبى المالكى له وزنه الفقهى و العلمى يقضى بجواز ترجمة القرآن مع الدليل و البرهان ... إذا كان كلام الشاطبى واضح البيان فى إجازة نقل المعانى الأصلية للقرآن دون التابعة، و على هذا فإن إطلاق الشاطبى لفظ «ترجمة القرآن» على ما

أدى تلك المعانى الأصلية وحدها، إطلاق لغوى محض لا نخالف فيه، بل هو أمر يشجع إليه.

موقف الشاطبى من الترجمة الحرفية:

لا يوافق الشاطبى على الترجمة الحرفية للقرآن و لا فى النصوص الأدبية و له فى ذلك عدة حجج أكتفى بذكر واحدة كونها كافية فى هذا المجال:

«إن القرآن أنزل بلسان العرب فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة ... ثم قال: «فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهمه، و لا سبيل إلى تفهمه من غير هذه الجهة». و ذلك برهان يدل على أن ترجمة القرآن فى نظره، لا يمكن أن تفى بهداياته و مقاصده. و أن طالب فهمه لا طريق له إلا أن ينتقل هو إلى القرآن و لغته فيدرسه على ضوء على ما تقرر من قواعد هذه اللغة و أساليبها، و لا سبيل إلى هذه الدراسة طبعاً إلا بحذف (١) الشاطبى، الموافقات، (٢/٤٤، ٤٥).

(٢) سورة مريم، الآية: (٦٤).

(٣) الشاطبى، الموافقات، (٢/٤٤، ٤٥)، بشيء من التصرف.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٠٣

هذه اللغة و علومها» «١».

من ذلك يظهر جواز الترجمة التفسيرية للمعانى لأن التفاسير لا علاقة لها بالإعجاز إنما بيان للمقاصد و المعانى، و تمكن من نشر المعارف و العلوم القرآنية فى الأمم الأخرى، مع التأكيد أن ترجمة المعانى ليست قرآناً و ليس لها خصائص القرآن، و ليست هى ترجمة كل المعانى التى فهمها القرآن- و قد أجاز عدد ضخم من علماء الأزهر فى العصر الحديث ترجمة المعانى القرآنية إلى لغات أخرى بشروط» «٢». (١) الزرقانى، مناهل العرفان، (٢/٦١-٦٤). بيروت، إحياء التراث، (١٩٤٥).

(٢) أسماء العلماء الذين أجازوا ترجمة معانى القرآن إلى لغات أخرى مبثوثة فى كتاب «كيف نفهم القرآن» لعلى دحروج و كامل موسى، ص (١٤٧)، ط (١٩٩٢ م).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٠٥

الباب الثانى الدراسات القرآنية الحديثة

إشارة

الفصل الأول: التفسير العام.

الفصل الثانى: التفسير المنهجي.

الفصل الثالث: التفسير الموضوعى.

الفصل الرابع: التفسير الأدبى الاجتماعى.

الفصل الخامس: التفسير الفقهى.

الفصل السادس: التفسير الإشارى.

الفصل السابع: التفسير البلاغى.

الفصل الثامن: التفسير الحدائى.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٠٧

الفصل الأول التفسير العام

إشارة

أولاً: التفسير عند محمد الطاهر بن عاشور.

ثانياً: التفسير عند جلال الدين القاسمى.

ثالثاً: التفسير عند محمد على الصابونى.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٠٩

أولاً: تفسير التحرير و التنوير لمحمد الطاهر بن عاشور

محمد الطاهر بن عاشور ١٢٩٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٧٩ - ١٩٧٣ م صاحب «التحرير و التنوير تفسير قرآن كريم»:

محمد الطاهر ابن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس و شيخ جامع الزيتونة و فروعه بتونس، مولده و وفاته و دراسته فى جامع

الزيتونة، عتین فى ١٩٣٢ م شيخاً للإسلام مالکياً.

و ابن عاشور عالم بالعربية، و هو عضو المجمع اللغوى فى القاهرة و دمشق، و له مصنفات مطبوعة من أشهرها «مقاصد الشريعة

الإسلامية» و «أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام»، و «الوقف و آثاره فى الإسلام» و «أصول الإنشاء و الخطابة» و «موجز البلاغة»، و

مما عنى بتحقيقه و نشره «ديوان بشار بن برد» الشاعر العباسى، و كان فى أربعة أجزاء ...

و كتب ابن عاشور فى الكثير من الصحف اليومية و المجلات «١».

لقد درس ابن عاشور التفاسير القرآنية السابقة، و أطلع على ما أنتجته المدرسة المصرية الممثلة بمحمد عبده و رشيد رضا، و ربما اطلع

على ما كتب مصطفى المراعى.

و إدراكاً من محمد الطاهر ابن عاشور لرسالة القرآن الحضارية و الاجتماعية، عمد إلى النهوض بتفسير الكتاب الكريم يقول: «إن الله

تعالى أنزل القرآن كتاباً لصلاح أمر الناس كافة؛ رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، فكان القصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية و

العمرانية و الجماعية» «٢»، و هو بعد أن يلفت الانتباه إلى وجوب فهمه و تدبر آياته على (١) الزركلى، الأعلام (١٧٤/٦).

(٢) محمد الفاضل ابن عاشور، التفسير و رجاله، ص (٢٢٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٠

الوجه المطلوب الذى يومئ إليه قوله تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) «١». يحدثنا المؤلف

عن عظيم أمانيه فى حياته الدنيا و هى:

«تفسير الكتاب المجيد الجامع لمصالح الدنيا و الدين ... و الحاوى لكليات العلوم، و معاهد استنباطها، و الآخذ قوس البلاغة من محل

نياطها، طمعا فى بيان نكت من العلم و كليات التشريع، و تفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها فى خلال تدبره

و مطالعة كلام مفسره» «٢».

ابن عاشور و موقفه من قدماء المفسرين:

لم يكن ابن عاشور هداماً لسابقه إنما كان مطوراً بناء و هذا دأب العلماء المخلصين الذين لا ينكرون جهد السابقين إنما يكملون

نقصه، و يرممون ضعفه، و يسترون عواره، لذا كانت عبارته مشخصة لمواقع الناس من الذى أنتجه علماؤنا القدامى:

«و لقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين:

رجل معتكف فيما أشاده الأقدمون، و آخر أخذ بمعوله فى هدم ما مضت عليه القرون، و فى كلتا الحالتين: ضرر كثير، و هنا لك حالة أخرى يجبر بها الجناح الكبير و هى أن نعلم إلى ما شاده الأقدمون فهذه و نزيده، و حاشا أن نقضه أو نبيده، عالما بأن غمض فضلهم كفران للنعمه، و جحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة فالحمد لله الذى صدق الأمل، و يسر الخير و دلّ «٣». هذا تقديره للأقدمين على نحو عام، اعتراف بالفضل، و عهد على التطوير و الزيادة. أما إذا تحدثت مخصصا فى مجال التفسير فله شأن آخر.

موقف ابن عاشور من التفاسير السابقة:

يرى ابن عاشور أن التفاسير السابقة على كثرتها «فإنك تجد الكثير منها عالمة على كلام سابق بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار و تطويل» «٤». (١) سورة ص، الآية: (٢٩).
(٢) بهذا يشير ابن عاشور إلى مطالعته التفاسير السابقة، انظر مقدمة ابن عاشور للتحريم و التنوير، ط (١)، مؤسسة التاريخ ص (١٥).
(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحريم و التنوير، المقدمة الأولى، ص (٧).
(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١١

أما أهم التفاسير برأى ابن عاشور فهى:

الكشاف للزمخشري، و المحرر الوجيز لابن عطية، مفاتيح الغيب للرازي و تفسير البيضاوى، و تفسير أبى السعود، و تفسير القرطبي، و الموجود من تفسير ابن عرفة التونسي ... و تفسير الطبري، و كتاب وردة التنزيل للرازي أو للأصفهاني. و هو فى أخذه عن هذه التفاسير لا يعزو عليها لقصده الاختصار.

ثم كان اهتمامه جليا فى الجوانب البلاغية فى القرآن، و بأساليب الاستعمال و بيان تناسب اتصال الآيات ببعضها- كما تحدثت عن الغرض العام من السورة. و ضبط معانى المفردات ضبطا محققا، ما ضبطته قواميس اللغة «١». و تحدثت عن نكت الإعجاز فى القرآن، و وصفه «أن فيه أحسن ما فى التفاسير» سميته «تحرير المعنى السديد و تنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» و اختصرت هذا الاسم باسم «التحرير و التنوير من التفسير» «٢».

مقدمة ابن عاشور الأولى فى التفسير و التأويل:

لقد أصبح من الغنى عن القول: إن التفسير من الفسر و الإبانة و الوضوح ... إلخ. لكن لا بأس من القول: «فتير» بالتضعيف فيها دلالة على الإتيان من هذا الفعل بكثرة. «لأن المضاعف قد عرف بتلك الدلالة فى حالة كونه فعلا لازما فمقارنته تلك الدلالة عند استعماله التعدية مقارنة تبعية» «٣».

و التفسير فى الاصطلاح: اسم العلم الباحث عن بيان معانى ألفاظ القرآن و ما يستفاد منها باختصار أو توسع، و المناسبة بين المعنى الأصلي و المعنى المنقول إليه لا يحتاج إلى تطويل.

و موضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، و ما يستنبط منه، و بهذه الحثية خالف علم القراءات لأن تمايز العلوم- كما يقولون- بتمايز الموضوعات و حيثيات الموضوعات «٤».

و قد سرد ابن عاشور تاريخ نشوء علم التفسير، و سأضرب عن ذلك صفحا لأن الفصول الأولى من هذا البحث قد تناولت هذا

الموضوع ... (١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، المقدمة الأولى، ص (٨).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص (١٠).

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٢

التأويل عند ابن عاشور:

«منهم من جعل التفسير و التأويل متساويين، و هذا ما ذهب إليه ثعلب و ابن الأعرابي و أبو عبيدة، و هو ظاهر كلام الراغب.

و منهم من جعل التفسير للمعنى الظاهر و التأويل للمعنى المتشابه.

و منهم من قال: التأويل صرف اللفظ عن ظاهر معناه، إلى معنى آخر محتمل لدليل فيكون هنا بالمعنى الأصولي، فإذا فسر قوله تعالى: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ بِإِخْرَاجِ الطَّيْرِ مِنَ الْبَيْضِ فهذا من التفسير. أو بإخراج المسلم من الكافر فهو التأويل، و هنا لك أقوال آخر لا عبرة بها، و هذه كلها مصطلحات لا متاهة فيها إلا أن اللغة و الآثار تشهد للقول الأول، لأن التأويل مصدر أوله إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة، و الغاية المقصودة من اللفظ هو معناه، و ما أراده منه المتكلم به من المعانى فساوى التفسير على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفى معقول! و قال أبو عبيدة عن قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ أَى يَنْتَظِرُونَ إِلَّا بِيَانِهِ.

و قوله صلى الله عليه و سلم لابن عباس: «اللهم فقهه فى الدين، و علمه التأويل» أى فهم معانى القرآن «١».

و كتب ابن عاشور المقدمة الثانية و قد جعل عنوانها: فى استمداد علم التفسير، و قد وضع المقصود من استمداد علم التفسير: «يراد توفقه على معلومات سابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدونه، لتكون عوناً لهم على إتقان تدوين ذلك العلم. و سمي ذلك فى الاصطلاح: بالاستمداد عن تشبيه احتياج العلم لتلك المعلومات بطلب المدد و العون و الغوث» «٢».

و إمدادات علم التفسير آتية من علوم عدة:

علوم العربية: فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم و أدب لغتهم، سواء حصلت تلك المعرفة بالسجىة و السليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانهم، أم حصلت بالتلقى و التعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب و مارسوهم، و المولدين الذين درسوا علوم اللسان و دَوَّنوها. «إن القرآن كلام عربى فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه» «٣». (١) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الأولى من التحرير و التنوير، ص (١٥).

(٢) المصدر نفسه، المقدمة الثانية، ص (١٦).

(٣) المصدر نفسه، المقدمة الثانية (١٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٣

و يقصد بقواعد العربية: مجموع علوم اللسان العربى و هى: متن اللغة، التصريف و النحو و المعانى و البيان، و من وراء استعمال العرب المتبع من أساليبهم فى خطبهم و أشعارهم و تراكيب بلغائهم، و يدخل فى ذلك ما يجرى مجرى التمثيل و الاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعانى آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين، قال فى الكشاف: و من حق مفسر كلام الله الباهر المعجز أن يتعاهد فى مذاهبه بقاء النظم على حسنه و البلاغة على كمالها... «١».

و لعلمى البيان و المعانى مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية و ما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعانى و إظهار وجه الإعجاز، و لذلك كان هذان العلمان يسميان فى القديم علم دلائل الإعجاز «٢».

و هذا ما أكد عليه العلماء قبل ابن عاشور و على رأسهم السكاكى فى كتاب «المفتاح»، و الجرجانى فى شرحه للمفتاح.

و نقل ابن عاشور عن ابن رشد و هو يجيب عمّن قال: إنه لا يحتاج إلى لسان العرب ما نصّه: «هذا جاهل فلينصرف عن ذلك و ليتب منه، فإنه لا يصحّ شىء من أمور الديانة و الإسلام إلّا بلسان العرب، يقول الله تعالى: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «٣»، إلا أن يرى أنه قال ذلك لخبث فى دينه فيؤديه الإمام على قوله ذلك بحسب ما يرى فقد قال عظيماً» «٤».

و قال عبد القاهر الجرجاني موضحاً المعنى لقوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ «٥» «أى لمن كان أعمل قلبه فيما خلق القلب له من التدبر و التفكير، و النظر فيما ينبغى أن ينظر فيه، ... فهذا على أن يجعل الذى لا يعى و لا يسمع و لا ينظر و لا يتفكر كأنه قد عدم القلب من حيث عدم الانتفاع به ...» و أما تفسير من يفسره على أنه بمعنى «من كان له عقل» فإنه إنما يصح على أن يكون قد أراد الدلالة على الفرض على الجملة، فأما أن يؤخذ به على هذا الظاهر حتى كأن القلب اسم للعقل كما يتوهمه أهل الحشو و من لا يعرف مخارج الكلام عن صورته، و إزالة المعنى عن جهته. و ذاك أن المراد به الحث على النظر و التقريع على تركه و ذمّ من يخلّ به و يغفل عنه و لا يحصل ذلك إلا بالطريق الذى قدمته» «٦» و يخلص الجرجاني إلى القول: (١) محمد الطاهر بن عاشور، نقلاً عن ديباجة الكشاف.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الثانية من التحرير و التنوير، ص (١٧).

(٣) سورة الشعراء، الآية: (١٩٥).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الثانية من التحرير و التنوير، ص (١٨).

(٥) سورة ق، الآية: (٣٧).

(٦) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، بيروت، دار المعرفة ط (١)، (١٩٩٤)، ص (٢٠٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٤

«و من عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهموا أبداً فى الألفاظ الموضوعه على المجاز و التمثيل أنها على ظواهرها، فيفسدوا المعنى بذلك و يطلوا الفرض» و يمنعوا أنفسهم و السامع منهم العلم بموضع البلاغة و بمكان الشرف، و ناهيك بهم إذا هم أخذوا فى ذكر الوجوه و جعلوا يكثر فى غير طائل! هناك لا ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، و زند ضلالة قد قدحوا به» «١».

و السليقة البيانية الفطرية يمكن أن ينوب عنها التملّى بأساليب العرب، و العبّ من خطبهم، و استظهار الكثير من تراكيبهم العظيمة. شعرا و نثرا «ليحصل بذلك لممارسة المولّد ذوق يقوم عنده مقام السليقة و السجية عند العربية القح» «٢».

و يعرف ابن عاشور الذوق: كيفية للنفس بها تدرك الخواص و المزايا التى للكلام البليغ» «٣» و لتكميل الذوق أو إيجاده كان لا بد للمفسّر فى بعض المواضع من الاستشهاد على المراد فى الآية بيت من الشعر أو بشىء من كلام العرب لتكميل ما عنده من الذوق» «٤».

«كما أن من قواعد استعمال الأسلوب المدنى «ما يؤثر عن بعض السلف فى فهم معانى بعض الآيات على قوانين استعمالهم كما روى مالك فى «الموطأ» عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة:- و أنا يومئذ حديث السن:- «أ رأيت قول الله تعالى: إِنَّ الصّفا وَ المَرَوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَيَّجَ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا «٥» فما على الرجل شىء أن لا يطوف بهما»، فقالت عائشة: «كلا لو كان كما تقول، لكانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما؟ إنما نزلت هذه الآية فى الأنصار كانوا يهلون لمناء الطاغية، و كانت مناء حذو قديد، و كانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا و المروة، فلما جاء الإسلام سألو رسول الله صلى الله عليه و سلّم عن ذلك، فأنزل الله: إِنَّ الصّفا وَ المَرَوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَيَّجَ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» كما و هم عروة ثم بينت له مثار شبهته الناشئة عن قوله تعالى:

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ الذى ظاهره رفع الجناح عن الساعى» «٦».

و أما الآثار فهو «ما نقل عن الرسول صلى الله عليه و سلّم من بيان المراد من بعض القرآن فى مواضع الإشكال و الإجمال، و ذلك

شئ قليل. قال ابن عطية عن عائشة رضى الله عنه: «ما كان رسول الله (١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص (٢٠٣)، وانظر المقدمة الثانية لابن عاشور ص (١٨).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، المقدمة الثانية، (١٩ / ١).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة البقرة، الآية: (١٥٨).

(٦) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، المقدمة الثانية، (٢١ / ١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٥

يفسر القرآن إلا آيات معدودات علمه إياهن جبريل، قال معناه فى مغيبات القرآن و تفسير مجمله مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف أو كان تفسيراً لا توقيف فيه كما بين لعدى بن حاتم أن الخيط الأبيض و الخيط الأسود هما سواد الليل و بياض النهار و قال له: «إنك عريض الوسادة» (١). و من المأثور: «ما نقله الصحابة عن الرسول صلى الله عليه و سلم رواية مما لا مجال للرأى فيه. مثل كون المراد من المغضوب عليهم: اليهود و النصارى» (٢).

كما عدّ من المأثور ما عرف بأسباب النزول لأنها تعين على تفسير المراد، و ليس المراد أن لفظ الآية يقصر عليها، لأن سبب النزول لا يخصص، قال تقي الدين السبكي:

كما أن سبب النزول لا يخصص، كذلك خصوص غرض الكلام لا يخصص، كأن يرد خاص ثم يعقبه عام للمناسبة فلا يقتضى تخصيص العام نحو: فلا جناح عليهما أن يضيحا بينهما صلحا و الصلح خير (٣) ... و قد يكون المروى فى سبب النزول مبيّنا و مؤولا لظاهر غير مقصود، فقد توهم قدامة بن مضعون من قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا (٤). فاعتذر بها لعمر بن الخطاب فى شرب قدامة خمر، روى أن عمر استعمل قدامة بن مضعون على البحرين فقدم الجارود على عمر، فقال: إن قدامة شرب فسكر، فقال عمر: من يشهد على ما تقول؟ قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما أقول و ذكر الحديث، فقال عمر: إنى جالدك يا قدامة، قال: و الله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدنى، قال عمر: و لم؟ قال: لأن الله يقول: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا.

فقال عمر: إنك أخطأت التأويل يا قدامة، إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله، و فى روايه فقال: لم تجلدنى! بينى و بينك كتاب الله، فقال عمر: و أى كتاب الله تجد أن لا أجلدك؟ قال: إن الله يقول فى كتابه: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَأَنَّا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، شهدت مع رسول الله بدرا و أحدا و الخندق و المشاهد، فقال عمر: «ألا تردون عليه قوله!» فقال ابن عباس: «إن هؤلاء الآيات أنزلن عذرا للماضين، و حجة على الباقين، فعذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر، و حجة على الباقين لأن الله يقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ (١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، المقدمة الثانية، (٢١ / ١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة النساء، الآية: (١٢٨).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٩٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٦

رَجِسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ (١) ثم قرأ إلى آخر الآية الأخرى، فإن كان من الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا و آمنوا أحسنوا فإن الله قد نهى أن يشرب الخمر، قال عمر:

«صدقت». و تشمل الآثار إجماع الأمة على تفسير معنى، إذ لا- يكون إلا- عن مستند كإجماعهم على أن المراد من الأخت فى آية الكلاله الأولى هى الأخت للأم، و أن المراد من الصلاة فى سورة الجمعة هى صلاة الجمعة، و كذلك المعلومات بالضرورة كلها تكون كالصلاة مرادا منها الهيئة المخصوصه دون الدعاء، و الزكاة المال المخصوص المدفوع» (٢).

و أما القراءات فلا يحتاج إليه إلا فى حين الاستدلال بالقراءة على تفسير غيرها، و إنما يكون فى معنى الترجيح لأحد المعانى القائمة من الآية أو الاستظهار على المعنى فذكر القراءة كذكر الشاهد من كلام العرب، لأنها إن كانت مشهورة، فلا جرم أن تكون حجة لغوية، و إن كانت شاذة فحجتها لا من حيث الرواية، لأنها لا تكون صحيحة الرواية، و لكن من حيث إن قارئها ما قرأ بها إلا استنادا لاستعمال عربى فصيح إذ لا يكون القارئ معتدا به إلا إذا عرفت سلامة عربيته» (٣).

و معرفة أخبار العرب يلزم «لأنه من جملة أدبهم ... إنما خصصتها بالذكر تنبيها لمن يتوهم أن الاشتغال بها من اللغو، فهى يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن فى سوقها، لأن القرآن إنما يذكر القصص و الأخبار للموعظة و الاعتبار، لا- أن يتحادث به الناس فى الأسفار، فبمعرفة الأخبار يعرف ما أشارت إليه الآيات من دقائق المعانى. فقولته سبحانه و تعالى: وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا» (٤).

و قوله: قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ (٤) «٥» يتوقف على معرفة أخبارهم عند العرب» (٦).

أما أصول الفقه: فهو العلم الضابط لقواعد الاستنباط، فهو آلة للمفسر فى استنباط المعانى الشرعية من آياتها» (٧). و إن كان ليس مادة التفسير أصلا، و الفقه ليس من مادة التفسير. إنما هو علم متأخر عن التفسير.

و الآثار المروية عن النبى صلى الله عليه و سلم و الآثار المروية عن الصحابة لا تعد من استمدادات علم (١) سورة المائدة، الآية: (٩٠). (٢) محمد الطاهر بن عاشور، مقدمة التحرير و التنوير، الثانية، ص (٢٣).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة النحل، الآية: (٩٢).

(٥) سورة البروج، الآية: (٤).

(٦) محمد الطاهر بن عاشور، مقدمة التحرير و التنوير الثانية، (١/٢٣).

(٧) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٧

التفسير، إنما هى جزء من التفسير.

و يبقى علم التفسير رأس العلوم الإسلاميه فهو أصل لها على وجه الإجمال، و أما استمداده من بعض العلوم الإسلاميه، فذلك استمداد لقصد تفصيل التفسير على وجه أتم من الإجمال، و هو أصل لما استمد منه «١».

موقف ابن عاشور من التفسير بالرأى:

يظهر من قراءة المقدمة الثالثة المعنونة «فى صحة التفسير بغير المأثور، و معنى التفسير بالرأى و نحوه».

و بالمحصلة: فإن ابن عاشور يجيز التفسير بالرأى، لأن هذا التفسير هو الذى أغنى التفاسير القرآنية بالمعانى و الحكم «قال الغزالي و القرطبي: لا يصح أن يكون كل ما قاله الصحابة فى التفسير مسموعا من النبى صلى الله عليه و سلم لوجهين:

أحدهما: أن النبى صلى الله عليه و سلم لم يثبت عنه من التفسير: إلا تفاسير قليلة و هى ما تقدم عن عائشة و لا بأس من إعادة ذكره «ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودات علمه جبريل إياهن».

و الثانى: اختلفوا فى التفسير على وجوه مختلفة لا يمكن الجمع بينها، و سماعها جميعها من رسول الله صلى الله عليه و سلم محال ...

فتبين أن كل مفسر قال فى معنى الآية ما ظهر له باستنباطه» (٢).

وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى جحيفة قال: قلت لعلى رضى الله عنه: «هل عندكم شىء من الوحي إلا ما فى كتاب الله؟» قال: «لا، و الذى فلق الحبة، و برأ التسمه، لا أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن ... إلخ».

قال الرازى مبرزاً إمكانية تعدد الآراء فى تفسير النصوص القرآنية، و ذلك فى تفسيره الآية من و عاشروهن بالمعروف ... «٣». و قد ثبت فى أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجهها فى تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر فى تفسيرها و إلا لصارت الدقائق التى يستنبطها المتأخرون فى التفسير مردودة و ذلك لا يقوله إلا مقلد خلف» (٤). (١) محمد الطاهر بن عاشور، مقدمة التحرير و التنوير الثانية، (١ / ٢٥).

(٢) المصدر نفسه، المقدمة الثالثة، (١ / ٢٦، ٢٧).

(٣) سورة النساء، الآية: (١٩).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الثالثة، (١ / ٢٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٨

أما الأحاديث الواردة فى ذم القول بالقرآن بالرأى محمول على الرأى المذموم المشفوع بالهوى و التعصب. و ما يمكن أن يلجأ بعضهم إلى تفسير القرآن برأيه، دون بذل جهد كاف للفهم فىكون تفسيره خاطئاً لا إحاطة فيه، كأن يقتصر بفهمه على آية واحدة و يغفل عن أخرى تؤثر على توجيه المعنى مثل قوله تعالى: ما أصابك من حسنة فمن الله «١». فظاهر المعنى أن الخير من الله و الشر من الإنسان بقطع النظر على الأدلة الشرعية التى تقتضى أن لا يقع إلا ما أراد الله. و هذا المفسر حينئذ كان غافلاً عما سبق من قوله تعالى:

قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ... «٢». و من الأسباب التى يذم فيها القول بالرأى فى القرآن: «أن يفسر القرآن برأى مستند إلى ما يقتضيه اللفظ ثم يزعم أن ذلك هو المراد دون غيره لما فى ذلك من التضييق على المتأولين. ثم لا بد من الحذر من القول بالرأى إذا قيل دون وعى و فهم و جهد، لأن فقدان ذلك أو الاستهتار بالإعداد الجاد بتوفير أدوات المفسر من شأنه أن يحرف الأفهام و يضل العباد، و يجعلهم يقعون فى براثن الجهل و الفوضى التى تبعدهم عن مقاصد الهدى القرآنية».

لذا فإن العلماء ردوا بقوة على من استهتر بالدلالات القرآنية المطلوبة، عند ما استخدم أدوات من شأنها أن تضل المفسر، و أن تضلل العباد، فقد تصدى الغزالي فى كتابه «المستظهرى» لهم: «إذا قلنا بالباطن، فالباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر فىمكن تنزيل الآية على وجوه شتى» (٣). و إن احتج بعضهم برواية عن النبى صلى الله عليه و سلم ظهرا و بطنا و مطلقاً. قال ابن عاشور: «لم يصح ما روى عن النبى صلى الله عليه و سلم بل المروى عن ابن عباس، و نقلوا عن ابن عباس أن «ظاهرة التلاوة و باطنه التأويل». أى الظاهر هو اللفظ، و الباطن هو المعنى».

هذا و يجب أن لا يخلط المرء بين التفسير الباطنى مثل بعض ما بثّ فى رسائل إخوان الصفا، و تفسير القاشانى، و بين بعض الإشارات الصوفية و التى أطلق عليها «التفسير الإشارى». أما ما يتكلم به أهل الإشارات من الصوفية فى بعض آيات القرآن من معان لا تجرى على ألفاظ القرآن ظاهراً، و لكن بتأويل فىنبغى أن تعلموا أنهم ما كانوا يدعون أن كلامهم فى ذلك تفسير للقرآن بل يعنون أن الآية تصلح للتمثل بها فى الغرض المتكلم فيه، و حسبكم فى ذلك أنهم سمّوها إشارات، و لم يسموها معانى فبذلك فارق قولهم قول الباطنية.

قال الغزالي فى الإحياء: «إذا قلنا فى قوله صلى الله عليه و سلم: لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب و لا (١) سورة النساء، الآية: (٧٩).

(٢) سورة النساء، الآية: (٧٨).

(٣) عن المستظهرى للغزالي، نقلاً عن ابن عاشور فى المقدمة الثانية، (١ / ٣٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١١٩

صورة، فهذا ظاهره أو إشارته أن القلب بيت و هو مهبط الملائكة و مستقر آثارهم، و الصفات الرديئة كالغضب و الشهوة و الحسد و الحقد و العجب كلاب نابحة فى القلب إلا بواسطة الملائكة، فقلب كهذا لا يقذف فيه النور» (١).

و قال: «و لست أقول إن المراد من الحديث بلفظ البيت القلب، و بالكلب الصفة المذمومة، و لكنى أقول هو تنبيه عليه، و فرق بين تغيير الظاهر و بين التنبيه على البواطن من ذكر الظواهر» (٢).

يقول ابن عاشور: «فبهذه الدقيقة فارق نزعة الباطنية ... و مثل هذا قريب من تفسير لفظ عام فى آية بخاص من جزئياته كما وقع فى كتاب المغازى من «صحيح البخارى» عن عمرو بن عطاء فى قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا (٣) ... قال: هم كفار قريش، و محمد نعمة الله، و أحلوا قومهم دار البوار «يوم بدر» (٤).

و يرى ابن عاشور أن التفسير الإشارى يقبل إذا كان مأخوذا من النص يعطى إحياء لضرب المثل كما مرّ فى حديث «الملائكة الذين لا يدخلون بيتا فيه صور». و يضرب ابن عاشور حالة أخرى مقربا إلى الأذهان اللقطات الإشارية، و إن كان هذا المثال ليس من التفسير:

«و من حكاياتهم فى غير باب التفسير أن بعضهم مرّ برجل يقول لآخر: «هذا العود لا ثمرة فيه فلم يعد صالحا إلّا للنار» فجعل يبكى و يقول: إذا فالقلب غير المثمر لا يصلح إلّا للنار» «نسبت الإشارة إلى القرآن مجازية لأنها تشير إلى من استعدت عقولهم و تدبرهم ...

فى [حالات و لا ينتفع به غير أولئك، فلما كانت آيات القرآن قد أنارت تدبرهم و أثارت اعتيادهم نسبوا تلك الإشارة للآية» (٥). و يحاول ابن عاشور أن يفزق بين الإشارة الصوفية، و التفسير الباطنى بطوارق ثلاثه ترسم حدود الحالات الثلاثة للإشارة، و إلا اقترب القول من الباطنية رويدا رويدا «و عندى أن هذه الإشارات لا تعدو واحدا من ثلاثة أنحاء:

الأول: ما كان يجرى فيه معنى الآية مجرى التمثيل لحال شبيه بذلك المعنى كما (١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط دار المعرفة، ج (١)، كتاب العلم، الباب الخامس فى آداب المتعلم و المعلم.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: (٢٨).

(٤) محمد بن عاشور، المقدمة الثالثة للتحرير و التنوير، (١/٣٣).

(٥) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٠

يقولون مثلا: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعَى فِي خَرَابِهَا (١).

إنها إشارة للقلوب لأنها مواضع الخضوع لله تعالى إذ بها يعرف فتسجد له القلوب بفناء النفوس و منعها من ذكره هو الحيلولة بينها و بين المعارف اللدنية و سعى فى خرابها بتكديرها بالتعصبات و غلبة الهوى، فهذا يشبه ضرب المثل لحال من لا يركى نفسه بالمعرفة و يمنع قلبه أن تدخله صفات الكمال الناشئة عنها بحال مانع المساجد أن يذكر فيها اسم الله و ذكر عند تلك الحالة كالنطق بلفظ المثل» (٢).

الثانى: «ما كان من نحو التفاؤل فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صوتها إلى السمع هو غير معناها المراد ... مثل قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ (٣): من ذلّ ذى - إشارة للنفس - يصير من المقربين الشفعاء، فهذا يأخذ صدى مواقف الكلام فى السمع و يتأوله على ما شغل به قلبه [و يرى ابن عاشور: أن الشيخ محى الدين يسمى هذا النوع سماعا و لقد أبدع» (٤).

و هنا يجب أن نتساءل حول العبارة التى ذكرها ابن عاشور آنفا.

فهذا - أى السماع - يأخذ صدى مواقع الكلام فى السمع، و يتأوله [صاحب الإشارة] على ما شغل قلبه ... هب أن قلبه كان مشغولا بشيء مذموم فعندئذ قد يتأول الآية تأويلا مذموما «لأن صاحب الإشارة سيؤول الآية حسب الحالة التى انشغل بها قلبه».

و السؤال الآخر: ما السبيل إلى معرفتنا الحالة التى انشغل بها قلبه؟ ...

ظنى لو أن السؤال طرح على ابن عاشور فإنه سيقول: لا- سبيل إلى الدخول إلى القلب كى نعرف الحالة التى ينشغل فيها ... ولكن طبيعة التأويل تكشف عن الحالة التى كان عليها قلبه. فإن كانت حالة خيرة، كان تأويله الإشارى حسنا مقبولا، و إن كانت الحالة مذمومة كان تأويله الإشارى مذموما مردودا.

و يمكن طرح السؤال على ابن عاشور: و ما المقياس المعتمد فى الرد و القبول لأننا سنرد التأويل المذموم لانشغال قلبه بما هو مذموم ... و سنقبل التأويل الحسن لانشغال قلب المؤول بما هو حسن ...

ظنى الجواب الذى لا مناص منه: هو ما يقبله الشرع «أى الظاهر» ... و الحق أن (١) سورة البقرة، الآية: (١١٤).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الثالثة، ص (٣٣، ٣٤).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٢٥).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الثالثة، (١/ ٣٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢١

هذا السبيل لا- يخلو من مخاطر و مغامرات، و هو قول ابن عاشور لأن خروج الإشارة إلى خارج الحالات الثلاثة يجعلها تقترب من التفسير الباطنى! الثالث: «عبر و مواعظ، و شأن أهل النفوس اليقظى أن ينتفعوا من كل شىء و يأخذوا الحكمة حيث وجدوها، فما ظنك بهم إذا قرءوا القرآن و تدبروه ... فإذا أخذوا من قوله تعالى: فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (١). اقتبسوا الذى لم يمثل رسول المعارف العليا تكون عاقبته وبالاً» (٢).

و قد نوهنا إلى كلام ابن عاشور أن كل إشارة خرجت عن هذه الأحوال الثلاثة إلى ما عداها فهى تقترب إلى قول الباطنية رويدا رويدا.

و يجب التنويه أن دلالة الإشارة و فحوى الخطاب التى نصّ عليها علماء أصول الفقه لا علاقة لها البتة «بما تحدث عنه من التفسير الإشارى فالحالتان مختلفتان تماما».

ما الأغراض المقصودة من التفسير حسب ابن عاشور:

يرى المؤلف ابن عاشور «صاحب التحرير و التنوير» أن المقاصد الأصلية التى جاء بها القرآن لتبينها «فلنلّم الآن بها» و هى على النحو التالى- و سأحاول أن أذكرها بإيجاز مع بعض التصرف.

الأول: إصلاح الاعتقاد، و هذا يعنى التحرّر من الشرك، و التخلص من الخضوع لغير الله، لأن سواه ليس قادرا على فعل شىء، قال تعالى: فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ «٣». فأسند لآلهتهم زيادة تبييهم و ليس هو من فعل الآلهة و لكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

الثانى: تهذيب الأخلاق، قال تعالى: وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) «٤».

و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» «٥».

الثالث: التشريع، و هو الأحكام خاصة و عامة، قال تعالى: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ «٦» و قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ (١) سورة المزمل، الآية: (١٦).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الثالثة، (١/ ٣٤).

(٣) سورة هود، الآية: (١٠١).

(٤) سورة القلم، الآية: (٤).

(٥) أخرجه مالك فى الموطأ.

(٦) سورة النحل، الآية: (٨٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٢

بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ «١».

الرابع: «صلاح الأمة و حفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا «٢». و قوله: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ «٣» وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ «٤».

الخامس: القصص و أخبار الأمم السالفة بصالح أحوالهم نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَ إِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) «٥».

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، و ما يؤهلهم إلى تلقى الشريعة و نشرها و ذلك علم الشرائع و علم الأخبار، و كان ذلك علم مخالطى العرب من أهل الكتاب. و قد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمه ميزان العقول، و صحة الاستدلال فى أفانين مجادلاته للضالين و فى دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً «٦» ... نعم لقد فجر القرآن العقلية قبل القرآن عقلية حفظ و استظهار، يمكننا القول بقول ابن عاشور عن أهمية القرآن المعرفية «و هذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، و انفتحت به عيون الأميين إلى العلم» «٧».

و نبه القرآن إلى مزية الكتابة ن وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَشْطُرُونَ «٨». و دعا إلى الإعتقال و التفكير وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ «٩».

السابع: المواعظ و الإنذار و التحذير و التبشير: «و هذا يجمع جميع آيات الوعد و الوعيد و التحذير و التبشير و كذلك المحاجه، و المجادله للمعاندين و هذا باب التريغ و الترهيب» «١٠». (١) سورة النساء، الآية: (١٠٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٠٣).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٥٩).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٤٦).

(٥) سورة يوسف، الآية: (٣).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٦٩). و انظر المقدمة الرابعة من التحرير و التنوير، (١/ ٣٨، ٣٩).

(٧) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الرابعة، (١/ ٣٩).

(٨) سورة القلم، الآية، (١).

(٩) سورة العنكبوت، الآية: (٤٣).

(١٠) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الرابعة، (١/ ٣٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٣

الثامن: «الإعجاز بالقرآن» ليكون دليلاً على صدق محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم «بادعائه النبوة و الرسالة» و تحدى القرآن العرب أن يأتوا بمثله و هم البلغاء، ثم تحداهم بعشر سور من مثله، ثم تحداهم بالسورة ... و قد عجزوا، و أذعنوا لبلاغه القرآن على الرغم من تحديه لهم، و إقامة الحجة على العرب، فكان تحدياً لغير العرب.

و بذلك يعنى أن القرآن المعجزة العقلية الخالدة لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و بذلك يختلف عن باقى معجزات الرسل السابقين التى انتهت بوفاة الرسل عليهم السلام. و أكثر من ذلك يعنى أن القرآن وحده هو الدليل القاطع الذى نقل لنا معجزات الرسل السابقين كمعجزة إحياء الموتى على يد نبي الله و رسوله عيسى عليه السلام، و معجزة العصا التى شقت البحر فرقين كل فرق كالطود

العظيم على يد نبي الله و رسوله موسى عليه السلام.

و لعل الحكمة الكامنة وراء ذلك هي أن القرآن كتاب الإسلام خاتم الرسالات.

و تضمن معجزات الرسل السابقين لأنه اعترف بالرسالات السابقة، لأن رسالات الأنبياء تمتاز بوحدة المصدر، و بوحدة الدعوة، و امتياز الإسلام على غيره بشموليته و عالميته التى نص عليها القرآن و ما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا (١) لذا كانت المعجزة الخالدة تتحلى بميزة غير الميزات التى امتازت بها المعجزات المؤقتة بتوقيت أنبيائها و أصحابها المرسلين زمانا، و مكانا.

هل يشتمل القرآن على كل العلوم؟

و موضوع الإعجاز اتسع إلى حد كبير وفق تقدم المعارف العقلية الفلسفية و العلمية.

فبالوقت الذى ذهب بعض العلماء إلى التوفيق ما بين علم الحكمة و الشريعة من الاتصال كما فعله ابن رشد الحفيد، و ذهب بعضهم إلى جعل القرآن مشتملا على كل العلوم.

على جهة أخرى نرى أبو إسحاق الشاطبي يقول فى الفصل من المسألة الرابعة: لا يصح فى مسلك الفهم و الإفهام إلا ما يكون عاما لجميع العرب، فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه «٢» و قال فى المسألة الرابعة من النوع الثانى: ما تقرر من أمية الشريعة و أنها جارية على مذاهب أهلها، و هم العرب، ينبى عليها قواعد منها:

١- أن كثيرا من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين: من علوم الطبيعيات ... و المنطق و علم الحروف .. «٣». (١) سورة سبأ، الآية: (٣٤).

(٢) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، (٢/ ١٨٥).

(٣) المصدر نفسه، (٢/ ٧٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٤

فالصحابة و التابعين و من يليهم كانوا أعرف بالقرآن و بعلمه، و ما أودع فيه، و لم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم من هذا المدعى سوى ما تقدم «١».

يشير الشاطبي بذلك إلى قوله فى المسألة أن العرب كان لها اعتناء بعلم ذكرها الناس و كان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، و اتصاف بمحاسن الشيم، فصحت الشريعة منها ما هو صحيح و زادت عليه، و أبطلت ما هو باطل و بينت منافع ما ينتفع من ذلك و مضار ما يضر منه..

و يريد الشاطبي من ذلك: أن القرآن لا يجب أن تتجاوز بمعانيه الحد و نأخذ منه علوما لا تعرفها العرب، لأن القرآن نزل على العرب الفصحاء و فهموه فهما شاملا- بجملتهم إن لم نقل بمفردهم. أما العلوم التى كانت عند العرب فقد أشار إليها القرآن، و من علوم العرب:

«علم النجوم، و ما يختص بها من الاهتداء فى البر و البحر، و اختلاف الأزمان، باختلاف سيرها و تعرف منازل سير التيرين، و ما يتعلق بهذا المعنى «٢»، و هو معنى مقرر أثناء القرآن فى مواضع كثيرة كقوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ «٣». و كقوله سبحانه تعالى: وَ الْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) «٤». لَأَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ «٥». و قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) «٦». و هناك آيات أخر.

و يرى الشاطبي «و لو كان لهم فى ذلك خوض و نظر [أى خوض من عرب الصحابة و التابعين فى مسائل علوم كونية غير موجودة لديهم أصلا] لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن مدلا على أنه غير موجود عندهم، و ذلك دليل على أن

القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا. نعم تضمن علومها هي من جنس علوم العرب أو ما يبنى على معهودها مما يتعجب منه أولوا الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره» (٧). (١) الشاطبي، الموافقات، (٢/ ٧٩، ٨٠).
(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٧١، ٧٢).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٩٧).

(٤) سورة يس، الآية: (٣٩).

(٥) سورة يس، الآية: (٤٠).

(٦) سورة يونس، الآية: (٥).

(٧) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، (٢/ ٨٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٥

و الخلاصة من ذلك أن الشاطبي لا يوافق على التوسع فى البحث عن العلوم الكونية و الادعاء أن العلوم بالجملة موجودة فى القرآن أو أشار إليها.

و يرد من استدلال بقوله تعالى: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ «١».

بقوله: «المقصود فى البيان لكل شيء من أحوال التكليف و التعبد» «٢».

و يقول د. عبد الله دراز فى تعليقاته على موافقات الشاطبي حول تقرير القرآن أو عدم تقريره للعلوم الكونية أو تقرير واحد منها: «كونه لم يقصد فيه تقرير شيء من هذه العلوم الكونية ظاهر لأنه ليس بصدد ذلك. أما كونه لا يجيء فى طريق دلالة على التوحيد ما يبنى عليه التوسع فى إدراكها و إتقان معرفتها إذا لم يكن معروفا عند العرب فهو محل نظر» «٣».

و يرد ابن عاشور على الشاطبي من كون القرآن لم يخاطبهم إلّا بعلوم أو معلومات يمتلكون أساسها بقوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا «٤».

و من جهة ثانية: إن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة، و هو معجزة باقية فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تناوله أفهام من يأتى من الناس فى عصور انتشار العلوم فى الأمة.

و من ناحية ثالثة: فإن السلف قالوا إن القرآن لا تنقضى عجائبه يعنون معانيه، و لو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه.

و من ناحية رابعة: فإن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعانى مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة.

و من ناحية خامسة: إن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضى إلّا أن يكون المعنى الأصلي مفهوما لديهم، فأما ما زاد على المعانى الأساسية فقد يتهدأ لفهمه أقوام، و تحجب عنه أقوام، و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

و من ناحية سادسة: إن عدم تكلم السلف عليها [على العلوم الكونية] إن كان فيما ليس (١) سورة النحل، الآية: (٨٩).

(٢) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، (٢/ ٨٠).

(٣) انظر تعليق د. عبد الله دراز على الموافقات، (٢/ ٨٠).

(٤) سورة هود، الآية: (٤٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٦

راجعاً إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، و إن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات، بل قد بينوا و فصلوا و فرعوا فى علوم غنوا بها، و لا-يمنعنا ذلك أن نقف على آثارهم فى علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية» «١».

و يخلص ابن عاشور إلى جعل العلاقة بين القرآن و العلوم تنضبط بأربع مراتب:

- ١- علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء و الأمم و تهذيب الأخلاق و الفقه و التشريع و الاعتقاد و الأصول العربية و البلاغة.
- ٢- علوم تزيد المفسر علما كالحكمة [الفلسفة] و الهيئة، و خواص المخلوقات.
- ٣- علوم أشار إليها، أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض، و الطب و المنطق.
- ٤- علوم لا علاقة له بها، لبطلانها كالزجر، و العيافة، و الميثولوجيا، و إما لا تعين على خدمته كعلم العروض و القوافى.

و ظنى أن علم العروض و القوافى يخدم العلوم القرآنية لأننا به نعلم مدى انضباط شعر العرب و حسنه و وجوده، عدا عن الشروط الأخرى الواجب توافرها لإدراك ذلك ... و لا ينكر مدى أهمية فهم شعر العرب لفهم القرآن و الدين على نحو عام» (٢).

و بالمضى قدما فى قراءة تفسير التحرير و التنوير، نجد ابن عاشور قد قدم المقدمة الخامسة و تحدث عن أهمية علم أسباب النزول و مساعدته على فهم الظروف و المناخ الذى تنزل عليه النص (٣).

و كتب المقدمة السادسة فى القراءات و علاقتها بالتفسير، و تحدث عن أنواع القراءات المتواترة، و الصحيحة، و الشاذة.

و أما المقدمة السابعة فقد اشتملت على القصص القرآنى و فوائده السلوكية و الوعظية للمسلمين و للإنسانية عموما.

و كذلك تحدث فى المقدمة الثامنة عن «اسم القرآن و آياته و سوره، و ترتيبها و أسمائها بأسلوب علمى مقارن، و كثيرا ما يلجأ إلى إبداء رأيه الذى رجحه بعد اطلاعه على بقیة الآراء. ثم تحدث فى المقدمة التاسعة فى إثبات «أن المعانى التى تتحملها جمل القرآن تعتبر واردة بها». و المقدمة العاشرة فى الإعجاز القرآنى و بها استعرض أقوال الدارسين (١) محمد الطاهر بن عاشور، المقدمة الرابعة للتحرير و التنوير، (١/ ٤٢، ٤٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، المقدمة الخامسة (١/ ٤٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٧

و العلماء المتضلعين فى علم الإعجاز القرآنى» (١).

ابن عاشور و اللغة:

لم يكن تفسير ابن عاشور «التحرير و التنوير» تفسيراً فقط بل يمكن اعتباره كتاب لغة، بل كتاب فى أساليب اللغة عامة، لأنه اشتمل على النحو و الصرف و البلاغة. و وظّف بنجاح علوم اللغة لصالح فهم الكتاب الكريم القرآن، زد على ذلك أنه اهتم بتوضيح معانى الأدوات النحوية، و ذكّر بمعانيها، و نوّه بالوظائف المعنوية و البلاغية التى قامت بها ...

و هذا ما سنتبينه من خلال بعض الأمثلة؛ قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢).

قال فى هذه الآية:

«استئناف ابتدائي ثنى به البيان إلى موعظة كل فريق من الفرق الأربع المتقدم ذكرها موعظة تليق بحاله بعد أن قضى حق وصف كل فريق منهم بخلاله [بصفاته . و مثلت حال كل فريق، و ضربت له أمثاله، فإنه لما استوفى أحوالا للمؤمنين و أضدادهم من المشركين و المنافقين لا- جرم تهيأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم إرشادا لهم و رحمة بهم لأنه لا يرضى لهم الضلال» (٣). إنها رحمة الله بعباده، و العصاة منهم، فهو لا يتركهم يهيمنون على وجوههم يخبطون خبط عشواء، بل يوجه لهم النداء تلو النداء لعلهم يرشدون يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ.

الإقبال على موعظة نبد الشرك و ذلك هو غالب اصطلاح القرآن فى الخطاب: يا أيها الناس، و قرينه ذلك هنا قوله: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

أَنذَاداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٤». و افتتح الخطاب بالنداء تنويهاً به.

و (يا): حرف نداء، و هو أكثر حروف النداء استعمالاً فهو أصل حروف النداء، و لذلك لا يقدر غيره عند حذف حرف النداء و لكونه أصلاً كان مشتركاً.

و (أى): فى الأصل نكرة تدل على فرد من جنس اسم يتصل بها بطريق الإضافة، نحو: أى رجل أو بطريق الإبدال نحو: يا أيها الرجل، و منه ما فى الاختصاص كقولك (١) انظر محمد الطاهر بن عاشور من ص (٤٥-١٢٨) لمن أراد التوسع ببعض هذه المقدمات لأنها حوت معلومات هامة.

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢١).

(٣) محمد بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣١٨).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٨

لجليسك: أنا كفيت مهمّك أيها الجالس عندك، و قد ينادى المنادى باسم جنسه أو بوصفه لأنه طريق معرفته، أو لأنه أشمل لإحضاره، كما هنا فربما يؤتى بالمنادى حينئذ نكرة مقصودة أو غير مقصودة، و ربما يأتون باسم الجنس أو الوصف معرّفاً باللام الجنسية إشارة إلى طرق التعريف إليه على الجملة تفنناً، فجرى استعمالهم أن يأتوا حينئذ مع اللام باسم إشارة إغراقاً فى تعريفه، و يفصلوا بين حرف النداء و الاسم المنادى حينئذ بكلمة «أى» و هو تركيب غير جار على قياس اللغة و لعله من بقايا استعمال عتيق «١». و يستغرق فى تحليل المفردات، و يذكر أصلها، و يضرب الأمثلة عليها:

و قد اختصروا اسم الإشارة فأبقوا (ها) التنبيهية و حذفوا اسم الإشارة، فأصل يا أيها الناس يأيهؤلاء، و قد صرحوا بذلك فى بعض كلامهم كقول الشاعر الذى لا نعرفه:

«أيهدان كلا زاديكما» و ربما أرادوا نداء المجهول الحاضر الذات أيضاً بما يدل على طريق إحضاره من حالة قائمة به باعتباره كونه فرداً من جنس، فتوصلوا لذلك باسم الموصول الدال على الحالة بصلته و الدال على الجنسية لأن الموصول يأتى لما تأتى له اللام فيقحمون أياً كذلك نحو:

يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ «٢».

(و الناس): اسم جمع نودى و عرف بأل يشمل كل أفراد مسماه، لأن الجموع المعرّفة باللام للعموم ما لم يتحقق عهد كما تقرر فى الأصول، و احتمالها العهد ضعيف إذ الشأن عهد الأفراد فلذلك كانت فى العموم أنص من عموم المفرد المحلى بأل «٣».

(اعبدوا): المخاطب بالعبادة «المشركون من العرب و الدهريون منهم و أهل الكتاب و المؤمنون كل بما عليه من واجب العبادة من إثبات الخالق و من توحيده، و من الإيمان بالرسول و الإسلام للدين و الامتثال لما شرعه الله، إلى ما وراء ذلك كله حتى منتهى العبادة و لو بالدوام و المواظبة بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه و سلم و المؤمنين معه فإنهم مشمولون للخطاب على ما تقرر فى الأصول، فالمأمورية هو القدر المشترك حتى لا يلزم استعمال المشترك فى معانيه عند من يأبى ذلك الاستعمال و إن كنا لا نأباه إذا صلح له السياق، بدليل تفرغ قوله بعد ذلك فلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْذَاداً «٤» على قوله: اعْبُدُوا رَبَّكُمْ «٥». فليس بهذه الآية حجة (١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣١٩).

(٢) سورة الحجر، الآية: (٦).

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣٢٠).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٢).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٢٩

للقول بخطاب الكفار بفروع الشريعة لأن الأمر بالعبادة بالنسبة إليهم إنما يعنى به الإيمان و التوحيد، و تصديق الرسول صلى الله عليه و سلم و خطابهم بذلك متفق عليه و هى مسألة سمجة» (١). قلت: لا اتفاق و خالف بذلك المالكية و الشافعية» (٢).

(و الرب): إما مصدر، و إما صفة مشبهة على وزن «فعل» من رَبَّه يَرْبُه بمعنى: ربا و هو رب بمعنى ربّ و سائس. و التربية: تبليغ الشئ إلى كماله تدريجيا، و يجوز أن يكون من ربه بمعنى ملكه. فإن كان مصدرا على الوجهين فالوصف به للمبالغة، و هو ظاهر و إن كان صفة مشبهة على الوجهين فهى واردة على القليل فى أوزان الصفة المشبهة فإنها لا تكون على فعل من فعل يفعل إلّا قليلا، من ذلك قولهم: نم الحديث، ينمّه فهو نمّ للحديث» (٣).

غير أن ابن عاشور يرجح الاشتقاق «و الأظهر أنه مشتق من رَبَّه بمعنى ربا و ساسه لا من ربه بمعنى ملكه، لأن الأول الأنسب بالمقام هنا إذا المراد أنه مدبر الخلاق و سائس أمورها و مبلغها غاية كمالها» (٤).

و يرجح ابن عاشور ما ذهب إليه بقوله: «و لأنه لو حمل على معنى المالك لكان قوله تعالى بعد ذلك «ملك يوم الدين» كالتأكيد، و التأكيد خلاف الأصل، و لا داعى إليه هنا، إلّا أن يجب بأن العالمين لا يشمل إلّا عوالم الدنيا، فيحتاج إلى بيان أنه ملك الآخرة، كما أنه ملك الدنيا، و إن كان الأكثر فى كلام العرب ورود الرب بمعنى الملك و السيد و ذلك الذى دعا صاحب الكشاف إلى الاقتصار على معنى السيد و الملك و جوّز فيه وجهى المصدرية و الصفة ..» (٥).

«و هو لم يقل اعبدوا الله لأن فى الإتيان بلفظ الرب إيذانا بأحقية الأمر بعبادته، فإن المدبر لأمر الخلق هو جدير بالعبادة، لأن فيها معنى الشكر و إظهار الاحتياج، و أفراد اسم الرب دل على أن المراد رب جميع الخلق و هو الله تعالى، إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد و الإضافة إلى جميع الناس إلّا-الله، فإن المشركين و إن أشركوا مع الله آلهة إلّا أن بعض القبائل كان لها مزيد اختصاص بعض الأصنام كما كان لثقيف مزيد اختصاص (١) انظر تفسير الرازى عند تفسير سورة المدثر للآيات (٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧). و انظر أبو بكر ابن العربى فى أحكام القرآن، (٢/ ٥٥٨) و عدا تكليف الكفار بفروع الشرع مسألة قطعية، و الكافرون ليسوا مكلفين بفروع الشريعة.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣٢١).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه (١/ ١٦٤).

(٥) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٠

باللات كما تقدم فى سورة الفاتحة و تبعهم الأوس و الخزرج» (١).

و قوله (اعْبُدُوا رَبَّكُمْ): صريح فى الدعوة إلى توحيد الله و لذلك فقوله «الذى خلقكم» زيادة بيان لموجب العبادة أو زيادة بيان لما اقتضته الإضافة من تضمن معنى الاختصاص بأحقية العبادة.

و قوله (وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ): يفيد تذكير الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنهم إنما خلقهم آبائهم فقالوا: نُمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» (٢). فكان قوله: وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ تذكيرا لهم بأن آبائهم الأولين لا بد أن ينتهوا إلى أب أول فهو مخلوق لله تعالى.

و لعل هذا وجه التأكيد بزيادة «من» فى قوله: «من قبلكم» الذى يمكن الاستغناء عنه بالاقتصار على «قبلكم» لأن «من» فى الأصل للابتداء فهى تشير إلى أول الموصوفين بالقبليّة فذكرها هنا استرواح لأصل معناها مع التأكيد الغالب عليها إذا وقعت مع قبل و بعد» (٣).

(و الخلق): فى القرآن و كلام الشريعة هو: «إيجاد الأشياء المعدومة فهو إخراج الأشياء من العدم إلى الوجود إخراجا لا صفة فيه للبشر

... «٤».

قال الغزالي «فى المقصد الأسنى»: لا حظ للعبد فى اسمه تعالى الخالق إلا بوجه من المجاز بعيد، فإذا بلغ فى سياسة نفسه، و سياسة الخلق مبلغا ينفرد فيه باستنباط أمور لم يسبق إليها و يقدر مع ذلك فعلها كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل فيجوز إطلاق الاسم أى الخالق عليه مجازا بعيدا فيما حكاه الله تعالى فى القرآن من قول عيسى عليه السلام: «أَنى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ «٥». و قول الله تعالى: «وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى «٦». فإن ذلك مراعى فيه أصل الإطلاق اللغوى قبل غلبه استعمال مادة خلق فى الخلق الذى لا يقدر عليه إلا الله تعالى، ثم تخصيص تلك المادة بتكوين الله تعالى الموجودات، و من أجل ذلك قال الله: فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ «٧».

و جملة «لعلكم تتقون» تعليل للأمر باعبدوا، فلذلك فصلت: أى أمرتكم بعبادته لرجاء منكم أن تتقوا. ثم يبدأ ابن عاشور بتحليل النص القرآنى «لعلكم تتقون»: (١) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، (١ / ٣٢١).
(٢) سورة الجاثية، الآية: (٢٤).

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، (١ / ٣٢٢).

(٤) المصدر نفسه، (١ / ٣٢٣).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٤٩).

(٦) سورة المائدة، الآية: (١١٠).

(٧) سورة المؤمنون، الآية: (١٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣١

(لعل): حرف يدل على الرجاء، و الرجاء هو الإخبار عن تهيئ وقوع أمر فى المستقبل وقوعا مؤكدا، فتبين لعل: حرف مدلوله خبرى، لأنها إخبار عن تأكد حصول الشئ ... «و ليس فيها معنى إنشائى طلبى و لذلك لم ينصبوا الفعل فى جوابها بعد الفاء و الواو بخلاف جواب التمنى و لذلك فأطلع من قوله تعالى: لَعَلَىٰ أُبُلُغَ الْأَشْيَابِ* أَسْيَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلَعَ «١» إلما فى روايته حفص عن عاصم فقد نصب «فأطلع».

و يتوسع فى شرحه للنص القرآنى الحاوى على صيغة الترجى فيقول: «معناها مركب من رجاء المتكلم فى المخاطب و هو معنى جزئى حرفى» «٢».

و يعلل عدم الجزم للفعل الواقع بعدها بقوله: «لأن معنى الترجى يقتضى عدم الجزم بوقوع المرجو عند المتكلم، فللشك جانب فى معناها حتى قال الجوهري: «لعل كلمة شك، و هذا لا يناسب علم الله تعالى بأحوال الأشياء قبل وقوعها، و لأنها قد وردت فى أخبار مع عدم حصول المرجو لقوله تعالى:

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) «٣» مع أنهم لم يتذكروا كما بينته الآيات بعد» «٤».

ترجيحات لابن عاشور فى معانى لعل:

منهج ابن عاشور فى الترجيح يقوم على ما يلى:

ذكر الأقوال الواردة فى المسألة ممن سبقوه من أهل العلم. و يفسر ابن عاشور ما يريده أولئك إن كان داع يدعو إلى ذلك.

ثم يبين ابن عاشور رأيه فيما يوافق السابقين، و إما يرجح أحد هذه الآراء، و إما يأتى برأى جديد.

فعند ما درس معانى «لعل» عند أهل اللغة قال ابن عاشور:

أحدها: قال سيبويه: «لعل على بابها و الترجى أو التوقع إنما هو فى حيز المخاطبين. يعنى للإخبار بأن المخاطب يكون مرجوا، و اختاره

الرضى قائلا: لأن الأصل أن لا تخرج عن معناها بالكلية. (١) سورة غافر، الآيتان: (٣٦، ٣٧).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣٢٣).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٣٠).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣٢٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٢

و أقول: لا يعنى سيبويه أن ذلك معنى أصل لها و لكنه يعنى أنها مجاز قريب من معنى الحقيقة لوقوع التعجيز فى أحد جزأى المعنى الحقيقى، لأن الرجاء يقتضى راجيا و مرجوا منه، فحرف الرجاء على معنى فعل الرجاء إلا أنه معنى جزئى، و كل من الفاعل و المفعول مدلول للمعنى الفعل بالالتزام، فإذا دلت قرينته على تعطيل دلالة حرف الرجاء على فاعل الرجاء لم يكن فى الحرف أو الفعل مجاز، إذ المجاز إنما يتطرق للمدلولات اللغوية لا العقلية، و كذلك إذا لم يحصل الفعل المرجو.

ثانيها: أن لعل «للإطعام» تقول للقاصد: لعلك تنال بغيتك، قال الزمخشري: و قد جاءت على سبيل الإطعام فى مواضع من القرآن. و الإطعام أيضا معنى مجازى للرجاء لأن الرجاء يلزمه التقريب و التقريب يستلزم الإطعام فالإطعام لازم بمرتين.

ثالثها: أنها للتعليل بمعنى كى، قاله قطرب و أبو على الفارسي و ابن الأنبارى، و أحسب أن مرادهم هذا المعنى فى المواقع التى لا يظهر فيها معنى الرجاء، فلا يرد عليهم أنه لا يطرد فى نحو قوله: «و ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» (١) لصحة معنى الرجاء بالنسبة للمخاطب فلا يرد عليهم أيضا أنه إثبات معنى فى «لعل» لا- يوجد له مشاهد من كلام العرب، و جعله الزمخشري قولاً متفرعا على قول من جعلها للإطعام فقال: «و لأنه إطعام من كريم إذا أطعم فعل» قال من قال: إن لعل بمعنى كى فهو معنى مجازى ناشئ عن مجاز آخر، فهو من تركيب المجاز على اللزوم بثلاث مراتب.

رابعها: ما ذهب إليه صاحب «الكشاف» أنها استعارة فقال: «و لعل فى الآية واقعة موقع المجاز لأن الله تعالى خلق عباده ليتعبد لهم و وضع فى أيديهم زمام الاختيار و أراد منهم الخير و التقوى فهم فى صورة المرجو أن يتقوا ليرجح أمرهم و هم محتارون بين الطاعة و العصيان» (٢).

و يخلص بعد هذا إلى معنى جديد مستقل و هو: «أن لعل الواقعة فى مقام تعليل أمر أو نهى لها استعمال يغير استعمال لعل المستأنفة فى الكلام سواء وقعت فى كلام الله أم فى غيره، فإذا قلت: افتقد فلانا لعلك تنصحه كان إخبارا باقتراب وقوع الشئ و أنه فى حيز الإمكان إن تم ما علق عليه، فأما اقتضاؤه عدم جزم المتكلم بالحصول فذلك معنى التزامى أغلبى قد يعلم انتفاؤه بالقرينة، و ذلك الانتفاء فى كلام الله أوقع، فاعتقادنا أن كل شئ لم يقع أو لا يقع فى المستقبل هو القرينة على تعطيل هذا المعنى الالتزامى، دون (١) سورة الشورى، الآية: (١٧).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣٢٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٣

احتياج إلى التأويل فى معنى الرجاء الذى تقيده «لعل» حتى يكون مجازا أو استعارة، لأن «لعل» إنما أتى بها لأن المقام يقتضى معنى الرجاء الذى يقتضيه المقام، و الجماعة لجؤوا إلى التأويل لأنهم نظروا إلى لعل بنظر متحد فى مواقع استعمالها بخلاف لعل المستأنفة فإنها أقرب إلى إنشاء الرجاء منها إلى الإخبارية، و على كل فمعنى «لعل» غير معنى أفعال المقاربة» (١).

و التقوى «الحذر مما تكره و شاعت عند العرب و المتدينين فى أسبابها ... و التقوى نتيجة العبادة جعل رجاؤها أثرا للأمر بالعبادة ... و المعنى: اعبدوا ربكم رجاء أن تتقوا فتصبحوا كاملين متقين ...» (٢).

إن المنهج الذى اختطه ابن عاشور لنفسه كان منهجا شاملا يحاطه بأدوات البحث، إذ جعل من التفسير علما شاملا يحشد لأجله كل العلوم... فإننا نرى كلما تصفحنا رأيا لابن عاشور فى تفسير أى آية وجدناه يحشد علوم اللغة بتفرعاتها البلاغية و النحوية و الصرفية، و الأسلوبية، و يمسك بالحديث النبوى و يدرس سنده و متنه، و يدرس الظروف التى تنزلت عليها الآية الكريمة ثم يعمد إلى تحليل النص، و يذكر النصوص المعينة على فهمه و تفسيره وصولا إلى المراد بعد أن يسرد الأقوال التى قيلت فيه.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) «٣».

يجيب ابن عاشور على سؤال قبل أن يلج معانى الآية الكريمة. و السؤال: هل الوضوء كان مفروضا قبل نزول آية المائدة، يقول: «الأظهر أن هذه الآية أريد منها تأكيد شرع الوضوء، و شرع التيمم خلفا عن الوضوء بنص القرآن، لأن ذلك لم يسبق نزول قرآن فيه و لكنه كان مشروعا بالسنة، و لا شك أن (١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/٣٢٤، ٣٢٥). (٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة المائدة، الآية: (٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٤

الوضوء كان مشروعا من قبل ذلك فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه و سلم لم يصل صلاة إلا بوضوء». قال أبو بكر بن العربى: لا- خلاف بين العلماء أن الآية مدنية، ثم لا خلاف أن الوضوء كان مفعولا قبل نزولها غير متلو «١»، و لذلك قال علماؤنا «٢»: إن الوضوء كان بمكة مسنة، معناه كان مفعولا بالسنة، فأما حكمه فلم يكن قط إلا فرضا «٣». و هنا لا بد من الإشارة إلى أن المالكي أبو بكر بن العربى عد الكافرين مكلفين بفروع الشريعة «٤». بخلاف ما ذكره ابن عاشور «٥». و ذلك عند تعقيبه على قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ.

و يتابع ابن عاشور: «فهذه الآية قررت حكم الوضوء ليكون ثبوته بالقرآن، و كذلك الاغتسال فهو مشروع من قبل كما شرع الوضوء بل هو أسبق من الوضوء، لأنه من بقايا الحنيفية التى كانت معروفة حتى أيام الجاهلية» «٦».

«و معنى (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ): إذا عزمتم على الصلاة، لأن القيام يطلق فى كلام العرب بمعنى الشروع فى الفعل، قال الشاعر: [من الطويل

فقام يذود الناس عنها بسيفه و قال ألا لا من سبيل إلى هند

و استعملوا قام] على العزم على الفعل، قال النابغة:

«قاموا فقالوا حمانا غير مقروب».

أى عزموا رأيهم فقالوا، و القيام هنا كذلك بقرينه تعديته ب (إلى) لتضمينه معنى عمدتم إلى أن تصلوا.

و روى مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم أنه فسّر القيام بمعنى الهبوب من النوم و هو مروى عن السدى. فهذه وجوه الأقوال فى تفسير معنى القيام فى هذه الآية و كلها تؤول إلى أن إيجاب الطهارة لأجل أداء الصلاة.

و أما ما يرجع إلى تأويل معنى الشرط الذى فى قوله: إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ فظاهر الأمر بالوضوء عند كل صلاة «٧» ... (١) غير متلو: أى لم ينزل به قرآن يتلى.

(٢) علماؤنا: قصد المالكية منهم.

(٣) أبو بكر ابن العربي، أحكام القرآن، ت على محمد الجاوى، ط، دار المعرفة، (٢/ ٥٥٨).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٥٨).

(٥) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣٣١).

(٦) المصدر نفسه، (٥/ ٤٩).

(٧) المصدر نفسه، (٥/ ٤٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٥

و اقتضى طلب غسل هذه الأعضاء عند كل قيام إلى الصلاة، و الأمر ظاهر فى الوجوب. و قد وقف عند هذا الظاهر قليل من السلف فروى عن على بن أبى طالب و عكرمة و جوب الوضوء لكل صلاة و نسبه الطبرسى إلى داود الظاهرى و لم يذكر ذلك ابن حزم فى المحلى و لم أره لغير الطبرسى» (١).

و تطرق ابن عاشور إلى قول من قال بوجوب الوضوء لكل صلاة، و قول من قال إنه نسخ بعد الفتح. و خلص إلى القول: «إن الوضوء لكل صلاة على وجه الاستحباب و الأفضلية لا غير» (١).

و أما الأعضاء الواجب غسلها، فيقول ابن عاشور: «و ما ذكر القرآن من أعضاء الوضوء هو الواجب و ما زاد عليه سنة واجب» (٣). و حددت الآية الأيدي ببلوغ المرافق لأن اليد تطلق على ما بلغ الكوع و ما إلى المرفق و ما إلى الإبط، فرفعت الآية الإجمال فى الوضوء لقصده المبالغة فى النظافة فسكتت فى التيمم فعلمنا أن السكوت مقصود، و أن التيمم لما كان مبناه على الرخصة اكتفى بصورة الفعل و ظاهر العضو، و لذلك اقتصر على قوله: «و أيديكم» فى التيمم فى هذه السورة و فى سورة النساء. و هذا من طريق الاستعادة بالمقابلة. و هو طريق بديع فى الإيجاز أهمله علماء البلاغة و علماء الأصول فاحتفظ به و ألحقه بمسائلهما» (٤).

و حول غسل المرافق «رأى أن المرافق تغسل» بخلاف القائلين بأنها متروكة» (٥).

و قوله «و أرجلكم»: قرأه نافع، و ابن عامر، و الكسائى، و حفص عن عاصم، و أبو جعفر، و يعقوب بالنصب عطفاً على «و أيديكم» - و تكون جملة «و امسحوا برءوسكم» معترضة بين المتعاطفين، و كأن فائدة الاعتراض الإشارة إلى ترتيب أعضاء الوضوء، لأن الأصل فى الترتيب المذكور أن يدل على الترتيب الوجودى، فالأرجل يجب أن تكون مغسولة، إذ هى حكمة الوضوء هى النقاء و الوضوء و التنظيف و التأهب لمناجاة الله تعالى تقتضى أن يبلغ فى غسل ما هو أشد تعرضاً للوسخ فإن الأرجل تلاقى غبار الطرقات، و تفرز الفضلات بكثرة حركة المشى...» (٦). و لذلك فإن النبى صلى الله عليه و سلم كان ينادى للذى لم يحسن غسل رجله: «ويل للأعقاب من النار» (٧). (١) محمد الطاهر بن عاشور، (٥/ ٤٩).

(٣) ابن عاشور، التحرير و التنوير، (٥/ ٥١).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) انظر التحرير و التنوير (٥/ ٥٢).

(٧) التحرير و التنوير (٥/ ٥٢)، و الحديث أخرجه الترمذى فى (الحديث: ٤١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٦

و قرأ ابن كثير و أبو عمرو، و حمزة، و أبو بكر و عن عاصم و خلف بخفض و أرجلكم... و للعلماء فى هذه القراءة تأويلات: «منهم من أخذها بظاهرها فجعل حكم الرجلين المسح دون الغسل، و روى هذا عن ابن عباس، و أنس بن مالك، و عكرمة و الشعبي، و قتادة» (١).

و عن أنس بن مالك أنه بلغه أن الحجاج خطب يوماً بالأهواز فذكر الوضوء، فقال:

«إنه ليس شىء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه فاغسلوا بطونهما و ظهورهما «و عراقبيهما» فسمع ذلك أنس بن مالك فقال: صدق الله و كذب الحجاج، قال الله تعالى:

وَأَمْسِيحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَ أَرْجُلِكُمْ وَ رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رَوَايَةٌ أُخْرَى: قَالَ: نَزَلَ الْقُرْآنُ بِالمَسْحِ وَ السَّيْنَةِ بِالغَسْلِ، وَ هَذَا أَحْسَنُ تَأْوِيلٍ لِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ فَيَكُونُ مَسْحُ الرَّجْلَيْنِ مَنْسُوخًا بِالسَّيْنَةِ، فَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ رَأَى قَوْمًا يَتَوَضَّئُونَ وَ أَعْقَابَهُمْ تَلُوحٌ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ مَرَّتَيْنِ» (٢). وَ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ بَعْدَ عَصْرِ التَّابِعِينَ عَلَى وَجُوبِ غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ عِدَا الْإِمَامِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: «لَيْسَ فِي الرَّجْلَيْنِ إِلَّا الْمَسْحُ». وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: رَأَى التَّخْيِيرَ بَيْنَ الْغَسْلِ وَ الْمَسْحِ وَ جَعَلَ الْقِرَاءَتَيْنِ بِمَنْزِلَةٍ رَوَاتَيْنِ مِنَ الْأَخْبَارِ إِذَا لَمْ يُمْكِنَ تَرْجِيحُ أَحَدَهُمَا، عَلَى رَأْيِ مَنْ يَرُونَ التَّخْيِيرَ فِي الْعَمَلِ إِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْمَرْجِحُ. وَ اسْتَأْنَسَ الشَّعْبِيُّ لِمَذْهَبِهِ «بَأَنَّ التَّيْمِمَ يَمْسَحُ فِيهَا مَا كَانَ يَغْسَلُ فِي الْوُضُوءِ وَ يَلْغِي فِيهِ مَا كَانَ يَمْسَحُ فِي الْوُضُوءِ» (٣). «وَ بَعْضُ الْعَرَبِ تَسْمِي الْغَسْلِ الْخَفِيفِ مَسْحًا، وَ هَذَا الْإِطْلَاقُ إِنْ صَحَّ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا هُنَا لِأَنَّ الْقُرْآنَ فَزَقَ فِي التَّعْبِيرِ بَيْنَ الْغَسْلِ وَ الْمَسْحِ» (٤). وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ... إِلَى قَوْلِهِ وَ أَيْدِيَكُمْ مِنْهُ (٥).

و جملة: ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ تَعْلِيلَ لِرِخْصَةِ التَّيْمِمِ، وَ نَفْيَ الْإِرَادَةِ هُنَا كِنَايَةً عَنِ نَفْيِ الْجَعْلِ لِأَنَّ الْمُرِيدَ الَّذِي لَا غَالِبَ لَهُ لَا يَحُولُ دُونَ إِرَادَتِهِ عَاتِقًا.

و اللام فى «ليجعل» داخله على أن المصدرية محذوفة و هى لام يكثر وقوعها بعد أفعال الإرادة. و أفعال مادة الأمر، و هى لام زائدة على الأرجح و تسمى لام أن.

و الحرج: الضيق، و الشدة. و الحرجة: البقعة من الشجر الملتف المتضايق. و الجمع:

حرج. و الحرج المنفى هنا: هو الحرج الحسى لو كلفوا بطهارة الماء مع المرض أو (١) التحرير و التنوير (٥/ ٥٢).

(٢) المصدر نفسه، و الحديث أخرجه الترمذى فى (الحديث: ٤١).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة المائدة، الآية: (٦)، و راجع الآية فى تفسير المؤلف لسورة النساء.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٧

السفر، و الحرج النفسى لو منعوا من أداء الصلاة فى حال العجز عن استعمال الماء لضر أو سفر أو فقد ماء فإنهم يرتاحون إلى الصلاة و يحونها» (١).

و ظنى: ما من حرج حسى إلا و له أثر من الحرج النفسى ... و ما من حرج نفسى إلا و له آثار على الجسم. و العلاقة بين ما هو نفسى و جسدى قوية لدرجة قد لا تستطيع الفصل بينهما.

و قوله: وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ الْأَمْرِ بِالغَسْلِ وَ الْوُضُوءِ التَّطَهِيرِ وَ هُوَ تَطَهِيرٌ حَسِّيٌّ لِأَنَّهُ تَنْظِيفٌ، وَ تَطَهِيرٌ نَفْسِيٌّ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ لِمَا جَعَلَهُ عِبَادَةً فَإِنَّ الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عِدَّةٍ أَسْرَارًا:

منها ما تهتدى إليه الأفهام و نعبر عنها بالحكمة، و منها ما لا يعلمه إلّا الله، ككون الظهر أربع ركعات، فإذا ذكرت حكم للعبادات فليس المراد أن الحكم منحصره فيما علمناه، و إنما هو بعض من كل، و ظن لا يبلغ منتهى العلم» (٢).

و قوله: وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ: أى يكمل النعم الموجودة قبل الإسلام بنعمة الإسلام، أو يكمل نعمة الإسلام بزيادة أحكامه الراجعة إلى التزكية و التطهير مع التيسير فى أحوال كثيرة» (٣).

و يوضح ابن عاشور مفهوم إتمام النعم فى الإسلام بقوله: «فالإتمام إما بزيادة أنواع من النعم لم تكن و إما بتكثير فروع النوع من النعم» (٤).

و قوله: لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... أى رجاء شكركم إياه. جعل الشكر علةً لإتمام النعمة على طريقته المجاز بأن استعيرت صيغة الرجاء إلى الأمر لقصد الحث عليه و إظهاره فى صورة الأمر المستقرب الحصول» (٥).

و تعقيباً على قول ابن عاشور فى الحكمة أقول:

إن الحكمة إن لم تكن النصوص القرآنية و الحديثية نصت عليها فهى ظنية ... و إذا نصت عليها لا يعنى أن الحكمة انتهت عند ذكر النص لهذه الحكمة ... فلا مانع من وجود حكم متعددة من تشريع حكم إلهي ما. ثم إن الحكم على العموم ظنية إذا لم تنص النصوص عليها على نحو قاطع، ثم إن الفرق بين الحكمة و العلة ... أن العلة هى الباعث على تشريع (١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (٥/ ٥٢، ٥٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، (٥/ ٥٣).

(٥) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٨

الحكم ... و هى مطردة يقاس عليها، و الحكمة: ليست باعثة على تشريع الحكم و لا يقاس عليها، إنما ثمرة من ثمار تشريع الحكم و تطبيقه على واقع الحياة الإنسانية.

و هكذا يظهر أن ابن عاشور يجعل العلوم متكاتفه، متآلفة، تساق فى مجرى واحد هو مجرى فهم النص القرآنى فهما صحيحا مقنعا من خلال أدوات علم التفسير، اللغة و أصول الفقه، و علم الحديث النبوى الشريف ... محاولا بذلك الوصول إلى رأى سديد ارتآه عن طريق الترجيح بين الآراء دون أن ينال من مخالفه بالرأى، لإدراكه أن الآراء الإسلامية المخالفة لم تنجم عن هوى، و لم تولد من الفراغ، إنما هى ثمرة منهجية و بحث و استقصاء، فإن أصاب أصحابها فلهم أجران، و إن أخطأوا فلهم أجر واحد. و بهذا يزداد البحث العلمى فى ساحة الثقافة الإسلامية ثراء و نماء و خصوصية، كى يعطى ثمرا نظيفا، خاليا من العقد و التشوهات، و حسب الآراء الإسلامية نقاء أنها ناتجة عن منهجية منضبطة قادرة على إنتاج الآراء باستمرار.

ابن عاشور و مسائل العقيدة:

إشارة

العقيدة الإسلامية هى الأساس الذى تنعقد عليها كل قضايا الإسلام الفرعية ... لذا كان موضوع العقيدة محل خصام شديد بين الإسلام و مخالفه ... فعبر مسيرة الحياة الإسلامية تعرّضت الكثير من أسس العقيدة لمحاولات الهدم و التشكيك أكثر من مرة، و انبرى المدافعون للرد على أولئك، فبحسن نية منهم وقعوا فيما وقعوا من الخطأ ... و من هذه الأمور: مسألة الوحي و أشكاله، مسألة كلام الله، و القضاء و القدر، و صفات الخالق ... و غير ذلك ... و تسرب هذا الأمر إلى التفاسير القرآنية قديمها و حديثها بأقساط متباينة ... و فيما يلى نحاول معرفة موقف ابن عاشور من بعض مسائل العقيدة مستعينين بتفسيره المعروف بتفسير ابن عاشور أو «التحرير و التنوير».

قال تعالى: فى محكم كتابه الكريم: * وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥١) «١».

يقول ابن عاشور: «بين الله للمكذبين أن سنة الله فى خطاب رسله لا تعدو ثلاثة أنحاء من الخطاب: منها ما جاء به القرآن فلم يكن ذلك بدعا مما جاءت به الرسل (١) سورة الشورى، الآية: (٥١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٣٩

الأولون و ما كان الله ليخاطب رسله على الأنحاء التى اقترحها المشركون على النبى صلى الله عليه و سلم فجاء بصيغة حصر مفتوحة بصيغة الجحود المفيدة مبالغة النفى و هى: «و ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا...».

أى لم يتهيا لأحد من الرسل أن يأتيه خطاب من الله إلا بنوع من هذه الثلاثة» (١).

و يرى ابن عاشور أن الآية حاسمة فى نفى تكليم الله تعالى لرسله بغير هذه الأنواع الثلاثة ليصل إلى نتيجة مرتبة على هذا الحكم تقول: «فإنه إذا كان الرسل لا يخاطبهم الله إلا بأحد هذه الأنحاء الثلاثة و هو مما يدخل فى قوله: أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ «٢».

و أما مقاصد الخطاب فقد يكون خطابا للرسل لأمر يتعلق بهم، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) «٣».

و قد يكون لإبلاغهم شرائع للأمم مثل منحهم القرآن و التوراة، أو إبلاغهم مواعظ لهم مثل الزبور و مجلة لقمان» «٤».

و المراد «بالتكلم» «بلوغ مراد الله إلى النبى سواء كان ذلك البلوغ بكلام يسمعه و لا يرى مصدره أو بكلام يبلغه إليه الملك عن الله تعالى، أو بعلم يلقى فى نفس النبى يوقن بأن مراد الله بعلم ضرورى يجعله الله فى نفسه» «٥».

«و إسناد فعل «يكلمه» إسناد مجازى عقلى «٦» ... و بهذا الاعتبار صار استثناء الكلام الموصوف بأنه وحى استثناء متصلًا.

و أما الوحى: فهو الإشارة الخفية، و منه: فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا «٧» يطلق على ما يجده المرء من الكلام فى نفسه. (١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١٩٥ / ٢٥).

(٢) سورة الشورى، الآية: (٥١).

(٣) سورة المزمل، الآيتان: (١، ٢).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١٩٥ / ٢٥).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المجاز العقلى: كقولك: (رأيت شمسا تتحدث) أى أنك جعلت للمرأة معنى الشمس و لا يكون إلا باعتبار ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به، بمعنى أن العقل اعتبر المرأة الجميلة داخله فى جنس الشمس الحقيقية. و اعتبار ما ليس فى الواقع واقعا مجاز عقلى، و تعريفه: إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له للملابسة بتأول.

(٧) سورة مريم، الآية: (١١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٠

من هذا يظهر أن إطلاق الوحى على ما فطر الله عليه الحيوان من الإلهام المتقن الدقيق كقوله تعالى: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ «١». فالوحى هنا نوع من أنواع إلقاء كلام الله إلى الأنبياء، و هو النوع الأول فى العدم، فأطلق الوحى على الكلام الذى يسمعه النبى بكيفية غير معتادة، و هذا الإطلاق من مصطلح القرآن و هذا الغالب فى إطلاقات الكتاب و السنة، و منه قول زيد بن ثابت «فعلت أنه يوحى إليه ثم سرى عنه» فقرأ عَيْرٌ أُولَى الضَّرَرِ «٢» و لم يقل: فنزل إليه جبريل، و الوحى بهذا المعنى غير الوحى الذى سيجىء فى قوله: أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ.

و المراد بالوحى هنا: إيقاع مراد الله فى نفس النبى يحصل له به العلم بأنه من عند الله، فهو حجة للنبى لمكان العلم الضرورى، و حجة

للأمة لمكان العصمة من وسوسة الشيطان، وقد يحصل لغير الأنبياء، ولكنه غير مطرد ولا منضبط، مع أنه واقع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر ابن الخطاب» قال ابن وهب: محدثون: ملهون» (٣).

وقد يلهم بعض الصالحين، غير أن إلهاماتهم ليست من الدين على ما يرى ابن عاشور «لأن غير المعصوم لا يوثق بصحة خواطره، إذ ليس معصوماً من وسوسة الشيطان» (٤) وإذا كان إلهامات بعضهم تشرع فى الدين فهذه قرينة تؤكد أنها معبرة عن وساوس لأن الدين بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم كاملاً.

و النوع الثانى: أن يكون الكلام من وراء حجاب يسمعه سامعه ولا يرى مصدره بأن يخلق الله كلاماً فى شىء محبوب عن سامعه وهو ما وصف الله هنا بقوله: **أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**.

و المعنى: أو محجوباً بالمخاطب- بالفتح- عن رؤيته مصدر الكلام، فالكلام كأنه من وراء حجاب.

وهذا مثل تكليم الله تعالى موسى فى البقعة المباركة من الشجرة، ويحصل علم المخاطب بأن ذلك الكلام من عند الله أول مرة بآية يريه الله إياها يعلم أنها لا تكون إلا (١) سورة النحل، الآية: (٦٨).

(٢) سورة النساء، الآية: (٩٥).

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٥/ ١٩٥، ١٩٦). والحديث أخرجه مسلم فى (الحديث: ٦١٥٤)، و الترمذى فى (الحديث: ٣٦٩٣).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٥/ ١٩٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤١

بتسخير الله، كما علم موسى ذلك بانقلاب عصاه حية ثم عودها إلى حالتها الأولى، وبخروج يده من جيبه بيضاء كما قال تعالى: **آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١)**.

«وقد حصل هذا النوع من الوعى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، فقد جاء فى حديث الإسراء أن الله فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة ثم خفف الله منها حتى بلغت خمس صلوات وأنه سمع قوله تعالى: «أقمت فريضتى وخففت عن عبادى» (٢).

وأشارت إليه سورة النجم: **ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى (١٢) (٣)** والقول: بأنه سمع كلام الله ليلة أسرى به إلى السماء مروى عن على بن أبى طالب و ابن مسعود و ابن عباس و جعفر بن محمد الصادق و الأشعرى و الواسطى، وهو الظاهر لأن

فضل محمد صلى الله عليه وسلم على جميع المرسلين يستلزم أن يعطيه الله من أفضل ما أعطاه رسله عليهم السلام» (٤).

و النوع الثالث: أن يرسل الله الملك إلى النبي فيبلغ إليه كلاماً يسمعه النبي ويعيه، وهذا غالب ما يوجه إلى الأنبياء من كلام الله تعالى» (٥). ومثاله فى سورة مريم إذ نادى الله تعالى زكريا عليه السلام: **فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) (٦)**.

و حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذى وصف كيفية نزول الوحي عليه عند ما سأله الحارث بن هشام:

كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه- أى عن جبريل- ما قال، و أحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول» فالرسول فى قوله تعالى: «أو يرسل رسولا» هو الملك جبريل (٧) ... (١) سورة طه، الآيات: (٢٢-٢٤).

(٢) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٣٢٠٧) من حديث الإسراء والمعراج، بلفظ: «فنودى: إنى قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى، و أجزى الحسنه عشرًا».

(٣) سورة النجم: الآيات: (٦-١٢).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (٢٥ / ١٩٨).

(٥) المصدر نفسه، (٥ / ١٩٨).

(٦) سورة آل عمران، الآية: (٣٩).

(٧) محمد الطاهر بن عاشور، (٢٥ / ١٩٨)، و الحديث أخرجه البخارى فى (الحديث: ٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٢

٢- موقف ابن عاشور من صفة الكلام:

و بعد هذه الآيات و الآراء التى تتحدث عن الوحي و أنواعه يأتى محمد الطاهر ابن عاشور إلى موضوع يتعلق بصفات الله أو واحدة من صفاته ألا و هى صفة الكلام.

فيقول: قال تعالى: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا «١». و قوله تعالى: قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بَكَلَامِي «٢». يقول عن ذلك: «يدل على أنه كلام له خصوصية هى أنه أوجده الله إيجابا بخرق العادة ليكون بذلك دليلا على أن مدلول ألفاظه مراد الله تعالى و مقصود له كما سمي الروح الذى تكوّن به عيسى روح الله لأنه تكوّن على سبيل خرق العادة، فالله خلق الكلام الذى يدل على مراده خلقا غير جار على سنة الله فى تكوين الكلام، ليعلم الناس أن الله أراد إعلامهم بأنه أراد مدلولات ذلك الكلام بآية أنه خرق فيه عادة إيجاد الكلام، فكان إيجادا غير مولّد من علل و أسباب عادية، فهو كإيجاد السموات و الأرض و إيجاد آدم فى أنه غير متولد من علل و أسباب فطرية» «٣».

و يقول: «إن حقيقة الإلهية لا تقتضى لذاتها أن يكون الله متكلمًا، كما تقتضى أنه واحد، حيّ، عالم، قدير، مرید، و من حاول جعل صفة الكلام من مقتضى الإلهية على تنظير الإله بالملك بناء على أن الملك يقتضى مخاطبة الرعايا بما يريد الملك منهم فقد جاء بحجة خطائية، بل الحق أن الذى اقتضى إثبات كلام الله هو وضع الشرائع الإلهية أى تعلق إرادة الله بإرشاد الناس إلى اجتناب ما يخل باستقامة شئونهم بأمرهم و نهيهم و موعظتهم و وعدهم و وعيدهم من يوم نهى آدم عن الأكل من الشجرة، و توّعه بالشقاء إن أكل منها، ثم من إرسال الرسل إلى الناس و تبليغهم إياهم أمر الله و نهيه بوضع الشرائع...» «٤».

و يقول ابن عاشور: «و لما لم يرد فى الكتاب و السنة وصف الله بأنه متكلم، و لا إثبات صفة له تسمى الكلام و لم تقتضى ذلك حقيقة الإلهية، ما كان ثمّة داع إلى إثبات ذلك عند أهل التأويل» «٥».

غير أنى لا- أدرى ما يقوله ابن عاشور عند ما تحدّى القرآن آلهة المشركين و وصفها بالعجز عن البيان و النطق فطلب إبراهيم عليه السلام أن يسألوا آلهتهم: قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ (١) سورة النساء، الآية: (١٦٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٤٤).

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (٢٥ / ١٩٩).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، (٢٥ / ٢٠٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٣

تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ (٧٣) «١». ثم أخبرنا القرآن فيما أخبرنا عن قصة رسول الله و نبيه إبراهيم عليه الصلاة و السلام عند ما توّعه عليه السلام بتكسير آلهتهم (الأوثان)، و لما أنجز الرسول إبراهيم ما وعدهم به جاءوا غاضبين محتجين، فأعلمنا الله فى

كتابه الحالة التى كانوا عليها:

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) «٢» فأجاب إبراهيم عليه السلام إجابة إثبات عجز الآلهة عن الكلام و البيان، و العجز عن بيان الواقع دليل على عدم أهلية هذه الآلهة، فقال القرآن على لسان إبراهيم:

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) «٣».

و عبارة ابن عاشور: «فالله خلق الكلام الذى يدل على مراده خلقا غير جار على سنه الله فى تكوين الكلام...» «٤».

و لفظه المخلوق المأخوذ من خلق يدل على الحدوث، و هذا مخالف للصواب، و لقد نقل ابن القيم فى الصواعق المرسله «الثابت المتواتر عن الإمام أحمد هو ما نقله عنه خواص أصحابه و ثقاتهم كما بينه صالح و عبد الله المروذى و غيرهم: «من قال لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى، و من قال غير مخلوق فهو مبتدع، و أن القرآن الذى يقرأه المسلمون هو كلام الله على الحقيقة و حيث تصرف كلام فهو غير مخلوق» «٥».

و قال ولى الله الدهلوى فى الحجّة البالغة: «وجب تنزيهه [أى الله تعالى عن مشابهة المخلوقات بقوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ] «٦». فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم أقول: [و الكلام لصاحب الحجّة البالغة] «و لا فرق بين السمع و البصر و القدرة و الضحك و الكلام و الاستواء فإن المفهوم عند أهل اللسان من كل ذلك غير ما يليق بجناب القدس، و هل فى الضحك استحالة إلا من جهة أنه يستدعى الفم، و كذلك الكلام، و هل فى البطش و النزول استحالة إلا من جهة أنهما يستدعيان اليد و الرجل؟ و كذلك السمع (١) سورة الشعراء، الآيتان: (٧٢، ٧٣).

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: (٥٩ - ٦٢).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٦٣).

(٤) انظر ابن عاشور (٢٥ / ١٩٩).

(٥) ابن القيم، الصواعق المرسله، ت سيد إبراهيم، القاهرة، دار الحديث، ط، (١٩٩٤)، ص (٤٩١).

(٦) سورة الشورى، الآية: (١١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٤

و البصر يستدعيان الأذن و العين، و الله أعلم».

و أختتم بحث كلام الله تعالى بهذه الفقرة: قال إبراهيم الحربى: «كنت جالسا عند أحمد بن حنبل إذ جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله إن عندنا قوما يقولون إن ألفاظهم بالقرآن غير مخلوقة. قال أبو عبد الله [و هو أحمد بن حنبل: يتوجه العبد بالقرآن بخمسة أوجه و هو فيها غير مخلوق: حفظ بقلب، و تلاوة بلسان، و سمع بأذن، و نظرة ببصر، و خط بيد فالقلب مخلوق و المحفوظ غير مخلوق، و التلاوة مخلوقة، و المتلو غير مخلوق، و السمع مخلوق، و المسموع غير مخلوق، و النظر مخلوق و المنظور غير مخلوق، و الكتابة مخلوقة، و المكتوب غير مخلوق] «١». ثم أنه من المقبول عقلا و فطرة «أن الكلام يكتب فى المحال من الورق و الخشب و غيرها، و يسمى محله كتابا، و يسمى نفس المكتوب كتابا فمن الأول قوله تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ «٢». و من الثانى قوله: وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ «٣» ... و لكن تسمية المحل مشروطة بوجود المكتوب فيه، و هذا كما أن تسمية القصبه قلما مشروطة بكونها مبروءة، و تسمية الدار قرية مشروطة بكونها مأهولة بالسكن، و تسمية الإناء كأسا مشروطة بوضع الشراب فيه ... بل اشتراط وجود المكتوب فى المحل يصحح هذه التسمية أظهر من ذلك كله».

«... و قد أخبر الله سبحانه و تعالى عن تعدد محله بالكتاب، و تارة بالرق، و تارة بصدور الحفاظ كما قال تعالى: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ «٤».

وقد أوضح ابن القيم: «أن وجود الكلام فى المصحف ليس بمنزلة وجود الحقائق الخارجيه فيها ولا بمنزلة وجودها فى محالها و أماكنها و ظروفها، و يجد الفرق بين كون الكلام فى الورقه و بين كون الماء فى الظرف.

فها هنا ثلاثه معان متميزه، لا يشبه كل منها الآخر، فإن الحقائق الموجوده لها وجود عين ثم تعلم بعد ذلك، ثم يعبر عن العلم بها ثم تكتب العبارة عنها، فهذا العلم و العبارة و الخط ليس هو أعيان تلك الحقائق، بل هو وجودها الذهنى العلمى فى محله، و هو القلب و الذهن، و وجودها اللفظى النطقى فى محله و هو اللسان فى الآدمى، و وجودها الرسمى الخطى فى محله و هو الكتاب أو ما يقوم مقامه من حفر فى حجر أو خشب، و قد افتتح الله وحيه إلى رسوله بإنزال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَ رَبُّكَ (١) ابن القيم، الصواعق المرسله، ص (٤٩١).

(٢) سورة الواقعة، الآية: (٧٨).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٧).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: (٤٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٥

الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) «١».

فأخير سبحانه أنه خلق الحقائق الموجوده، و علم الحقائق العلميه، و ذكر تعليمه بالقلم و هو الخط، و هو مستلزم تعليم البيان النطقى و هو العبارة، و تعليم العلم بمدلولها و هو الصورة العلميه المطابقه للحقيقه، فأول المراتب الوجود الخارجى، و بينه و بين الكتابة مرتبتان، و بينه و بين الوجود العلمى مرتبه اللفظ فقط، و ليس بينه و بين اللفظ مره أخرى «٢».

و يخلص ابن القيم إلى نتيجة تقول: «إذا عرف هذا فكون الرب تعالى و أسمائه و صفاته فى الكتاب غير كون كلامه فى الكتاب فهذا شىء، و هذا شىء، فكونه فى الكتاب هو اسمه و أسماء صفاته و الخبر عنه و هو نظير كون القيامة و الجنة و النار و الصراط و الميزان فى الكتاب، إنما ذلك أسماؤها و الخبر عنها، و أما كون كلامه فى المصحف و الصدور، فهو نظير كون كلام رسوله فى الكتاب و فى الصدور، فمن سوى بين المرتبتين فهو ملبس أو ملبوس عليه» «٣».

و لكن ابن عاشور فى آيات الصفات تراه ليس متحمسا كثيرا لتأويلات المتكلمين من الخلف، و لا من المتقدمين من السلف. و لكنه كان منزها الله تعالى عن مشابهة المخلوقين فى كل حال، قال فى معرض تفسيره لقوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٤».

«و اعلم أن هذه الآية نفت أن يكون شىء من الموجودات مثلا- الله تعالى. و المثل يحمل عند إطلاقه على أكمل أفراده، قال فخر الدين: «المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر فى حقيقته و ماهيته» فلا يسمى مثلا حقا إلا المماثل فى الحقيقه و الماهيه و أجزاءها و لوازمها دون العوارض، فالآيه نفت أن يكون شىء من الموجودات مماثلا لله تعالى فى صفات ذاته، لأن ذات الله تعالى لا يماثلها ذوات المخلوقات، و يلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات فى محسوس ذواتها فهو منتف عن ذات الله تعالى لا يماثلها. و بذلك كانت هذه الآية أصلا فى تنزيه الله تعالى عن الجوارح و الحواس و الأعضاء عند أهل التأويل، و الذين أثبتوا لله تعالى ما ورد فى القرآن مما نسميه بالمتشابهة وإنما أثبتوه مع التنزيه عن ظاهره إذ لا- خلاف فى أعمال قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ أَنَّهُ لَا شَبِيهَ، و لا نظير له «٥».

و بعد أن يؤسس ابن عاشور مفهوما مؤيدا للسلف و الخلف- لأن الفريقين كان منزها (١) سورة العلق، الآيات: (١-٥).

(٢) ابن القيم، الصواعق المرسله، ص (٤٩٦).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٥) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١١٦ / ٢٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٦

اللّه تعالى عن المشابهة بالمخلوقين، و هذا لا غبار عليه- نراه يعتبر أن الذين أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه يسمهم بالمؤولة الجمليّة، و يسم تأويل الخلف بالتأويل التفصيلي «و إذا اتفقنا على هذا الأصل لم يبق خلاف فى تأويل النصوص الموهمة التشبيه إلّا أن تأويل سلفنا كان تأويلا جمليّا، و تأويل خلفهم تأويلا تفصيليا كتأويلهم اليد بالقدرة و العين بالعلم و بسط اليدين بالجود، و الوجه بالذات، و النزول بتمثيل حال الإجابة، و القبول بحال نزول المرتفع من مكانه الممتنع إلى حيث يكون سائلوه لينيلهم ما سألوه. لهذا قالوا: طريقة السلف أسلم و طريقة الخلف أعلم» (١).

و ظنى أن طريقة السلف أسلم لأنها عقيدة الأجيال المشهود لها بالخيرية، و الأعمل لأنهم أشد فقها لمقاصد النصوص فتعاملوا بها بالعمل لا- بالجدل لا- ما حصل بالقرون المتأخرة. لكن يمكن القول: إن ابن عاشور ليس معارضا للسلف و لا للخلف، و لكن طريقة تناوله لآيات الصفات منسجمة مع طريقة الخلف أكثر و الله أعلم.

تفسير ابن عاشور و النظريات العلمية:

لوحظ أن ابن عاشور يستعين بفهم النصوص القرآنية ببعض النظريات العلمية ذات الصلة، فعند تفسيره قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (٢٩) «٢» يقول ابن عاشور. «... فأما هذه الآية فإنه إذا كانت السموات متأخرا خلقها عن خلق الأرض فثم للتراخي الترتيبى لا محالة مع التراخي الزمنى، و إن كان خلق السموات سابقا فثم للترتيب الرتبى لا غير» (٣).

و يرجح ابن عاشور الثانى ... و ينقل اختلاف السلف حول المتقدم فى الخلق السموات أم الأرض؟ و قال الجمهور بتقديم خلق الأرض و من أصحاب هذا رأى الحسن و مجاهد و نسب مثله إلى ابن عباس رضى الله عنه، و استدلووا بقوله تعالى: «قُلْ أَيْنَ كُنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» (٤). إلى أن قال: «تَمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» (٥) ... و قال قتادة (١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١١٦ / ٢٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٩).

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (٣٧٨ / ٢٥).

(٤) سورة فصلت، الآية: (٩).

(٥) سورة فصلت، الآية: (١١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٧

و السدى و مقاتل أن خلق السماء متقدم و احتجوا بقوله تعالى: «أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨)» (١). إلى قوله: «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)» (٢).

و يذكر رأى من قال بخلق الأرض أولا و يستعين بالعلم فى ترجيح هذا رأى على غيره:

«و قد أجيب [على رأى القائل: إن السماء خلقت أولا] بأن الأرض خلقت أولا ثم خلقت السماء ثم دحيت الأرض فالمتأخر عن خلق السماء هو دحو الأرض» (٣). و المرجح فى ذلك عند ابن عاشور لأن هذا «ما ذهب إليه علماء طبقات الأرض من أن الأرض كانت فى غاية الحرارة ثم أخذت تبرد حتى جمدت و تكوّنت منها قشرة جامدة ثم تشققت و تفجرت و هبطت منها أقسام و علت أقسام بالضغط إلّا- أن علماء طبقات الأرض يقدرون لحصول ذلك أزمنة متناهية الطول و قدرة الله صالحة لإحداث ما يحصل به ذلك التقلب فى أمد قليل بمقارنته حوادث تعجل انقلاب المخلوقات عما هى عليه» (٤).

و يرجح ابن عاشور القول الأول الذى قال إن السماء خلقت قبل الأرض و التعليل: لأن لفظ: «بعد ذلك» أظهر فى إفادة التأخر عن قوله: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ و لأن أنظار علماء الهيئة ترى أن الأرض كرة انفصلت عن الشمس كبقية الكواكب السيارة من النظام الشمسى و ظاهر سفر التكوين يقتضى أن خلق السموات متقدم على الأرض. و أحسب أن سلوك القرآن فى هذه الآيات أسلوب الإجمال فى هذا الغرض لقطع الخصومة بين أصحاب النظريتين «٥».

و مرة أخرى يتأول الاستواء على ما أراده السلف:

«و الاستواء أصله الاستقامة و عدم الاعوجاج يقال صراط مستو، و استوى فلان و فلان و استوى الشىء مطاوع سواء و يطلق مجازا على القصد إلى الشىء بعزم و سرعة كأنه يسير إليه متساويا لا يلوى على شىء، فيعدى يالى فتكون إلى قرينه المجاز و هو تمثيل، فمعنى استواء الله تعالى إلى السماء تعلق إرادته بالتنجيزى «٦» بإيجادها تعلقا يشبه الاستواء فى التهيؤ للعمل العظيم المتقن» «٧». (١) سورة النازعات، الآيتان: (٢٧، ٢٨).

(٢) سورة النازعات، الآية: (٣٠).

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١ / ٣٧٨).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، (١ / ٣٧٨، ٣٧٩).

(٦) التنجيز من الإنجاز: العزم على الإيجاد.

(٧) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١ / ٣٧٨، ٣٧٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٨

و أما قوله تعالى: فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ.

«و قد عدّ الله تعالى فى هذه الآية و غيرها السموات سبعا و هو أعلم بها و بالمراد منها إلا أن الظاهر الذى دلّت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات الأجرام العلوية العظيمة و هى الكواكب السيارة المنتظمة مع الأرض فى النظام الشمسى و يدلّ لذلك أمور: أحدها: أن السموات ذكرت فى غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض و ذكر خلقها هنا مع ذكر خلق الأرض، فدلّ على أنها عوالم كالعالم الأرضى و هذا ثابت للسيارات.

ثانيها: أنها ذكرت مع الأرض من حيث إنها أدله على بديع صنع الله تعالى فناسب أن يكون تفسيرها تلك الأجرام المشاهدة للناس المعروفة للأمم الدالّ نظام سيرها و باهر نورها على عظمتها خالقها.

ثالثها: أنها وصفت بالسبع، و قد كان علماء الهيئة يعرفون السيارات السبع من عهد الكلدان و تعاقب علماء الهيئة من ذلك العهد إلى العهد الذى نزل فيه القرآن فما اختلفوا فى أنها سبع.

رابعها: أن هاته السيارات هى الكواكب المنضبط سيرها بنظام مرتبط مع نظام سير الشمس و الأرض، و لذلك يعبر عنها علماء الهيئة المتأخرون بالنظام الشمسى فناسب أن تكون هى التى قرن خلقها بخلق الأرض» «١».

و يستنتج ابن عاشور من جعل السموات بمقابلة الأرض فى الآيات القرآنية برهانا يؤيد «ما ذهب إليه علماء الهيئة من عدّ الكواكب السيارة تسعة، و هذه أسماؤها على الترتيب فى بعدها من الأرض: نبتون، أورانوس، زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، بلكان» «٢».

و يعلل ابن عاشور عدم عدّ الأرض كوكبا سيارا كما عدّها علماء الهيئة «و عد عوضا عنها القمر و هو من توابع الأرض فعده معها عوضا عن عدّ الأرض تقريبا لأفهام السامعين» «٣».

و فى هذه الطريقة قدّم القرآن الحقيقة العلمية المناسبة لتطور العقل فى تلك المرحلة، و فى الوقت نفسه لم يجانب الحقيقة العلمية.

من هذا يظهر جهد ابن عاشور فى الاستعانة بالنظريات و الكشوفات العلمية الحديثة (١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١) ٣٧٩، ٣٨٠.

(٢) المصدر نفسه، (١) / ٣٨٠.

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٤٩

فى توضيح دلالات و معانى الآيات الكريمة ... و لا أرى فى ذلك عيباً شريطة الاستعانة بالعلم الذى أصبح علماً حقيقياً و ليس مجرد ظنون و احتمالات ... لئلا نضطر إلى تغيير ما قلناه فى دلالات الآيات الكريمة التى وفقنا بينها و بين العلم الحديث ... فهذا من شأنه أن يسىء إلى دلالات النص الكريم، و يجعله عرضةً للغمى بما يناسب الظنون بل الأوهام أحياناً ... و يتوجب عدم الانجرار مع القول القائل بضرورة السبق فى اكتشاف كل شىء من خلال القرآن، فهذا ليس بضرورى إنما الضرورى الإدراك أن رسالة القرآن رسالته هداية للعقول إلى التوحيد ... و هداية للقلوب، و تربية للنفوس.

تفسير ابن عاشور و الحديث النبوى الشريف:

بكل تأكيد لم يكن ابن عاشور من المعرضين عن هدى سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم إنما الحق يقال إن ابن عاشور لم يستشهد بنسبة كبيرة من الأحاديث الشريفة لاعتقاده أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يفسر إلا القليل. و هذا صحيح.

أما استشهاده بالمأثور من التفسير فهذا مثبت بكتابه، نراه ناقلاً عن الصحابة ناقداً الروايات، مميزاً سمينها من غيرها.

و هذا مثال يوضح استشهاده بالسنة الشريفة، عند ما فسّر قوله تعالى: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) (١)**.

يرى ابن عاشور أن هذه الآية «نزلت فى شأن حكم النبى صلى الله عليه و سلم فى العرنيين، و به يشعر صنيع البخارى إذ ترجم بهذه الآية من كتاب التفسير، و أخرج عقبه حديث أنس بن مالك فى العرنيين و الحديث: «قدم على النبى صلى الله عليه و سلم نفر من عكل و عرينة» (٢) فأسلموا ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا: قد استوخمنا هذه الأرض، فقال لهم: هذه نعم فخرجوا فيها فاشربوا ألبانها و أبوالها فخرجوا فيها فاشربوا من أبوالها و ألبانها، و استصحبوا فمالوا على الراعى فقتلوه و أطردوا الذود و ارتدوا. فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم وراءهم، بعث جرير بن عبد الله فى خيل فأدركوهم و قد أشرفوا على بلادهم فما ترجل النهار حتى جىء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم و أرجلهم و سملت أعينهم بمسامير أحميت، ثم حبسهم حتى ماتوا، و قيل أمر بهم (١) سورة المائدة، الآية: (٣٣).

(٢) هم سبعة؛ ثلاثة من عكل و أربعة من عرينة. و عكل: قبيلة من تيم الرباب بن عبد مناف بن طابخة بن إلياس بن مضر، و عرينة: قبيلة من قضاة.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٠

فألقوا فى الحرة يستسقون فما يسقون حتى ماتوا» (١).

و يعلل ابن عاشور تعليلاً جميلاً العقاب الشديد الذى أنزله رسول الله صلى الله عليه و سلم بهؤلاء المارقين بقوله: «لأنهم أرادوا أن يكونوا قدوةً للمشركين فى التمثيل بإظهار الإسلام للتوصل إلى الكيد للمسلمين، و لأنهم جمعوا فى فعلهم جنایات كثيرة، قال أبو قلابه [راوى الحديث عن أنس رضى الله عنه]: «فما ذا يستبقى من هؤلاء، قتلوا النفس و حاربوا الله و رسوله؟» (٢) و هناك رواية تقول إن الآية نزلت فى قوم من أهل الكتاب، و الصحيح ما ذكرناه أولاً.

من هذا يظهر أن اعتماد ابن عاشور فى فهم النصوص معتمد على حد كبير على الظروف و المناخ الذى تنزل فيه النص، و على الأحاديث و المآثورات الواردة، لكن بعد تدقيقها و الموازنة بينها. و رأينا كيف ردّ الرواية المنقولة عن ابن عباس و التى تقول- مخالفة رواية البخارى- أن آية: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... نزلت فى قوم أهل الكتاب.** ليرجح رواية البخارى. و لكنه لم يقف أيضا عند حدود المآثور، لأن فى هذا توضيح على معانى القرآن الذى لا تقضى عجائبه، و الصحابة لم يكتبوا بالمآثور الوارد- و سأل عمر أهل العلم عن تفسير معانى آيات كثيرة- كذلك فإن المآثور عن النبى صلى الله عليه و سلم و الصحابة فى هذا المجال ضيق غير كاف «٣».

موقفه من الإسرائيليات:

قلنا فيما سبق إن ابن عاشور كان عالما مبرزًا رفض التقليد، و أخذ الروايات دونما تمحيص ... لذا فإنه كان مبتعدا عن الإسرائيليات المروية عن أهل الكتاب الذين أسلموا مكتفيا بالحديث الصحيح، و المآثور السالم من القدح عن الصحابة و التابعين رضى الله عنهم، و يخضع ما ينقله للمناقشة من جانب السند، و الدراية من جانب المتن.

كان تفسير ابن عاشور فى ثلاثين مجلدا تسهيلا للاستفادة، و سهولة البحث فيه.

و ذكرنا فى مقدمة البحث اعتماده على أمهات التفاسير على نحو ما كشف عن ذلك هو بقوله: «الكشاف، و المحرر الوجيز لابن عطية، و البيضاوى، و الشهاب الألوسى، و أبى السعود، و القرطبي ... إلخ، و رأينا مقدماته العشرة التى تناول فيها قضايا هامة مثل: (١) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٣١٠٨، ٤١٩٢، ٤٦١٠).

(٢) انظر محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، فى تفسير سورة المائدة.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١/ ٣٠) فى المقدمة الثالثة: صحة التفسير بغير المآثور.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥١

١- التفريق بين التفسير و التأويل.

٢- و استمداد علم التفسير.

٣- التعريف بالمنهجين المعتمدين فى تفسير القرآن: بالمآثور و بالرأى.

٤- مقاصد التفسير.

٥- أسباب النزول ... «١».

و الغاية من التفسير عند ابن عاشور منحصرة «فى الهدى القرآنى و فى بيان طرق الإصلاح كالذى ذهبت إليه مدرسة المنار، و هو أمر عام لا يكاد ينحصر ...» «٢».

و تفسيره كتب للطلبة أهل المستوى المتقدم «طلاب الدراسات العليا» و كان بالأصل درس فى تفسير البيضاوى ... غير أنه ما لبث أن تنامى و تعاظم ليشمل الكثير من التفاسير فغاص بها منقرا، و مقارنا، و محصنا حتى توافر لديه هذا العمل العظيم الذى يكشف عن عالم جليل ذى عقل راجح، و رأى صائب، و سعة فكر، و قوة بيان، مع الحجّة القوية و البرهان، مستفيدا من استخدامات علماء اللغة للمعانى المستفادة من التى جرى عليها الزمخشري و ابن الأنبارى و ابن الشجرى و أمثالهم. فإذا ما قصرت هذه الينابيع عن المراد، رجع إلى محفوظاته الحجّة و مروياته الغزيرة عن كلام العرب، و بهذا «يستخدم الطريقتين التطبيقية و الاستنتاجية لبلوغ مراده من التفسير» «٣».

فقد رأيناه فى اللغة يضبط الكلمة، و اشتقاقاتها مع المقارنة و الترجيح. و يبحث فى قضية التضعيف فى اللغة على نحو ما بدا جليا فى تفريقه بين الفسر و التفسير ... و يكشف عن استعمال الأدوات على نحو نقدى ترجيحى على نحو ما رأيناه فى بحثه «لعل التى تفيد

الترجى ... من ذلك كى يقود القارئ إلى البلاغة و ما حوته من علوم البيان و البديع الذى يساعدك على فهم التشابيه و الاستعارات. كى يقودك بعدئذ إلى الإعجاز البيانى و العلمى لأن «نظم القرآن مبنى على وفرة الإفادة و تعدد الدلالات، فجمال القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التى يشاركها فيها الكلام العربى كله و لها دلالة البلاغية التى يشاركها فى مجملها كلام البلغاء، و لا يصل شىء من كلامهم إلى مبلغ بلاغته» (٤).

و نراه يرى أن شروط المفسر كثيرة: «إلى أن هذا العلم يتكون من المجموع الملتئم (١) انظر المقدمات العشر فى بداية ج (١)، من تفسير ابن عاشور (التحرير و التنوير).

(٢) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير و رجاله، ص (٢٣٦).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٣٨).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٤١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٢

من علم العربية و علم الآثار «١»، و من أخبار العرب، و أصول الفقه، ثم من علم الكلام، و علم القراءات. لما قد يكون من الحاجة إليهما».

و من البديهي أن يحصل خلاف لأصحاب الاختصاص و أهل العلم فى مدى الحاجة إلى علم الكلام، و إن كان ابن عاشور قد اعتمد عليه أحيانا فى تفسيره لبعض الآيات، و هو الناقل عن التفتازانى و الجرجانى: «علم الكلام فى جملة ما يتوقف عليه علم التفسير، قال عبد الحكيم: «لتوقف علم التفسير على إثبات كونه تعالى متكلماً و ذلك يحتاج إلى علم الكلام».

و معروفة المواقف من استخدامات علم الكلام فى علوم الدين بالجملة».

خاتمة:

و إن من كلمة نهائية فى تفسير ابن عاشور و مؤلفه:

فالتفسير هذا تفسير عظيم حوى علوما شتى، ألفت بينها مؤلفها بأسلوب بارع حذق متقن ... ترافقت مع تواضع جم من هذا الرجل مع السابقين من أهل العلم و التفسير «و قد ميزت ما يفتح الله لى من فهم فى معانى كتابه، و ما أجلبه من المسائل العلمية مما لا يذكره المفسرون. و إنما حسبى فى ذلك عدم عثورى عليه فيما بين يدي من التفاسير ... و لست أدعى انفرادى به فى نفس الأمر فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلم، و كم من فهم تستظهره، و قد تقدمك إليه متفهم» (٢).

و جزى ابن عاشور كل خير على ما قدم من نفع لأهل العلم و طلابهم فى سفره العلمى الفذ، و الحمد لله رب العالمين.

(١) المقصود فيه: ما نقل عن النبى صلى الله عليه و سلم من بيان المراد من بعض القرآن فى مواضع الإشكال و الإجمال، ابن عاشور، التحرير و التنوير، (٢ / ٢١).

(٢) مقدمات ابن عاشور، و انظر التفسير و رجاله للفاضل ابن عاشور ص (٢٤٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٣

ثانيا: تفسير محاسن التأويل لجلال الدين القاسمى

تفسير القاسمى المسمى: محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمى:

التعريف بالمؤلف

محمد جمال الدين القاسمى: (١٢٨٣ هـ - ١٣٣٢ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م) جمال الدين أو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط إمام الشام فى عصره، علما بالدين «١»، وصفه محمد رشيد رضا بقوله:

«هو علامة الشام، و نادرة الأيام، و المجدد لعلوم الإسلام، محبى السنة بالعلم و العمل و التعليم، و التهذيب، و التأليف، و أحد حلقات الاتصال بين هدى السلف، و الارتقاء المدنى الذى يقتضيه الزمن» «٢».

لقد قضى القاسمى مبكرا إذ لم يبلغ الخمسين من العمر، لكن هذا المكوث القصير نسبيا فى الحياة الدنيا كان حافلا بنتائج علمية غزيرة محبيا سنة العلماء الأوائل الذين عمروا عمرهم القصير بمباحث و بمصنفات كانت منارة للأجيال المتتالية أمثال النووى و الطبرى «...»، هذا ما جعل عالم الشام فى عصره محمد بهجة البيطار يقول:

«إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذ المؤلف رحمه الله هو كونه خلف زهاء مائة مصنف أو أكثر و لم يبلغ الخمسين من عمره» «٣».

(١) خير الدين الزركلى، الأعلام، ط دار الملايين، (٢/ ١٣٥).

(٢) مجلة المنار (١٧/ ٥٥٨).

(٣) انظر مقدمة تفسيره بعنوان: «أهمية تفسير القاسمى» (١/ ٨)، دار إحياء التراث العربى، ط (١)، (١٩٩٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٤

نعم هذا حدث، غير أن هذا الذى حدث ما كان ليحدث لو لا جهد مبذول، و عمل متواصل فى البحث و التنقيب، و الغوص فى أمهات المراجع العلمية بالتفسير و الفقه و اللغة و الحديث و المواعظ، و أسباب النزول و السيرة. فى ذلك قال محمد بهجة البيطار: «و ندر جدا أن ترى كتابا فى خزائنه الواسعة مخطوطا كان أو مطبوعا خاليا من التعليقات الكثيرة و التصحيح على الأصول الخطية». إن رجلا دءوبا على المطالعة لجدير أن ينال من الشهرة ما نال، لذا وصفه أهل عصره بعالم الشام.

عقيدته:

قال الزركلى: «كان سلفى العقيدة، لا يقول بالتقليد، و لا جرم فى ذلك ما دام متعلقا باللغة و الفقه و الحديث».

لتضلعه العلمى أرسلته الحكومة آنئذ لإلقاء الدروس العامة فى القرى و البلاد السورية، فأقام فى عمله هذا لمدة أربع سنوات «١». و لحسد الحاسدين، و وشاية الواشين الذين نالوا من الكثير من العلماء عبر التاريخ اعتكف فى بيته متفرغا للبحث و التحصيل و الدروس الخاصة و العامة، فى التفسير و علوم الشريعة و الأدب.

مؤلفاته:

نشر القاسمى بحثا كثيرة فى المجالات و الصحافه يومئذ، كان فى مؤلفاته مجددا و داعية إصلاح فى الدين «٢».

بقى جمال الدين مخلصا للعلم و البحث حتى توفى فى دمشق تلك المدينة التى ولد فيها ... توفى، و بقى ذكره الذى خلده فى عدد غير قليل من الكتب و التصانيف أذكر أهمها:

١- دلائل التوحيد، مطبوع.

٢- ديوان خطب، مطبوع.

٣- الفتوى فى الإسلام، و هو مطبوع. (١) خير الدين الزركلى، (٢/ ١٣٥).

(٢) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٥

٤- إرشاد الخلق إلى العمل بخير البرق، و هو مطبوع.

٥- شرح لقطعة العجلان، و هو مطبوع.

٦- نقد النصائح الكافية، و هو مطبوع.

٧- «مذاهب الأعراب، و فلاسفة الإسلام فى الجن»، و هو مطبوع.

٨- موعظة المؤمنين، و هو مطبوع اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي رحمه الله.

٩- شرف الأسباط، مطبوع.

١٠- تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض و الواجب، و هو مطبوع.

١١- جوامع الآداب فى أخلاق الأنجاب، و هو مطبوع.

١٢- إصلاح المساجد من البدع و العوائد.

١٣- تعطير المشام فى مآثر دمشق الشام، و هو مخطوط، ٤ مجلدات.

١٤- قواعد التحديث فى فنون مصطلح الحديث، و هو مطبوع.

١٥- محاسن التأويل، و هو مطبوع فى (١٧ مجلدا) «١» سبعة عشر مجلدا فى تفسير القرآن الكريم.

تفسير القاسمى، أو محاسن التأويل، أثنى عليه أمير البيان العربى الأمير المجاهد شكيب أرسلان، موجها الأجيال الناشئة إلى الإسراع

فى مطالعة تفسير القاسمى، و المصنف العلمى الذى يشهد له الأمير شكيب جدير بما وصف به:

«و إنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع فهما تراتح إليه ضمائرهما، و تنعقد عليه خناصرها ألا تقدم شيئا على

قراءة تصانيف المرحوم الدين القاسمى.

إنها شهادات لثلاثة من رجال عصره سقناها: محمد بهجة البيطار عالم الشام الأوحى، و المصلح محمد رشيد رضا، و الأمير المجاهد

شكيب أرسلان المتفتح اليقظ لكل المؤامرات الغربية و الصهيونية على بلادنا منذ وقت مبكر جدا.

هذه الشهادات و نائق ترفع الرجل إلى مكانة العاملين بعلمهم، الذائدين بأقلامهم عن السنة النبوية، الكاشفين عن البدع و العادات التى

أدخلها بعضهم إلى أماكن العبادة على (١) انظر الزركلى، الأعلام، (٢/١٣٥). و انظر ترجمة جمال الدين القاسمى فى ص (٩) من

الجزء الأول من تفسير القاسمى.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٦

نحو ما رأيناه فى كتابه: «إصلاح المساجد من البدع و العوائد».

تفسير القاسمى صدر عن دار إحياء التراث العربى بطبعته الأولى ١٩٩٤، علما أن الإصدار الأول قد طبع عن مكتبة «فيصل عيسى البابى

الحلبى» بعناية و ترقيم و تصحيح خادم الكتاب و السنة محمد فؤاد عبد الباقي، و هى النسخة التى اعتمدها «دار إحياء التراث العربى» و

هى التى بين أيدينا الآن.

القاسمى التزم ضوابط منهجية فى تفسيره، و قد ضمن ضوابطه بمقدمته التى سماها:

«تمهيد خطير فى قواعد التفسير» نوجز هذه المقدمة كما يلى:

قاعدة فى أمهات مآخذه [مآخذ التفسير]:

الأول: النقل عن النبى صلى الله عليه و سلم مع الحذر من الضعيف و الموضوع، فإنه كثير. و لهذا قال أحمد: ثلاثة كتب لا أصل لها:

المغازى و الملاحم، و التفسير.

و يورد قول المخففين من أصحاب أحمد: «مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصله، و إلا فقد صحَّ من ذلك كثير كتفسير الظلم بالشرك فى آية الأنعام، و الحساب اليسير بالعرض، و القوة بالرمدى فى قوله: وَ أَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (١)».

الثانى: الأخذ بقول الصحابى: فإنَّ تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبى صلى الله عليه و سلم.

و نقل عن الزركشى معللا النقول الموهمة اختلاف الصحابة فى التفسير: «و ربما يحكى عنهم [أى الصحابة] عبارات مختلفة الألفاظ، فيظن من لا- فهم عنده أن ذلك اختلاف محقق فيحكيه أقوالا، و ليس كذلك بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى من الآية لكونه أظهر عنده أو أليق بحال السائل، و قد يكون بعضهم يخبر عن الشىء بلازمه و نظيره، و الآخر بمقصوده و ثمرته، و الكل يؤول إلى معنى واحد غالبا، فإن لم يكن الجمع [ممكنا] فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم إن استويا فى الصحة عنه، و إلا فالصحيح المقدم» (٢).

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة: فإن القرآن نزل بلسان عربى. و قد اختلف العلماء فى ذلك. لما نقل عن الفضل بن زياد أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل بيت من الشعر؟

فقال: ما يعجبني. فقيل: ظاهره المنع. و لهذا قال بعضهم فى جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة: يدل عليها القليل من كلام العرب، و لا يوجد غالبا إلا فى الشعر و نحوه، و يكون (١) سورة الأنفال، الآية: (٦٠).

(٢) جمال الدين القاسمى، محاسن التأويل، ط (١)، (١٩٩٤)، دار إحياء التراث، ص (١٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٧

المتبادر خلافها ... و روى البيهقى فى الشعب عن مالك قال: لا أوتى برجل غير عالم بلغه العرب يفسير كتاب الله إلا جعلته نكالا ... (١).

الرابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، و المقتضب من قوة الشرع: و هذا هو الذى دعا به النبى صلى الله عليه و سلم لابن عباس حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين، و علمه التأويل» (٢).

و الذى عناه على رضى الله عنه بقوله: «إلا فهما يؤتاها الرجل فى القرآن». و من هنا اختلف الصحابة فى معنى الآية، فأخذ كل برأيه على منتهى نظره و لا- يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأى و الاجتهاد بغير أصل، قال تعالى: وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (٣) وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٤).

و ما من شك أن الرأى فى القرآن الذى ورد فى معرض الذم القائم على الجهل و عدم التمييز، و بذل الجهد اللازم لفهم القرآن، أما الرأى المؤسس على البرهان فجائز (٥).

و هذا ما يتفق مع قوله تعالى: لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (٦) و لو أن مطلق الرأى مذموم لبطل الاستنباط و منع الاجتهاد و هذا باطل مذموم.

و قال أبو حيان: و اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، و قسم لم يرد.

و الذى ورد بالنقل: إما أن يرد عن النبى صلى الله عليه و سلم أو الصحابة أو رءوس التابعين. فالأول يبحث فيه عن صحة السند، و الثانى ينظر فى تفسير الصحابى، فإن فسّراه من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك فى اعتماده، أو بما شاهده من الأسباب و القرائن فلا شك فيه، و إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك، و إن تعذر قدم ابن عباس، لأن النبى صلى الله عليه و سلم بّشره بذلك حيث قال: «اللهم علمه التأويل».

و ما ورد عن التابعين، فحيث جاز الاعتماد فيما سبق، فكذلك، و إلا و جب الاجتهاد (٧).

و قال ابن خلدون: «اعلم أن القرآن نزل بلغه العرب، و على أساليب بلاغتهم، فكانوا (١) أخرج البيهقى فى الشعب، و انظر مقدمة القاسمى «قاعدة فى أمهات مأخذه». من المجلد الأول، ص (١٣، ١٤).

- (٢) البخارى (الحديث: ٧٥)، عن ابن عباس، قال ضمنى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قال: «اللهم علمه الكتاب».
- (٣) سورة الإسراء، الآية: (٣٦).
- (٤) سورة البقرة، الآية: (١٦٩).
- (٥) مقدمة تفسير القاسمى، ص (١٤).
- (٦) سورة النساء، الآية: (٨٣).
- (٧) مقدمة القاسمى، (١٦ / ١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٨

كلهم يفهمونه و يعلمونه معانيه فى مفرداته و تراكيبه، و كان ينزل جملا- جملا... و منه ما يتقدم و منه ما يتأخر و يكون ناسخا، و كان النبى صلى الله عليه و سلم يبين المجمل، و يميز الناسخ من المنسوخ، و يعرفه أصحابه فعرفوه و عرفوا سبب نزول الآيات، و مقتضى الحال منها منقولاً عنه كما علم من قوله تعالى: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١) «١» أنها نعى النبى صلى الله عليه و سلم و أمثال ذلك.

قاعدة فى معرفة صحيح التفسير، و أصح التفاسير عند الاختلاف:

قال الإمام محمد بن المرتضى اليمانى رضى الله عنه فى كتابه «إيثار الحق على الخلق»:

«فصل فى الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير: و أصح التفاسير عند الاختلاف بطريق واضح لا يشك أهل الإنصاف، أنقل ذلك موضعا ملخصا:

«ضرورة التفريق بين التفسير و التحريف و التأويل، و التبديل، و قطع الطريق على المبتدعين كى لا يحملوا على القرآن وفق هواهم، كى لا يفقد القرآن أهميته فى التفريق بين الحق و الباطل، و عندئذ لا يكون القرآن كما وصفه الله فرقانا. و على ذلك فلا بد من معرفة مراتب المفسرين، ثم مراتب التفسير حيث يكون التفسير راجعا إلى الدراية «٢».

أما مراتب التفسير:

الأول: خير المراتب مراتب الصحابة رضى الله عنهم لثبوت مديحهم فى القرآن، و لأن القرآن نزل بلغتهم و لأن الغلط أبعد عن غيرهم ... و إذا اختلف الصحابة، فيقدم ابن عباس حبر الأمة إذا صحَّ الإسناد عنهم، لأن الرسول دعا له بالعلم بالتأويل و سداد الفهم، و لأن الصحابة اتفقوا على إعلاء شأنه فى العلوم عموما، و فى التفسير خصوصا و قصة عمر و الأعراب معه معروفة، لأنه من أهل بيت النبوة، و معدن الرسالة، و لأنه لا يستحل التأويل بالرأى لرواية عنه:

و لأن الطرق عن ابن عباس محفوظة غير متقطعة، فصح منها تفسير نافع. و لذلك خصه محمد بن المرتضى اليمانى بالذكر، و إن كان غيره أكبر منه، و أقدم و أعلم و أفضل مثل على بن أبى طالب عليه السلام من جنسه و أهله، و غيره من الصحابة الكبار العظام رضى الله عنهم، لكن ثبوت التفسير عنهم قليل، بالنظر إليه [أى إلى ابن عباس رضى الله عنهم جميعا. (١) سورة النصر، الآية: (٣).

(٢) ينظر فى مقدمة القاسمى، قاعدة فى معرفة صحيح التفسير، (١٨ / ١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٥٩

الثانية: ثم المرتبة الثانية من المفسرين: التابعون: و من أشهر ثقاتهم المصنفين فى التفسير: مجاهد و عطاء و قتادة و الحسن البصرى، و أبو العالية ربيع بن مهران، و محمد بن كعب القرظى، و زيد بن أسلم و يلحق بهؤلاء عكرمة، ثم مقاتل بن حيان، و محمد بن زيد، ثم

على بن أبى طلحة ثم السدى الكبير.

قال ابن تيمية: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد و عطاء بن أبى رباح و عكرمة مولى ابن عباس، و سعيد بن جبير، و طاوس و غيرهم. و كذلك فى الكوفة أصحاب ابن مسعود، و علماء أهل المدينة فى التفسير مثل زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد و مالك بن أنس ...

٣- قاعدة فى أن أغلب ما صح عن السلف من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد: قال ابن تيمية: يجب أن يعلم أن النبى صلى الله عليه و سلم بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه. فقله تعالى: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) (١) يتناول هذا و هذا، و قد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان، و عبد الله بن مسعود و غيرهما، أنهم كانوا إذ تعلموا من النبى صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم و العمل. و لهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة (٢).

و قول ابن تيمية: إن الرسول صلى الله عليه و سلم بين للصحابه كل معانى القرآن اختلف فيه حتى ذهب فريق إلى القول إن الرسول لم يبين إلا القليل (٣).

و الحق أن الفريقين قد غالى كل منهما فيما ذهب إليه:

أما استدلال ابن تيمية و من معه على رأيهم بقوله تعالى: لِيُتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ استدلال لا- يفيد القطع و اليقين، لأن الرسول بمقتضى كونه مأمورا بالبيان كان يبين لهم ما أشكل عليهم فهمه من القرآن، لا كل معانيه ما أشكل منها و ما لم يشكل.

و استدلالهم بما روى عن عثمان و ابن مسعود فغاية ما تفيد هذه الرواية أن الصحابة لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه، و هو أعم من أن يفهموه من النبى صلى الله عليه و سلم أو من غيره من الصحابة أو من تلقاء أنفسهم حسبما يفتح الله به عليهم من النظر و الاجتهاد. (١) سورة النحل، الآية: (٤٤). و انظر ابن تيمية فى مقاله: مقدمة فى أصول التفسير ط، الترقى، دمشق (١٩٣٩)، ص (٥).

(٢) جمال الدين القاسمى، محاسن التأويل، (١/ ١٩).

(٣) محمد حسين الذهبي، التفسير و المفسرون، (١/ ٥١)، و انظر آراء الفريق الأول (٢/ ٤٩، ٥٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٠

و لهم دليل يقول: إن الرسول صلى الله عليه و سلم مات قبل أن يبين لهم آية الزبا، فدل أنه فسّر غيرها من الآيات «فلعل هذه الآية كانت مما أشكل على الصحابة، فكان لا بد من الرجوع فيها إلى النبى صلى الله عليه و سلم شأن غيرها من الآيات المشكلة التى يعود فيها الصحابة إلى المرجع النبوى ساعة وقوع الإشكال».

لكن الرسول صلى الله عليه و سلم يبين الكثير من المعانى لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح، و لم يبين كل معانى القرآن، و قد قال ابن عباس فيما رواه ابن جرير: التفسير على أربعة أوجه:

وجه تعرفه العرب من كلامها، و تفسير لا يعذر أحد [من المسلمين بجهالته. و تفسير تعرفه العلماء، و تفسير لا يعلمه إلا الله (١)].

و بديهى أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يفسر للصحابة العرب الأقحاح ما يرجع تفسيره إلى كلام العرب لأن عامة الصحابة يفهمون القرآن. و إن كانت بعض الإشكالات قد وقعت لبعض الصحابة، و لكنها قليلة نادرة.

و لا بد من العودة إلى القاعدة القائلة: إن الخلاف بين السلف فى التفسير قليل و غالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، و ذلك صنفان:

أحدهما: أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر، مع اتحاد المسمى، كتفسيرهم الصراط المسمى ببعض القرآن أى اتباعه و بعض بالإسلام، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ...».

الثانى: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل و تنبيه المستمع على النوع لا- على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومته و خصوصه، مثاله: ما نقل فى قوله تعالى: **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** «٢» الآية. فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات و المنتهك للحرمات؛ و المقتصد يتناول فاعل الواجبات و تارك المحرمات، و السابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات.

فالمقتصدون أصحاب اليمين، و السابقون السابقون أو لئلك المقربون ...

و قال: و هذان الصنفان اللذان ذكرناهما فى تنوع التفسير، تارة لتنوع الأسماء (١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى، ط، الأميرية (١٣٢٣ هـ)، (٢٥ / ١).

(٢) سورة فاطر، الآية: (٣٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦١

و الصفات و تارة لذكر بعض أنواع المسمى، هو الغالب فى تفسير سلف الأمة الذى يظن أنه مختلف.

و من التنازع الموجود منهم ما يكون اللفظ فيه محتملا- للأمرين إما لكونه مشتركاً فى اللغة كلفظ «القسورة» الذى يراد به الرامى، و يراد به الأسد، و لفظ «عسعس» الذى يراد به إقبال الليل و إداره و إما لكونه متواطئاً فى الأصل، لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين كالضمائر فى قوله تعالى: **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى** «١» الآية و كلفظ: **وَالْفَجْرِ** (١) و **لَيَالٍ عَشْرٍ** (٢) و **وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ** (٣) «٢».

و يرى القاسمى أن الذى يعدل عن مذاهب الصحابة و التابعين و تفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً فى ذلك بل مبتدعاً، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره و معانيه كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله، و أما الذين أخطئوا فى الدليل لا فى المدلول كمثل كثير من الصوفية و الوعاظ و الفقهاء يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى نفسها لكن القرآن لا يدل عليها، مثل كثير مما ذكره السلمى فى «الحقائق» فإن كان فيما يعلم بالاستدلال بالنقل و هذا يكثر الخطأ فيه «٣».

قاعدة فى معرفة سبب النزول:

نقل القاسمى عن ابن تيمية قوله: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» «٤».

و قال ابن تيمية فيما ينقله عن القاسمى: قد يجىء كثيرا من هذا الباب [باب أسباب النزول قولهم: إن هذه الآية نزلت فى كذا لا سيما إن كان المذكور شخصا، كقولهم: إن آية الظهار الواردة فى قوله تعالى: **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا** و **إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ** (٢) و **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (٣) «٥» نزلت فى امرأه ثابت بن قيس و أن آية الكلاله و إن كان رجلاً يورث كلاله أو امرأه و له أخ أو أخت فللكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم (١) سورة النجم، الآية: (٢٨).

(٢) سورة الفجر، الآيات: (١-٣). و انظر القاسمى فى محاسن التأويل، مج (١)، ص (١٩-٢١).

(٣) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٢٢، ٢٣).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة المجادلة، الآيتان: (٢، ٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٢

شركاء فى الثلث من بعيد و صبيته يوصى بها أو دين غير مضار و صبيته من الله و الله عليهم حلیم «١» و قوله تعالى: **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ** إن امرؤ هلك ليس له ولد و له أخت فلها نصف ما ترك و هو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما

الثُّلثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنِ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) (٢) نزلت فى جابر بن عبد الله. و آية: وَ أَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ (٣) نزلت فى بنى قريظة و النضير، و نظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة (٤).

و هو يخرج كل ما قالوا إنه منسوخ على وجه صحيح بضرب من التخصيص أو التأويل.

يقول القاسمى فى هذا: «و ظاهر أن مسألة القبلة ليس فيها نسخ للقرآن، و إنما هى نسخ لحكم لا ندرى هل فعله النبى صلى الله عليه و سلم باجتهاده أم بأمر من الله تعالى غير القرآن، فإن الوحي غير محصور بالقرآن» (٥).

و نقل القاسمى رأى الجمهور القائل بجواز نسخ حكم فى آية مع بقائها فى الكتاب يتعبد الله فى تلاوتها. و تذكر نعمته بالانتقال من حكم كان موافقا لمصلحة المسلمين و لحالهم فى أول الإسلام إلى حكم يوافق المصلحة فى كل زمان و مكان. فإنه لا ينسخ حكم إلا بأمثل منه، كالتخفيف فى تكليف المؤمنين بقتال عشرة أمثالهم. و الاكتفاء بمقاتلة الضعف بأن تقاتل المائة مائتين ... و اتفقوا أنه لا يلجأ إلى النسخ إلا- إذا تعذر الجمع بين الآيتين من آيات الأحكام العملية، و يحكم تاريخهما فعند ذلك يقال: إن الثانية ناسخة للأولى، أما آيات العقائد و الفضائل و الأخبار فلا نسخ فيها ..» (٦).

و نقل القاسمى عن ابن القيم: أن ما ظهر على لسان السلف من القول بالنسخ ما هو إلا تخصيص لعموم النص، أو تقييد لمطلقه ... حتى أنهم يسمون الاستثناء و الشرط و الصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر و بيان المراد ... و هذا ما يظهر أن مصطلح النسخ عند السلف غير ما أراده المتأخرون من اصطلاح النسخ (٧).

و نقل الشاطبى فى الموافقات ما يشبه كلام ابن القيم فى النسخ. و بعض الأمثلة (١) سورة النساء، الآية: (١٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٧٦).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٤٩).

(٤) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٢٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٩).

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٣

عن النسخ فى الاستثناء: وَ الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) إلى قوله: وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) (١) هو منسوخ بقوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا (٢).

و فى قوله تعالى: لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَ تَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا (٣).

أو يمكن أن تكون الآيات نزلت فى قوم من اليهود و النصارى، أو فى قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم و لا عاقل على الإطلاق (٤).

و ذكر القاسمى تنازع العلماء فى قول الصحابي: نزلت هذه الآية فى كذا، هل يجرى مجرى السند كما لو ذكر السبب الذى أنزلت لأجله، أو يجرى مجرى التفسير الذى ليس بمسند؟ فالبخارى يدخله فى المسند، و غيره لا يدخله فيه، و أكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد و غيره. بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه فإنه كلهم يدخلون مثل هذا فى المسند. و ذكر الزركشى فى البرهان: قد عرف من عادة الصحابة و التابعين أن أحدهم إذا قال: «نزلت هذه الآية فى كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب فى نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل» (٥).

و قد أكد الشاطبى على معرفة أسباب النزول لمن أراد العلم بالقرآن علما صحيحا، و فهما سديدا.

قاعدة فى النسخ و المنسوخ:

يقول القاسمى: «تقرر أن النسخ فى الشرائع جائز فشرع موسى نسخ بعض الشرائع التى كان عليها إبراهيم، و شرع عيسى نسخ بعض أحكام التوراة، و شريعته الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة، لأن الأحكام العملية التى تقبل النسخ إنما تشرع لمصلحة البشر، و المصلحة تختلف باختلاف الزمان فالحكيم العليم يشرع لكل زمن ما يناسبه» (٦).

و أما النسخ فى الإسلام «فالمسلمون كانوا يتوجهون إلى بيت المقدس فى صلاتهم (١) سورة الشعراء، الآيات: (٢٢٤-٢٢٦).
(٢) سورة الشعراء، الآية: (٢٢٧).

(٣) سورة النور، الآية: (٢٧).

(٤) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٢٥).

(٥) نقله القاسمى فى محاسن التأويل عن البرهان، مج (١)، ص (٢٦).

(٦) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٢٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٤

فنسخ ذلك بالتوجه إلى الكعبة، و هذا لا خلاف فيه بين المسلمين، و لكن هناك خلافا فى نسخ أحكام القرآن و لو بالقرآن، فقد قال أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني المفسر الشهير: ليس فى القرآن آية منسوخة حتى أن قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ... (١) ليس من النسخ و المنسوخ بشىء. غير أن قوله: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ يثبت فى الآية الأخرى إنما يراد بها المسكونة... و قال فى قوله تعالى: انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا (٢) أنه منسوخ بقوله: وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً (٣) و الآيتان فى معنيين. و لكنه تبه على أن الحكم بعد غزوة تبوك أن لا يجب النفير على الجميع... (٤) إلى ما هنالك من الأمثلة.

و الحق أن ما ساقه القاسمى فى محاسن التأويل فى قاعدة النسخ و المنسوخ:

يشير أنه ليس مع النسخ فى اصطلاح المتأخرين من علماء أصول الفقه.. و كأنه عند ما نقل كلام ابن القيم و الشاطبى فى الموافقات يرد على القائلين بالنسخ على طريقة المتأخرين... و ما كان عند المتأخرين منسوخا و ناسخا فهو من قبيل العام و الخاص، و المطلق و المقيد، و المجمع و المفصل، و المفسر، عند غيرهم من الذين قالوا بعدم وجود النسخ.

و مما يرجح أن القاسمى لا يقول بالنسخ ما نقله أبو الفضل عبد الله محمد صديق الغمارى عند ما تحدث على تفسير القاسمى فى كتابه «من بدع التفاسير».

قال: «تفسير لا بأس به... و حين أريد تقديمه إلى الطبع أشرف على طبعه رجل فى عقله شىء، زرته فى بيته، فأطلعنى على نسخة التفسير بخط القاسمى، سلمها إليه ابنه ليشرف على طبعها، فإذا قد ضرب بالقلم الأحمر على بحث النسخ الذى كتبه المؤلف عند قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ (٥) فسألته عن سبب شطب هذا البحث، فقال: إنه لا يليق بمقام القاسمى الذى كان يسميه الشيخ رشيد رضا عالم الشام فحذفته و حذف ما كان من قبيله عديم الفائدة، قليل الجدوى، قلت: لكن هذا ينافى الأمانة العلمية، فقال:

التفسير لم يطبع قبل الآن، و لا يعرف أحد ما ذا حذف منه، و نجل المفسر نقيب المحامين بدمشق أباح لى التصرف فيه حسب ما أراه مصلحة، و هذه البحوث لا تليق بالقاسمى و لا بشهرته العلمية. (١) سورة النور، الآية: (٢٩).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٤١).

(٣) سورة التوبة، الآية: (١٢٢).

(٤) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٣١).

(٥) سورة البقرة، الآية: (١٤٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٥

قلت له: اتركها كما كتبها المؤلف، و علق عليها برأيك، فأبى و أصرّ على حذفها و بناء على هذا فالتفسير المذكور ناقص فى عدة مواضع و هذه خيانة علمية، ما كان ينبغي أن تحصل، و لا حول و لا قوة إلا بالله «١».

و بالرجوع إلى تفسير القاسمى عند قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ... لم نر بحث النسخ مما يشير إلى حذفه ... و هذا يشير إلى أن القاسمى غير قائل بوجود نسخ فى القرآن دون معرفتنا بتفاصيل ذلك، و مما يرجح هذا أن نقله للآراء القائلة بالنسخ لم يتناول آراء العلماء المتأخرين، إنما اكتفى بنقل عن ابن القيم فى هذا الموضوع الذى كان يوجه القول بالنسخ اتجاه التقييد للمطلق، و التخصيص للعام، و التفصيل للمجمل. علما إن النسخ الذى يشكل محلا للخلاف هو استقرار حكم ما، ثم رفعه بدليل.

قاعدة فى القراءة الشاذة و المدرج:

قال أبو عبيد فى (فضائل القرآن): المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة و تبين معانيها كقراءة عائشة و حفصة «و الصلاة الوسطى صلاة العصر» و قراءة ابن مسعود:

«فاقطعوا أيمانهم» و قراءة جابر: «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم».

قال: [أى أبو عبيد]: فهذه الحروف و ما شاكلها قد صارت مفسّرة للقرآن، و قد كان يروى مثل هذا عن التابعين فى التفسير فيستحسن. فكيف إذا روى عن كبار الصحابة، ثم صار فى نفس القراءة فهو أكثر من التفسير و أقوى؟ فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف معرفة صحة التأويل؟ «٢».

قال ابن الجزرى فى آخر كلامه: و ربما كانوا يدخلون التفسير فى القراءات إيضاحا و بيانا لأنهم محققون لما تلقوه عن النبى صلى الله عليه و سلم قرآنا، فهم آمنون من الالتباس. و ربما كان بعضهم يكتبه معه، و أمّا من يقول: إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب و ساء. كذا فى الإتيان «٣».

قاعدة فى قصص الأنبياء و الاستشهاد بالإسرائيليات:

نقل القاسمى عن الإمام أبو العباس أحمد بن زروق فى قواعد التصوف: «التأثير بالأخبار عن الوقائع أتم لسماعها من التأثير بغيرها، فمن ثم قيل: الحكايات جند من جنود (١) أبو الفضل عبد الله بن محمد صديق الغمارى، من بدع التفاسير ط (٢)، مكتبة القاهرة، ص (١٦٢).

(٢) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٣٣).

(٣) الإتيان، نقلا عن القاسمى، محاسن التأويل، (١/٣٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٦

الله يثبت الله بها قلوب العارفين، قيل: فهل تجد لذلك شاهدا من كتاب الله؟ قال: وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ «١». و وجه ذلك: أن شاهد الحقيقة بالفعل أظهر و أقوى فى الانفعال من شاهدها اللغوى، إذ مادة الفاعل مستمرة فى الفعل لغاب الدهر».

و قال ولى الله الدهلوى فى (أصول التفسير) فى فصل الكلام على معرفة أسباب النزول:

شرط المفسر أمران:

الأولى:

ما تعرض له الآيات من القصص، فلا يتيسر فهم الإيحاء بتلك الآيات إلا بمعرفة تلك القصص.

الثانى:

ما يخصص العام من القصة أو مثل ذلك من وجوه صرف الكلام عن الظاهر، فلا يتيسر فهم المقصود من الآيات دونها. وقصص الأنبياء السابقين لا تذكر فى الحديث الشريف إلا على سبيل القلة، أما القصص الطويلة المغرقة فى التفاصيل فمنقولة عن أهل الكتاب إلا قليلا.

و أما ما نقل فى عهده صلى الله عليه و سلم أو أخبر عنه فقد بينه المحدثون و أشبعوه تحقيقا، و لا مغمز فيه. و هناك روايات منقولة عن أهل الكتاب نقلها المفسرون القدامى إما تحسينا للظن فى رواية تلك الأنبياء و أنهم لا يرون إلا الصحيح، و إما تعويلا على ما رواه أحمد و البخارى و الترمذى عن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «بلغوا عنى و لو آية، و حدثوا عن بنى إسرائيل و لا حرج» (٢).

يقول القاسمى عن الإسرائيليات: «بالجملة فلا ينكر أن فيها الواهيات بمرء و الموضوعات مما استبان لمحققى الآخرين» (٣).

و يرى ابن كثير أن الأحاديث الإسرائيلية المنقولة إنما تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحته، و الثانى: ما علمنا كذبه. و الثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل، و لا من هذا القبيل، فلا تؤمن به و لا نكذبه. و غالب ذلك مما لا فائدة فيه يعود إلى أمر دينى ..» (٤). (١) سورة هود، الآية: (١٢٠).

(٢) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٣٤٦١).

(٣) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٣٦).

(٤) مقدمة تفسير ابن كثير، نقلا عن القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٣٦، ٣٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٧

و نقل القاسمى أقوالا للماوردي صاحب «كتاب أعلام النبوة»، و لبرهان الدين البقاعى فى تفسيره «المناسبات» تحقيق فى هذه المسألة جيد. و حمل قول الرافعى الشافعى على أنه لا يجوز بكتب التوراة و الإنجيل لأنهم حرفوا و بدلوا. قال القاسمى: «هذا محمول على ما علم تبديله» و الدليل: إن كل من قال ذلك علل بالتبديل قرار الحكم» إذ مما لا شك فيه أن بعض التوراة و الإنجيل بقى دونما تحريف ليكون عليهم حجة على ما قاله ابن حزم فى «الفصل فى الأهواء و الملل و النحل» بعد أن أقام البراهين الكثيرة على تحريفهم و تبديلهم» (١).

القاسمى و معنى ما نقل أن للقرآن ظاهرا و باطنا:

ينقل القاسمى عن الشاطبى فى الموافقات: «من الناس من زعم أن للقرآن ظاهرا و باطنا، و ربما نقلوا فى ذلك بعض الأحاديث و الآثار.

فعن الحسن، مما أرسله عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال: ما أنزل الله آية إلا لها ظهر و بطن، بمعنى ظاهر و باطن و كل حرف حد، و كل حد مطلع، و فسر بأن الظهر و الظاهر هو ظاهر التلاوة، و الباطن هو الفهم عن الله لمراده، لأن الله تعالى قال: فَمَا لَهُؤَلَاءِ

الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) (٢) و المعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب.

و توضيح ذلك إذا كان ما عنوا بالظاهر و الباطن: أن المراد بالظاهر هو المفهوم العربى، و الباطن هو مراد الله تعالى من كلامه و خطابه، فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة، ما فسّر، فصحيح، و لا نزاع فيه. و إن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوما عند الصحابة و من بعدهم، و هذا يحتاج إلى دليل قطعى يثبت هذه الدعوى «(٣)».

و المطالبة بالدليل القطعى جاء معللا من قبل الشاطبى: «لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب» «(٤)».

[و الدليل القطعى: ما كان متواترا، و ما كانت دلالتة قطعية أيضا].

فى حين يرى الشاطبى أن الذى استدلوا به: إنما غايته إذا صح سنده أن ينتظم فى سلك المراسيل: «و إذا تقرر هذا فليرجع إلى بيانها على التفسير المذكور بحول الله» و له أمثلة تبين معناه بإطلاق، فعن ابن عباس: «كان عمر يدخلنى مع أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم فقال له (١) ابن حزم، الفصل فى الأهواء و الملل و النحل، نقلا عن القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٣٧).

(٢) سورة النساء، الآية: (٧٨). و انظر الموافقات، (٣/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٣) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٤٢). و انظر الشاطبى، (٣/ ٣٨٤).

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٨

عبد الرحمن بن عوف: أ تدخله و لنا بنون مثله، فقال له عمر: إنه من حيث تعلم، فسألنى عن هذه الآية: إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١) فقلت: «إنما هو أجل رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلمه إياه»، و قرأ السورة إلى آخرها فقال عمر: «و الله ما أعلم منها إلا ما تعلم» و رواية البخارى:

عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا و لنا أبناء مثله؟ فقال عمر:

إنه من حيث علمتم، فدعا ذات يوم فأدخله معهم فما رثيت أنه دعانى يومئذ إلا ليربهم. قال: ما تقولون فى قول الله تعالى:

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١) «(١)»، فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله و نستغفره إذا نصرنا و فتح علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال

لى: أ كذاك تقول يا ابن عباس فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل الله لرسوله صلى الله عليه و سلم أعلمه له، قال: إذا جاء نَصْرُ

اللَّهِ وَ الْفَتْحُ و ذلك علامة أجلك - فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فقال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقول» «(٢)».

أى أن ظاهر السورة «أن الله أمر نبيه صلى الله عليه و سلم أن يسبح بحمد الله و يستغفره إذ نصره و فتح عليه، و باطنها أن الله نعى إليه [إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم نفسه] «(٢)».

متى يكون الباطن مرادا:

و كون الباطن هو المراد من الخطاب لا بد له من شرطين:

أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب و يجرى على المقاصد العربية.

الثانى: أن يكون له مشاهد نصا أو ظاهرا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أما الأول: فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا. و أما الثانى: فلائذ إن لم يكن له شاهد فى محل آخر، أو كان معارض صار من جملة

الدعاوى التى تدعى على القرآن و الدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء «(٤)» (١) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٤٩٧٠)، و انظر

رقم (٣٦٢٧).

(٢) القاسمى، محاسن التأويل مج (١)، ص (٤٢). و النص للشاطبى من الموافقات (٣/ ٣٨٤). و من أراد الاستزادة من الأمثلة فليرجع

إلى تفسير القاسمى فى ص (٤٢) من المجلد الأول.

(٤) الشاطبي، الموافقات نقلا عن القاسمي، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٥٠، ٥١) و انظر الشاطبي، (٣/ ٣٩٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٦٩

و أشار الشاطبي إلى أن ذلك قد وجد فى القرآن «١».

و يمكن أن نضرب مثلا مأخوذا من موافقات الشاطبي ساقه القاسمي، و هذا المثل فيه تفسير باطنى أريد منه الباطن، أو يمكن أن يراد منه الباطن لتوافر الشرطين اللذين ذكرناهما قبل قليل، و هذا ما ذكره سهل بن عبد الله يعدّ من باطن القرآن أو من إحياءاته الإشارية و ذلك عند قوله تعالى: **فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** «٢» قال سهل: أندادا «أى أضدادا». قال: «و أكبر الأنداد النفس الأمارة بالسوء الطواعة إلى حظوظها و منهيها بغير هدى من الله» «٣» و هذا يشير إلى أن النفس الأمارة داخله تحت عموم الأنداد حتى لو فصل [أى النص القرآنى لكان المعنى فلا تجعلوا لله أندادا: لا صنما و لا شيطانا، و لا النفس و لا كذا، و هذا مشكل الظاهر جدا إذا كان مساق الآية فيها يدل على أن الأنداد الأصنام أو غيرها كانوا يعبدون و لم يكونوا يعبدون أنفسهم، و لا يتخذونها أربابا و لكن له وجه جار على الصحة، و ذلك أنه لم يقل إن هذا هو تفسير الآية، و لكن أتى بما هو ندد فى الاعتبار الشرعى الذى شهد له القرآن من جهتين:

أحدهما: إن الناظر قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار فيجرب له فيما لم تنزل فيه لأنه يجامعه فى القصد أو يقاربه لأن حقيقة التبد أنه المضاد لنده الجارى على مناقضته و النفس الأمارة هذا شأنها لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، و هذا هو الذى يغنى به التبد فى نده لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه و شاهد صحة هذا الاعتبار قوله تعالى: **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ** «٤» و هم لم يعبدوهم من دون الله و لكن ائتمروا بأوامرهم و انتهوا عمّا نهوهم عنه كيف كان مما حرّموا عليهم حرّمه، و ما أباحوا لهم حلّوه، فقال الله تعالى:

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ.

و الثانية: أن الآية، و إن نزلت فى أهل الأصنام فإن لأهل الإسلام فيها نظرا بالنسبة إليهم، أ لا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لبعض من توسّع فى الدنيا من أهل الإيمان:

أين تذهب بكم هذه الآية **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا** «٥». و كان هو يعتبر نفسه بها. (١) راجع القاسمي، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٥١، ٥٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٢).

(٣) القاسمي، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٥٢). و انظر سهل التستري، فى تفسير القرآن العظيم، ص (١٩) و انظر الشاطبي، (٣/ ٣٩٧).

(٤) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٥) سورة الأحقاف، الآية: (٢٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٠

و إنما أنزلت فى الكفار لقوله: **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ ظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ طَيِّبَاتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا** الآية و لهذا المعنى فى تقرير العموم و الخصوص فإذا كان كذلك صح التنزيل بالنسبة إلى النفس الأمارة فى قوله: **فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ** «١».

ثم راح القاسمي يذكر المزيد من القواعد التى ذكرها الشاطبي فى الموافقات و لا سيما القواعد الضابطة لمنهج التفسير مثل: «الشرعية أمية، و أنه لا بد فى فهمها من اتباع معهود الأئمة و هم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم» «٢»- و نقل القاسمي عن الشاطبي فى الموافقات آراء الشاطبي بضرورة جعل الفهم مضبوطة باتباع معهود الأئمة من العرب الذين نزل القرآن بلسانهم» «٣». مثال ذلك: «أن معهود العرب ألا ترى الألفاظ تعبدا عند محافظتها على المعانى، و إن كانت تراعيها أيضا فليس أحد الأمرين عندها بملتزم. بل قد تبنى

على أحدهما مرة، و على الآخر أخرى، و لا يكون ذلك قادحا فى صحه كلامها و استقامتها» (٤).

و نقل القاسمى قول الشاطبى «فى أن بيان الصحابه حجه إذا أجمعوا- و إن لم يجمعوا فالمسألة فيها نظر. و المسألة عندئذ اجتهادية و أما حجه إجماعهم لمعرفتهم بلسان و أساليب العرب، و لمباشرتهم الوقائع و أسباب النزول» (٥).

و كذلك نقل عن الشاطبى أن «كل حكاية فى القرآن لم يقع لها رد فهى صحيحة» (٦).

و نقل قول الشاطبى: «الأحكام فى التنزيل أكثرها كلية و لذا احتيج فى الاستنباط إلى السنه» (٧) و هذا ما يشير إلى أهمية السنه النبويه عند الشاطبى، و أهميتها عند القاسمى لأنه واع لآراء الشاطبى فيما ينقل عنه ... و تحدث عن أقسام العلوم المضافه إلى القرآن ناقلا ذلك عن الشاطبى» (٨) و تحدث القاسمى عن المكي و المدنى، و دعا إلى الاعتدال فى التفسير «و على هذا أكثر السلف المتقدمين» (٩).

«و تناول القول بالرأى فى القرآن» (١٠). و الأحكام الشرعيه لا تنافى العقول (١) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٥٢، ٥٣) نقلا عن الشاطبى فى الموافقات.

(٢) المصدر نفسه، ص (٥٧). و انظر الشاطبى فى الموافقات، (٢/٦٤، ٦٥، ٨٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٥).

(٤) المصدر نفسه، نقلا عن الشاطبى فى الموافقات، (٢/٨٢).

(٥) المصدر نفسه، نقلا عن الشاطبى فى الموافقات.

(٦) المصدر نفسه، ص (٧١).

(٧) المصدر نفسه، ص (٨٣).

(٨) المصدر نفسه، ص (٨٨).

(٩) المصدر نفسه، ص (٩٥).

(١٠) المصدر نفسه، ص (١٠١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧١

[السليمه] «١». و كذلك رتب مكانه السنه بعد القرآن، و أنها تفصيل مجمله و قاضيه عليه «٢» [أى تحكمه و توضح دلالتة و مقاصده .

و تناول فى البحث: هل فى القرآن مجاز أم لا؟

و استدلل لهذا الموضوع بآراء ابن تيميه الذى قال: ... «تقسيم الألفاظ الداله على معانيها إلى حقيقه و مجاز، أو تقسيم دلالتها أو المعانى المدلول عليها، إن استعمل لفظ الحقيقه و المجاز فى المدلول أو فى الداله، فإن هذا كله قد يقع فى كلام المتأخرين. و لكن المشهور: أن الحقيقه و المجاز من عوارض الألفاظ. و بكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثه لم يتكلم به أحد من الصحابه و لا التابعين لهم بإحسان و لا أحد من الأئمه المشهورين فى العلم: كمالك و الثورى و الأوزاعى و أبى حنيفه و الشافعى، بل و لا تكلم به أئمه اللغه و النحو كالخليل و سيويه و أبى عمر بن العلاء ...

و نحوهم، و أول من عرف أنه تكلم بلفظ فى المجاز بلفظ أبو عبيده معمر بن المثنى فى كتابه [مجاز القرآن، و لكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقه، و إنما عنى بمجاز الآيه، و لهذا قال [أبو عبيده معمر بن المثنى: من قال من الأصوليين كأبى الحسن البصرى و أمثاله إنه يعرف الحقيقه من المجاز بطرق: منها نص أهل اللغه على ذلك، بأن يقولوا:

هذا حقيقه و هذا مجاز فقد تكلم بلا علم، فإنه ظن أن أهل اللغه قالوا هذا، و لم يقل ذلك أحد من أهل اللغه، و لا من سلف الأئمه و علمائها، و إنما هذا اصطلاح حادث، و الغالب أنه كان من جهة المعتزله و نحوهم من المتكلمين؛ فإنه لم يوجد هذا فى كلام أحد من أهل الفقه و الأصول و التفسير و الحديث و نحوهم من السلف؛ و هذا الشافعى هو أول من جرد الكلام فى أصول الفقه؛ و لم يقسم

هذا التقسيم ولا- تكلم بلفظ الحقيقة و المجاز. و كذلك محمد بن الحسن له فى المسائل المبنية على العربية كلام معروف فى (الجامع الكبير) و غيره، و لم يتكلم بلفظ الحقيقة و المجاز و كذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز فى كلامهم إلا فى كلام أحمد بن حنبل فإنه قال فى كتاب «الرد على الجهمية» فى قوله: «إنا، و نحن، و نحو ذلك فى القرآن: هذا من مجاز اللغة ..» (٣). «غير أن بعض أصحاب أحمد فسروا كلامه: «هذا من مجاز اللغة» أى: مما يجوز فى اللغة أن يقول الواحد العظيم الذى له أعوان: نحن فعلنا كذا أو نفعل كذا و نحو ذلك، قالوا: و لم يرد أحمد بذلك [هذا من مجاز اللغة] أن اللفظ استعمال فى غير ما وضع له». (١) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (١٠٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٠٧).

(٣) المصدر السابق، ص (١٣٧). ناقلا عن ابن تيمية.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٢

و نص ابن تيمية أن يكون الشافعى و مالك و أبو حنيفة قد قالوا بوجود المجاز على ما أراده المتأخرون. و التقسيم القائل إن الكلام حقيقة و مجاز جرى فى القرن الرابع، و ظهرت أوائله فى المائة الثالثة. و قال ابن تيمية: «ما علمته موجودا فى المائة الثانية اللهم إلا أن يكون فى أواخرها» (١). «و قد أنكر أبو إسحاق الأُسفرايينى وجود المجاز فى القرآن و لا فى اللغة، و قال المنازعون له: «النزاع معه لفظى فإنه إذا سلم أن فى اللغة لفظا مستعملا فى غير ما وضع له لا يدل على معناه إلا بقى منه» (٢) فهذا هو المجاز، و إن لم تسمه مجازا.

و هناك من خالف ابن تيمية بعدم وقوع المجاز مثل القاضى أبى يعلى و ابن عقيل و أبى الخطاب من الحنابلة و غيرهم من العلماء و اللغويين من سائر المذاهب الإسلامية الأربعة و غيرها.

و فحوى كلام ابن تيمية: أن تقسيم الكلام إلى حقيقة و مجاز يستلزم «أن يكون اللفظ قد وضع أولا لمعنى، ثم بعد ذلك قد يستعمل فى موضوعه، و قد يستعمل فى غير موضوعه» (٣).

و يطرح منكر و المجاز هذه الإشكالية: أنه لا يمكن لأحد أن ينقل عن العرب، و لا عن أمه من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة فى اللغة ثم استعملوها بعد الوضع؛ إنما استعملات استعمالات إضافية، أو استعمالات مرتبطة بالقرائن ...» (٤). ثم عالج القاسمى: هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة؟ أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة، ثم عالج مجمل مقاصد التنزيل الكريم و ضروب التفسير. و ذكر عنوانا: «مطلب فى التكرير» ليصل إلى نتيجة أن تكرير صفات الله دال على الاعتناء بمعرفتها، و العمل بموجبها (٥).

ثم يتناول: مسألة نزول القرآن على سبعة أحرف (٦)، و يتحدث عن ذكر بديع أسلوب القرآن، و اقتصار عثمان فى الجمع على الحرف المتواتر، و يتحدث عن موضوعات تتعلق بالقراءات. و ذكر ملخصا فى ذكر ملخص وجوه التفسير و مراتبه (٧). (١) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (١٣٧). ناقلا عن ابن تيمية.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص (١٣٧). نقلا عن ابن تيمية.

(٤) المصدر نفسه، ص (١٤٤)، و انظر ص (١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤)، و راجع كتاب العز بن عبد السلام «الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز».

(٥) المصدر نفسه، ص (١٥٤).

(٦) المصدر نفسه، مج (١)، ص (١٥٧، ١٥٨، ١٦٧، ١٧٥).

(٧) المصدر نفسه، مج (١)، ص (١٩٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٣

و بما سبق نكون قد قدمنا ملخصا عن آرائه فى اللغة و التفسير ملاحظين أخذه عن ابن تيمية، و الشاطبى المالكى، على نحو كبير و من غيرهم على نحو أقل.

وجهة نظر أخرى حول وجود المجاز فى لغة العرب:

المجاز واقع فى كلام العرب «عند جمهور أهل العلم» (١) و نقل الشوكانى مخالفة أبو إسحاق الأسفرايينى و قال: و خلافه هذا يدل أبغ دلاله على عدم اطلاعه على لغة العرب، و ينادى بأعلى صوت بأن سبب هذا الخلاف تفريطه على ما ينبغى الاطلاع عليه من هذه اللغة الشريفة، و ما اشتملت عليه من الحقائق و المجازات التى لا تخفى على من له أدنى معرفة بها» (٢).

و نقل الشوكانى أن الأسفرايينى استدلل بما «هو أو هن من بيت العنكبوت، فقال: إنه لو كان المجاز واقعا فى لغة العرب، لزم الإخلال بالتفاهم، إذ قد تخفى القرينة» (٣).

و استدلل صاحب المحصول لهذا القائل: بأن اللفظ لو أفاد المعنى على سبيل المجاز، فإما أن يفيد مع القرينة أو دونها، و الأول باطل؛ لأنه مع القرينة المخصوصة لا يحتمل غير ذلك، فيكون هو مع تلك القرينة حقيقة لا مجازا، و الثانى باطل، لأن اللفظ لو أفاد معناه المجازى دون قرينة لكان حقيقة فيه، إذ لا معنى للحقيقة إلا كونها مستقلة بالإفاداة دون قرينة» (٤). و أجاب عنه «بأن هذا نزاع فى العبارة» (٥).

قال الشوكانى: «و لنا أن نقول: اللفظ الذى لا يفيد إلا مع القرينة هو المجاز، و لا يقال: للفظ مع القرينة حقيقة فيه، لأن دلاله القرينة ليست دلالة وضعية حتى يجعل المجموع لفظا واحدا دالا على المسمى» (٦).

قال ابن برهان فى كتابه الأصول: «اللغة مشتملة على الحقيقة و المجاز، و قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايينى: لا مجاز فى لغة العرب» (٧) و احتج السيوطى بقوله: (١) الشوكانى، إرشاد الفحول إلى علم الأصول، ت: شعبان محمد إسماعيل، القاهرة، ط (١)، دار السلام، (١٩٩٨)، (١ / ٩٩).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الرازى، المحصول، (١ / ٤٤٨).

(٦) الشوكانى، إرشاد الفحول، (١ / ٩٩).

(٧) السيوطى، المزهرة، ت محمد أحمد جاد المولى و البجارى و أبو الفضل إبراهيم، ط دار الجيل، (١ / ٣٦٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٤

«و عمدتنا فى ذلك النقل المتواتر عن العرب؛ لأنهم يقولون: استوى فلان على متن الطريق، و لا متن لها، و فلان على جناح السفر، و لا جناح للسفر، و شابت لثية الليل، و قامت الحرب على ساق، و هذه كلها مجازات، و منكر المجاز فى اللغة جاحد للضرورة و مبطل محاسن لغة العرب» (١).

قال امرؤ القيس [فى معلقته :

فقلت له لما تمطى بصلبه و أردف أعجازا و ناء بكلكل (٢)

و ليس ليل صلب و لا أرداف ... و كذلك سمو الرجل الشجاع أسدا و الكريم العالم بحرا و البليد حمارا لمقابلة ما بينه و بين الحمار فى معنى البلادة، و الحمار حقيقة فى البهيمه المعلومه. و كذلك الأسد حقيقة فى البهيمه، و لكنه نقل إلى هذه المستعارات تجوزا ...»

(٣).

و يعرض السيوطى أدلة الأستاذ الأسفرايينى الذى نفى وجود المجاز فى كلام العرب: «و عمدة الأستاذ أن حدّ المجاز عند مثبته أن كلّ كلام تجوز به عن موضوعه الأصلي إلى غير موضوعه الأصلي لنوع مقارنة بينهما فى الذات أو فى المعنى: أما المقارنة فى المعنى فكوصف الشجاعة و البلادة و أما فى الذات كتسميته المطر سماء، و تسميته الفضلة غائطا، و عذرة، و العذرة: فناء الدار، و الغائط: الموضع المظمن من الأرض، كانوا يرتادونه عند قضاء الحاجة فلما كثر ذلك نقل الاسم إلى الفضلة، و هذا يستدعى نقولا عنه متقدما و نقولا إليه متأخرا، و ليس فى لغة العرب تقديم و تأخير، بل كلّ ما قدر أن العرب قد نطقت فيه بالحقيقة فقد نطقت فيه بالمجاز، لأن الأسماء لا تدل على مدلولاتها لذاتها، إذ لا مناسبة بين الاسم و المسمى، و لذلك يجوز اختلافها باختلاف الأمم، و يجوز تغييرها، و الثوب يسمّى فى لغة العرب باسم، و فى لغة العجم باسم آخر، و لو سمي الثوب فرسا، و الفرس ثوبا ما كان ذلك مستحيلا! بخلاف الأدلة العقلية، فإنها تدلّ لذواتها، و لا يجوز اختلافها، أما اللغة فإنها تدلّ بوضع و اصطلاح، و العرب نطقت بالحقيقة و المجاز على وجه واحد، فجعل هذه حقيقة و هذا مجاز ضرب من التحكم، فإن اسم السبع وضع للأسد كما وضع للرجل الشجاع» (٤). (١) المصدر نفسه.

(٢) البيت من البحر الطويل، و الكلكل: من الفرس ما بين مخرمه إلى ما مسّ الأرض منه إذا ربح.

و البيت فى صفة الليل.

(٣) السيوطى، المزهر، (١/ ٣٦٤، ٣٦٥).

(٤) السيوطى، المزهر (١/ ٣٦٥) و الكلام نقله عن أبى إسحاق الأسفرايينى.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٥

إذا نستطيع أن نلخص رأى أبى إسحاق الأسفرايينى، أن العرب لم تستخدم الكلمة على حقيقتها التى وضعت لأجله ابتداء لفترة من الزمن، ثم استعملت الكلمة بعد فترة من الزمن لغير ما استعملت له ابتداء، إنما سمّت العرب بهذه الكلمة حيوانا ما باسم الحمار ثم وصفت رجلا ما باسم البليد فى الوقت نفسه» (١).

و أجاب السيوطى على حجج الأسفرايينى: بالتسليم بأسبقيّة الحقيقة على المجاز استعمالا غير أن التاريخ لم يحفظ لنا مثل هذه النقلاات اللغوية، و عدم حفظ التاريخ لا يدل على عدم التقديم و التأخير.

بيد أن السيوطى لم يسلم للأسفرايينى بقوله: إن العرب وضعت الحقيقة و المجاز وضعا واحدا. بل المؤكد أن العرب أول ما وضعت اسم الأسد لعين البهيمة المعروفة، و لم تضع الأسد اسم عين للتعبير عن الرجل الشجاع، إنما اسم العين للرجل هو الإنسان «و لكن العرب سمّت الإنسان أسدا لمشابهته الأسد فى معنى الشجاعة» (٢).

و لكن المرء يتساءل: منذ متى عرفت العرب الأسد ... و منذ متى اكتشفت العرب صفة الشجاعة عند الأسد؟ و متى اكتشفت صفة الشجاعة عند إنسان ما حتى سمته العرب أسدا؟

الشجاعة موجودة بوجود الإنسان «معنى و مفهوم».

ظنى أن الإنسان منذ رأى الأسود حكم عليها بالشجاعة، ... و منذ وجدت الإنسانية وجدت معها صفاتها البلادة، الشجاعة، الكرم .. الخ. من ذلك يظهر أن الخلاف اصطلاحى و إن لم يكن كليا فهو جزئى على الأقل. لذا قال السيوطى: «فإذا ثبت أن الأسامى فى لغة العرب انقسمت انقساما معقولا إلى هذين النوعين فسمينا أحدهما حقيقة، و الآخر مجازا، فإن أنكر المعنى فقد جحد الضرورة، و إن اعترف به و نازع فى التسمية فلا مشاحة فى الأسامى بعد الاعتراف بالمعنى» (٣).

مع التذكير أن الغزالي فى المنحول، و إمام الحرمين (فى التلخيص) أنهما لا يظنان الأسفرايينى يقول ما نسب إليه فى موضوع الحقيقة و المجاز» و ذلك لعلو قدره فى هذا العلم.

و قال التاج السبكي فى شرح منهاج الأصول: «نقلت من خط ابن الصلاح أن أبا (١) السيوطى، المزهر (١/ ٣٦٥) و الكلام نقله عن أبى إسحاق الأسفرايينى.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) السيوطى، المزهر، (١/ ٣٦٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٦

القاسم ابن كجح حكى عن أبى على الفارسى إنكار المجاز، كما هو المحكى عن الأسفرايينى ..»

قلت: [و الكلام للسبكي : هذا لا يصح أيضا فإن ابن جنى تلميذ الفارسى و هو أعلم الناس بمذهبه، و لم يحك عنه ذلك بل حكى عنه ما يدل على إثباته.

و ما سقتاه من مناقشة السيوطى لآراء الأستاذ الأسفرايينى، يصحح سوجه لمناقشة أقوال ابن تيمية المنكر لوجود المجاز الذى ساقه القاسمى، و أوردناه فى الصفحات السابقة.

و يقينى: لو أن العلماء ناقشوا المسألة بهدوء لتوصلوا إلى القول إن الخلاف اصطلاحى، و الحق أن المجاز موجود قلنا ذلك بأصل الوضع أو بانتقال المعنى ...

و العبرة بما عليه العمل و ما آل إليه الفهم. لا كيف نشأ المجاز! و الله أعلم.

رأى القاسمى بفواتح السور:

أن هذه الفواتح: الم-الر- كهيعص- كلها: هذه حروف يتشكل منها القرآن و هى حروف لغتكم فأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله، أو بسورة. علما أنكم تنظمون كلامكم بنفس الحروف التى شكلت كلمات القرآن و تراكيبه «١».

التصوير فى القرآن عند القاسمى:

كأن القاسمى استفاد من الدراسات البلاغية القرآنية فى العصر العباسى و ما تلاه ...

لذا نراه يحاول رسم المشهد القرآنى عند الحديث عن الطبيعة، و لا يخفى أن حديث القرآن عن الطبيعة ليس مقصودا لذاته، إنما القصد منه إما ربط الطبيعة بالإيمان بلفت النظر إلى عظمة الخالق الذى أبدع و صور فكان أحسن الخالقين من دون شك و لا ريب.

أو أن القرآن صور مشاهد طبيعية كونه ليصور حاله نفسية إنسانية كانت متفاعلة مع الإيمان على نحو إيجابى أو سلبى. فبدا القاسمى أديبا فنانا و هو يرسم المشهد الكونى، و حالة المنافق فى هذا الواقع و ذلك فى قوله تعالى: **أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ** (١٩) «٢».

يقول القاسمى: **أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ**: تمثيل لحالهم إثر تمثيل ليعم البيان منها كل دقيق و جليل و يوفى حقها من التفضيع و التهويل، فإن تفننهم فى فنون الكفر و الضلال حقيق بأن يضرب فى شأنه الأمثال ... و كما يجب على البليغ فى مظان الإجمال و الإيجاز (١) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٢٣٧)، بتصرف.

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٧

أن يحمل و يوجز فكذلك الواجب عليه فى موارد التفصيل و الإشباع، أن يفصل و يشبع.

(الصيب): السحاب ذو الصوب. و الصوب: المطر ... و المراد بالسحاب السحاب كما قال تعالى: **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ**

الْمُنزِلُونَ (٦٩) «١».

(فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ): التنوين فى الكل للتهويل و التفخيم كأنه قيل: ظلمات داجية و رعد قاصف، و برق خاطف ... (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ): الصاعقة الصوت الشديد، من الرعدة يسقط معها قطعة نار تنفدح من السحاب، إذا اصطكت أجرامه، لا تأتى على شىء إلا أحرقته. (حذر): خوف الموت من سماعها.

(وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ): علما و قدرة فلا يفوته، و الجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الآذان بالأصابع - لا يغنى عنهم شيئا، فإن القدر لا- يدافعه الحذر، و الحيل لا- ترد بأس الله عز و جل. و فائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيب:

الإيدان بأن ما وهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم فيظهر استحقاقتهم شدة الأمر عليهم على طريقة قوله تعالى: أَصَابَتْ حَرَّتِ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ «٢» فإن الإهلاك الناشئ عن السخط أشد «٣». و فى قوله تعالى: يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ... «٤». (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ):

... فى الآية تمثيل لشدة الأمر على المنافقين، بشدته على أصحاب الصيب و هم فيه من غاية التحير و الجهل، بما يأتون و ما يذرون- إذا صادفوا من البرق خفقه مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة، فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفى و فتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ): «لزاد فى قصف الرعد فأصمهم أو فى ضوء البرق فأعماهم ...» «٥» و يقتطع المؤلف مقطعا من تعليقات ابن القيم فى كتابه: (١) سورة الواقعة، الآية: (٦٩).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١١٧).

(٣) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٢٥١، ٢٥٢).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٠).

(٥) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٢٥٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٨

«اجتماع الجيوش الإسلامية فى غزو المعطلة و الجهمية»:

فى الآية [السابقة] شبه الله المنافقين «بقوم أوقدوا نارا لتضىء لهم و ينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا فى ضوئها ما ينفعهم و يضرهم أبصروا الطريق- بعد أن كانوا حيارى تائهين فهم كقوم سافر ضلوا عن الطريق فأوقدوا النار لتضىء لهم الطريق فلما أضاءت لهم- فأبصروا عرفوا- طفئت تلك الأنوار، و بقوا فى الظلمات لا يبصرون قد سدّت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، و يراه بعينه، و يعقله بقلبه- و هؤلاء قد سدّت عليهم أبواب الهدى: فلا تسمع قلوبهم شيئا، و لا تبصره، و لا تعقل ما ينفعها، و قيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم و أبصارهم و قلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له، و لا بصر و لا عقل ...» «١».

هذه اللقطات الأدبية الفنية التصويرية تكشف عن أحاسيس الأديب لدى القاسمى المفسر.

الأسماء و الصفات عند القاسمى:

يصنف الإيمان الحق فى الصفات و الأسماء هو الوسط «بين أهل التعطيل الذى يلحدون فى أسماء الله و آياته و يعطلون حقائق ما

نعت الله به نفسه حتى يشبهونه بالعدم والموات، و بين أهل التمثيل الذى يضربون له الأمثال و يشبهونه بالمخلوقات. فيؤمن أهل السنة و الجماعة بما وصف الله به نفسه، و ما وصفه رسول الله صلى الله عليه و سلم من غير تحريف و لا تعطيل، و من غير تكيف و لا تمثيل» (٢).

هذا على طريقة السلف، و قد ذكر القاسمى فى المحاسن و التأويل فى بحث يحمل العنوان:

«بيان أن الصواب فى آيات الصفات هو مذهب السلف»، و استعان بإثبات ذلك بما قاله الغزالي فى كتاب «إلجام العوام عن علم الكلام».

إذ بين الغزالي صحة مذهب السلف و أقام على ذلك براهين عقلية و سمعية يسردها مطولة «٣». (١) القاسمى، محاسن التأويل ص (٢٥٣)، نقلا عن ابن القيم.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) القاسمى، محاسن التأويل، مج (١)، ص (٢٠٦، ٢٠٧) من أراد التوسع فليرجع إلى مبحثه الذى بعنوان: «الصواب فى آيات الصفات هو مذهب السلف».

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٧٩

اللغة عند القاسمى فى المحاسن:

رأينا من الأمثلة التى درسناها أن اللغة كانت واضحة، سهلة، مفهومة، فهو لم يكن ميالا أبدا إلى غريب الكلام أو وحشيه، و لم يكن مسرفا فى ذكر معانى المفردات، و لا التطبيقات الإعرابية و الصرفية و البلاغية، و لكنه شرح النص بما يحيط بالمعنى دونما توسع ممل و لا إيجاز مخل. و كذلك لم يتناول التطبيقات البلاغية، اللهم إلا محاولات هنا و هناك حاول شرح الصور الغنية فى الآيات شرحا أدبيا تصويريا على نحو ما رأينا شرحه لقوله تعالى: فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ.

تفسير القاسمى و الأحكام الفقهية:

لم يخل تفسير القاسمى من عرض و مقارنة، و ترجيح للأحكام الفقهية، و ظهر كل ذلك فى شرحه لقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) «١».

ذكر القاسمى أولا سبب نزول الآية، لأن سبب النزول يعرّف الفقيه الظروف المحيطة بالآية الكريمة ... لما هنالك من العلاقة بين السبب و المسبب. ثم يذكر الأحكام الشرعية المنبثقة عن هذه الآية:

(إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ): إِذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ...

ثم إن الآية تشير إلى وجوب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة و إن لم يكن محدثا [المراد الحدث الأصغر] نظرا إلى عموم الذين آمنوا ... و الجمهور على خلاف ذلك لما روى الإمام أحمد و مسلم و أهل السنن عن بريده قال: كان النبي صلى الله عليه و سلم يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ و مسح على خفيه، و صلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر:

يا رسول الله! إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله قال: «إني عمدا فعلته يا عمر»، و روى أحمد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أمر بالوضوء لكل صلاة طاهرا أو غير طاهر، فلما شق عليه ذلك أمر بالسواك عند كل صلاة، و وضع عنه الوضوء إلا من حدث. فكان

عبد الله بن حنظلة يرى أن به قوة على ذلك كان يفعله حتى مات»، قال ابن كثير: وفي فعل ابن عمر و مداومته (١) سورة المائدة، الآية: (٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٨٠

على إسباغ الوضوء لكل صلاة دلالة على استحباب ذلك كما هو مذهب الجمهور».

و فى حديث البخارى عن سويد بن النعمان قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم عام خيبر حتى إذا كنا بالصهباء صلى لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم العصر فلما صلى دعا بالأطعمه فلم يؤت إلا بالسويق، فأكلنا و شربنا، ثم قام النبى صلى الله عليه و سلم إلى المغرب. فمضمض ثم صلى لنا المغرب و لم يتوضأ «١»، و ناقش القاسمى رأى من قال بالنسخ و أبطل النسخ و وجه الأمر إلى الندب مستعينا بذلك بآراء الزمخشري و الشافعى و ابن حجر و غيرهم «٢».

«و فى الآية دليل على أن وجوب الوضوء لا يكون إلا لصلاة» و استدلل بحديث أخرجه أبو داود و النسائى و الترمذى عن عبد الله بن العباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خرج من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا: أ لا نأتيك بوضوء؟ فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة» «و أن اشتراط الوضوء لسجدة التلاوة، أو للطواف و صلاة الجنائز، و مس المصحف، عند من أوجبه فمن أدله أخر مقرر فى فقه الحديث» «٣».

و للقاسمى موضوعات فقهية فى تفسيره يظهر فيه نقوله لأقوال الأئمة و ترجيحاتهم «٤».

القاسمى و الحديث الشريف:

كان القاسمى مكثارا من استدلالاته بالأحاديث الشريفة سواء فى مناقشته المسائل الفقهية فى الآيات الكريمة أو خلال تفسيراته للآيات ... و قد ذكر فى مقدمته لتفسيره أهمية السنة فى تفسير القرآن، و فهم مقاصد الآيات الكريمة.

القاسمى و الإسرائيليات:

الإسرائيليات موجودة، و لكنها قليلة، و هذا ما ذكره أبو الفضل عبد الله بن محمد صديق الغمارى: «و فيه ميل نحو الإسرائيليات أحيانا» «٥». (١) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٢٠٩).

(٢) القاسمى، محاسن التأويل، مج (٢)، ص (٦٠، ٦١).

(٣) القاسمى، محاسن التأويل، مج (٢)، ص (٦١)، من أراد الاستزادة فليراجع ص (٦١) من المجلد (٢).

(٤) انظر القاسمى، مج (٢)، عند تفسيره قوله تعالى: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا من سورة المائدة.

(٥) الغمارى، من بدع التفاسير، ص (١٦٢). و يراجع فقرة سابقة من البحث (قاعدة فى قصص الأنبياء و الاستشهاد بالإسرائيليات).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٨١

الخاتمة:

لقد كان القاسمى عالما كبيرا، و استحق وصف رشيد رضا، و محمد بهجة البيطار و غيرهم، لقد كان مخلصا لآرائه التى اعتقد و آمن بها فى تفسيره.

كانت آراؤه فى العقيدة موافقة لآراء السلف، دون تشنيع على الخلف؛ امتاز بجمال بيانه، و سهوله لغته ...

و كان ميالا للآثار المفسرة، و الأحاديث الشريفة ... و إن استشهد أحيانا بالإسرائيليات.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ١٨٣

ثالثاً: صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى

صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى:

محمد على الصابونى صاحب الدراسات القرآنية العديدة، المشتغل فى تدريس علوم القرآن لفترة مديدة من الزمن. كتب تفسير آيات الأحكام- و اختصر تفسير ابن كثير .. نالت أعماله القبول و الرضا من طلاب العلم و العلماء فى آن واحد معاً. عرف ببيانه الأدبى الجميل، و بدراساته البلاغية المسهمة فى توضيح روعة البيان القرآنى، و صفوة التفاسير وصفه صاحبه بأنه الجامع بين المأثور و المعقول. المأثور ما نقل عن الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة و التابعين. و المعقول ما تأوله الخلق لآيات الكتاب العزيز. صيغ الكتاب بأسلوب لغوى ميسر سهل الفهم، لين العبارة.

مصادر هذا التفسير:

و هى: «جامع البيان» أو تفسير الطبرى، كشاف الزمخشري، «الجامع» للقرطبي، «روح المعاني» للآلوسى، و تفسير «القرآن العظيم» لابن كثير ... و «البحر المحيط» لأبى حيان ... و هناك انتقاءات من تفاسير أخرى و دراسات قرآنية عديدة. التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ١٨٤

رأى العلماء بهذا التفسير:

قرّض العلماء هذا التفسير فأثنوا عليه خيراً ... إذ قرّض له أبو الحسن الندوى من الهند، و عبد الحليم محمود و محمد الغزالي من مصر، و عبد الله بن حميد (رئيس مجلس القضاء الأعلى فى السعودية). و عبد الله عمر نصيف مدير جامعة الملك عبد العزيز من السعودية، و عبد الله الخياط خطيب المسجد الحرام «١».

الأسباب الداعية لتأليف «صفوة التفاسير»:

ما من شك أن الذين ألفوا و كتبوا فى تفسير الكتاب العزيز «القرآن كثيرين جداً، إذ حوت المكتبة الإسلامية أسفاراً ضخمة، و كتباً نفيسة خدم بها العلماء الأجلاء كتاب الله الكريم ...

و بوجود هذه الأعمال الجليلة، و الأسفار الضخمة ... بقى القرآن الكتاب العجيب الذى لا تنفضى عجائبه، يتحدّى الإنسانية بما يبهر العقول، و يدوخ العلماء، لا- غرابه إنه كتاب الله الخاتم، الذى لا زال العلماء يقفون على سواحله يستقون منه فيزداد عطشهم، ممّا يدفعهم باستمرار لوروده لما يجدون فيه من الكنوز و الأسرار و الدقائق و اللطائف. غير أن المؤلفات الضخمة، و الأسفار الكبيرة، و لاختلاف الظروف الثقافية و الاجتماعية أضحت كثيرين غير قادرين على مطالعتها، و الاستفادة منها ... فكان لا بد للعلماء من جهد

ميسر للصعب، مقبل للعثرة ... فكان جهد المؤلف فى «صفوة التفاسير».

يقول المؤلف: «إنه جامع لعيون ما فى التفاسير الكبيرة المفصلة مع الاختصار و الترتيب» «٢».

منهج صفوة التفاسير:

أولاً: يقدم مقدمة إجمالية للسورة توضح هذه المقدمة المقاصد الأساسية للسورة الكريمة مع معلومات موجزة عنها.

ثانياً: يربط بين الآيات السابقة و اللاحقة [مما يجعل القارئ فى المناخ السليم للمعنى .

ثالثاً: اللغء، يذكر اشتقاق المفردات، و الشواهد اللغوية، من كلام العرب. (١) انظر تقييزات الكتاب فى المجلد الأول.

(٢) محمد على الصابونى، صفوة التفاسير، حلب، دار القلم، ط (١)، (١٩٩٤)، (٢٠ / ٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٨٥

رابعاً: سبب النزول، فإذا عرفت السبب هان عليك معرفة المسبب.

خامساً: التفسير، هو الهدف لأن به يتم معرفة المعنى و القصد.

سادساً: البلاغة، و من شأنها تنمية الذوق المشعر بروعة البيان القرآنى.

سابعاً: الفوائد و اللطائف [الثمار التى يمكننا تحصيلها، و الأسرار التى كشفت لنا بمطالعة هذا الكتاب .

كى نكون مطلعين على نحو موجز مختصر بهذا الكتاب لا بد من دراسته مثال واحد على الأقل لبعض الجوانب الأساسية من كتاب

صفوة التفاسير.

الجانب الفقهى:

قال تعالى: وَ إِنِ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣) «١».

قال صاحب صفوة التفاسير فيما أخذه من التفاسير:

(وَ إِنِ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى : أى إذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمه و خاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها، فإن

النساء كثير، و لم يضيق الله عليه. و لقد اختار الطبرى: «و ان خفتم ألا- تعدلوا فى اليتامى» فخافوا أيضا ألا- تعدلوا بين النساء إذا

نكحتموهن «و ما أثبتناه هو الموافق لأسباب النزول» «٢».

(فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ): أى انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنتين و إن شاء ثلاثاً، و

إن شاء أربعاً.

(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً): أى خفتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة.

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ): أى اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات.

(ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا): أى ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا و تجوروا» «٣». (١) سورة النساء، الآية:

(٣).

(٢) محمد على الصابونى، صفوة التفاسير، (١ / ٢٥٩). و انظر تفسير الطبرى (٧ / ٢٦٥).

(٣) محمد على الصابونى، صفوة التفاسير، (١ / ٢٥٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٨٦

الاهتمام بالحديث الشريف فى صفوة التفاسير:

ذكرنا فى بداية البحث أن «صفوة التفاسير» موسوم بالجمع بين المأثور و المعقول ... و قلنا: إن المأثور هو المنقول عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و الصحابة و التابعين. و المؤلف اعتمد المنقول بتفسيره اعتمادا جليا واضحا.

قال تعالى: وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) «١» يمهد المؤلف لتفسير الآية كعادته بذكر مناسبة نزول الآية، فيقول:

المناسبة: الآية الكريمة تتابع أحداث «أحد» ... و تكشف عن أسرار المنافقين، و مواقفهم المخزية، و توضح الدروس و العبر من تلك الغزوة المجيدة.

سبب النزول: و يذكر سبب النزول الذى يرويه جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: لقينى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا جابر: «ما لى أراك منكسا مهتما؟» قلت: يا رسول الله استشهد أبى و ترك عيالا، و عليه دين فقال: «ألا أبشرك بما لقى الله عز و جل به أباك؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إن الله أحيا أباك و كلمه كفاحا «٢». و ما كلم أحدا قط إلّا من وراء حجاب- فقال له: يا عبد الله تمن أعطك، قال: يا رب: أسألك أن تردنى إلى الدنيا لأقتل فيك ثانيه، فقال الرب تبارك و تعالى: إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون، قال:

يا رب: فأبلغ من ورائى» فأنزل الله وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا أَى لا تظن الذين استشهدوا فى سبيل الله لإعلاء دينه أمواتا لا يحسون و لا يتنعمون بل أحياء عند ربهم يرزقون أى بل هم أحياء متنعمون فى جنات الخلد يرزقون من نعمها غدوا و عشيا، قال الواحدى: الأصح فى حياة الشهداء ما روى عن النبى صلى الله عليه و سلم «أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر و أنهم يرزقون يأكلون و يتنعمون» «٣».

الجانب اللغوى فى صفوة التفاسير:

قال تعالى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَ إِذَا الْمَوْؤَدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَى ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَ إِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١)

و قال تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. (١) سورة آل عمران، الآية: (١٦٩).

(٢) كفاحا: أى مواجهه.

(٣) محمد على الصابونى، صفوة التفاسير، (١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٨٧

اللغة: يشرح المؤلف المفردات اللغوية بإيجاز:

(انكدرت): تناثرت.

(العشار): جمع عشاء و هى الناقة التى مرّ على حملها عشرة أشهر.

(كشطت): نزعت، و قلعت: كشطت جلد الشاة أى نزعت و سلخته عنها.

(الخنوس): الكواكب المضيئة التى تخنس نهارا، و تختفى عن البصر، جمع خانس.

(الكنس): النجوم التى تغيب يقال: كنس إذا دخل الكناس و هو المكان الذى تأوى إليه الطباء.

(عسّس): أقبل بظلامه، قال الخليل: عسّس الليل: إذا أقبل أو أدبر فهو من الامتداد، قال الشاعر:
حتى إذا الصبح لها تنفسا و انجاب عنها ليلها و عسّسا «١»

البلاغة فى صفوة التفاسير:

تضمنت سورة التكوير عددا من الأحكام البلاغية منها:

- ١- الجناس الناقص بين الخنس، و الكنس.
 - ٢- الاستعارة التصريحية [صرح بالمشبه، و حذف المشبه به، و أبقى ما يدل عليه .
وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ: شبه إقبال النهار و سطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التى تحى القلب، و استعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس، و هذا من لطيف الاستعارة، و أبلغها تصويرا حيث عبّر عنها بتنفّس الصّبح.
 - ٣- الكناية اللطيفة: وَ مَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ كنى عن محمد صلى الله عليه و سلّم بلفظ صاحبكم.
 - ٤- الطباق بين لفظ «الجحيم، و الجنة»..
 - ٥- الجناس غير التام بين «أمين - و مكين».
 - ٦- توافق الفواصل، رعاية رءوس الآيات مثل: كورت، سيّرت، سجّرت، سعرت» و مثل: «الخنس، الكنس، عسّس، تنفس».
- و لمزيد من الفائدة و الإيضاح للجانب البلاغى فى صفوة التفاسير نتناول الجانب البلاغى فى فاتحة الكتاب:
- ١- الْحَمْدُ لِلَّهِ: الجملة خبرية لفظا، إنشائية معنى. أى قولوا [لأن الأمر جانب (١) انظر محمد على الصابونى، صفوة التفاسير، (١/ ٥٢٤) و انظر: البحر المحيط لأبى حيان (٨/ ٤٣٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٨٨

من جوانب الإنشاء. أى قولوا: الحمد لله. و هى مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى:

٢- إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ: فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، و لو جرى الكلام على الأصل لقال: إياه نعبد، و تقديم المفعول يفيد القصر أى لا نعبد سواك كما فى قوله تعالى: وَ إِيَّاى فَرَّهَبُونَ.

٣- قال فى البحر المحيط: و فى هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة و البلاغة أنواع:

الأول: حسن الافتتاح و براعة المطلع.

الثانى: المبالغة فى الثناء لإفادة «أل» الاستغراق.

الثالث: تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر، و معناه الأمر أى قولوا الحمد لله.

الرابع: الاختصاص فى قوله «الله».

الخامس: الحذف كحذف صراط من قوله: «غير المغضوب عليهم» تقديره غير صراط المغضوب عليهم، و غير صراط الضالين.

السادس: التقديم و التأخير فى «إياك نعبد».

السابع: التصريح بعد الإبهام الصّراط المُسْتَقِيمِ ثم فسره بقوله: الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.

الثامن: الالتفات فى إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥).

التاسع: طلب الشىء، و المراد به دوامه، و استمراره فى اهْدِنَا الصّراطِ أى ثبتنا عليه.

العاشر: السجع المتوازى فى قوله: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الصّراطِ المُسْتَقِيمِ «١».

المحكم و المتشابه فى صفوة التفاسير:

قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) «٢».

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ): أى أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم. (١) محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، (١/ ٢٦).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٨٩

(مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ): أى فيه آيات بينات وواضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال و الحرام، هن أصل الكتاب و أساسه.

(وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ): أى و فيه آيات أخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس، فمن رد المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، و إن عكس فقد ضل.

و لهذا قال تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ): أى فأما من كان فى قلبه ميل عن الهدى إلى الضلال فيتبع المتشابه منه و يفسره حسب هواه.

(ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ): أى طلبا لفتنة الناس فى دينهم، و إيهاما للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله.
(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ): أى لا يعلم تفسير المتشابه و معناه الحقيقى إلا الله وحده.

(وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ): أى الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه و أنه من عند الله «١». «كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا...» و فى سياق الفوائد: روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، الآية ثم قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذرهم» «٢».

و قال القرطبي: «أحسن ما قيل فى المتشابه و المحكم: أن المحكم ما عرف تأويله و فهم معناه و تفسيره، و المتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه و لم يكن لأحد إلى علمه سبيل.

قال بعضهم: و ذلك مثل وقت قيام الساعة، و خروج يأجوج و ماجوج، و خروج الدجال و عيسى و نحو الحروف المقطعة فى أوائل السور» «٣».

و القرآن قسمان: محكمات و متشابهات كما دلّت عليه الآية الكريمة، فإن قيل: كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية و بين ما جاء فى سورة هود أن القرآن كله محكم كتاب أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ و ما جاء فى الزمر أن القرآن كله متشابه: نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا؟! فالجواب أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن فى صدده فقوله: أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ بمعنى أنه ليس به عيب، و أنه كلام حق فصيح الألفاظ، صحيح المعانى. (١) محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، (١/ ١٨٤، ١٨٥).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه، (١/ ١٨٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٩٠

و قوله: (كِتَابًا مُتَشَابِهًا): بمعنى أنه يشبه بعضه بعضا فى الحسن و يصدق بعضه بعضا، فلا تعارض بين الآيات.

و الصابوني يثير إشكالية أخرى يحاول الإجابة عليها إجابة تأويلية لأن القرآن يستحيل التناقض عليه، فهو كلام الله الصادق المحكم «و لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» «١» - إذا لا- تعارض بين نصوص القرآن، لكن كيف عالج السلف الصالح بعض الآيات الموهمة. فقد أخرج البخارى عن سعيد بن جبير أن رجلا قال لابن عباس: إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف على ما هو؟

قال قوله تعالى: «فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ» (٢) وقال: «وَأَقْبِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ» (٢٧) «٣» وقال تعالى: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» (٤) وقال: «وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» (٥) فقد كتموا فى هذه الآيه، و فى النزاعات ذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، و فى «فضلت» ذكر خلق الأرض قبل خلق السماء. وقال:

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى فَصَبَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ «٦» فلا أنساب بينهم عند ذلك و لا يتساءلون، ثم فى النفخة الآخرة: أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، و أما قوله: (ما كُنَّا مُشْرِكِينَ)، (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، فيقول المشركون تعالوا نقل: لم نكن مشركين، فختم الله على أفواههم ... فعند ذلك عرف أن الله لا يكتُم حديثًا، و عنده يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين، و خلق الله الأرض فى يومين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات فى يومين، ثم دحا الأرض أى بسطها فأخرج منها الماء و المرعى و خلق الجبال و الأشجار و الآكام و ما بينهما فى يومين آخرين، فذلك قوله: «وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا فَخَلَقَ الأَرْضَ و ما فيها فى أربعة أيام و خلقت السماء فى يومين و كان الله غفورا رحيمًا فسَمَّى نفسه ذلك أى لم يزل و لا يزال كذلك».

الجانب العقيدى فى صفوة التفاسير:

من المعلوم أن النصوص المتشابهة اختلفت فى فهمها ما بين سلف و خلف فالسلف (١) سورة النساء، الآية: (٨٢).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (١٠١).

(٣) سورة الصافات، الآية: (٢٧).

(٤) سورة النساء، الآية: (٤٢).

(٥) سورة الأنعام، الآية: (٢٣).

(٦) سورة الزمر، الآية: (٦٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٩١

يفوضون، و الخلف يؤولون- أما فى النصوص المحكمة فلا خلاف.

ففى قوله تعالى من سورة البقرة:

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠).

قال فى تفسير قوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام و الملائكة): أى ما ينتظرون شيئًا إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق حيث تنشق السماء و ينزل الجبار عزّ و جل فى ظلل من الغمام و حملة العرش و الملائكة الذى لا يعلم كثرتهم إلا الله... «١».

قال المؤلف: «و هذا الذى أثبتناه مذهب السلف و هو عدم التأويل و تفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى. و لقد ذهب الرازى إلى أن معنى (أن يأتيهم الله):

أى يأتيهم أمره و بأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله (و اسألوا القرية): و هو مجاز مشهور و يقال ضرب الأمير فلانا و صلبه و أعطاه، و المراد أنه أمر بذلك و استدل على صحته هذا التأويل بالآية الأخرى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ «٢».

و نقل المؤلف كلام ابن تيمية فى الرسالة التدمرية: «وصفه تعالى نفسه بالإتيان فى ظلل من الغمام كوصفه بالمجىء فى آيات آخر و نحوها مما وصف به نفسه فى كتابه أو صح عن رسوله صلى الله عليه و سلم، و القول فى جميع ذلك من جنس واحد و هو مذهب

سلف الأمة و أئمتها، إنهم يصفون سبحانه بما وصف به نفسه و وصفه به رسوله صلى الله عليه و سلم من غير تحريف و لا تعطيل و لا تكيف و لا- تمثيل، و القول فى صفاته كالقول فى ذاته و الله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لا فى ذاته، و لا فى صفاته، و لا فى أفعاله فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه؟

فليقل له، كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته» (٣).

و كذلك نقل المؤلف كلام الإمام أحمد فى تفسيره الآية من سورة الأعراف: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ «٤»، أى استواء يليق بجلاله من غير تشبيه و لا- تمثيل و لا تعطيل و لا تحريف، كما هو مذهب السلف، و كما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، و الكيف مجهول، و الإيمان به واجب، و السؤال عنه بدعة، و قال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه و لا تعطيل، فلا يقال: كيف؟ و لم؟ تؤمن بأن الله على العرش (١) محمد على الصابونى، صفوة التفاسير، (١/١٣٤).

(٢) المصدر نفسه، و انظر الهامش.

(٣) المصدر نفسه، (١/١٣٥).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٥٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٩٢

كيف شاء، و كما شاء بلا حد. و لا صفة يبلغها واصف أو يحدّ حد، نقرأ الآية و الخبر، و تؤمن بما فيهما و نكل الكيفية فى الصفات إلى علم الله عزّ و جل، و قال القرطبي: لم يفكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً و إنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته» (١).

و بذلك يبدو المؤلف مرجحاً وجهه نظر السلف.

النسخ فى صفوة التفاسير:

لقد كان موقف محمد على الصابونى فى تفسير آيات الأحكام أكثر تفصيلاً إذ أثبت كل أنواع النسخ: نسخ التلاوة، و نسخ التلاوة و بقاء الحكم، و نسخ الحكم و بقاء التلاوة.

لكن الصابونى فى صفوة التفاسير اكتفى بما دلّت الآية عليه من المعنى إذ قال فى تفسيره لقوله تعالى: * ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها أ لم تعلم أنّ الله على كل شىء قدير (١٠٦) «٢».

(ما ننسخ من آية أو ننسها): أى ما نبدل من حكم آية فنغيره بآخر، أو ننسها يا محمد أى نمحها من قلبك.

(نأت بخير منها أو مثلها): أى نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون، بما هو أنفع لكم فى العاجل أو الآجل إما برفع المشقة عنكم أو بزيادة الأجر و الثواب «٣».

فى حين كانت مناقشة النسخ و المنسوخ فى كتابه تفسير آيات الأحكام أكثر وضوحاً و تفصيلاً. و اكتفى بالصفوة بالإجمال دون التفصيل.

خاتمة:

كان سهلاً فى عبارته، دقيقاً فى ترتيبه و تبويبه، حتى بدا هذا العمل العلمى صفوة التفاسير مدرسياً فى تبويبه، سهلاً على الطالب، فما أدراك بالباحث.

إنه يزيد ذخيرة الطالب بالمفردات اللغوية، و الشواهد العربية، و معلوماته التفسيرية، و ينمى ملكة الفهم و التأويل إذا درس بعناية و

يزيد معلومات القارئ البلاغية.

(١) محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، (١/ ٤٥٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٠٦).

(٣) محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، (١/ ٨٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ١٩٣

الفصل الثانى التفسير المنهجي

اشارة

أولاً: التفسير عند محمود حجازى.

ثانياً: التفسير عند الدكتور وهبة الزحيلي.

ثالثاً: التفسير عند الشيخ محمد متولى الشعراوى.

رابعاً: التفسير عند الدكتور أحمد إسماعيل الصباغ.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ١٩٥

أولاً: التفسير الواضح لمحمود حجازى

التفسير الواضح لمحمد محمود حجازى:

لا نعرف كثيراً عن الجانب الشخصى عن حياة المؤلف إنما نعرف أن المؤلف كان مدرسا فى الجامعة الأزهرية كلية أصول الدين. و التفسير الذى أماننا مؤلف من مجلدات ثلاث طبع للمرة العاشرة عام ١٩٩٣ م. يثنى مؤلفه على المفسرين القدامى الثناء الذى يستحقون، فهو مقرر بعلمهم، معترف بفضلهم، لذا كان تفسيره حلقة من حلقات التطور الأسلوبى فى التفاسير القرآنية ... إنه جاء ابنا مطيعا لمن سبقه من التفاسير و خاصة القديمة منها ..

جاء التفسير الواضح استجابة لواقع العصر الجديد «الذى» تشعبت فيه البحوث فى القوانين الوضعية و تكاثرت الخلافات بين الناس، فلجأ علماء القانون البشرى إلى التغيير بين الفترة و الأخرى حتى ضجّ الناس فرجع كثيرون منهم إلى القرآن الكريم لأنهم سئموا التخبط، و ضجوا بالضياح و الاضطراب لهذه الموجه المادية التى غمرت الناس بقيمتها و أعرافها، فغدت الناس نفوسهم شرهه لا تشبع من مال، و نهمه لا ترتوى من متعه، عندئذ تيقظ الناس باحثين عن مخرج، و لاهئين منقرين يفتشون عن مخلص.

تذكروا كتاب الله الذى بنى للإنسانية يوما صرحا من الأخوة لا يطاوله أحد .. فعمد الباحثون فى علومه إلى كتابات شروحه بلغات و بأساليب همها التبسيط دونما إهمال لمعانيه النبيلة و قيمه السامية.

و هذا التفسير الواضح، «كتب بلغة سهلة واضحة لا تعمق فيها و لا إبعاد، خالية من الاصطلاحات العلمية و الفنية تفسر للشعب كل ما فيه صوغ المعنى الإجمالى للآية بلغة

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ١٩٦

العصر، مع البعد عن الحشو و التطويل» (١).

من هنا كان «التفسير الواضح» التفسير الذى نعت بالواضح، ليوضح للناس ما كان يحتاج إلى اختصاص، فبدا بثوبه الجديد، و أسلوبه

الحديث فى تناول الجميع. و الله أعلم.

منهجه فى التفسير:

- لقد قلنا: إن المفسر أثنى على القدماء، و بنى على بنائهم لكن على نحو جديد مع محافظة على جوهر بنائهم، فهو بعد أن عرض مقدمة لكل سورة قرآنية يتناول فيها ملخصا مجملا عن الموضوع الذى تناوله السورة المراد تفسيرها.
- يحاول المؤلف تقسيم السورة الواحدة إلى موضوعاتها التى بحثت فى آياتها.
- ثم يشرح مفرداتها، ثم يتناول المعنى الإجمالى.
- استشهاد بالأحاديث الشريفة كان قليلا.
- خلا تفسيره من التطبيقات النحوية و الصرفية و البلاغية إلا ما ندر.
- نقاه من الإسرائيليات.

و الآن إليك أيها القارئ الكريم بعضا من نماذجه:

إنه يقسم السورة الواحدة إلى موضوعات وفق الآيات المتسلسلة المتناولة لموضوع ما:

- فسورة الأعراف مثلا تناولت عددا غير قليل من الموضوعات العقيدية، و الاجتماعية و القصصية، التاريخية و غير ذلك. لذا فإننا نجد العناوين التالية فى دراسته لسورة الأعراف التى يبلغ عدد آياتها خمس و مائتان.
- «نزلت بعد سورة (ص) و هى كالأنعام بينت أصول العقائد ... و فيها قصص الرسل و أحوال قومهم بالتفصيل، مع بعض الآيات و الحكم القرآنية» (٢).

فالفكرة الأولى عنوانها ب: «القرآن و عاقبة المكذبين فى الدنيا و الآخرة».

- و العنوان الثانى: «نعم الله على بنى آدم، و تكريمه». و الثالث: «قصة سكنى آدم الجنة و خروجه منها»، و الرابع: «من نعم الله و فضله علينا». و الخامس: «شبهات المشركين (١) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، ط (١٠) دار الجيل، بيروت، (١/٦).
- (٢) المصدر نفسه، (١/٦٩٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٩٧

- و أَعْدَارِهِمُ الْوَاهِيَةَ» و هكذا يقسم السورة إلى أفكار و يضع لكل مجموعة من الآيات المتضمنة فكرة واحدة عنوانا حتى نهاية السورة ... «١».

الجانب العقيدى فى سورة الأعراف:

إشارة

قال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتِّينَ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) «٢».

و على نهجه بالتفسير يفسر المفردات فى الآية الواردة:

(ربكم): الرب السيد المالك و المربى.

(الله): علم على الذات الأقدس، و الإله هو المعبود الذى منه النفع و الضرر، و يتقرب إليه بالعبادة و الدعاء. و ليس للموحدين إله إلا

الله.

(أيام): جمع يوم و هو الوقت المحدود بطلوع الشمس إلى غروبها. [هذا يوم الحياة الدنيا أو يوم البشر].

(استوى): فى اللغة بمعنى استقرّ، و منه استوى على الكرسى، و استوى بمعنى استولى و ظهر.

(العرش): قال الجوهرى: هو سرير الملك. نَكَّرُوا لَهَا عَرْشَهَا، و العرش: سقف البيت و هودج المرأة، و قيل: العرش الملك و السلطان. و منه ثلّ عرشه إذا ذهب ملكه.

(يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ): يجعل الليل كالغشاء أى: يذهب نور النهار.

(حثيثا): الحث و الحض بمعنى واحد: و هو الإعجال و السرعة «٣».

المعنى:

«إن ربكم و مالك أمركم، و متولى شئونكم هو الله لا-إله إلا هو فاعبدوه وحده و استعينوا به وحده، فهو الذى خلق السموات و عوالمها، و قدرها و أحكم نظامها و خلق الأرض، و جعل فيها رواسى من فوقها، و بارك فيها و قدر أقواتها، كل ذلك فى ستة أيام، الله أعلم بمقدارها و حدودها، و إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ «٤» و لو أراد (١) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، (١/ ٦٩٣) و ما بعدها.

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٥٤).

(٣) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، (١/ ٧٢١، ٧٢٢).

(٤) سورة الحج، الآية: (٤٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٩٨

خلقها فى لحظة لخلقها إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فَيَكُونُ «١» ... و لكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التانى و التثبيت فى الأمور، و أن خلق السموات و الأرض ليس بالشىء الهين لخلق السموات و الأرض أكبر من خلق الناس و لكن أكثر الناس لا يعلمون «٥٧» «٢».

و يعلق محمود حجازى على الإسرائيليات الواردة فى الحديث عن هذه الآيات دون قبول أو رفض: «و ما ورد من أن هذه الأيام الستة هى كأيام الدنيا، و أنه بدئ الخلق يوم الأحد. فروايات إسرائيلية الله أعلم بها، و إنها إسرائيلييات ... إن ربكم أيها الناس جميعا الله الذى خلق السموات و الأرض فى ستة أيام، و دبر أمورها وحده، فيجب عليكم أن تعبدوه وحده» «٣». و يظهر رأيه فى آيات الصفات أنه مع آراء الصحابة و السلف الصالح.

«ثم إنه تعالى قد استوى على عرشه، و استقام أمره، و استقرّ على هيئة الله أعلم بها من البعد عن مشابهة الحوادث فى شىء، و لقد سئل مالك- رضى الله عنه- فى ذلك فقال:

«الاستواء معلوم، أى: فى اللغة، و الكيف- أى كيفية الاستواء- مجهول. و السؤال عن هذا بدعة»، و هذا القدر كاف، و هذا رأى الصحابة رضى الله عنه). و رأى السلف: قبول ما جاء من غير تكيف و لا تشبيه، و ترك معرفة حقيقتها إلى الله، و أما الخلف فيؤولون، و يقولون:

استوى على عرشه بعد تكوين خلقه على معنى أنه يدير أمره و يصرف نظامه على حسب تقديره و حكمته: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْمَأْمَرُ «٤» و إلى رأى السلف أميل، إذ هو رأى الصحابة و التابعين جميعا «٥» و جميل من المؤلف ذكر الآراء دون تعنف للآراء المخالفة لرأيه ... إنما عرضها بهدوء و بروح علمية إسلامية جادة.

المسألة الفقهية فى التفسير الواضح:

و لناخذ مثالا له علاقة مسيسة بالحياة الاجتماعية ألا و هو قذف الرجل زوجته قال تعالى: (١) سورة يس، الآية: (٨٢).

(٢) سورة غافر، الآية: (٥٧).

(٣) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، (١/ ٧٢٢).

(٤) سورة يونس، الآية: (٣).

(٥) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، (١/ ٧٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ١٩٩

و الَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ و لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) و الْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) و يَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) و الْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) و لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ و رَحْمَتُهُ و أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠).

بعد أن شرح المفردات على نهجه المتبع فى كل تفسيره.

الموضوع: إذا دخل الرجل على امرأته فى مكانه الخاص فوجد معها أجنبيها على هيئة منكرة فماذا يعمل؟ أ يخرج يطلب الشهود! هذا قد لا يتصور، أ يسكت و يلحق بنفسه من لا يستحق هذا النسب، و يتخذ لأولاده أبا يرثه و يرثهم و هو لا يستحق! إن هذا لأمر خطير

...

و لكن الشارع الحكيم لا يترك هذا الأمر دونما حل:

و الحل: إن لم يكن له شهداء يشهدون على مثل الشمس رؤية و يقينا، إذا لم يكن ذلك فليشهد أربع شهادات بالله فيقول: أشهد بالله العظيم إنى لصادق فيم رميت به زوجتى فلانة من الزنى (أربع مرات) و يقول فى المرة الخامسة: و على لعنة الله إن كنت من الكاذبين فى دعواى، و فيما رمى زوجته بالزنى و جب عليه الحد كما نصت الآية السابقة فإنها عامة من المحصنات سواء كن زوجات أو أجنبيات. و ليس يرفع الحد كما نصت الآية السابقة إلا البينة بأربعة شهود أو اللعان منه، أى أن يشهد أربع شهادات ثم الخامسة كما تقدم ...

عند ذلك يجب عليها الحد إن لم تلعن هى الأخرى، و ذلك كله بعد تحذير الحاكم [القاضى لهما من الكذب و خطره، و بيان أن عذاب الدنيا بالحد أخف بكثير من عذاب الآخرة، فإن أصرت الزوجة على تكذيب زوجها لاعتت فشهدت أربع شهادات بالله العظيم إنه لمن الكاذبين، و تقول: أشهد بالله العظيم إن فلانا هذا زوجى لمن الكاذبين، فيما رمانى به من الزنى، و فى الخامسة تقول: و على غضب الله إن كان من الصادقين و هذا معنى قوله تعالى: و يَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ... و من أحكام اللعان أنه متى لا عن الزوج حرمت عليه زوجته، قيل: حرمة مؤبدة، و قيل كالطلق البائنة يجوز له أن ينكحها إذا عاد و كذب نفسه و أقيم عليه الحد.

و لَوْ لَا - فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ و رَحْمَتُهُ و أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) و لو لا ما حَفَّكُمْ من فضل الله و مزيد إحسانه الذى منشؤه الرحمة التى هى صفة ذاتية لله كتبها على نفسه، و أنه هو التواب الذى يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيئات، لو لا ذلك كله لكان ما كان مما لا يطاق، و لا تحيط به العبارة ...» (١) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، تفسير سورة النور (٢/ ٦٥٧، ٦٥٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٠٠

و روى فى سبب نزول هذه الآيات التى شرعت حكم الملاعة بين الزوجين: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه و سلم بشريك بن سحماء، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: «البينة أو حد فى ظهر ك» قال: يا رسول الله إذا رأى أحد رجلا على امرأته

يلتمس البيئنة! فجعل النبي صلى الله عليه و سلم يقول: «البيئنة و إلا حد فى ظهرك» فقال هلال: و الذى بعثك بالحق إني لصادق، و لينزلن الله فى أمرى ما يبرئ ظهري من الحد، فنزلت الآية. و قيل: إن القاذف لزوجته عويمر بن زيد لا هلال بن أمية» (١).
و روى أن آية القذف لما نزلت و الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْآيَةَ و تناول ظاهرها الأزواج و غيرهم قال سعد بن عباد: يا رسول الله إن وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى آتى بأربعة؟ و الله لأضربنه بالسيف غير مصفح عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أ تعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير من سعد، و الله أغير منى» ثم لم يمض يسير من الزمن حتى جاء هلال بن أمية و رمى زوجته بالزنى و نزلت الآية (٢).

ملاحظات:

لم يورد المؤلف الآراء الخلافية الفقهية حول الشهود، و شروط الشهداء، و لم يبين ما ينبى من أحكام أخرى على الكاذبين من المدعين كحرمانهم من الشهادة و غير ذلك، و لم يكتر من الأحاديث الواردة فى ذلك.
إنما قدم الحكم الشرعى فى الموضوع دونما توسع و دونما إخلال أيضا ... مع ذكر لأسباب النزول التى تعين المجتهد على استنباط الحكم الصحيح، و تعين القارئ على فهم الآية و ترسيخها فى ذهنه. هذا عن دراسته للمردود الاجتماعى و التربوى للأحكام الفقهية، لأن التربية غاية مهمة من غايات التشريع. و الله أعلم.

الاستشهادات بالأحاديث الشريفة بالتفسير:

لم يكن المفسر من الذين أكثروا من إيراد الأحاديث و الآثار من الصحابة و التابعين.
و من الحالات القليلة التى استشهد فيها بالحديث النبوى: عند تفسيره قوله تعالى:
وَلَيْسَتَعْظِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا (٣) أى ليعمل من لا يجد وسائل الزواج الموصلة إليه على العفة و ضبط النفس و عدم الاسترسال فى طريق الشهوات و البعد عما يثير الغرائز الجنسية (١) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، تفسير سورة النور (٢/٦٥٧، ٦٥٨).
(٢) المصدر نفسه (١/٦٥٨).
(٣) سورة النور، الآية: (٣٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٠١

كالاختلاط بالنساء و الجلوس إليهن، و التعفف يدخل فيه تقوية الناحية الروحية بقراءة القرآن و الصلاة و الصوم و استدلال بحديث الرسول صلى الله عليه و سلم: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج و من لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له و جاء» ... و الصوم علاج روحى جسمى» (١).

الإسرائيليات فى التفسير الواضح:

خلا- التفسير الواضح من الاسرائيليات ... بحدود اطلاقنا و علمنا .. علما أن المؤلف فى مقدمته أكد على «خلوه من الخرافات الإسرائيلية». كما أنه فى تفسيره سورة طه وقف موقفا من الإسرائيليات لا رفض فيه و لا قبول إنما اكتفى بالقول عند تفسيره فى «سته أيام» و عن بدء الخلق يوم الأحد ... قال: إنها من روايات الإسرائيليات، و الله أعلم بها» (٢).

اللغة فى التفسير الواضح:

اسم التفسير «الواضح» ولا يمكن أن يكون واضحاً دون لغته السهلة، و المفردة البسيطة، و الحق أنه فى شرحه المفردات القرآنية- ثم الشرح الإجمالى للمعنى العام للآيات الكريمة يؤكدان أن اللغة السهلة كانت سائدة فى كل أجزاء التفسير الواضح- و هذه اللغة يستطيع أن يفهمها المبتدئون بالعلم، أو على الأقل يفهمها غير المتخصصين بالدراسات اللغوية أو الإسلامية، و بتجنبه التطبيقات النحوية و الصرفية و البلاغية جعل المفسر تفسيره لعموم الناس و بذلك غدا هذا التفسير مادة ثقافية قرآنية شعبية...».

الناسخ و المنسوخ فى التفسير الواضح:

عالج المفسر هذا الموضوع عند قوله تعالى فى سورة البقرة: ما نُنسخ من آيةٍ أو نُنسخها نأتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أو مِثْلَهَا ... (٣). يتناول الموضوع بتمهيد يقول: «إن القرآن الكريم نزل منجماً تبعاً للحوادث و الظروف، و هو تنزيل من حكيم عليم بالخبايا فالحكم المستفاد من الآية يدور مع المصلحة للأمة، فمتى وجدت المصلحة فى الحكم و إلا فلا، فتارة تبقى الآية كما هى لأن المصلحة فى ذلك، و تارة يذهب لفظها و معناها أو أحدهما و تؤجل إلى أجل أو تنسى من (١) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، (١) /٦٧٩».

(٢) المصدر نفسه، (١) /٧٢٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٠٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٠٢

القلوب كل ذلك للمصلحة العامة، فالنسخ ضرورى فى الأحكام خصوصاً عند الأمة الناشئة بسبب تطورها سريعاً، فما يصلح علاجاً اليوم قد لا يصلح غداً، شأن المربي و الطبيب الماهر مع مريضه».

هل كان النسخ لجهل الشارع بالحكم:

بكل تأكيد لم يكن النسخ بسبب جهل الشارع بالحكم الأخير [فالكل تنزيل الله العليم الحكيم . و لكن كان الشارع يتدرج و يعالج تبعاً للظروف و الأحوال ... انظر إليه حيث عالج الخمر ... و كيف نسخ الحكم فيها ... حتى وصل إلى النهاية و كذا آيات القتال نجد أن النسخ كان لحكمة عالية من حكيم خبير ...] (١).

فى حين لمّا بدأت الأمة تستقر، و يترسخ كيانها «لم يبق نسخ، أليس هذا أولى من بقاء الأحكام لا تتغير تبعاً للظروف الطارئة فيضطر إلى هجرها و عدم قبولها؟! فالله لم ينسخ آية أو يؤجلها إلّا و يأتي بخير منها للعباد أو مثلها على الأقل أليس الله على كل شىء قدير ...» (٢).

و على كل حال فقد تم التطرق إلى الناسخ و المنسوخ فى عدد من البحوث التى أعددناها حول التفاسير، و ذكرنا أن الجمهور مع القول بالنسخ غير أن أبا مسلم الأصفهاني لا يقول بوجود النسخ ... و ذهب بعض المعاصرين إلى عدم وجود النسخ، و وجهوا الآيات توجيهها آخر جعل الآيات عاملة كلها، لكن كل آية تعمل فى موقعها المناسب و قد ذكر ذلك صاحب التفسير الواضح:

«هذا رأى بعض العلماء فى النسخ و القول به [أى رأى القائلين به و بعضهم يرى ألا نسخ أبداً بالمرء، و كل آية قيل إن فيها نسخاً أولوها تأويلاً سائغاً ببيان أن كل آية فى موضوع فلم تنسخ إحداها الأخرى، انظر إلى آيات العدة الآتية، و آيات القتال]» (٣).

و قد عالج علماء أصول الفقه موضوع الناسخ و المنسوخ، كما عالج الموضوع المفسرون للقرآن الكريم، و من أراد الاستزادة فليراجع المسألة فى مظانها. (١) محمد محمود حجازى، التفسير الواضح، (١) /٦٢-٦٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، (١ / ٦٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٢٠٣

خاتمة:

التفسير الواضح؛ اسم على مسمى. لا غرابة فى لغته، و لا تفرجات فى بيانه الفقهى أو العقيدى، خلا من الإسرائيليات، و فى غرضه من جانب أداء المعنى فى الآية القرآنية، و اعترف بفضل العلماء السابقين على اللاحقين. لم يذكر الآراء المتعددة إلا قليلا و لكن عند ذكرها يترفع عن القدح و النيل من الآراء الأخرى التى خالفت رأى المفسر. شرح مفردات الآيات شرحا مفهوما بسيطا، مما يسهم فى زيادة المخزون اللغوى القرآنى لدى القارئ و الباحث ... و الحمد لله رب العالمين.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٢٠٥

ثانيا: التفسير الوسيط للدكتور وهبة الزحيلي

التفسير الوسيط لهبة الزحيلي:

وهبة الزحيلي واحد من العلماء و المفكرين الذين عرفوا بغزارة إنتاجهم العلمى، ذلك الإنتاج الذى غطى قطاعات واسعة من قطاعات الثقافة الإسلامية فى الفقه و علوم التفسير و أصول الفقه و العقيدة. و المؤلف المولود فى دير عطية قرب دمشق شغل مراكز علمية فى جامعة دمشق كما أنه مارس التدريس فى كليتى الشريعة و الحقوق ... و درّس فى جامعات عربية أخرى.

مؤلفاته:

عمله الموسوعى: الفقه الإسلامى و أدلته.

- التفسير المنير. - التفسير الوسيط. - التفسير الوجيز.

- أصول الفقه ... و له كتب أخرى كثيرة، و له عدد غير قليل من الرسائل و المحاضرات.

و الكتاب الذى محل البحث و الدرس هو: «التفسير الوسيط» للمؤلف يقع التفسير الوسيط فى ثلاثة مجلدات، صدر عن دار الفكر بدمشق فى ١٤٢١ هـ.

على الرغم أن المؤلف لم يكن يخطر بباله أن يفسر القرآن الكريم كما قال فى مقدمته التفسير الوسيط. «الآن لا يمكن لأى عالم مهما أوتى من العلم أن يجزم بما هو المراد من

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٢٠٦

كلام الله، لأن مراد الله تعالى لا يحصره بيان» «١». و يكشف المؤلف عن طبيعة عمله بقوله:

«و لكنها المحاولة فى التبيان و التبسيط و التيسير و تقريب البعيد، و جمع المفيد، و تحقيق الملبسات، و ربط التالى لكتاب الله تعالى بما هو المطلوب منه، و المفروض شرعا عليه، من العمل بما أنزل الله حكما عربيا، و صلة بالله تعالى، و حفاظا على أمة القرآن إلى يوم الدين» «٢».

وقد أعد المؤلف التفسير الوسيط لمتوسطى الثقافة «٣».

مميزات التفسير الوسيط:

- ١- فيه زيادة تفسير لبعض الآيات عمّا هو مذكور فى التفسير المنير [للمؤلف نفسه .
- ٢- فيه إيضاح لمعاني الكلمات الغامضة.
- ٣- فيه ذكر لأسباب النزول مع كل آية [ذكر لها أسباب نزول إذ لا يشترط لكل آية فى القرآن أسباب نزول.
- ٤- قد يذكر فيه وجه إعرابى [نحوى إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- ٥- فيه البساطة و العمق فى آن معا.
- ٦- احتوى على مقدمة لكل مجموعة آيات تؤلف مع بعضها موضوعا واحدا.
- ٧- يؤكد المؤلف أن عمله فى مؤلفاته على نحو عام إنما القصد منها «تيسير العلم بأسلوب واضح مترن، و عبارات لا إشكال فيها ...» «٤».

مثال:

قلنا إن المفسر قصد تبسيط التفسير أكثر مما قصد أن يأتى بجديد. لذلك عمد إلى التقديم لمجموعة آيات شكلت موضوعا واحدا بمقدمة تجعل القارئ يتفهم الموضوع العام للآيات الكريمة قبل أن يقرأها على نحو مباشر ... و ظنى أنه أسلوب جيد، فما يكاد المرء ينهى قراءة التوطئة حتى يصبح هاضما للمعاني العامة للآيات التاليات، فما إن يقرأها حتى يجد القارئ نفسه مستوعبا للأفكار التى هدت إليها الآيات الكريمة. و لى هذا المثال: (١) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (١/٥)، ط (١)، دار الفكر، دمشق، المقدمة.

(٢) المصدر نفسه، (١/٥).

(٣) انظر المقدمة، ص (٦).

(٤) انظر المقدمة، ص (٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٠٧

— محارم النساء:

«راعى الإسلام ما تستوجهه رابطة الدم من حرمة و تعظيم فحرم الزواج على الرجال ببعض الأقارب القريبين جدا، و فى ذلك رفع للحرج و جعل العيش فى بيئة الأسرة الواحدة أمرا مسورا لا حرج فيه، علما بأن بعض قبائل العرب قد اعتادوا أن يخلف الرجل على امرأة أبيه، فإذا توفى الرجل عن امرأته كان ابنه أحقّ بها، يتزوجها إن شاء إن لم تكن أمه، أو يزوجه من شاء، و وجدت أمثلة فعلية لبعض الرجال الذين تزوجوا من زوجات الآباء، لا داعى لذكر أسمائهم هنا و كان فى العرب من تزوج ابنته، و هو حاجب بن زرارة تمجس «١» و فعل هذه الفعلة، فهى الله المؤمنين عمّا كان عليه آباؤهم من هذه السير و المثالب المستنكرة.

قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلّا امرأة الأب و الجمع بين الأختين، فنزلت هاتان الآيتان:

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ

أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٣) «٢».

هذه الآيات الكريمة السالفة قدّم لها المؤلف بمقدمة مناسبة لموضوعها مما جعلنا متفهمين لمضمون الآيات قبل تلاوتها و فى هذا ما لا يخفى من التسهيل على الفهم.

اللغة فى التفسير الوسيط:

الحق أن اللغة كانت سلسة سهلة، معظم الناس قادرين على فهمها، وإدراك المراد منها، ولأخذ هذا المثال الذى يتحدث عن «أهمية اللباس». و المؤلف كعادته يقدم للآيات ذات الصلة بمقدمة مناسبة:

اللباس للإنسان مظهر تحضر و تمدن، و عنوان احترام للآخرين، أما العزى و إظهار الأعضاء فهو مظهر من مظاهر البدائية و التخلف يتفق مع حالة الإنسان البدائي و طريقه عيشه (١) تمجس: جعل نفسه مجوسيا.

(٢) سورة النساء، الآيتان: (٢٢، ٢٣). و انظر التفسير الوسيط، (٢ / ٣٠١، ٣٠٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٠٨

فى الصحارى و الوديان، لذا امتن الله تعالى بإنعامه على البشرية إذ أوجد لهم أنواع الألبسة لستر العورات و العيوب ... «١». قال تعالى: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا «٢» عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُؤَارَى «٣» سَوَاتِكُمْ وَ رِيشاً «٤» وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ «٥» الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا «٦» لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ «٧» مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ «٨».

التفسير الوسيط و التوسل:

كان موقف صاحب التفسير الوسيط متمسكاً بالاعتدال و الأناة ... فهو لم ينكر التوسل بكل أنواعه، و لم يجزه بكل أنواعه، ... و الحق أن المسلمين كلهم على ذلك غير أنهم يختلفون بالتفصيل.

منهم من أجاز التوسل بالصالحين و الأولياء مطلقاً ...

و منهم من أنكر التوسل بالرسول و الصالحين ... و لم يجزه إلا بالله أو بإحدى صفاته و أسمائه، و أجاز هؤلاء التوسل بصالح أعمال المؤمنين ...

أما الزحيلي فى الوسيط فقد فصل تفصيلاً ليس واسعاً، عند ما فسّر قوله تعالى من سورة المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) «٩».

شرح صاحب التفسير الوسيط الآية شرحاً مستوفياً للمعاني العامة ثم قال: «...»

نعود إلى قوله تعالى: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ... لنحقق معنى التوسل فقد استدلل بعض الناس بهذه الآية على مشروعيتها الاستغاثية و التوسل بالصالحين، و جعلهم وسطاء و وسائل بينهم و بين الله تعالى. و لكن الله لا يحتاج إلى هذه الوسائل و الوسائط لقوله سبحانه: (١) وَ هَبْهُ

الزحيلي، التفسير الوسيط، (١ / ٦٤٥).

(٢) أعطيناكم.

(٣) يستر عوراتكم.

(٤) الريش: كل ما ستر من اللباس أو المعيشة.

(٥) لا يخدعكنكم. و الفتنة: الابتلاء و الاختبار.

(٦) يزيل لباسهما [و ثيابهما].

(٧) جماعته و جنوده.

(٨) سورة الأعراف، الآيات: (٢٦، ٢٧).

(٩) سورة المائدة، الآية: (٣٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٠٩

وَ قَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ «١». و قوله عزّ و جلّ: وَ اِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَاِنِّي قَرِيبٌ اُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ اِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) «٢» ... و قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْاِنْسَانَ وَ نَعَلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ اَقْرَبُ اِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) «٣».

و تحقيق القول فى التوسل ما ذكره الألوسى فى تفسيره حيث قال: جاء لفظ التوسل بثلاثة معان:

أولاً: التوسل بمعنى التقرب إلى الله بطاعته و فعل ما يرضيه و هو المراد بالآية وَ اَبْتَغُوا اِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ. و قد توسل أهل الصخرة إلى الله عزّ و جلّ بصالح الأعمال، أى طلبوا الفرج بصالح أعمالهم، لا بالولى الفلانى أو الشيخ الفلانى.

ثانياً: التوسل بالمخلوق و الاستغاثة بمعنى طلب الدعاء منه، لا شك فى جوازه إن كان المطلوب منه حيا، كالتوسل بالنبي صلى الله عليه و سلم حال حياته، أو بعمه العباس فى صلاة الاستسقاء، أما إذا كان المطلوب منه الدعاء ميتا فغير جائز.

ثالثاً: القسم على الله تعالى بأحد من خلقه، مثل أن يقال: اللهم إنى أقسم عليك، أو أسألك بفلان إلا ما قضيت لى حاجتى. أجازة العز بن عبد السلام فى النبي صلى الله عليه و سلم لأنه سيد ولد آدم دون غيره من الأنبياء و الملائكة و الأولياء، و منع أبو حنيفة و أبو يوسف و ابن تيمية التوسل بالذات و القسم على الله تعالى بأحد من خلقه «٤».

التفسير الوسيط و الحديث الشريف:

لقد أجمع المسلمون أنه لا يمكن فهم القرآن فهما سديدا بمعزل عن السنة النبوية الشريفة ... لذا فإن التفاسير القرآنية قديمها و حديثها اهتمت بالحديث لتوجيه الفهم البشرى للقرآن ... و هذا دأبها ... إلّا ما ندر من الدارسين التائهين الذين بعدوا عن هدى الرسول صلى الله عليه و سلم و لم يعتبروا السنة الشريفة بشىء - فقادهم ضياعهم إلى مهامه التيه و الخسران ... و الزحيلي من الذين اهتموا بسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم اهتماما يتينا إن فى الإتيان على أسباب النزول، أو بذكر الأحاديث الشريفة ذات الصلة ... و تجلّى ذلك و اضحى فى كل «الوسيط». غير أن دراستنا المختصرة لا تساعدنا على تقصى ذلك فى كل صفحات الكتاب الواقعة فى مجلدات ثلاث ... إنما حسبنا ذكر الأمثلة فى مثل هذه الدراسة العاجلة نوعا ما. (١) سورة غافر، الآية: (٦٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨٦).

(٣) سورة ق، الآية: (١٦).

(٤) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (١/٤٥٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٠

تحت عنوان: السؤال فيما لم ينزل به وحى. قال الزحيلي فى تفسير قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَ إِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) «١».

«تعددت أسباب نزول هذه الآية حول المنع من الأسئلة منها سؤال اختبار و تعجيز أو تعنت و استهزاء، و منها سؤال استفهام و استرشاد عن أحوال الفرائض، فمن أمثلة النوع الأول و هو سؤال الاختبار: سؤال بعض الناس رسول الله صلى الله عليه و سلم عن اسم أبيه، أو

عن مكان ناقته الضالة أى الضائعة، و عن مصيره فى الآخرة، فتتزل الآية بالنهى عن تلك الأسئلة السخيفة.

و من أمثلة النوع الثانى، و هو سؤال الاسترشاد: ما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: «يا أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لو قلت: نعم لوجبت و لو وجبت لما استطعتم، فأنزل الله هذه الآية» (٢): «يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم و إن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها و الله غفورٌ حلِيمٌ» (١٠١) (٣).

و واضح أن الآية الكريمة تندد بالأسئلة الغبية التى لا نفع فيها، أو فيها تفصيلات فى الدين دقيقة فى التضييق و فيها العنت و المشقة المادية و النفسية. لو كان فيها خير لشرعها الله تعالى و لكن «إن تسألوا عن جنس تلك الأشياء المسكوت عنها أو المعقدة ... حين ينزل القرآن يظهرها لكم على لسان رسوله ...» (٤). و يوضح هذا المعنى ما رواه مسلم عن عامر ابن سعد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» (٥).

أما السؤال إذا كان لحاجة كتوجيه الفهم، أو الاستزادة من العلم فلا بأس به، بل قد يكون مطلوبا. و أما السؤال الناجم عن تكلف، أو جلب المشقة فهو المحرم. من هذا يظهر حرص صاحب الوسيط على الاستعانة بالسنة النبوية الشريفة فى توجيه الفهم و الاستعانة بأسباب النزول لفهم المناخ الذى تنزل عليه النص. (١) سورة المائدة، الآيتان: (١٠١، ١٠٢).

(٢) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (١/٥٠٥، ٥٠٦).

(٣) سورة المائدة، الآية: (١٠١).

(٤) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (٢/٥٠٦).

(٥) أخرجه مسلم فى (الحديث: ٦٠٦٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١١

من مسائل العقيدة فى تفسير الوسيط:

«حق التشريع لله لا للناس»:

«ليس لأحد من البشر فى شريعة القرآن حق فى التحليل و التحريم أو الإباحة أو المنع، و إنما الحق التشريعى فى ذلك لله سبحانه منزل الشرائع، و مبين الحلال و الحرام و الأنظمة و الأحكام لأن التشريع الإلهى القرآنى دائم خالد، لا يتأثر بمصالح شخصية أو زمنية أو مكانية، و إنما هو دستور الحياة الدائمة، و المنهج الأمثل ..» (١).

لذا أنكر القرآن على عرب الجاهلية إقدامهم على سنّ الشرائع و تقرير عبادة الأصنام و تحليل أو تحريم بعض الأنعام (المواشى) فقال سبحانه:

«مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ» (٢) «وَلَا سَائِيَةٍ» (٣) «وَلَا وَصِيَلَةٍ» (٤) «وَلَا حَامٍ» (٥) «وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (١٠٣) «وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ لَا يَهْتَدُونَ» (٧).

فى هذه الآيات الكريمة تبيان لسؤال قوم «عن أحكام الجاهلية أ هى باقية، و هل تلحق بحكم الله فى تعظيم الكعبة و الحرم؟ فأخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه لم يجعل شيئا منها و لا سنه أو شرعه لعباده. و لكن الكفار فعلوا ذلك إذ أكابروهم و رؤسأؤهم كعمرو بن لحي و غيره يفترون على الله الكذب فيشرعون للناس عبادة الأصنام و يحرمون بعض المواشى و يقولون: هذه قربه إلى الله، و أمر يرضيه و أكثر الأتباع لا يعقلون شيئا بل يتبعون هذه الأمور تقليدا و ضلالا بغير حجة ..» (٨).

معجزة القرآن الكريم كما فى الوسيط:

- (١) الإيمان بالإعجاز القرآنى مسألة من المسائل الأساسية التى يركز عليها الإيمان بالإسلام و نبي الإسلام صلى الله عليه و سلم ... (١) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (١/٥٠٧، ٥٠٨).
- (٢) الناقة تشق أذنها إذا ولدت خمسة أبطن آخرها أنثى، و تخلى للأصنام.
- (٣) الناقة تترك للأصنام لنحو براء من مرض أو نجاه من جرب.
- (٤) الناقة التى بكرت بأنثى ثم ثنت بأنثى.
- (٥) الفحل إذا لقح ولد ولده فلا يركب، و لا يحمل.
- (٦) كافينا.
- (٧) سورة المائدة، الآية: (١٠٣، ١٠٤).
- (٨) وهبة الزحيلي، تفسير الوسيط، (١/٥٠٨).
- التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٢
- صحيح أن مسألة الإعجاز فى القرآن مبحث لغوى بلاغى، صرفى نحوى علمى ... الخ.

و لكن بحوث الإعجاز كان الغاية منها الإثبات أن القرآن كتاب الله الخاتم الذى أنزل على محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم خاتم النبيين، و كانت اللغة بعلمها وسيلة لإثبات صحة هذه المعجزة.

«ما من نبي و لا رسول إلا و هو بحاجة لإثبات صدق نبوته، و طريق التصديق إظهار المعجزة (و هى الأمر الخارق للعادة) على يده لأن الإنسان العادى لا يستطيع الإتيان بالمعجزات، فتكون المعجزة طريقا للتحقق من صدق النبي صلى الله عليه و سلم أو الرسول صلى الله عليه و سلم ...

و معجزات الأنبياء كثيرة متنوعة بحسب كل زمان مثل العصا التى تنقلب حية و اليد البيضاء لموسى عليه السلام فى وقت ساد فيه السحر و إحياء الموتى، و إبراء الأكمه (المولود الأعمى) و الأبرص بإذن الله لعيسى عليه السلام، فى وقت تقدم فيه الطب، و معجزة النبي صلى الله عليه و سلم الخالدة هى القرآن الكريم أفصح الكلام و أبلغ البيان، و أروع الأساليب، فى وقت كان فيه العرب يتفاخرون بالبلاغة و الفصاحة و روعه الأساليب و هذه المعجزة تحدثت عنها الآيات التالية «١»:

وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) «٢».

«و العجز عن معارضة القرآن: إنما وقع فى النظم و رصف المعانى، و عله ذلك:

الإحاطة التى لا يتصف بها إلا الله تعالى، و البشر عاجزون بسبب الجهل و النسيان، و الغفلة و أنواع النقص» «٣».

و تحدى القرآن العرب على أن يأتوا بمثله فعجزوا ... ثم نزل بهم إلى عشر سور من مثله ثم تحدهم بالسورة الواحدة.

مع كل ذلك استمرت المكابرات، و المعاندات فطلب المشركون طلبات تعجيزية. (١) وهبة الزحيلي، تفسير الوسيط، (٢/١٣٨٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (٨٦، ٨٩).

(٣) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (٢/١٣٨٣، ١٣٨٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٣

طلب المشركين آيات تعجيزية:

ما من طلب يعجز الله عن إتيانه، حاشاه و هو على كل شىء قدير. و إذا أراد شيئاً «قال له كن فيكون» ... و هذه الطلبات التعجيزية الخارقة تكشف عن طبيعته العقلية الشركية المكابرة غير الخاضعة للمعجزة العقلية القرآنية، تلك المعجزة التي يمتلكون أدواتها المتجسدة فى اللغة ... فلجئوا إلى مطالبة الرسول صلى الله عليه و سلم بست آيات تعجيزية «كلها غير مقدورة للبشر، حدث هذا فى مكة حينما اجتمع عتبة و شيبه ابنا ربيعة و عبد الله بن أمية و النضر بن الحارث و غيرهم من مشيخة قريش و ساداتها، و عرضوا على النبي صلى الله عليه و سلم أن يملكوه إن أراد الملك و يجمعوا له الكثير من المال إن أراد الغنى أو يطبوه إن كان به داء» (١).

عندئذ دعاهم الرسول صلى الله عليه و سلم بدعوة الإصلاح، و قال: «إنما جئتمكم من عند الله بأمر فيه صلاح دينكم و دنياكم، فإن سمعتم و أطعتم فحسن، و إلما صبرت لأمر الله، حتى يحكم الله بينى و بينكم بما شاء» فقالوا له حينئذ: فإن كان ما ترعمه حقا، ففجر ينبوعا و تؤمن لك و لتكن لك جنه (بستان) ... إلى غير ذلك مما كلفوه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم: هذا كله إلى الله، و لا يلزمنى اقتراح هذا و لا غيره، و إنما أنا مستسلم لأمر الله تعالى. هذا هو معنى الحديث فى سبب نزول الآيات (٢):

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٣﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴿٤﴾ أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ﴿٥﴾ (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ﴿٦﴾ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٧﴾.

هذه الآيات تكشف عن عدم اكتفاء المشركين بالمعجزة العقلية القرآنية إنما راحوا يتطلبون خوارق أخرى بعد أن أفحمتهم الأدلة القرآنية على صدق دعوة محمد بالنبوة و الرسالة ... فقال أساطينهم عتبة و شيبه ابنا ربيعة و أبو جهل و أبو سفیان و الوليد بن المغيرة، و النضر بن الحارث و أمية بن خلف و أبى البخترى: لن نصدق برسالتك حتى تفجر (١) وهبه الزحيلي، التفسير الوسيط، (٢/ ١٣٨٤)، (١٣٨٥).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ١٣٨٥).

(٣) عين ماء.

(٤) قطعاً.

(٥) مقابلة و عياناً.

(٦) ذهب.

(٧) سورة الإسراء، الآيات: (٩٠-٩٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٤

لنا من الأرض ينبوعاً من الماء يتدفق، و هو العين الجارية، فإننا فى صحراء.

أو تكون لك جنه (أى بستان) من النخيل و الأعناب و بقية الثمار تتدفق فيها الأنهار و تسقى بها الزروع و الأشجار.

أو تسقط السماء علينا كسفا أى قطعاً قطعاً كما زعمت أن ربك يفعل ذلك إن شاء.

أو تأتى بالله و الملائكة معانته و مواجهة، فيحدثونا بأنك رسول الله من عند الله و معنى قوله تعالى: «و الملائكة قبيلة» أى مقابلة و عياناً أو ضامناً و زعيماً بتصديقك.

أو يكون لك بيت من زخرف (أى من ذهب) فإنك يتيم فقير، و الزخرف هو ما يتزين به من ذهب أو غيره، و المراد به هنا الذهب.

أو ترقى (أى تصعد) فى السماء على سلم تضعها ثم ترقى عليها، و نحن ننظر، و لن نصدق لارتقائك حتى تأتى لنا بكتاب نقرؤه فيه تصديقك أنك رسول من عند الله.

و قائل هذه المقالة هو عبد الله بن أمية، فإنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب، أى كتاب له، فيه من الله عزّ وجلّ إلى عبد الله بن أمية، و طلبت جماعتهم مثل هذا الطلب «١».

فجاء الأمر الإلهى لرسوله أن قل: سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا أَى:

«تزيها لله من الإتيان إليكم من الملائكة قبلا، و من أن يخاطبكم بكتاب كما أردتم و من أن أقترح على الله هذه الأشياء، و هل أنا إلّا بشر منكم أرسلت إليكم بالشرعة وإنما علىّ التبليغ فقط» «٢».

و هذا ينبى عن بشرية الرسل عليهم السّلام، و أن ما أتوا به من خوارق جار وفق الحكمة الإلهية لا وفق إمكانات الرسل الذاتية، و لا يجرى وفق أهواء البشر الآخرين و مطالبيهم النابعة من كبرهم و عنادهم و هو جلّى واضح فى قوله تعالى: سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا.

تفسير الوسيط و آيات الصفات:

كما درسنا التفاسير السابقة من جهة موقفها من آيات الصفات، فكذا الوسيط كان يقف موقف السلف من هذه الآيات ... قال تعالى:

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) «٣». (١) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (٢/ ١٣٨٥، ١٣٨٦).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة طه، الآية: (٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٥

قال صاحب التفسير الوسيط: «و هو الذى استوى على العرش، و هو استواء تؤمن به من غير تشبيه و لا تمثيل و لا تعطيل، و لا تحريف و لا تأويل، و بلا كيف، و لا انحصار» «١».

تفسير الوسيط و الموقف من صفة الكلام:

علمنا فيمن سبق البحوث الكلامية المتعلقة بكلام الله هل هو مخلوق أو لا ... و قد امتلأت التفاسير القديمة بسجلات حول الصفات ... غير أن صاحب الوسيط نهج السلف فى هذا الموضوع فقد رأينا قبل قليل موقف المؤلف المفسر من آية الاستواء ... و كذا موقفه من قوله تعالى: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا «٢».

«و من هؤلاء الرسل المكرمين عند الله تعالى موسى الذى خصّه بتكليمه و شرفه بكلامه مباشرة من غير واسطة، و ذلك بكيفية و خواص الله أعلم بها فهو كلام دون تكييف و لا تحديد، و لا تجويز حدوث و لا حروف و لا أصوات و كلام الله هو المعنى القائم بالنفس» و يخلق الله لموسى أو جبريل إدراكا من جهة السمع يتحصّل به الكلام و كما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات فكذلك كلامه لا كالكلام المعهود المألوف بين البشر» «٣».

ما أدرى ما ذا أوّل المؤلف حديث البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك و سعديك، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار» «٤». و عندئذ يقال بموجب نهج المؤلف: و صوته لا كالأصوات.

التفسير الوسيط و المسألة الفقهية:

إن ميزة هامة امتاز بها الوسيط عن غيره من التفاسير: هو تقسيمه السور القرآنية إلى موضوعات بموجب الآيات مما يسهل على الباحث

رصد الموضوعات المتنوعة بسهولة دون عناء و جهد.

و المسألة الفقهية نالت من العناية تبسيطا و تسهيلا فكانت الفائدة حاصله على نحو (١) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (٢/ ١٥١٠).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٦٤).

(٣) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (٢/ ٤١٤).

(٤) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٦٥٣٠) و أخرجه مسلم (الحديث: ٥٢٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٦

ميسور ... و الموضوع الفقهى الذى أريد الحديث عنه مثلا على الموضوعات الفقهية المطروحة فى تفسير الوسيط هو:

واجب الشهود فى شهادتهم:

«لم نجد كالإسلام دينا يركز على مبدأ الحق و العدل فى كل شىء، فى المعاملة و التعاقد، و القضاء و الشهادة، و الحكم بين الناس؛ لأن قوام المجتمع لا يكون إلا بالعدل، و سعادة الأفراد و الجماعات لا تتوفر إلا بالعدل، و لن يحفظ النظام و تنضبط شئون الملك و الدنيا و أحوال أهلها إلا بالعدل، فالعدل أساس الملك الدائم، و قاعدة الاطمئنان و الاستقرار. و العدل فى القرآن الكريم قائم على قاعدة الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر، إذ لا ثواب عند الله تعالى و لا احترام لمبدأ الحق و العدل إلا إذا كان العمل كله مبنيًا على أصول الإيمان التى ذكرناها.

قال الله تعالى آمرا القضاء و الشهود بالعدل، و مذكرا بالإيمان و قواعده: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ «١» بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا «٢» وَ إِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا «٣» فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا «٤».

قال السدى: لما نزلت آية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ فى النبى صلى الله عليه و سلم اختصم إليه رجلان غنى و فقير، و كان صلى الله عليه و سلم مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغنى، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى و الفقير» «٥».

و يبرز الزحيلي فى تفسيره الآيات ذات الصلة بالشهادة أهمية قول الحق و الشهادة الحق المسهمة فى إقامة العدل، و هنا يبرز نداء الإسلام الداعى إلى إعلاء شأن العدل، و رفع صوت الحق و إحقاقه و لو كان الخصم الوالدين أو الأقربين.

و الشهادة بالحق على النفس و الوالدين و الأقارب أمر واجب، و لو عاد ضررها على هؤلاء لأن الإحسان إلى النفس و القرابة و بر الوالدين، لا يكون بالظلم و الانحراف عن الحق بل الإحسان و الخير و البر و صلة القرابة فى الحق و المعروف.

و ليس للشاهد أن يراعى غنيا لغناه أو يرحم فقيرا لفقره، بل يترك الأمر كله لله، فالله (١) مبالغين فى القيام بالشىء على أتم وجه.

(٢) كراهه أن تعدلوا عن الحق.

(٣) تتركوا إقامتها.

(٥) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (١/ ٣٩٣، ٣٩٤)، و الآية من سورة النساء، الآية: (١٣٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٧

يتولى أمر الغنى و الفقير. و ليس للشهود أتباع الهوى و المحاببات، لئلا يعدلوا عن الحق إلى الباطل، إذ فى الهوى و المحاباة الزلل و الضرر، فلا يجوز أن تودى العصبية و هوى النفس و بغض الناس إلى الظلم و ترك العدل فى الأمور و الشئون كلها، و إنما الواجب التزام العدل على أى حال، كما قال تعالى مبينا وجوب العدل حتى من الأعداء: وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ «١» عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ «٢».

و إن تلوا ألسنتكم بالشهادة و تحرفوها أو تعرضوا عن إقامة الشهادة و تكتموها فاعلموا أن الله خير بأعمالكم و مجازيكم عليها» «٣».

التفسير الوسيط و الإسرائيليات و الأحاديث الواهية:

يمكن القول إن تفسير الوسيط خلا إلى درجة كبيرة جدا من الأخبار الواهية فيما نعلم و كان متحررا من الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب.

فعد ما تحدت صاحب التفسير الوسيط عن محنة «أيوب» عليه الصلاة و السلام و ابتلائه و مرضه الشديد قال:

«و لم يكن ابتلاؤه بمرض معد أو منفر طبعاً خلافا لما زعم بعضهم، و إنما كان مرضه جلديا مضعفا غير منفر، و بعد أن طال صبره دعا ربه، فأوحى إليه بالاعتسال و الشرب من ماء نابع، حفره بقدمه، فشفى و عوفى، و ردّ الله عليه أهله و زاده مثلهم فى الذرية، و افتدى الله يمينه بضرب زوجته بعود فيه مائة قضيب من الشجر الرطيب فيضرب به ضربة واحدة يبر بها يمينه» (٤) ... قال الله تعالى: وَ أَذْكَرَ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ «٥» وَ عَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ (٤٢) وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرَى لِيُؤْلى الألباب (٤٣) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا «٦» فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ «٧».

و لا أرى بأسا من التنويه إلى مسألة فقهية مأخوذة من حادثة إغصاب زوج أيوب له عند ما عرضت عليه بعض الآراء المستوحاة من وساوس إبليس: «فحلف لئن برأ من (١) أى لا يحملنكم كراهية قوم على ترك العدل معهم.

(٢) سورة المائدة، الآية: (٨).

(٣) وهبة الزحيلي، التفسير البسيط (١/ ٣٩٥).

(٤) المصدر نفسه، (١/ ٢٢٠٧).

(٥) مشقة و تعب.

(٦) حزمة صغيرة من حشيش أو شجر رطب.

(٧) سورة ص، الآيات: (٤١-٤٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٨

مرضه ليضربنّها مائة سوط، فلما برأ أمره الله تعالى أن يأخذ بيده قبضة أو حزمة كبيرة من القصبان و نحوها من الشجر الرطب فيضربها به ضربة واحدة فتبر يمينه و هذا حكم ورد فى شرعنا حيث أخرج أبو داود عن النبي صلى الله عليه و سلمّ مثله فى حد رجل زمن (مريض مرضا مزمن) بالزنى، فأمر رسول الله صلى الله عليه و سلمّ بعذق (عدد من النخيل) فيه مائة شمراخ أو نحوها فضرب بها ضربة» [رواه أبو داود].

و قال به بعض الفقهاء و هو الإمام الشافعى «١».

كما أن صاحب الوسيط أبعث الإسرائيليات المروية فى قصة سليمان عليه السلام فى سورة (ص) تلك القصص التى ذكرت أن سليمان عليه السلام قطع أرجل الخيل لأنها ألتهته عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فتلك روايات إسرائيلية باطلة أو ما هنا لك من هذه الروايات الواهية «٢».

و المهم أن سليمان عليه السلام: «كان نبيا و رسولا من الصالحين كأبيه لم يصدر عنه إلا كل ما هو خير متفق مع مقتضى الرسالة، و دعوة الناس إلى عبادة الله و شكره و ليس بدعائه بطلب ملك يتفرد به مرادا به: أنه لا يعطى الله تعالى نحو ذلك الملك لأحد، و إنما المبالغة فى هبة الملك و طلبه» «٣».

الخاتمة:

التفسير الوسيط، تفسير واضح سهل نقى من الإسرائيليات والواهات، والاستفادة منه ميسرة. مقدماته تساعد على فهم السور والآيات المقسمة حسب الموضوعات ذات الصلة.

خلا إلى حد كبير جدا من النواحي الإعرابية والصرفية والبلاغية ... إنما جعل اللغة طائعه سهلة عبّر بها عن مقاصده على نحو حسن، فى جميع مسائل القصص والعقيدة والفقہ والوعظ ... و زاد وضوحا وبساطة شرح المؤلف للكلمات الصعبة فى الحاشية التى التزمناها شارحين لبعض الكلمات مثبتين إياها فى الحاشية على ما وردت فى التفسير الوسيط، والحمد لله رب العالمين. (١) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط، (٣/ ٢٢٠٨، ٢٢٠٩).

(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٢٢٠٦) بتصرف.

(٣) المصدر نفسه، (٣/ ٢٢٠٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢١٩

ثالثا: تفسير الشعراوى الشيخ محمد متولى الشعراوى

جهد الشعراوى فى تفسيره:

استغرق تفسير الشعراوى جلّ عمر المؤلف رحمه الله و قد أعطى عمله من الوقت و الجهد الكثير، و حسب المؤلف أن الجهد و الوقت العظيمين لم يذهبا سدى، إنما بذلا فى أكرم موضوع ألا و هو فهم الكتاب الكريم (القرآن): «فهذا حصاد عمرى العلمى و حصيلة جهادى الاجتهادى، شرفى فيه أنى عشت كتاب الله، و تطامنت لاستقبال فيض الله» (١). لقد سمي الكتاب من التجوّز «تفسير الشعراوى» غير أن الشعراوى نفسه يرى أن مؤلفه هذا لا يعد تفسيرا بالمعنى الدقيق للكلمة إنما ما كتبه تجليات و خواطر «خواطرى حول القرآن الكريم لا تعنى تفسيرا للقرآن، و إنما هبات صفائية ... تخطر على قلب مؤمن فى آية أو بضع آيات» (٢).

القرآن لا يمكن تفسيره:

و يرى الشعراوى أن القرآن الكريم ليس للبشر أن يقدروا على تفسيره و لا أن يحيطوا به علما، يقول: «و لو أن القرآن من الممكن أن يفسّر ... لكان رسول الله صلى الله عليه و سلّم أولى الناس بتفسيره لأنه عليه نزل، و به انفعّل» (٣). (١) كلمة للشعراوى قبل مقدمة تفسيره بخط يده فى ج (١)، ط (١٩٩١). ط دار أخبار اليوم/ القاهرة.

(٢) الشعراوى، تفسير الشعراوى (١/ ٩).

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٠

و بالتأكيد فإن الشعراوى يفرّق بين التفسير و بين الأحكام التكليفية، إذ رأى الشعراوى أن الرسول صلى الله عليه و سلّم اكتفى بتبليغ الأحكام التكليفية العبادية «على قدر حاجتهم من العبادة التى يثاب عليها الإنسان إن فعلها و يعاقب إن تركها ... هذه هى أسس العبادة لله سبحانه و تعالى ... التى أنزلها فى القرآن الكريم منهجا لحياء البشرية على الأرض» (١).

هنا لا بد من طرح السؤال التالى حول رأى الشعراوى أن القرآن لا يفسّر و لو كان القرآن قابلا للتفسير لفسره الرسول صلى الله عليه و سلّم:

هل الرسول لم يفسر القرآن لأن القرآن لا يفسّر أم لأن الناس كان يفهمون مقاصد القرآن العامة، و قد تغيب دقائقه أو مفرداته، أو

بعض مسائله ..

ظنى أن كلام الشعراوى أن القرآن لا يفسر كلمة غير صحيحة تماما ... لكن بالإمكان القول: إن تفسير القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه و سلم -لا- يعنى خاتمة التفاسير إنما علمه ربه تفسير الكتاب تعليما شاملا، إنما الذى أمر الرسول بتبليغه هو ما يناسب العقل فى تلك الفترة من الزمن. و هذا ما أشار إليه الشعراوى بقوله: «أما الأسرار المكتترة فى القرآن حول الوجود، فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه و سلم بما علم منها لأن بمقياس العقل فى هذا الوقت لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها، و كان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلا يفسد قضية الدين، و يجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله فى العبادة إلى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها إلى شىء» (٢) ... و لعل تعليل الشعراوى يستند إلى عدم توفر المعطيات العلمية لدى العقل البشرى فى تلك الفترة السابقة من الزمن.

أما و قد تغير الزمن، و تزود العقل البشرى من العلوم المادية و الكونية الكثير، فقد أصبحت العقول جاهزة للخوض فى نقاش عميق حول إعجاز القرآن العلمى، يقول الشعراوى عن الرسول صلى الله عليه و سلم: «و هو الذى عليه القرآن نزل -فسر و بين كل ما يتعلق بالتكليف الإيمانى، و ترك ما يتعلق بالتكليف للأجيال القادمة، و يمر الزمن و يتيح الله لعباده من أسرار آياته فى الأرض ما يشاء، فيكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول ... لما ذاك؟ لأن الرسائل التى سبقت الإسلام كانت محدودة بالزمان و المكان، أما القرآن الكريم فزمنه حتى يوم القيامة ... و لذلك فلا بد أن يقدم إعجازا لكل جيل ليظل القرآن معجزة فى كل عصر» (٣). (١) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (٩ / ١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه. (١٢ / ١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢١

و يرى الشعراوى أن القرآن نزل متحديا العرب فى إعجازه البلاغى لأن العرب كانوا يملكون ناصية البيان و يبرون الأقوام الأخرى فى الفصاحة و فنّ القول، غير أن الشعراوى يؤكد أن القرآن تحدى غير العرب فيما يملكون لأن الإسلام دين الناس جميعا، «و القرآن نزل يتحدى العرب فى اللغة و البلاغة ... و لكن لأنه دين للناس جميعا ... فلا بد أن يتحدى غير العرب فيما نبغوا فيه ... و لذلك نزل متحديا لغير العرب وقت نزوله ... فقد حدثت حرب بين الروم و الفرس وقت نزول القرآن، و كانت الروم و الفرس -تمثلان فى عصره الولايات المتحدة الأمريكية و الاتحاد السوفيتى- «١». أعظم دولتين فى ذلك العصر، و حدثت الحرب بينهما و انهزم الروم» (٢) و إذ بالقرآن ينزل.

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدِ وَ يَوْمَئِذٍ يُفْرِخُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) (٣).

ثم يشير الشعراوى إلى مسألة هامة مؤكدة للباحث المنصف صدق دعوى محمد بنبوته و اتصاله بالوحى و الإله الواحد: «لو أن هذا القرآن من عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فما الذى يجعله يدخل فى قضية كهذه؟ ... و كيف يغامر الرسول صلى الله عليه و سلم فى كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير و لا يتبدل بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين!» (٤).

ثم يجزم الشعراوى أن القرآن كتاب الله تعالى، و لا يمكن أن يكون من نتاجات محمد صلى الله عليه و سلم كما ادعى بعضهم، لأن محمدا بلغ النص القرآنى الموحى إليه بلفظه و معناه (القرآن)، و بلغ الحديث النبوى، و بلغ الحديث القدسى، و النصوص الثلاثة مختلفة أسلوبا، و لا يعقل أن يكون للمرء ثلاثة أساليب فى آن معا: «رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يقرأ و لم يكتب ...

هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة تختلف بعضها عن بعض تماما ... و هى أسلوب القرآن الكريم، و أسلوب الأحاديث القدسية، و أسلوب الأحاديث النبوية، لا توجد عبقرية فى الدنيا من يوم أن خلقت إلى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر ... كيف يمكن أن يفرق رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يتكلم بين القرآن و الحديث القدسى و الحديث

النبوى بحيث يعطى كلا منها طابعا و أسلوبا مختلفا عن الآخر...» (٥). (١) كان هذا قبل سقوطه.

(٢) الشعراوى، تفسير الشعراوى (١/ ١٢).

(٣) سورة الروم، الآيات: (١-٤).

(٤) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ١٣).

(٥) المصدر نفسه، (١/ ٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٢

منطقية الرسول صلى الله عليه و سلم مع قدراته:

لما ذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لجبريل عند ما طلب منه أن يقرأ: ما أنا بقارئ؟ الجواب:

«لأن الرسول صلى الله عليه و سلم منطقي مع قدراته، و تردد القول ثلاث مرات ... جبريل عليه السلام بوحي من الله سبحانه و تعالى يقول للرسول: «اقرأ». و رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ما أنا بقارئ. و لقد أخذ خصوم الإسلام هذه النقطة ... و قالوا: كيف يقول الله لرسوله اقرأ و يرد الرسول: ما أنا بقارئ «١».

نقول: إن الله تبارك و تعالى كان يتحدث بقدراته التى تقول للشىء كن فيكون، بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يتحدث ببشريته التى تقول إنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، و لكن قدرة الله هى التى ستأخذ هذا النبى الذى لا يقرأ و لا يكتب لتجعله معلما للبشرية كلها إلى يوم القيامة. لأن كل البشر يعلمهم بشر، و لكن محمدا صلى الله عليه و سلم سيعلمه الله سبحانه و تعالى. ليكون معلما لأكبر علماء البشر. يأخذون عنه العلم و المعرفة. لذلك جاء الجواب من الله سبحانه و تعالى:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) «٢».

القرآن معجزة مستمرة لكل الأجيال فى كل العصور:

محمد صلى الله عليه و سلم أمي، لا يقرأ و لا يكتب «لكن الله تعالى سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا و حضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله. و سيكون ما تقرؤه و أنت النبى الأمي إعجازا، ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله، و لكن للدنيا كلها، و ليس فى الوقت الذى ينزل فيه فقط، و لكن حتى قيام الساعة، و لذلك قال جلّ جلاله «٣»:

اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) «٤».

يقول الشعراوى فى خواطره على هذه الآية «أى أن الذى ستقرؤه يا محمد ... سيظل معلما للإنسانية كلها إلى نهاية الدنيا على الأرض، و لأن المعلم هو الله سبحانه و تعالى، قال: اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ مستخدما صيغة المبالغة، فهناك كريم و أكرم، فأنت حين تتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله جلّ جلاله، لأنه يسيّر لك العلم على يد بشر مثلك، أما إذا كان الله هو الذى سيعلمك ... يكون أكرم ... لأن ربك قد رفعك درجة عالية ليعلّمك سبحانه و تعالى» (٥). (١) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ٤١، ٤٢).

(٢) سورة العلق، الآيتان: (١، ٢).

(٣) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ٤٢).

(٤) سورة العلق، الآيتان: (٣، ٤).

(٥) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ٤٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٣

الجانب البلاغى فى تفسير الشعراوى:

قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ «١». يقول الشعراوى: «يقول الحق سبحانه و تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا «٢» ... و ما دام الله قد جعله آمنا فما جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا» «٣» هنا يلفت الشعراوى إلى مسألة بلاغية هامة على صعيد القصد و الدلالة مفادها: إذا كان شىء موجودا، ثم يأتى كائن ليطلبه فهذا يعنى أن الطالب يدعو بدوامه و استمراره لذا كانت جدوى دعوة إبراهيم «إذا رأيت طلبا لموجودنا علم أن القصد هو دوام بقاء ذلك الموجود، فكان إبراهيم عليه السّلام يطلب من الله سبحانه و تعالى أن يديم نعمه الأمن فى البيت ذلك لأنك عند ما تقرأ قوله تبارك و تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) «٤».

«هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا ... كيف؟ نقول: إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا و يداوموا على الإيمان ... و لذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلب لاستمرار هذا الموجود «٥». و قول إبراهيم: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا أى يا رب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة ... ليكون من يدخله إليه آمنا لأنه موجود فى واد غير ذى زرع ...» «٦».

دلالة النكرة و المعرفة فى سياق الآية:

«اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا».

لقد تكررت فى آية أخرى تقول: اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا «٧» فمرة جاء بها نكرة، و مرة جاء بها معرفة. (١) سورة البقرة، الآية: (١٢٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٢٥).

(٣) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١ / ٥٨١).

(٤) سورة النساء، الآية: (١٣٦).

(٥) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١ / ٥٨١).

(٦) المصدر نفسه، (١ / ٥٨١، ٥٨٢).

(٧) سورة إبراهيم، الآية: (٣٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٤

يوضح الشعراوى ذلك معللا: «إن إبراهيم حين قال: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا طلب من الله شيئين: أن يجعل هذا المكان بلدا، و أن يجعله آمنا» «١».

ثم يتساءل الشعراوى: «ما معنى أن يجعله بلدا؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسّات فكلمة غضب تعنى سلخ الجلد عن الشاة، و كأن من يأخذ شيئا من إنسان غضبا كأنه يسلخه منه بينما هو متمسك به. كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة .. و البلد هو البقعة تنشأ فى الجلد فتميزه عن باقى الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء فى الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التى ظهرت مميّزة بياض اللون و المكان إذا لم يكن فيه مباني جعلت فيه علامة تميزه عن باقى الأرض المحيطة به» «٢».

دلالة مفهوم الأمة فى القرآن وفق فهم الشعراوى:

قال تعالى: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) «٣» «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ» أى

انفردت، و خلا- فلان بفلان أى انفرد به ... و خلا المكان من نزيله أى أصبح المكان منفردا .. و المقصود بقوله تعالى: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ» أى: انتهى زمانها ... و تلك اسم إشارة لمؤنث مخاطب و أمة هى المشار إليه، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم و لعامة المسلمين، و الله سبحانه و تعالى حين يقول: «تِلْكَ أُمَّةٌ» فكأنها مميزة بوحدة عقيدتها، و وحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا و لذلك لا- بد أن يخاطبها بالوحدة ... و اقرأ قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) «٤» و قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً «٥».

و إبراهيم فرد و ليس جماعة؟ تقول: إن إبراهيم فرد و لكن اجتمعت فيه من خصال الخير و مواهب الكمال ما لا يجتمع إلا فى أمة» «٦».

جمالية التشبيه و حسن الأداء فى القرآن على سبيل المثال لا الحصر:

قال تعالى: صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ «٧». (١) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ٥٨٢).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٣٤).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: (٩٢). و انظر تفسير الشعراوى (١/ ٦٠٠).

(٥) سورة النحل، الآية: (١٢٠).

(٦) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ٦٠٠، ٦٠١).

(٧) سورة البقرة، الآية: (١٣٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٥

يطرح الشعراوى على عاداته المثيرة للقارئ أو للسامع فيقول:

«و ما الصبغة؟ الصبغة: هى إدخال لون على شىء بحيث يغيره بلون آخر.

تصبغ الشىء أحمر، أزرق أو أى لون تختاره، و الصبغ ينفذ فى المصبوغ خاصة إذا كان المصبوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف، و لذلك فإن الألياف الصناعية لا يمكن أن تصنع لما ذا؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوية فى تركيبها» «١».

و يوضح الشعراوى مسألة الصبغة أكثر فيقول:

«و إذا جئنا بقنديل من الزيت و وضعنا فيه فتيلاً- من القطن بحيث يكون رأس الفتيل فى الزيت ثم تشعله من أعلاه نجد أن الزيت يسرى فى الأنابيب و يشعل الفتيل فإذا جربنا هذه الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسرى فيه الزيت و إنما النار تأكل الألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعريه كالقطن و الصوف، و لذلك تجد الألياف الصناعية سهلة فى الغسيل لأن العرق لا يدخل فى مسامها بينما الملابس القطنية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق و التراب. إذن الصبغة لا بد أن تتدخل مادتها فى مسام القماش، أما الطلاء فهو مختلف إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيلها، و لذلك فإن الذين يفتون فى طلاء الأظافر بالنسبة للسيدات و يقولون: إنه مثل الحناء نقول لهم لا ... الحناء صبغة تتخلل المادة الحية حتى يذهب الجلد بها أى لا تستطيع أن تزيلها عند ما تريد ... و لكن الطلاء يمكن أن تزيله فى أى وقت و لو بعد إتمامه بلحظات، إذن فطلاء الأظافر ليس صبغة» «٢».

و بعد هذا الإسهاب فى توضيح الفرق بين الألياف الصناعية و الأنابيب الشعريه كالقطن و الصوف و الفرق بين الطلاء و الصبغة. يضع الشعراوى سامعه و قارئه أمام حالة أستطيع أن أسميها الاستعداد التام للتلقى، أو حالة حسن التلقى و الاستقبال فيقول عن معنى قوله تعالى: «صِبْغَةَ اللَّهِ» «فكان الإيمان بالله و مله إبراهيم و ما أنزل الله على رسله هى الصبغة الإلهية التى تتغلغل فى الجسد البشرى» و يظهر جمال التشبيه إذ يشبه الإيمان بالصبغة التى يصعب إزالتها من القلب و الجسد لأنها تخالط الخلايا جميعها، و يسלט الضوء على

استخدام النص الإلهي كلمة صبغة على نحو أكثر فيقول: «و لما ذا كلمة صبغة؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله ... إنه ليس صبغة من خارج جسمك و لكنها صبغة جعلها الله فى خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق و لذلك فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول:

«كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عن لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو (١) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ٦١٢).
(٢) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٦

بمجانته» (١) فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة ... إنها صبغة الله فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة، فإن كان أبواه من اليهود و النصارى يهودانه أو ينصرانه أى يأخذانه و يضعانه فى ماء و يقولون صبغناه بماء المعمودية ... هذا هو معنى صبغة الله ...» (٢).

خواتم الشعراوى حول «الصبغة» أو فى ظلال الصبغة:

يحاول الشعراوى بأسلوبه السهل، و عبارته اللينة أن يستجلى دلالات «الصبغة الكونية» ليصل إلى أن الإسلام هو الصبغة الإلهية المكونة لتركيب الأجسام البشرية أصلاً:

«و يريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرة الله اختلاف ألواننا هذا الاختلاف فى اللون من صبغة الله .. اختلاف ألوان البشر ليس طلاء و إنما هو فى ذات التكوين، فىكون هذا أبيض، و هذا أسمر و هذا أصفر، و هذا أحمر، هذه هى صبغة الله، و ما يفعلونه من تعمد للطفل لا يعطى صبغة، لأن الإيمان و الدين لا يأتى من خارج الإنسان، و إنما يأتى من داخله، و لذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشرى، و اقرأ قول الحق سبحانه و تعالى:

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكِ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) (٣).

هذا هو التأثير الذى يضعه الله فى القلوب أمراً داخلها و ليس خارجها ... أما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجى و ليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله، و نقول لهم: لا. هذا الطلاء من عندكم أنتم، أما ديننا: فهو صبغة الله» (٤).

الدقة البلاغية فى القرآن:

قال تعالى:

وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٥).

يستثير الشعراوى قوة الانتباه لدى قارئه أو سامعه متسائلاً: (١) أخرجه البخارى فى (الحديث: ١٣٥٩)، و الترمذى فى (الحديث: ٢١٣٨).
(٢) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (٦١٢-٦١٣).

(٣) سورة الزمر، الآية: (٢٣).

(٤) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (٦١٣/١).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (٤٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٧

«كيف يكون الحجاب مستورا؟ مع أن الحجاب هو الساتر الذى يستر شيئاً عن شىء .. و لكن الحق سبحانه يريدنا أن نفهم أنه برغم أن الحجاب يستر شيئاً عن شىء فإن الحجاب نفسه مستورا لا نراه، و بعض العلماء يقولون: إن مستورا اسم مفعول ... و هو فى معنى اسم

الفاعل سائر ... نقول لا. و اقرأ قوله تبارك و تعالى: جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) «١».

(مأتيا): اسم مفعول و اسم الفاعل: آتى، و يقول البعض: اسم المفعول مكان اسم الفاعل ... نقول: إنك لم تفهم، هل وعد الله يلح فى طلب العبد، أم أن العبد يلح فى طلبه بعمله فكأنك ذاهب إليه ... و الموعود هو المستفيد و ليس الوعد «٢».

و هنا يشير الشعراوى إلى دقة الأداء الدلالى فى القرآن، إذ القرآن يؤدّ التأكيد على «أن الموعود، هو الذى يسعى للقاء الوعد ... و ليس الوعد هو الذى يطلب لقاء الموعود، فيستخدم اسم الفاعل، فحين يقول الحق سبحانه و تعالى: وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ «٣» نفى النور عنهم .. و النور لا علاقة له بالسمع و لا بالشم و لا باللمس ... و لكنه قانون البصر ... و انظر إلى دقة التعبير القرآنى ... إذا امتنع النور امتنع البصر ... أى أن العين لا تبصر بذاتها.

و لكنها تبصر بانعكاس النور على الأشياء ثم انعكاسه على العين .. و اقرأ قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوُنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً «٤».

فكان الذى يجعل العين تبصر هو الضوء أو النور فإذا ضاع النور ضاع الإبصار ..

و لذلك فانت لا تبصر الأشياء فى الظلام و هذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن «٥».

الإشارات العلمية فى تفسير الشعراوى:

قال تعالى: وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أُنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) «٦».

(و المد): معناه البسط ... و عند ما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى: وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا لم يكن هذا يمثل مشكلة للعقول التى عاصرها نزول القرآن الكريم. فالناس ترى أن (١) سورة مريم، الآية: (٦١).

(٢) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ١٧٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٧).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (١٢).

(٥) الشعراوى، تفسير الشعراوى، ج (١) ص (١٧٣، ١٧٤).

(٦) سورة ق، الآية: (٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٨

الأرض ممدودة. و القرآن الكريم يقول: وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا و تقدم العلم و عرف الناس أن الأرض كروية ... و انطلق الإنسان إلى الفضاء، و رأى الأرض على هيئة كرة، هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم و العلم .. نقول لهم: أقال الله سبحانه و تعالى أى أرض تلك المبسوطة أو الممدودة؟ لم يقل و لكنه قال الأرض على إطلاقها ... أى كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض أمامك مبسوطة: «إذا نزلت فى القطب الشمالى تراها مبسوطة و إذا كنت فى القطب الجنوبى تراها مبسوطة و عند خط الاستواء تراها مبسوطة ...

و إذا سرت من نقطة على الأرض و ظللت تسير إلى هذه النقطة فالأرض دائما أمامك مبسوطة و لا يمكن أن يحدث هذا أبدا إلا إذا كانت الأرض كروية، فلو أن الأرض مثلثة أو مربعه، أو على أى شكل هندسى آخر لوصلت فيها إلى حافة ليس بعدها شىء ... و لكن لكى تكون الأرض مبسوطة أمامك فى أى مكان تسير فيه لا بد أن تكون على هيئة كرة.

دوران الأرض فى القرآن الكريم:

يقول الشعراوى: «هل يستطيع أحد أن يحكم على مكان هو جالس فيه- و المكان كله يتحرك بما فيه هو- أنه متحرك؟ إنك لا تستطيع أن تدرك أنه متحرك لما ذا؟

لأنك لا تعرف حركة المتحرك إلا إذا قسته مع شىء ثابت، و لا شىء ثابت لأن الأرض كلها تدور، و المواقع فوق سطحها ثابتة لأننا مثلا عند ما نجلس فى حجرة مغلقة تماما و هى تدور بنا جميعا و موقفنا عليها ثابت لا يتغير ... لا نحس بدوران هذه الحجرة إلا إذا فتحنا نافذة مثلا، و نقيس حركة الحجرة على شىء ثابت، كعمود مثلا أو شجرة. و هنا لا نستطيع أن نعرف حركة المتحرك إلا إذا قسناه إلى شىء ثابت، و من يستطيع أن يقيس الأرض كلها إلى شىء ثابت ليعرف حركتها لا أحد يستطيع أن يقيس الأرض كلها. ما دمت أنا لا أدرك الحركة ... يأتى الله سبحانه و تعالى ليقول لى: وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ «١».

«تحسبها معنا: كان ذلك حسبة و ليس حقيقة، لأن هذه الجبال التى تراها أمامك جامدة ثابتة لا تتحرك و هى ليست كذلك ... فإن الله يريد أن يقول لنا أن هذه الجبال الراسخة أوتاد الأرض التى تبدو أمامك جامدة ثابتة صلبة لا تستطيع أن تفتتها أنت و لا تزيلها» «٢». (١) الشعراوى، المنتخب من تفسير القرآن الكريم، ص (٤٢، ٤٣). و الآية من سورة النمل، الآية: (٨٨).

(٢) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٢٩

مرور الجبال مَرَّ السحاب فى الدنيا و ليس فى الآخرة:

يعالج الشعراوى قولاً- ما فى فهم الآية وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ و فحواه أن هذا فى الآخرة تقول له فى الآخرة: «إن الأرض لن تكون نفس الأرض، ... و أن الجبال ستحور مصداقا لقوله تعالى: يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ... ثم هل يكون فى الآخرة حسابان؟ يجب الشعراوى: «أبدا الآخرة نرى فيها الحقائق ... نرى فيها كل شىء عين اليقين، و نعرف كل شىء على حقيقته ... الجنة و النار، و الثواب و الحساب و كل شىء. إذن فقول الله سبحانه و تعالى: تَحْسَبُهَا جَامِدَةً معنا: أنك و أنت أمام هذه الجبال واهم لأنك تظن أنها جامدة و هى تَمُرُّ مَرَّ السحاب» «١».

تحديد معنى العلم عند الشعراوى:

إنّ اختلاط المعانى و تداخل المصطلحات كثيرا ما يسهم فى بلبلة الأفكار، و تشويه المقاصد لذا فإن الشعراوى أراد أن يستقصى معنى العلم:

«العلم لا بد أن يمر بمرحلتين: مرحلة التصور، و مرحلة التصديق ... و معنى التصور أننا قبل أن نتكلم عن أى قضية إثباتا أو نفيًا، لا بد أن نكون متصورين للألفاظ التى سنكون منها حديثنا، يعنى كلمة سماء ما ذا تعنى- و كلمة الأرض ما معناها؟ ... و ليس فى هذا نسبة فإذا جاءت النسب و هى أن تحكم على شىء بشىء يجب أن تكون مسبوقه بعلم التصور» «٢». هذه مرحلة التصور أما:

مرحلة التصديق: يضرب الشعراوى على عادته أمثلة يستمرها كى يصل إلى ما يريد «فأنت حين تحدثنى عن حقيقة علمية أسألك هل هى واقعة، فإذا قلت: نعم أسألك: أ أنت جازم بها، فإذا قلت: نعم ... أسألك هل تستطيع التذليل عليها فإذا قلت: نعم فهذا هو العلم.

فالعلم: نسبة واقعة مجزوم بها و عليها دليل، و لكن افرض أنى جازم بنسبة و هى ليست واقعة، هذا هو الجهل: نسبة مجزوم بها و هى غير واقعة ... و آفة الدنيا كلها الجهل فالذى لا يعرف نسبة أو حقيقة علمية يمكن أن يتعلمها ... و لكن المصيبة فى ذلك الذى يجزم

أو يصدق فى قضية كاذبة ثم يقيم الدنيا محاولاً أن يدلل على شىء غير حقيقى» (٣). (١) الشعراوى، المنتخب من تفسير القرآن الكريم، (٤٢، ٤٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (٣٦، ٣٧).

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٠

و هذا الإعجاز الذى يتفق مع قدرات العقول ... وقت نزول القرآن الكريم، فإذا تقدم العلم و وصل إلى حقيقة لما كان يعتقد الناس. تجد أن آيات القرآن تتفق مع الحقيقة العلمية اتفاقاً مذهلاً ... و لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه و تعالى» (١).

لما ذا كان تحدى القرآن بالعلم:

لم تفسر آيات العلم عموماً التفسير النهائى فى عهود الإسلام الأولى ... لأن العقول غير مستعدة لتلقى الأخبار العلمية المذهلة لعقولهم ... إنما جاء يتحداهم بلاغة و بياناً، لأنهم أهل البيان و اللغة - ثم إن آيات الإعجاز العلمى لم تفسر تفسيراً كاملاً فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم حتى لا تكون ملزمة للمسلمين - أى ستوقف أى محاولة للفهم الجديد. لذا بقيت الآيات الكونية المتضمنة إعجازات علمية مفتوحة لكل الأجيال، يتجدد العطاء الفكرى العلمى من خلالها «لقد تحدى القرآن العرب بالإعجاز فى اللغة. طلب أن يأتوا بمثل القرآن ثم زاد فى التحدى و قال بسورة من مثله ... و لكن التحدى للعالم لا يمكن أن يكون باللغة ... فاللغات مختلفة إذن بما ذا تحداهم ... بالعلم ... و كان التحدى مطلقاً إلى يوم الدين ... قال: أنتم جميعاً لن تستطيعوا أن تخلقوا شيئاً حتى نهاية العالم ...» (٢).

تحدى القرآن بحقائق الكون:

إن التحدى العلمى و الإعجاز العلمى فى القرآن جاء شاملاً، لم يتحدّ الله تعالى البشر علمياً فى مساحة جزئية أو على صعيد واحد ... إنما جاء البيان القرآنى ليقول:

سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٣). «لم يقل سنريهم آياتنا فى الأرض، و لا فى الأفق بل قال: فى الأفاق ... أى أن الله تعالى سيكشف لعباده بعضاً من آياته ليتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ... ذلك أن حقائق الكون التى سيصلون إليها بعد مئات السنين أو آلاف السنين بنشاطات الذهن ... سيجدون القرآن قد أشار إليها و حينئذ يتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ... لأن الذى قال هو الله، و الذى خلق هو الله» (٤). (١) الشعراوى، المنتخب من تفسير القرآن الكريم، ص (٣٧، ٣٨).

(٢) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٣، ١٤).

(٣) الشعراوى، المنتخب من تفسير القرآن الكريم، د. ت، د. ط، ص (٣٤، ٣٥).

(٤) سورة فصلت، الآية: (٥٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣١

دقة اللفظة القرآنية فى التعبير عن حركة الجبال:

القرآن كتاب محكم فى أدائه و مفرداته، و تراكيبه، و هنا نشير إلى هذا الأمر فى هذا الموضوع «مرّ السحاب» لم يقل الله سبحانه و تعالى مرّ الرياح أو مرّ العواصف أو مرّ الأمواج. أو أى لفظ آخر ... لأن السحاب لا يتحرك بنفسه بل تدفعه قوة ذاتية هى قوة الرياح، فحين يتحرك السحاب من مكان إلى مكان آخر لا ينطلق بذاته و يمضى. بل تأتى الرياح و تحمله من المكان الذى هو فيه إلى مكان

آخر ... فكأن الله سبحانه و تعالى يريد أن يقول لنا: انتبهوا إن حركة الجبال ليست ذاتية كحركة الأرض و ليست حركة ذاتية كحركة الرياح .. أى لا- تنتقل من مكانها على سطح الأرض إلى مكان آخر على سطح الأرض ... و لكنها تمرّ أمامكم مرّ السحاب، أى: تتحرك بحركة الأرض تماما كما تحرك الرياح السحاب ... و ألا فلما ذا لم يقل الله: و ترى الجبال تحسبها جامدة و هى تسير أو و هى تجرى، أو هى تتحرك أو هى تمرّ من مكان إلى آخر ... أبدا استبعد كل الألفاظ التى تعطى الجبال ذاتية الحركة أى الذى يتحرك ذاتيا هى الأرض و الجبال تتبع هذه الحركة و هى تمرّ أمامك مرّ السحاب الذى لا يملك ذاتية الحركة، أ ترى دقة التعبير و دقة التصوير لدوران الأرض» (١).

لقد اجتمعت كل الإعجازات فى النص القرآنى، دقة التعبير و التصوير (البلاغى) و الكشف عن طبيعة حركة الجبال التابعة لحركة الأرض (العلمى).

«فكون القرآن يخترق حجاب المستقبل. و بعد ذلك يمس قضايا كونية بما يثبت نشاط الذهن بعد أربعة عشر قرنا ... فهذا يدل على أن القرآن اخترق حجاب المستقبل للبشرية كلها. و لكن بعض الناس يجادل فى خلق الإنسان و هى محاولة للإضلال، و إنكار آيات الله فى الكون، و هذا أيضا من إعجاز القرآن: وجود هؤلاء المضلين فى الدنيا و محاولتهم الإضلال و محاربة دين الله هو إعجاز قرآنى» (٢).

مدى اعتماد الشعراوى على الحديث فى تفسيره:

قال تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣).

يرى الشعراوى أن المؤمن سيفرح بفضل الله و رحمته أكثر من فرح المؤمن بعمله (١) الشعراوى، المنتخب من تفسير القرآن الكريم، ص (٤٣، ٤٤).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة يونس، الآية: (٥٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٢

الصالح هذا واقع و يستدل الشعراوى بحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«سددوا و قاربوا و أبشروا فإنه لن يدخل الجنة أحدا عمله»، قالوا: و لا أنت يا رسول الله، قال: «و لا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» (١).

ربما يأتى أحد و يقول الصلاة على الميت ما القصد الشرعى منها إن كانت تفيده فستكون الفائدة زيادة على عمله ... و إن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها؟.

نقول ما دام الشرع كلفنا بها فلها فائدة، و هل تظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله؟ هى داخله فى عمله لأنه مؤمن و إيمانه هو الذى دفعك للصلاة عليه ... و الذى تدعو له بالخير و بالرحمة و بالمغفرة و يتقبلها الله، أ يقال إنه أخذ غير عمله؟ لا إنك لم تدع له إلا- بعد أن أصابك الخير منه. و لكنك لا- تدعو مثلا- لإنسان أخذ بيدك إلى خماره أو إلى فاحشة أو إلى منكر، بل تدعو لمن أعطاك خيرا فإن استجاب الله لك فهو عمله» (٢).

و قال تعالى: حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) «٣».

يقول الشعراوى: «إن الله سبحانه و تعالى غنى عن العالمين ... فإن استغنى بعض خلقه عن الإيمان و اختاروا الكفر ... فإن الله يساعده على الاستغناء و لا يعينه على العودة إلى الإيمان، و لذلك فإن الحق سبحانه و تعالى يقول فى حديث قدسى:

«أنا عند ظن عبدى بى، و أنا معه حين يذكرنى ... فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، و إن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه،

و إن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، و إن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا، و إن أتانى يمشى أتيته هرولة... «(٤)».

يعقب الشعراوى على الحديث القدسى السالف الذكر:

«إن الله تبارك و تعالى يعين المؤمنين على الإيمان، و إن الله جلّ جلاله كما يعين المؤمنين على الإيمان... فإنه لا يهمله أن يأتى العبد إلى الإيمان أو لا يأتى، و لذلك نجد القرآن دقيقا و محكما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم و اختارهم للكفر كان أولا قبل أن يختم الله على قلوبهم و الخالق جلّ جلاله أغنى الشركاء عن الشرك، و من أشرك به فإنه فى غنى عنه» (٥). (١) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٦٤٦٤)، و أخرجه مسلم فى (الحديث: ٧٠٥٣).

(٢) الشعراوى، مج (١)، ص (٦٠٣، ٦٠٤).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٧).

(٤) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٧٤٠٥)، و أخرجه مسلم فى (الحديث: ٢٦٧٥).

(٥) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٤٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٣

و يستدل الشعراوى بحديث الرسول صلى الله عليه و سلم: «ما نقصت صدقه من مال، و ما زاد الله بعفو إلا عزا، و ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (١).

الزكاة فى ظاهرها تنقص المال، و إن كانت فى حقيقتها بركة و نماء، و بالتالى هذا ليس تضيقا «بل إن هذا لفائدتك. لأنه لم يأمرك وحدك، و لكن الأمر للناس جميعا، حين يقول جل جلاله لا تسرق فقد قالها للناس جميعا، و لذلك تكون أنت الرابع لأنه قيدك و أنت فرد من أن تسرق من غيرك، و لكنه قيد ملايين الناس من أن يسرقوا منك. إذن فالله لم يضيق عليك، و لكنه حمى مالك من الناس كل الناس» (٢).

«إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلى الجبار بالمغفرة»

(٣):

«و كان المنطق يقتضى أن يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: تجلى الرحمن بالمغفرة، و لكن ما دامت هناك ذنوب فالمقام لصفة الجبار الذى يعذب خلقه بذنوبهم، فكأن صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار، و صفة الجبار مقامها للعاصين، فتأتى صفة الغفار لتشفع عندها، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم، و جمال المقابلة هنا حينما يتجلى الجبار بجبروته بالمغفرة، فساعة تأتى كلمة جبار يشعر الإنسان بالفرع و الخوف و الرعب، لكن عند ما تسمع «تجلى الجبار بالمغفرة»، فإن السعادة تدخل إلى قلبك لأنك تعرف أن صاحب العقوبة و هو قادر عليها قد غفر لك، و النار ليست آمرة و لا فاعلة بذاتها و لكنها مأمورة، فاستعد منها بالآمر أو بصفات الجمال فى الأمر» (٤).

من ذلك يظهر أن الشعراوى استشهد بهذا الحديث لبيان معنى صفات الجلال المختصة بالله و ليكشف لنا كيف نتقى صفات الجلال بصفات الجمال أى بصفات المغفرة و الرحمة أو بكل صفات الله المعبرة عن عطاءاته و رحماته لخلقها.

مناقشة القرآن للكافرين كما ورد فى تفسير الشعراوى:

قال تعالى: أ كان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس و بشر الذين آمنوا أن لهم قدام صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحرٌ مبين (٢) (٥).

يحاول الشعراوى أن يبلور لسامعيه و قارئيه بأسلوب بسيط واضح طريقة القرآن فى مناقشته الكافرين و أصحاب العقائد الخاطئة فيقول:

«يلفتنا الله سبحانه و تعالى إلى حقيقتين: (١) أخرجه الترمذى فى (الحديث: ٢٠٢٩).

(٢) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٣٤).

(٣) ورد فى كثر العمال.

(٤) الشعراوى، تفسير الشعراوى، (١/ ١٢١).

(٥) سورة يونس، الآية: (٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٤

الحقيقة الأولى: هى أن الكفار يتخذون من بشرية الرسول صلى الله عليه و سلم حجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله، و كان الرد هو: أن كل الرسل السابقين كانوا بشرا فما هو العجب فى أن يكون محمد صلى الله عليه و سلم رسولا بشرا؟

الحقيقة الثانية: هى أن هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التى خلقها الله لنا لنكتب بها، و من ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدما لهذه الحروف التى يعرفها الناس جميعا معجزا فى ألا يستطيع الإنس و الجن مجتمعين أن يأتوا بسورة واحدة منه. ثم يلفتنا الحق سبحانه و تعالى لفته أخرى إلى أن هذا الكتاب محكم الآيات، ثم بينه الله لعباده، و هذا ظاهر فى سورة هود: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (٢) «١».

فهذا الكتاب المحكم بلاغة و بيانا و فصاحة حجة على الكافرين الذين عجزوا أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله.

و يستمر القرآن فى محاولته و مساءلته الكافرين الناكرين للحق. قال تعالى:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) «٢».

إذا السؤال القرآنى الموجه للكافرين لا يملكون جوابا عنه «لأن الله هو الذى خلقه و أوجده و لا يستطيع أحد منا أن يدعى أنه خلق نفسه أو خلق غيره، فالوجود بالذات على قضية الإيمان، و لذلك يسألهم الحق تبارك و تعالى كيف تكفرون بالله و تسترون وجود من خلقكم؟ و الخلق قضية محسومة لله سبحانه و تعالى لا يستطيع أحد أن يدعيها .. فلا يمكن أن يدعى أحد أنه خلق نفسه: قضية أنك موجود توجب الإيمان بالله سبحانه و تعالى الذى أوجدك، إنه عين الاستدلال على الله، و إذا نظر كل ما فى الكون مسخرا لخدمته و الأشياء تستجيب له فظن بمرور الزمن أن له سيطرة على هذا الكون ... و لذلك عاش و فى ذهنه قوة الأسباب. يأخذ الأسباب و هو فاعلها فيجدها قد أعطته و استجابت له و لم يلتفت إلى خالق الأسباب الذى خلق لها قوانينها فجعلها تستجيب للإنسان ..» «٣».

و يخلص الشعراوى فى توضيحه مناقشة القرآن للكافرين فيقول:

«إن الكافرين صنفان ... صنف كفر بالله و عند ما جاء الهدى حكم عقله و عرف الحق فآمن .. و الصنف الآخر مستفيد من الكفر ... و لذلك فهو متشبه به مهما جاءه من الإيمان و الأدلة الإيجابية فإنه يعاند و يكفر .. لأنه يريد أن يحتفظ بسلطانه الدنيوية و نفوذه القائم

(١) سورة هود، الآية: (٢). و انظر تفسير الشعراوى، (١/ ١١٤، ١١٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٨).

(٣) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٣٨، ١٣٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٥

على الظلم و الطغيان و لا يقبل أن يجرد منهما و لو بالحق. هذا الصنف هو الذى قال عنه الله تبارك و تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «١».

فالشعراوى يرى أن هذا الصنف جعل من الكفر مصلحة شخصية: «إنهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه و تعالى لم يصل إليهم و لم يكفروا لأنهم فى حاجة إلى أن يلفتهم رسول أو نبي إلى منهج الله، هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة، و منهج حياة منهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة، و لأنهم يتميزون من غيرهم بالباطل. و لأنهم لو جاء الإيمان الذى يساوى بنى الناس جميعا و يرفض الظلم،

لأصبحوا أشخاصا عاديين غير مميزين فى أى شىء ...

هذا الكافر اتخذ الكفر طريقا لجاه الدنيا و زخرفها ... سواء أذرتة أم لم تنذره فإنه لن يؤمن ... إنه يريد الدنيا التى يعيش فيها». و ما دامت هذه الشريحة ترى أن مصلحتها بالكفر، و ما دامت رعونات النفوس هى التى توجهها و تصنع توجهاتها لذلك سيقون «يقاومون الدين و يحاربون كل من آمن لأنهم يعرفون أن الإيمان سيسلبهم ميزات كثيرة. و لذلك فإن عدم إيمانهم ليس عن أن منهج الإيمان لم يبلغهم .. أو أن أحدا لم يلفتهم إلى آيات الله فى الأرض ... و لكن لأن حياتهم مبنية على الكفر» (٢).

نكت الشعراوى اللغوية وفق تجليات النص:

الحق إن للشعراوى لفتات بديعة مأخوذة من ظلال النص و ليس من المعنى الحرفى للنص. فهو كثيرا ما يستكشف معانى بديعة اصطادها من تجليات النص و ظلاله و إيحاءاته و فيوضاته فعند ما يتحدث عن صفات الله تعالى مثل صفات «الغفار و الرحيم و كل الصفات التى تنزل بها رحمات الله و عطاءاته على خلقه» فيسمى هذه الصفات صفات جمال. و صفات: «الجبار المنتقم» صفات جلال (٣).

و يحاول الشعراوى أن يضيف على هذا التقسيم أهمية عملية حركية فى حياة الإنسان اليومية، و الحق أن فى هذا ربطا جميلا لفهم المؤمن لصفات الله بحياته العملية اليومية.

«لا بد أن تقى نفسك من صفات الجلال كلها. لأنه قد يكون من متعلقاتها ما هو أشد عذابا و إيلا ما من النار .. فكأن الحق سبحانه و تعالى حين يقول: اتقوا النار. و اتقوا الله، يعنى أن نتقى غضب الله الذى يؤدى بنا إلى أن نتقى كل صفات جلاله ... و نجعل بيننا و بينها (١) سورة البقرة، الآية: (٦). و انظر تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٤٠).

(٢) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٤٠، ١٤١).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢٠، ١٢١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٦

وقاية. فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله. و لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلّى الجبار بالمغفرة» ...

هنا يرى الشعراوى «أن المنطق يقتضى أن يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: تجلّى الرحمن بالمغفرة .. لكن رسول الله صلى الله عليه و سلم عند ما يقول: تجلّى الجبار بالمغفرة فهذا يدخل السعادة فى قلب المؤمن لأنك تعرف أن صاحب العقوبة و هو قادر عليها قد غفر لك» (١).

خلاصة ذلك أن على المؤمن أن يتقى صفات الجلال (المنتقم- الغضب- الجبار المتكبر ... بصفات الجمال: الغفار- الغفور- الرحيم- الرزاق- اللطيف الرؤوف .. الخ.

إن هذا من شأنه أن يربط الإنسان بربه ربطا تصوريا و عمليا فى آن معا .. فإذا ارتكبت عملا يعاقبك الله عليه بما أخبرك من صفات جلاله، فالجأ إليه كى تنجو من صفات جلاله محتما بصفات جماله.

ثم يبدو الشعراوى متمكنا جدا من استكشاف المعانى التى يمكن أن يشمها الإنسان من تجليات النص و ظلاله الموحية عند حديثه عن الغيب و مفهوم الغيب، و هذه التجليات يوظفها توظيفا حسنا فى خدمة تركيز الإيمان، و تثبيته فى النفوس، تثبتا و تركيزا طاردين لكل الريب و الشكوك، قال تعالى:

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٤) (٢).

«قمة الغيب هى الإيمان بالله سبحانه و تعالى ... و الإيمان بملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر ..» (٣). إلى أن يقول مقولة تصلح

لجعلها أحد الأسس فى المحاجة القائمة بين الجاحدين و المؤمنين جاء عليه النص بأحد تجلياته:

«ولا بد أن نعرف أن وجود الشئ مختلف تماما عن إدراك هذا الشئ، فأنت لك روح فى جسدك تهبك الحياة.. أ رأيتها.. أسمعها؟.. أذقتها؟ أشممتها؟ ألمستها؟».

الجواب: طبعاً: لا... فبأى وسيلة من وسائل الإدراك تدرك أن لك روحا فى جسدك؟ بأثرها فى إحياء الجسد.

إذن فقد عرفت الروح بأثرها.. و الروح مخلوق لله. فكيف تريد و أنت عاجز أن تدرك مخلوقا فى جسدك و ذاتك و هى الروح بآثارها... أن تدرك الله سبحانه و تعالى بحواسك، و نحن إذا آمنا بالقمة الغيبية و هو الله جلّ جلاله فلا بد أن نؤمن بكل ما يخبرنا عنه و إن لم نره... (١) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٢١).

(٢) سورة الجن، الآية: (٢٦).

(٣) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٢٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٧

و لقد أراد الله تبارك و تعالى رحمةً بعقولنا أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشئ و إدراك هذا الوجود شئ منفصل «١».

و الناظر فى تفسير الشعراوى أو فى خواطر الشعراوى القرآنية يرى أن الشعراوى كثيرا ما يخرج عن الدلالة الحرفية اللغوية إلى التجليات العامة للنص التى لا تكن ملفوظة ضمن النص لكنها تكمن وراء النص، أو يرسمها النص رسماً عاماً محتملاً، موحى إحياء يحتاج إلى جهد لاستقراءه و فهمه و توظيفه.

و من جميل اللفات التى يستقيها الشعراوى من كلمة «الرزق» إضفاؤه على اللفظة الواحدة معانى عديدة مركبة، لكنك لو جمعت هذه المعانى لوجدت كلمة رزق تستغرقها جميعاً، إنها تجليات النص، تجليات المفردة القرآنية الخصبة، الغنية بالدلالات، الواسعة الإمدادات. قال تعالى: وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ «٢».

إقامة الصلاة: «إدامة ولاء العبودية للحق تبارك و تعالى، و هى لا تسقط عن الإنسان أبداً، فالإنسان يصلى و هو واقف فإن لم يستطع يصلى و هو جالس، فإن لم يستطع فيصلى و هو راقداً، و لا تسقط الصلاة عن الإنسان من ساعة التكليف إلى ساعة الوفاء كل يوم خمس مرات...»

و يقول الحق تبارك و تعالى: وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ: «و حين نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال. نقول له: الرزق هو ما ينتفع به. فالقوة رزق، و العلم رزق، و الحكمة رزق، و التواضع رزق و كل ما فيه للحياة حركة رزق، فإن لم يكن عندك مال لتنفق فعندك عافية تعمل لتحصل على المال، و تتصدق به على العاجز المريض، و إن كان عندك حلم.. فإنك تنفقه بأن تقى الأحمق من تصرفات قد تؤذى المجتمع و تؤذيك، و إن كان عندك علم أنفقه لتعلم الجاهل و هكذا نرى: وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ تستوعب جميع حركة الحياة» (٣).

من هذا يظهر أن الشعراوى قادر على استنطاق العبارة القرآنية بلغة المفردة القرآنية بكل مخزونات المعنوية و الفكرية، و يغترف منها ليلقى هذا الفيض الكبير من المعانى فى أذهان السامعين و القارئ، فينعمون بهذا الخير القرآنى الكثير.

إننا لو راجعنا بعض الآراء فى تفسير هاتين الآيتين لرأينا و جهات نظر أخرى مغايرة لرأى الشعراوى، و هذا لا يقلل من قيمة رأى الشعراوى و فهمه للنص، إنما يضعنا أمام (١) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٢٧، ١٢٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٣).

(٣) الشعراوى، تفسير الشعراوى، مج (١)، ص (١٢٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٨

فهوم مختلفة عليها تساعد فى الاقتراب من الفهم الصحيح، يقول الزجاج فى تفسيره لقوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا «١».

(مأتى): اسم مفعول من الإتيان، لأن كل ما وصل إليك فقد وصلت إليه، و كل ما أتاك فقد أتته، يقال: وصلت إلى خير فلان، و وصل إلى خير فلان و أتيت خير فلان، فهذا [أى: مأتيا] على معنى أتيت خير فلان «٢».

يقول عبد الجليل عبده شلبى حول مقصد الزجاج من تفسيره «مأتيا»:

«يقصد أن وعده مأتى، بمعنى آت «٣» .. و يلاحظ عبد الجليل شلبى على أمثلة الزجاج: «نلاحظ أن هناك فرقا بين التعبيرين و إيثار مأتى يدل على أنهم سيرغمون إلى ملاقاته وعد الله» «٤».

أما فى قوله تعالى: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا «٤٥» «٥».

يقول الزجاج: قال أهل اللغة «مستورا» هاهنا فى موضع سائر، و تأويل الحجاب و الله أعلم- الطبع الذى على قلوبهم، و يدل على ذلك قوله: وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ... و يجوز أن يكون مستورا على غير معنى سائر فيكون الحجاب من لا يرونه و لا يعلمونه من الطبع على قلوبهم «٦».

و لو تصفحنا كشاف الزمخشري متأملين ما أورده فى تفسير آية الإسراء: «حِجَابًا مَسْتُورًا». فإننا نرى تكرارا لما قاله الزجاج «حِجَابًا مَسْتُورًا» ذا ستر، كقولهم: سيل مفعم ذا إفعام، و قيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور .. و يجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب فهو مستور بغيره، أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، و هذه حكاية لما كانوا يقولونه: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ «٧». (١) سورة مريم، الآية: (٦١).

(٢) الزجاج، معانى القرآن و إعرابه، (٣/ ٣٣٦). ط دار الحديث القاهرة ط (١٩٩٤ م).

(٣) انظر هامش معانى القرآن و إعرابه، (٣/ ٣٣٦) لعبد الجليل شلبى «المحقق».

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة الإسراء، الآية: (٤٥).

(٦) الزجاج، معانى القرآن و إعرابه، (٣/ ٢٤٤).

(٧) سورة فصلت، الآية: (٥). و انظر الزمخشري، الكشاف، (٢/ ٦٢٧)، ط (١)، (١٩٩٧)، ت عبد الرزاق المهدي.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٣٩

و قال الزمخشري فى تفسير قوله تعالى: جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا «٦١» «١».

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت منها كقولك: أبصرت دارك القاعة و العلالى- [أى: القاعة بدل من الدار و هى جزء من الدار و هذا ما يسمى ببديل بعض من كل، أو يمكن أن يسميها بدل اشتغال كقولك أعجبنى عمر عدله]. و «عدن» معرفة علم بمعنى العدن و هو الإقامة، كما جعلوا فينة، و سحر، و أمس فيمن لم يصرفه إعلاما لمعاني:

الفينة «٢»، و السحر، و الأمس، فجرى مجرى العدن لذلك. أو علم لأرض الجنة، لكونها مكان إقامة، و لو لا ذلك لما ساغ الإبدال، لأن النكرة لا تبدل المعرفة إلا موصوفة، و لما ساغ وصفها بالثى، و قرئ: جنات عدن و «جنة عدن» بالرفع على الابتداء أى: وعددها و هى غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها، أو بتصديق الغيب و الإيمان به، قيل فى «مأتيا» مفعول بمعنى فاعل. و الوجه أن الوعد هو الجنة و هم يأتونها أو هو من قولك: أتى إليه إحسانا أى كان وعدا مفعولا منجزا «٣».

و لا بأس من استعراض رأى أحد المفسرين المؤولين العلامة الألوسى فى تفسير قوله تعالى: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا «٤٥» «٤».

أورد الألوسى مثل ما أورده باقى المفسرين- و زاد على بعضهم ما يلي:

«و عن الجبائى: المراد بالحجاب ما يحجبهم عن إيذاء الرسول صلى الله عليه و سلم و ذلك أنهم كانوا يقصدونه إذا قرأ لؤذوه، فأمنه

اللّه تعالى و ذكر عليه الصلاة و السلام أنه جلّ شأنه جعل بينه و بينهم حجابا عند القراءة فلا يمكنهم الوصول إليه، و هو عندى مما لا بأس به و إن ذكره فى معرض التقصى عن استدلال أصحابنا بالآية على أن الله تعالى يمنع عن الإيمان من شاء كما يهدى إليه من شاء نعم هو دون الأول عند من يتأمل.

وقيل: المراد حجاب منعهم رؤية شخص النبى صلى الله عليه و سلم و ذاته الكريمة، فقد أخرج أبو يعلى و ابن حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى معا فى الدلائل عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهم قالت: لما نزلت: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ، أَقْبَلت العوراء أم جميل و لها ولولؤه و فى يدها فهر و هى تقول:

«مذمما أئينا، و دينه قلينا، و أمره عصينا»، و رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس، و أبو بكر إلى جنبه (١) سورة مريم، الآية: (٦١).
(٢) الفينة: الحين.

(٣) الزمخشري، الكشاف، (٢/ ٢٨، ٢٩).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (٤٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤٠

فقال أبو بكر: أقبلت هذه و أنا أخاف أن تراك فقال: «إنها لن ترانى» و قرأ قرآنا اعتصم به كما قال تعالى: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) «١». فجاءت حتى قامت على أبى بكر فلم تر النبى صلى الله عليه و سلم فقالت: يا أبا بكر بلغنى أن صاحبك هجانى، فقال أبو بكر: لا و رب هذا البيت ما هجاك، فانصرفت و هى تقول:
قد علمت قريش أنى بنت سيدها «٢».

خاتمة:

من هذا يظهر أن الشعراوى هضم الآراء السابقة، و استفاد منها، و أعاد إنتاجها، و جددتها، بوحى من دقته اللغوية، و صفاء فهمه، و استنتاجه، و استنتاجاته الجميلة للنص القرآنى فهو لم يخرج عنه، إنما عاش فى معانيه، و تحت ظلاله الوارفة، مستخرجا معانيه من النص مرة و إحياءاته و تجلياته مرات أخر، جزاه الله عن خدمته كتابه العزيز خيرا. (١) سورة الإسراء، الآية: (٤٥).

(٢) الألوسى، روح المعانى، (١/ ١٥، ١٦) ص (٨٧-٨٨)، ط (٤)، دار إحياء التراث، (١٩٨٥ م).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤١

رابعاً: التفسير السهل الميسر المختار من تفاسير القرآن الكريم د. أحمد إسماعيل الصباغ

إشارة

التفسير السهل الميسر المختار من تفاسير القرآن الكريم و أسباب النزول جمع و إعداد الدكتور أحمد إسماعيل الصباغ.

موجز عن حياة المؤلف:

والده الشيخ إسماعيل الصباغ أحد علماء دمشق المعروفين، اهتم بدراسة ابنه العلمية و الشرعية .. نال ابنه أحمد إسماعيل الصباغ درجة الدكتوراه فى العلوم الاقتصادية.

لم يكن أحمد الصباغ بمنأى عن دراسة العلوم الشرعية و خاصة «علوم القرآن» خاصة و أن والده كان يدفع به بهذا الاتجاه .. و كان

والده يطمع أن يرى تفسيراً كريماً للقرآن قد خرج إلى النور على يد ولده.

ظروف نشأة التفسير السهل الميسر:

قص المؤلف الظروف التي ساعدت على إنشاء أو إعداد هذا التفسير: «إن زوجته الفاضلة قد طلبت منه أن يبحث لها عن تفسير سهل التناول، يمتاز بسهولة أسلوبه و بساطة عبارته، سريع الفهم، فبحث في المكتبات فرأى تفسيرات موجزة غير أنها لم تكن تفي بالمطلوب. فعمد المؤلف إلى اصطفاء بعض الآيات و صوغ تفسير لها موجز واضح بسيط مأخوذ من عدة تفاسير موثوقة معتبرة عند أهل العلم .. و لم يكن يدرى ساعتئذ أن

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤٢

الاستمرار بهذا سوف ينجز تفسيراً كاملاً... و إن كان المرحوم والده الشيخ إسماعيل دائم التشجيع و الدفع لولده باستمرار الدرس و التحصيل كى ينجز التفسير الكريم، و كان الوالد يحلم باليوم الذى يرى فيه هذا التفسير شق طريقه نحو الوجود. و لكن قدرة الله شاءت ألا يرى الشيخ عمل ابنه فحال الموت دون رؤيته هذا التفسير» (١).

منهج المؤلف فى إعداده التفسير السهل الميسر:

وضح أحمد الصباغ الهدف من تفسيره «السهل الميسر» و هو تلبية حاجة القارئ المعاصر بالاطلاع على تفسير الكتاب الكريم «القرآن». و ذلك بالسهولة المرجوة و الوقت القليل.

أما ضوابطه فى عمله التفسيري هذا فكانت:

١- توخى كتابة بعض الكلمات القرآنية التى وردت مدرجة فى التفسير حسب القواعد الإملائية المشهورة- مع تثبيت النص القرآنى الذى كتب وفق قواعده الخاصة المتميزة.

٢- أراد أن يشكل سبل اللغة البسيطة الموفية بالعرض ليسهل الفهم و الدراسة على من يريد قراءة هذا العمل.

٣- اعتمد على اختيار معانى تفسيره على مشاهير التفاسير مثل تفسير ابن كثير، و القرطبي و البيضاوى، و النسفى، و الرازى و الشوكانى و سيد قطب، و الشنقيطى و المراغى و المنار و غيرهم من التفاسير المشهورة المعتمدة...».

٤- ثم اعتمد قاعدة هامة فى علم أصول الفقه الإسلامى، ذلك العلم الذى اعتمد عليه فى استنباط الأحكام الشرعية العملية الفرعية. تلك القاعدة تقول: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

و لتوضيح القاعدة يمكن أن نضرب مثلاً يساعد طالب العلم المبتدئ على فهم المقصود: «إن آية السرقة و آية اللعان و نحوهما نزلت فى أفراد مخصوصين أى معروفين بأسمائهم و بوقائعهم. و لكن هذه الآيات جاءت بصيغة العموم فاعتبروه أى [اعتبروا العموم، و أهملوا السبب الخاص الذى نزل بشأنه الآية، و عليه فإن ما انطبق على الشخص الذى نزلت بصدده فعلته أو بسبب سؤاله الآية ينطبق على عموم الوقائع الأخرى المماثلة. (١) مقدمة ط (١)، التفسير السهل الميسر، ط (١)، (١٩٨٩ م) لأحمد إسماعيل الصباغ.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤٣

زد على ذلك: أنه لا معارضة بين العام و سعيه الخاص إذ لا تنافى بينهما، أما هنا فالتمسك بالعام لا ينافيه السبب الخاص، و لو أراد الشارع التخصيص لما أتى باللفظ العام و هو فى مقام التشريع و من أبلغ العرب الفصحاء. و هكذا فإن الأحكام الشرعية بغالبيتها على قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» (١).

و يمكن أن ندرس التفسير الميسر وفق الجوانب الآتية:

الجانب اللغوى:

امتاز التفسير الميسر بلغته السهلة لأن هذا السبب الأهم الذى دعا المؤلف لإعداد هذا العمل القرآنى. فنراه يقدم توضيحه للقارئ بلغته سهلة يحافظ فيه على أسلوب القرآن إن كان للاستفهام الإنكارى أو غيره من الدلالات التى يخرج إليها الاستفهام كما هو معلوم فى علوم البلاغة العربية، قال تعالى:

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) (٢).

قال الصباغ: «و أى شىء يمنعكم أن تأكلوا مما ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَكَلَهُ فى الآية الثالثة من سورة المائدة. هنا يلاحظ تفسيره للقرآن بالقرآن. الآية الثالثة من سورة المائدة هى:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحِمُّ الْخَنِزِيرِ وَمَا أُهْتَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فَمِيقَةُ الْيَوْمِ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) (٣).

يتابع تفسيره للآية/ ١١٩ من سورة الأنعام: إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ فإنه مباح لكم عند الضرورة «٤».

ويلاحظ استفادته من تفسير الجلالين على نحو جلى كما قال هو فى ذكر مراجعه و مصادره: (١) أحمد بن محمد بن على الوزير، المصنفى فى أصول الفقه، ط (١٩٩٦)، لبنان، بيروت ص (٤٩٩).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١١٩).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٤) أحمد الصباغ، التفسير السهل الميسر، ط (٢)، (١٩٩٦)، ص (١٤٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤٤

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَحْلُلُونَ وَيَحْرَمُونَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ.

و يأتى توضيحه بلغته سهلة عند ما يكشف عن معانى الضمائر المتصلة فى الآيات الكريمة، قال تعالى: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ (١).

«و إذا جاءت هؤلاء الأكابر المجرمين (آية) تؤكد نبوتك [الآية المعجزة]. قالوا لن نؤمن لك و لن نصدق رسالتك» حَتَّى نُؤْتَى حَتَّى نعطى من المعجزات مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ «فرد عليهم سبحانه و تعالى بقوله: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلرِّسَالَةِ، و من هو أصلح لها من خلقه، فيشرفه بها» (٢).

صرفه العبارات إلى غير ظاهرها تحقيقاً لمقاصد النص:

صحيح أن أحمد الصباغ وضع فى أسس منهاجه التفسيري هذا العمل بظاهر اللفظ، لكن هذا على الغالب لأن الله تعالى لم يرد ظاهر النص أحياناً، لذا كان لا بد من إدراك مقاصد النص، و من ثم توجيه المعنى بهذا الاتجاه الصحيح الذى يخدم المعنى المراد، قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا (٣) بالجهل و الكفر، فَأَحْيَيْنَاهُ (٣) بالعلم و الإيمان، وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا (٣) من القرآن يمشى به فى الناس على بصيرة من ربه و هدى كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ (٣). كالذى يتخبط فى ظلمات الكفر و الضلالة لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (٣) لا- يفارقها و لا يتخلص منها» (٨).

عدم دخول الصباغ فى الفروع و الجزئيات:

كان هم المؤلف أن يجعل القارئ متفهماً للآيات الكريمة، و لم يكن همه تزويده بكم كبير من المعارف الشرعية و القرآنية .. إنما هدفه التيسير، و اقتناء الواضح البسيط، لذا ابتعد عن الجزئيات و التفريعات التى لا تفيد طالب العلم المبتدى، و لا المتوسط. قال فى تفسيره لقوله تعالى من سورة القيامة:

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) يوم القيامة بهية مشرقة غبطة و سرورا. إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) (٩) نظرة شكر و امتنان». (١) سورة الأنعام، الآية: (١٢٤).

(٢) أحمد الصباغ، التفسير السهل الميسر، ص (١٤٣).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٢٢).

(٨) أحمد الصباغ، التفسير السهل الميسر، ص (١٤٣).

(٩) سورة القيامة، الآيتان: (٢٢، ٢٣). و انظر التفسير السهل الميسر، ص (٥٧٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤٥

إن المفسر نأى بنفسه عن الخوض فى مسألة خلافية استحوزت نقاشا طويلا: هل يرى المؤمن ربه يوم القيامة؟ و من جملة ما استدلل به بعضهم هاتان الآيتان من سورة القيامة التى أعملها بعضهم على ظاهرها، و الآخرون تأولوها.

و يلاحظ محافظته على خطته بعدم التوسع فى الخلافات و الجزئيات لأنه حرص على تقديم المعانى الكريمة بأسلوب مبسط و موجز، من هذا يتضح اهتمامه بالكليات و المعانى العامة، لا بالجزئيات و الدلالات الخاصة و ما سوى ذلك. إنه كان وفيًا لنهجه الذى اختطه لنفسه على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى المقدمة.

محاولات الصباغ التوفيق بين القرآن و العلم الحديث:

لعل دراسات الصباغ العلمية، و طبيعة العصر العلمية، و حرصه على إبراز القرآن إبرازا علميا و بثوب السابق إلى بعض العلوم الحديثة دفعه كل ذلك إلى التوفيق بين القرآن و العلوم.

قال تعالى فى سورة الحجر:

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ (١). تَلْفَحُ [الرياح السحاب و الأزهار] (٢).

و قال تعالى: وَ الْقَمَرَ قَدْرَ نَاهِ مَنَازِلَ (٣) «قدرنا مسيره فى منازل ينزل بها كل يوم و ليلة من شهر قمرى، فإذا كان فى آخر الشهر دقّ و تقوس حَتَّى عَادَ (٣) حتى صار منظره كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣) كعود عنقود التمر إذا جفّ و تقوس و اصفر» (٤).

الحديث النبوى فى تفسير الصباغ «السهل الميسر»:

لم «يكن التفسير السهل الميسر» من التفسيرات الموسعة، إنما كانت من التفسيرات الموجزة التى ركزت على بلورة المعنى العام الظاهر دون المجازية إلا ما ندر و ذلك عند ما تقتضيه طبيعة اللغة.

لذا فإن المؤلف لم يلجأ إلى الأحاديث النبوية فى فهم الآية عند ما فسرهما، غير أنه أثبت أسباب النزول المدعومة بأحاديث رسول الله صلى الله عليه و سلم كى يعين القارئ على الإحاطة بالمناخ العام الذى تنزل عليه النص القرآنى، و بهذا ساعد القارئ على ترسيخ فهمه للآية الكريمة (١) سورة الحجر، الآية: (٢٢).

(٢) أحمد الصباغ، التفسير السهل، ص (٢٦٣).

(٣) سورة يس، الآية: (٣٩).

(٤) أحمد الصباغ، التفسير السهل الميسر، ص (٤٤٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤٦

من قاعدة الإيجاز التى أرادها لتفسيره هذا.

التفسير الميسر و آيات الصفات:

عند ما فسّر صاحب «التفسير السهل الميسر» آيات الصفات فسّرهما دونما تطرق إلى الرأى الآخر و على ما يظهر كان ميالا لرأى أهل الحديث الذى لا يؤول الصفات، نذكر مثلا من سورة طه الرّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) «١». قال: «استواء يليق بجلاله» «٢». وكذلك عند ما فسر الآية فى سورة الفتح إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ «٣» أيها الرسول - بيعة الرضوان بالحديبية على ألا يفروا من المعركة، إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ بِمَبَايِعَتِهِمْ لَكَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ عند مبايعتهم لأنهم كانوا يبايعون الله بمبايعتهم نبيه صلى الله عليه و سلم ... و لو أن المؤلف قال: كان الله نصيرهم و حليفهم لاستمر المعنى النفسى و التربوى الذى أراد النص القرآنى، و لم يكن الله تعالى يريد أن يخبرنا أنه لم يدر إنما عند ما يخبر الله تعالى أن يده فوق أيديهم إنما أراد أن يعلمهم أنه مؤازر لهم و مناصر لهم ما داموا مخلصين لبيعتهم، غير ناكثين لها.

خاتمة:

هذا التفسير اسم على مسمى حقا، إنه سهل ميسر مختار من عدة تفاسير مشهورة، قدّم المعنى بأسلوب سلس سهل، ليتم تناوله لقمة سائغة من قبل القارئ على اختلاف أوضاعهم، و تباين مستوياتهم. وضح المعنى العام للآيات الكريمة بأسلوب سهل، و لغة مفهومة سهلة الحفظ، خاصة أن تفسيره نأى به عن الخلافات، و نزّهه عن المجادلات فى الإيمان و العقيدة و الأحكام العملية. لو أردنا أن نصنّفه فى مدرسة من المدارس التفسيرية القديمة لأمكن القول «إنه يعد فى مدرسة الجلالين» الذى أسس للتفسير الموجز مع يسر فى اللغة، و بساطة فى التعبير أكثر، و اتفاق فى المنهج يكاد يكون كاملا. (١) سورة طه، الآية: (٥).

(٢) أحمد الصباغ، التفسير السهل الميسر، ص (٣١٢).

(٣) سورة الفتح، الآية: (١٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤٧

الفصل الثالث التفسير الموضوعى

إشارة

أولا: تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطى.

ثانيا: الدراسات القرآنية عند عبد الله سراج الدين.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٤٩

أولاً: أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن لمؤلفه محمد الأمين بن المختار الجكنى الشنقيطى الموريتانى المالكى الإفريقى ١٣٢٠-١٣٩٣ هـ.

موجز حياة المؤلف:

هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد، نوح بن محمد بن سيدى أحمد بن المختار من أولاد أولاد الطالب أوبك الجكنيين، وهذا من أولاد أولاد كرايز بن يعقوب بن جاكم الأبر جد القبيلة الكبير المشهورة المعروفة بالجكنيين و يعرفون بتجكانت.

نسب قبيلته:

يرجع نسب قبيلته إلى حمير، كما قال الشاعر الموريتانى محمد خال ولد العينين مستدلاً بفصاحتهم على عربتهم:
 إنا بنو حسن دلت فصاحتنا أنا إلى العرب الأفحاح ننتسب
 إن لم تقم بينات أننا عرب فى اللسان بيان أننا عرب
 أنظر ما لنا من كل قافية لها تدمّ شذور الزبرج القشب «١»
 ولادته:

ولد فى شنقيط. و هى من الجزء الشرقى من موريتانية الواقعة شرق المحيط الأطلسى جنوب مراکش و الجزائر و شمال السنغال. (١)
 الأبيات من البحر البسيط.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٠
 نشأته و طلب العلم:

موجز عن الحياة الاجتماعية فى شنقيط (بلد المؤلف):

المواطنون فى هذا البلد قسمان: عرب و عجم، و العربية لغة الجميع ...
 و عمل أكثر العجم الزراعة و الصناعة و سلالتهم من الزنوج.

و أما العرب فقسمان: طلبه و غير الطلبة. و الطلبة من يغلب عليهم طلب العلم و التجارة، و غيرهم من يغلب عليهم التجارة و الإغارة، و هم قبائل عدة، و من القبائل من يغلب عليها الطلب، و منها من يغلب عليها الإغارة و القتال.

و قبيلة الشاعر (الجكنيين) هى القبيلة المتميزة التى جمعت بين طلب العلم و فروسيه القتال، مع عفة عن أموال الناس.

فى هذا المناخ كان طلب المؤلف للعلم على نحو جدى مستمر، و لم يكن حلهم و ترحالهم ليؤثر على طلب المؤلف العلم، و هذا باد فى قول شاعرهم الشيخ العلامة المختار بن مؤنا:

و نحن ركب من الأشراف منتظم أجلّ ذا العصر قدرا دون أدنانا

قد اتخذن ظهور العيس مدرسة بها نبين دين الله تبياناً .. «١» و كان الجكنيون من أصحاب الطباع الكريمة، و السجايا الحميدة، و قد توارثوا هذه السجايا كابر عن كابر، و قد عرفوا بمحامد الأفعال فى الكرم إذ كانوا إذا حل ضيف على فقيرهم تباروا مرسلين ما عندهم من الأطعمة، حتى بدا الفقير كثير القرى، مبدالا للطعام الوفير لضيفه.

يقول تلميذه عطية محمد سالم: «و فى هذا الجو و تلك البيئه. نشأ رحمه الله كما سمعته يقول: «توفى والدى و أنا صغير، أقرأ فى جزء عم، و ترك لى ثروة من الحيوان و المال، و كانت سكناي فى بيت أخوالى و أمى ابنه عم أبى، و حفظت القرآن على خالى عبد الله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد بن نوح جد الأب المتقدم.

لقد أتم المؤلف حفظ القرآن و هو ابن عشر سنوات فى بيت أخواله. و تعلم رسم المصحف العثمانى ابن خالى سيدى محمد بن أحمد بن محمد المختار، و قرأت عليه التجويد .. و درس القرآن على أكثر من قراءة. (١) الأبيات من البحر البسيط.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥١

و درس الفقه المالكى و الأدب العربى و السير و الغزوات.

أما الفقه المالكى فقد درسه على يد الشيخ محمد بن صالح أولا، و على اليد نفسها درس نصف أليفه ابن مالك .. ثم درس بقيه العلوم و الفنون على أشياخ عديدين أمثال:

الشيخ محمد بن صالح المشهور بابن أحمد الأحزم، و الشيخ العلامة أحمد الأحزم ابن محمد المختار، و الشيخ العلامة أحمد بن عمر و الفقيه محمد النعمة بن زيدان، و أحمد ابن مود و غيرهم من الأشياخ و العلماء.

قال رحمه الله: و قد أخذنا عن هؤلاء المشايخ كل الفنون «النحو و الصرف و الأصول و البلاغة و بعض التفسير و الحديث ...» أما علوم المنطق و آداب البحث و المناظرة فقد حصلناه بالمطالعة.

قال تلميذ الشيخ عطية محمد سالم: «هذا ما أملاه على رحمه الله و سجلته عنه» (١).

و لم يكتف الشيخ بما حصّله من أشياخه بل انكب منقرا و متعمقا فى جل العلوم و الفنون «حتى غدا فى كل منه كأنه متخصص بل و له فى كل منه اجتهادات و مباحث مبتكرة» (٢).

و قد قصّ الشيخ رحمه الله رحلته مع العلم ألخصها باختصار:

«لما حفظت القرآن و أخذت الرسم العثمانى تفوقت فيه على الأقران، اشتدت عناية والدتى بى و كذلك أحوالى، فبدلوا جهودا حثيثة كى يدفونى باتجاه العلم، فجهزتنى والدتى بجملين مع خادم. حمل الجمل الأول بكتبى و الآخر عليه نفقتى و زادى» (٣).

عرف الشيخ «محمد الأمين الشنقيطى بن محمد المختار» بجلده و تصبّره على طلب العلم «جئت للشيخ فى قراءتى عليه فشرح لى كما كان يشرح و لكنه لم يشف ما فى نفسى على ما تعودت، و لم يرو لى ظمئى. و قمت من عنده و أنا أجدى فى حاجته إلى إزالة بعض اللبس، و إيضاح بعض المشاكل و كان الوقت ظهرا فأخذت الكتب و المراجع، فطالعت حتى العصر فلم أفرغ من حاجتى فعاودت حتى المغرب فلم أنته أيضا، فأوقد لى خادمى أعوادا (١) ينظر فى مجلة الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة، العدد (٣)، السنة (٦)، محرر (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م) ص (٢٨ - ٥٦). و انظر أيضا ترجمة المؤلف: بقلم تلميذه عطية محمد سالم المطبوعة مع محاضرة آيات الصفات التى ألقاها الشيخ محمد الأمين بالجامعة الإسلامية - المدينة المنورة فى (١٣) رمضان (١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م).

(٢) مقدمة أضواء البيان، (١ / ١١)، ط (١)، دار إحياء التراث (١٩٩٦).

(٣) مقدمة أضواء البيان، ص (١٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٢

من الحطب أقرأ على ضوئها كعادة الطلاب و واصلت المطالعة و أتناول الشاي الأخضر كلما مللت أو كسلت، و الخادم بجوارى يوقد الضوء حتى انبثق الفجر و أنا فى مجلسى لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام و إلى أن ارتفع النهار و قد فرغت من درسى و زال عنى لبسى و وجدت هذا المحل من الدرس كغيره فى الوضوح و الفهم» (١).

أعماله:

مارس «محمد الأمين» الفتيا و الدرس، و لكنه قد اشتهر بالقضاء، و بالفراسه، و كان موضع ثقة من قبل الشعب الموريتانى (٢).

خروجه من بلاده:

خرج الشيخ المؤلف من وطنه قاصدا الديار الحجازية لأداء الفريضة بنية العودة، غير أن وصوله إلى تلك البلاد حفزه على البقاء، و قد أثرت هذه الرحلة فيه من جوانب فكرية و فقهية و عقيدية، و يذكر تلميذه عطية محمد سالم ذلك تفصيلا: «لقد كان فى بلاده كغيره يسمع الدعاية ضد هذه البلاد باسم «الوهابية» إلا أن بعض الصّدف قد تغير من وجهات النظر «و إذا أراد الله أمرا هيا له الأسباب» و من عجيب الصّدف أن ينزل الشيخ خلال أدائه فريضة الحج بجوار خيمة الأمير خالد السديري دون أن يعرف أحدهما الآخر، و كان الأمير خالد يبحث مع جلسائه بيتا فى الأدب و هو ذواقه أديب و امتد الحديث إلى أن سألوا الشيخ لعله يشاركهم فوجدوا بحرا لا ساحل له» (٣).

إن مثل هذه الوقائع تسهم فى صياغة الإنسان صياغة أخرى جديدة «عندئذ أوصاه الأمير إن هو قدم المدينة أن يلتقى بالشيخين عبد الله الزاحم و عبد العزيز بن صالح، و فى المدينة التقى بهما رحمه الله ... و كان صريحا معهما فيما يسمع عن البلاد، و كانا حكيمين فيما يعرضان عليه ما عليه أهل هذه البلاد من مذهبهم فى الفقه، و منهجهم فى العقيدة، و كان أكثرهما مباحثه معه الشيخ عبد العزيز بن صالح، و أخيرا قدم للشيخ كتاب «المغنى» كأصل للمذهب و بعض كتب شيخ الإسلام كمنهج للعقيدة، فقرأها الشيخ، و تعددت اللقاءات فوجد الشيخ مذهبها معلوما لإمام جليل من أئمة أهل السنة، و سلف الأئمة أحمد بن حنبل رحمه الله كما وجد منهجا سليما لعقيدة السلف تعتمد الكتاب و السنة» (٤).

ثم درّس فى المسجد النبوى و أطلع على مذهب مالك فيها و على غيره من المذاهب، (١) مقدمه أضواء البيان، (١٣/١)، (١٤).

(٢) المصدر نفسه، (١٥/١).

(٣) المصدر نفسه، (١٦/١).

(٤) المصدر نفسه، (١٥/١)، (١٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٣

و لما أراد أن يحسم الكثير من الخلافات المذهبية، وجد نفسه مضطرا إلى دراسته الحديث الشريف فتعمق فيه بالإضافة إلى دراسته العميقة للقرآن، فهذه الدراسات مع قوة حافظته أو عظيم ملكته على الحفظ و الاستدلال و الفهم أورثه قوة فى تحديد الصحيح، و دقة فى الترجيح.

منهجه و دراسته العلمية:

كان من نهجه أن يستوفى أقوال العلماء، و يرجح ما يظهر له بمقتضى الدليل عقلا كان أو نقلا. أما فى العقيدة: فقد بلورها منطقا و دليلا، ثم لخصها فى محاضرة «الأسماء و الصفات» ثم وضعها إيضاحا شافيا فى أخريات حياته فى كتابي «آداب البحث» و «المناظرة دليلا و استدلالا و عرضا و إقناعا» و قد أثنى على أعماله العلمية فى العقيدة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله لما سمع بيان الشيخ لعقيدة السلف فى مسجد الشيخ رحمه الله، قال: جزى الله عنا الشيخ محمد الأمين خيرا على بيانه هذا، فالجاهل عرف العقيدة، و العالم عرف الطريقة و الأسلوب» (١).

منهجه فى أضواء البيان:

يوضح الشيخ «محمد أمين» سبب كتابته تأليفه لتفسير: «أضواء البيان» بقوله: «فإنه لما عرفنا إعراض أكثر المتسمين باسم المسلمين اليوم عن كتاب ربهم و نبذهم له وراء ظهورهم، و عدم رغبتهم فى وعده، و عدم خوفهم من وعيده، علمنا أن ذلك مما يعين من أعطاه الله علما بكتابه أن يجعل همته فى خدمته من بيان معانيه و إظهار محاسنه، و إزالة الإشكال عما أشكل منه، و بيان أحكامه، و الدعوة إلى

العمل به، و ترك كل ما يخالفه» (٢).

و أما المقصود بتأليف أضواء البيان فأمران:

أحدهما: بيان القرآن بالقرآن: لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير، و أجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جلّ و علا من الله جلّ و علا.

القراءة التى اعتمدها فى بيان القرآن بالقرآن:

من المعلوم أن فى قراءات القرآن من لا- يرقى إلى درجة التواتر، فهناك القراءات الصحيحة، و الشاذة، و المتواترة .. لذا فقد بين المؤلف نوع القراءة التى اعتمدها فى تفسيره (١) مقدمه أضواء البيان، (١٦ / ١٧).
(٢) المصدر نفسه، (٣٠ / ١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٤

القرآن بالقرآن «و قد التزمنا أننا لا نبيّن القرآن إلا بقراءة سبعة سواء كانت قراءة أخرى فى الآية المبيّنة نفسها، أو آية أخرى غيرها، و لا نعتمد على البيان بالقراءات الشاذة، أو ربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهادا للبيان بقراءة سبعة، و قراءة أبى جعفر و يعقوب و خلف ليست من الشاذ عندنا و لا عند المحققين من أهل العلم بالقراءات».

الثانى: بيان الأحكام الفقهية فى جميع الآيات المبيّنة بالفتح فى هذا الكتاب، فإننا نبين ما فيها من الأحكام و أدلتها من السنة، و أقوال العلماء، و نرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين، و لا لقول قائل معين لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله. لأن كل كلام فيه مقبول و مردود إلا كلامه صلى الله عليه و سلم، و معلوم أن الحق حق و لو كان قائله حقيرا. قال الشاعر:
لا تحقرن رأى و هو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر و هو أعزّ شىء يقتنى ما حط قيمته هوان الغائص

مسائل أخرى حواها «أضواء البيان»:

لقد احتوى الكتاب أمورا زائدة غير بيان القرآن، فقد حوى أحكام الفقه و تحقيق بعض المسائل اللغوية، و ما يحتاج إليه من صرف و إعراب، و استشهاد بشعر العرب، و تحقيق ما يحتاج إليه من المسائل الأصولية و الكلام على أسانيد الأحاديث ... كما ستراه إن شاء الله تعالى (١).

و لما كان البحث فى بيان القرآن بالقرآن «فنى من الفائدة تقديم ملخص إجمالى على ما تضمنه هذا الكتاب المبارك: من أنواع «بيان القرآن بالقرآن».

بيان الإجمالى الواقع بسبب الاشتراك، سواء كان الاشتراك فى اسم أو حرف و مثال الإجمال بسبب الاشتراك فى اسم قوله تعالى: ثَلَاثَةٌ قُرُوءٍ (٢). لأن القروء مشترك بين الطهر و الحيض، و قد أشار تعالى إلى أن المراد بأقراء العدة الأطهار بقوله تعالى: فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ (٣) فاللام للتوقيت، و وقت الطلاق المأمور به فيه فى الآية الطهر لا الحيض، و تدل له قرينة زيادة التاء فى قوله ثَلَاثَةٌ قُرُوءٍ لدلالته على تذكير المعدود و هو الأطهار فلو أراد الحيضات لقال: ثلاث قروء بلا هاء لأن العرب تقول: ثلاثة أطهار، و ثلاث حيضات (٤). (١) مقدمه المؤلف لأضواء البيان، (٣٠ / ٣١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٢٨).

(٣) سورة الطلاق، الآية: (١).

(٤) محمد أمين الشنقيطى، أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، (١ / ٣١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٥

أما أمثلة الاشتراك فى اسم قوله تعالى: وَ لِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ «١»، فإن العتيق يطلق بالاشتراك على القديم و على المعنى من الجابرة، و على الكريم، و كلها قيل به فى الآية. و تصريح الله بأنه أقدم البيوت التى وضعت للناس فى قوله: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا «٢» يدل للأول «٣».

و مثال الإجمال بسبب الاشتراك فى فعل قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) «٤». فإنه مشترك بين إقبال الليل و إدباره، و قد جاءت آية تؤيد أن معناه فى الآية «أدبر» و هى قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣) وَ الصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ (٣٤) «٥» فكون «عسس» فى الآية بمعنى أدبر يطابق معنى آية المدثر. هذه كما ترى، و لكن الغالب فى القرآن أنه تعالى يقسم بالليل و ظلامه إذا أقبل، و بالفجر و ضيائه إذا أشرق كقوله: وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) «٦».

و من أمثلة الاشتراك فى فعل قوله تعالى: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَرَّبَّهُمْ يَعْدِلُونَ «٧». فإنه مشترك بين قولهم عدل به غيره، إذا سواه به، و منه قول جرير: [الوافر]

أ ثعلبة الفوارس أم رياحا عدلت به طهية و الخشابا

أى سويتهم به، و بين قولهم عدل بمعنى صد و مال. و يدل للأول قوله تعالى: تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) «٨».

أما الإجمال بسبب الاشتراك فى حرف قوله تعالى: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً «٩».

فإن الواو فى قوله «وَ عَلَى سَمْعِهِمْ» و قوله: «وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ» محتملة للعطف على ما قبلها و للاستئناف، و لكنه تعالى بين فى سورة الجاثية أن قوله هنا: و على «سمعهم» معطوف و على «قلوبهم» و أن قوله «وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً» جملة مستأنفة مبتدأ و خبر، فيكون الختم على القلوب و الأسماع و الغشاوة على خصوص الأبصار، و الآية التى بين بها ذلك هى قوله (١) سورة الحج، الآية: (٢٩).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (٩٦).

(٣) محمد أمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١ / ٣١).

(٤) سورة التكوير، الآية: (١٧).

(٥) سورة المدثر، الآيتان: (٣٣، ٣٤).

(٦) سورة الليل، الآيتان: (١، ٢).

(٧) سورة الأنعام، الآية: (١).

(٨) سورة الشعراء، الآيتان: (٩٧، ٩٨). و انظر أضواء البيان، (١ / ٣١، ٣٢).

(٩) سورة البقرة، الآية: (٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٦

تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً «١».

و من أمثلة الاشتراك فى حرف قوله تعالى: فَاْمَسَّحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ «٢». فإن لفظه «من» مشتركة بين التبويض، و ابتداء الغاية، و قد قال الشافعى و أحمد رحمهما الله:

هى فى هذه الآية الكريمة: للتبويض فاشترط صعيدا له غبار يعلق باليد، و قال مالك و أبو حنيفة رحمهما الله: هى لابتداء الغاية فلم يشترط ما له غبار بل أجازا التيمم على الرمل و الحجارة و قولهما أنسب لأن قوله تعالى بعده: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ «٣»

نكرة فى سياق النفى زيدت قبلها لفظة «من» لتوكيد العموم، و النكرة إذا كانت كذلك فهى نص صريح فى شمول النفى لجميع أفراد الجنس، و التكليف بخصوص ما له غبار لا يخلو من حرج لأن كثيرا من بلاد الله لا يوجد فيها إلا الجبال أو الرمال «(٤)».

من أنواع البيان فى القرآن كما بينه صاحب أضواء البيان:

١- بيان الإجمال الواقع بسبب إبهام فى اسم جنس جمعا: ورد فى قوله تعالى: فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴿٥﴾.

فقد أبهمها هنا، و ذكرها فى قوله تعالى فى سورة الأعراف: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَعْفُ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ «(٦)».

٢- و من أمثلة البيان فى اسم جنس مفرد قوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴿٧﴾. فقد أبهمها هنا و بينها بقوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَ نَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ «(٨)».

٣- و من أمثلة الإجمال بسبب الإبهام فى اسم جمع قوله تعالى فى سورة الدخان: (١) سورة الجاثية، الآية: (٢٣).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٦).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٦).

(٤) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١ / ٣٢).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٣٧).

(٦) سورة الأعراف، الآية: (٢٣).

(٧) سورة الأعراف، الآية: (١٣٧).

(٨) سورة القصص، الآيتان: (٥، ٦). و انظر أضواء البيان، (١ / ٣٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٧

كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاطٍ وَ عَيْوُنٍ ﴿٢٥﴾ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَ نَعْمَ إِذْ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ ﴿٢٨﴾ «(١)» فالقوم اسم جمع و قد أبهمه هنا؛ و كذلك قوله فى الأعراف:

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ ﴿٢﴾. فإنه أبهم فيه القوم أيضا، و لكنه بين فى سورة الشعراء أن المراد بأولئك القوم بنو إسرائيل «(٣)» لقوله فى القصة بعينها:

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَاطٍ وَ عَيْوُنٍ ﴿٥٧﴾ وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ «(٤)».

و مثله قوله تعالى: وَ صَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ «(٥)» و أشار إلى أنها سبأ فى قوله تعالى عن الهدهد: فَقَالَ أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتِكَ مِنْ سَبَأٍ بَنِيًا يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنْى وَ حِدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ «(٦)» و فى الأضواء شواهد كثيرة .. «(٧)».

٤- و من أمثلة الإجمال بسبب الإبهام فى صلة الموصول قوله تعالى: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ «(٨)» فقد أبهم هذا المتلو عليهم الذى صلة الموصول و لكنه بينه بقوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمُوقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَ مَا ذَبِحَ عَلَى النَّصْبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فِى يَوْمِ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «(٣)» «(٩)».

- ٥- و من أمثلة الإبهام بمعنى حرف قوله تعالى: وَ أَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ «١٠». فَإِنْ لَفْظُهُ «مِنْ» فِيهِ لِلتَّبْعِيضِ، وَ لَكِنْ هَذَا الْبَعْضُ الْمَدْلُولُ عَلَيْهِ بِحَرْفِ التَّبْعِيضِ الْمَأْمُورِ بِإِنْفَاقِهِ مَبْهَمٌ هُنَا، وَ قَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: وَ يَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ «١١». «و العفو: الزائد على الحاجة الضرورية» «١٢». (١) سورة الدخان، الآيات: (٢٥-٢٨).
- (٢) سورة الأعراف، الآية: (١٣٧).
- (٣) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١/٣٣).
- (٤) سورة الشعراء، الآيات: (٥٧-٥٩).
- (٥) سورة النمل، الآية: (٤٣).
- (٦) سورة النمل، الآيات: (٢٢، ٢٣).
- (٧) أضواء البيان، (١/٣٣).
- (٨) سورة المائدة، الآية: (١).
- (٩) سورة المائدة، الآية: (٣). و انظر أضواء البيان، (١/٣٣).
- (١٠) سورة البقرة، الآية: (٢٥٤).
- (١١) سورة البقرة، الآية: (٢١٩).
- (١٢) أضواء البيان، (١/٣٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٨

- ٦- و من أنواع البيان فى هذا الكتاب الكريم بيان الإجمال الواقع بسبب احتمال فى مفسر الضمير و هو كثير و من أمثله قوله تعالى فى سورة العاديات وَ إِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكْ لَشَهِيدٌ (٧) «١». فَإِنَّ الضمير [فى «إنه»] يحتمل أن يكون عائدا على الإنسان، و أن يكون عائدا على رب الإنسان المذكور فى قوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) «٢». فإنه للإنسان بلا- نزاع، و تفريق الضمائر بجعل الأول للرب و الثانى للإنسان لا يليق بالنظم الكريم «٣».
- ٧- و من أنواع البيان فى القرآن الكريم على ما يذكره الشنقيطى فى الأضواء «أن يذكر شىء» فى موضع ثم يقع سؤال عنه و جواب فى موضع آخر كقوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) «٤». فإنه لم يبين هنا ما المراد بالعالمين؟ و لكنه وقع سؤال عنهم و جواب فى موضع آخر و هو قوله تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا «٥». و سؤال فرعون- لعنه الله- و إن كان فى الأصل عن الرب جلّ و علا فقد دخل فيه الجواب عن المراد بالعالمين كما ترى «٦».
- ٨- و بين الشنقيطى نوعا من البيان القرآنى و هو أن يكون الظاهر المتبادر من الآية بحسب الوضع اللغوى غير مراد بدليل قرآنى آخر على أن المراد غيره مثل قوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ «٧».
- فظاهر الآية: «أن الطلاق كله محصور فى المرتين»، و لكنه تعالى يبين أن المراد بالمحصور بالمرتين خصوص الطلاق الذى تملك بعد الرجعة بقوله: فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ «٨». و من النصوص القرآنية التى لم يرد ظاهرها قوله تعالى: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ «٩» فإن المتبادر من مفهوم الغاية أنه إذا بلغ أشده فلا مانع من قربان ماله بغير التى هى أحسن، و لكنه تعالى يبين أن المراد بالغاية أنه إن بلغها يدفع إليه ماله إن أونس منه الرشد و ذلك فى قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ «١٠». (١) سورة العاديات، الآية: (٧).
- (٢) سورة العاديات، الآية: (٦).
- (٣) أضواء البيان، (١/٣٤).

(٤) سورة الفاتحة، الآية: (٢).

(٥) سورة الشعراء، الآيتان: (٢٣، ٢٤).

(٦) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١/ ٣٤).

(٧) سورة البقرة، الآية: (٢٢٩).

(٨) سورة البقرة، الآية: (٢٣٠).

(٩) سورة الأنعام، الآية: (١٥٢).

(١٠) سورة النساء، الآية: (٦). وانظر أضواء البيان، (١/ ٣٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٥٩

٩- و من أنواع البيان التى تضمنها هذا الكتاب المبارك: «أن يقول بعض العلماء فى الآية قولاً و يكون فى نفس الآية قرينه تدل على بطلان ذلك القول، و مثاله قول أبى حنيفة رحمه الله أن المسلم يقتل بالكافر الذمى مثلاً قائلاً أن ذلك يفيد عموم النفس بالنفس فى قوله: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ «١». فإن قوله تعالى فى آخر الآية فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ «٢». قرينه على عدم دخول الكافر لأن صدقته لا تكفر عنه شيئاً، إذ لا تنفع الأعمال الصالحة مع الكفر» «٣».

١٠- و من أنواع البيان فى القرآن «أن يذكر وقوع شىء فى القرآن ثم يذكر فى محل آخر كيفية وقوعه كقوله تعالى: وَإِذْ وَاوَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ «٤».

فإنه لم يبين هنا كيفية الوعد بها هل كانت مجتمعة أو مفردة؟ ولكنه بينها فى الأعراف بقوله: وَ وَاوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً «٥».

١١- و من أنواع البيان الواردة فى الكتاب المبارك: «أن يقع طلباً لأمر، و يبين فى موضع آخر المقصود من ذلك الأمر المطلوب، و مثاله قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْ لَأُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ .. «٦». فإنه بين فى الفرقان أن مرادهم بالملك المقترح إنزاله أن يكون نذيراً آخر معه صلى الله عليه و سلم «٧» و ذلك فى قوله تعالى: وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَشْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا «٧» «٨».

١٢- و من صور البيان فى القرآن: «أن يذكر أمر فى موضع ثم يذكر فى موضع آخر شىء يتعلق بذلك الأمر «٩» كأن يذكر له سبب أو مفعول أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو متعلق، فمثال ذكر سببه فى قوله تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً «١٠» فإنه لم يبين هنا سبب قسوة قلوبهم و لكنه بينه بقوله تعالى: فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ (١) سورة المائدة، الآية: (٤٥).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٤٥).

(٣) أضواء البيان، (١/ ٣٤). و أما موضوع قتل المسلم بالكافر الذمى فهى مسألة خلافية تراجع فى أمهات كتب الفقه. و سيتم التطرق إليها فى ثنايا الحديث حول هذا التفسير إن شاء الله.

(٤) سورة البقرة، الآية: (٥١).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٤٢).

(٦) سورة الأنعام، الآية: (٨).

(٧) أضواء البيان، (١/ ٣٥).

(٨) سورة الفرقان، الآية: (٧).

(٩) أضواء البيان، (١/ ٣٥).

(١٠) سورة البقرة، الآية: (٧٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٠

لَعَنَاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴿١﴾ و قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ (٢).

و من أمثلة ذكر السبب قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿٣﴾ فإنه أشار هنا بآية لسبب اسودادها بقوله: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ (٤). و بين ذلك فى مواضع أخرى كقوله تعالى:

و يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴿٥﴾.

و من أمثلة ذكر المفعول الواحد قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ (٦). فإن لم يذكر هنا مفعول يخشى و لكنه أشار إليه فى هود و الذاريات و إيضاحه أن الإشارة فى قوله هنا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ راجعه إلى ما أصاب فرعون من النكال و العذاب المذكور فى قوله: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى ﴿٢٥﴾ (٧).

و مثاله فى أحد المفعولين قوله: ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴿٨﴾. و نحوها من جميع آيات اتخاذهم العجل إليها فإن المفعول الثانى محذوف فى جميعها، و تقديره: اتخذتم العجل إليها، و نكتة حذفه دائما التنبيه على أنه لا ينبغي أن يتلفظ بأن عجلا مصطنعا إليه و قد أشار إلى هذا المفعول فى سورة طه ﴿٩﴾ بقوله: فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيحِي ﴿٨٨﴾ (١٠).. و مثال ذكر ظرف المكان الوارد فى القرآن قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ (١١) ثم بين فى سورة الروم أن السموات و الأرض من الظروف المكانية لحمده جلّ و علا، و ذلك فى قوله تعالى: وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ﴿١٢﴾ و مثال ذكر ظرف الزمان فى سورة القصص ﴿١٣﴾ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَ الْآخِرَةِ ﴿١٤﴾. (١) سورة المائدة، الآية: (١٣).

(٢) سورة الحديد، الآية: (١٦).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٠٦).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٠٦).

(٥) سورة الزمر، الآية: (٦٠).

(٦) سورة النازعات، الآية: (٢٦).

(٧) سورة النازعات، الآية: (٢٥).

(٨) سورة البقرة، الآية: (٥١).

(٩) أضواء البيان، (١/٣٦).

(١٠) سورة طه، الآيتان: (٨٧، ٨٨).

(١١) سورة الفاتحة، الآية: (٢).

(١٢) سورة الروم، الآية: (١٨).

(١٣) أضواء البيان، (١/٣٦).

(١٤) سورة القصص، الآية: (٧٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦١

١٣- و من أنواع البيان المذكورة فى كتاب الله العظيم الاستدلال على أحد المعانى الداخلة فى معنى الآية بكونه هو الغالب فى القرآن، فغلبته فيه دليل على عدم خروجه من معنى الآية.

مثال: قوله تعالى: لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي قَالَ بعض العلماء فى تفسير الغلبة «الحجة و البيان» (١). «و الغالب فى القرآن هو استعمال الغلبة فى الغلبة بالسيف و السنان» (٢) لأن القرآن خير ما يبين» (٣). و قد قال سبحانه و تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ (٤). و هناك آيات كثيرة تؤكد أن الغلبة فى القرآن عموماً هى غلبة السيف كما قال محمد الأمين الشنقيطى.

مثال آخر: آيات الصفات:

ثم يرى الشنقيطى أن جميع الآيات المتحدثة عن صفاته سبحانه فى القرآن على نحو آيات الاستواء، و اليد و الوجه، و نحو ذلك من جميع الصفات «فهو موصوف به حقيقة لا مجازاً مع تنزيهه جلّ و علا عن مشابهة صفات الحوادث» (٥). و ذلك البيان العظيم لجميع الصفات فى قوله جلّ و علا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٦). فنفى عنه مماثلة الحوادث بقوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «و أثبت الصفات له على الحقيقة» بقوله: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٧).

١٤- و من أنواع البيان المذكورة فى الكتاب الكريم «تفسير اللفظ بلفظ أشهر منه و أوضح عند السامع كقوله فى حجارة لوط: وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٨). فقد بين الله تعالى فى القصة عينها المراد بالسجيل: الطين قالوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣)» (٩).

١٥- و من أنواع البيان المذكورة فى الكتاب الكريم أن يرد لفظ محتمل لأن يراد به الذكر و أن تراد به الأنثى فيبين المراد منهما، و مثاله قوله تعالى (١٠): وَ إِذِ قَاتَلْتُمُ نَفْسًا (١١). (١) سورة المجادلة، الآية: (٢١).

(٢) أضواء البيان، (٣٧/١).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٢).

(٤) أضواء البيان، (٣٧/١).

(٥) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٦) و انظر أضواء البيان، (٣٧/٢).

(٧) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٨) سورة الحجر، الآية: (٤).

(٩) سورة الذاريات، الآيتان: (٣٢، ٣٣).

(١٠) الشنقيطى، أضواء البيان (١/٤٠).

(١١) سورة البقرة، الآية: (٧٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٢

يريد محمد الأمين الشنقيطى أن النفس محتملة تطلق على الذكر و الأنثى، غير أن القرآن قد بين أن المقصود بالنفس الذكر و ذلك بتذكير الضمير العائد إليها فى قوله: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا (١).

١٦- و من أنواع البيان المذكورة فيه أن يكون الله خلق شيئاً لحكم متعددة فيذكر بعضها فى موضع، فإننا نبين البقية المذكورة فى المواضع الأخر، و مثاله قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا (٢) فإن من حكم خلق النجوم تزيين السماء الدنيا و رجم الشياطين أيضاً كما بينه تعالى بقوله: وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ (٣). و قوله: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٤) وَ حَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) (٤).

١٧- و من أنواع البيان المذكورة فى الكتاب المبارك «أن يذكر أن شيئاً سيقع ثم يبين وقوعه بالفعل كقوله: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا (٥) و صرح فى مكان آخر بأنهم قالوا ذلك بالفعل بقوله: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)» (٦).

١٨- و من أنواع البيان المذكورة فى كتاب الله الكريم «أن يحيل تعالى على شىء ذكر فى آية أخرى فإننا نبين الآية المحال عليها كقوله فى النساء: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ (٧). و الآية المحال عليها هى قوله تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ (٨).

١٩- و من أهم أنواع البيان المذكورة فيه أن يشير الله تعالى فى الآية من غير تصريح إلى برهان يكثر الاستدلال به فى القرآن العظيم على شىء فإننا نبين ذلك، و مثاله قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ (٩). (١) سورة البقرة، الآية: (٧٣). و انظر أضواء البيان، (١/ ٤٠).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٩٧).

(٣) سورة الملك، الآية: (٥).

(٤) سورة الصافات، الآيتان: (٦، ٧).

(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).

(٦) سورة النحل، الآية: (٣٥). و انظر أضواء البيان، (١/ ٤٠).

(٧) سورة النساء، الآية: (١٤٠).

(٨) سورة الأنعام، الآية: (٦٨). و انظر أضواء البيان، (١/ ٤٠).

(٩) سورة البقرة، الآيتان: (٢١، ٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٣

فقد أشار سبحانه و تعالى فى هذه الآية الكريمة إلى ثلاثة براهين من براهين البعث يكثر الاستدلال على البعث بكل واحد منها فى القرآن (١).

الأول: خلق الخلائق... فإنه من أعظم الأدلة على القدرة على الخلق مرة أخرى، و قد أشار تعالى إلى هذا البرهان هنا بقوله: الَّذِي خَلَقَكُمْ (٢) و أوضحه فى آيات كثيرة كقوله: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (٣). وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٤) ..

الثانى: خلق السموات و الأرض. لأن من خلق ما هو أكبر و أعظم فهو قادر على خلق ما هو أصغر بلا شك، و أشار لذلك هنا بقوله: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (٥) ..

و أوضحه فى آيات كثيرة كقوله: لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (٦).

الثالث: إحياء الأرض بعد موتها و قد أشار له هنا بقوله تعالى: وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ (٧) و أوضحه فى آيات كثيرة منها: إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى (٨) ...

٢٠- و من أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح فى بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه كقوله: ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ (٩). فقد صرح بدخول البدن فى هذا العموم بقوله بعده: وَ الْبُذُنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ (١٠) ...

٢١- و قد بين محمد الأمين مؤلف أضواء البيان أنه إن كان للآية الكريمة ميبين من القرآن غير واف بالمقصود من تمام البيان فإننا نتمم البيان من السنة من حيث إنها تفسير للمبين باسم الفاعل، و مثاله قوله تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١١).

فقد أشار تعالى إلى أوقاتها (١٢) فى قوله: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ (١) أضواء البيان، (١/ ٤١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢١).

(٣) سورة يس، الآية: (٧٩).

(٤) سورة الروم، الآية: (٢٧). وانظر أضواء البيان، (١ / ٤١).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٢).

(٦) سورة غافر، الآية: (٥٧).

(٧) سورة البقرة، الآية: (٢٢).

(٨) سورة فصلت، الآية: (٣٩). وانظر أضواء البيان، (١ / ٤١).

(٩) سورة الحج، الآية: (٣٢).

(١٠) سورة الحج، الآية: (٣٦). وانظر أضواء البيان، (١ / ٤١).

(١١) سورة النساء، الآية: (١٠٣).

(١٢) أضواء البيان، (١ / ٤١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٤

اللَّيْلِ «١». و قوله: وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرْفِي النَّهَارِ وَ زُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ «٢».

ثم يبين المؤلف أن ما ذكره من أنواع البيانات فى الكتاب الكريم «تعددتها فى القرآن بكثرة، و منها ما يتعدد بغير كثرة، و ربما ذكرنا فردا من أفراد البيان لا نظير له كإشارته تعالى إلى أقل أمد الحمل بقوله: وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا «٣».

أقسام البيان بالنسبة إلى المنطوق و المفهوم:

يرى المؤلف أن أقسام البيان بالنسبة إلى المنطوق و المفهوم أربعة: و دليل ذلك «لأن كلا من المبين باسم المفعول و اسم الفاعل قد يكون منطوقا، و قد يكون مفهوما، فالمجموع أربعة من ضرب حالتى المنطوق فى حالتى المفهوم «٤»:

الأول: بيان منطوق بمنطوق كبيان قوله تعالى: إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ «٥». بقوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ «٦».

الثانى: بيان مفهوم بمنطوق كبيان مفهوم قوله: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ «٧» بمنطوق قوله تعالى: وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى «٨».

الثالثة: بيان منطوق بمفهوم كبيان قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ «٩» بمفهوم آية الأنعام فإن تحريم الدم مطلقا منطوق هنا، و قوله تعالى: دَمًا مَسْفُوحًا «١٠» فإن هذا «يدل بمفهوم مخالفته على أن غير المسفوح ليس كذلك فيبين هذا المفهوم أن المراد بالدم فى الآية الأولى غير المسفوح، و من أمثله بيان قوله: وَ الزَّانِي «١١» بمفهوم الموافقة فى قوله: فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ «١٢» فإنه يفهم من مفهوم موافقته أن (١) سورة الإسراء، الآية: (٧٨).

(٢) سورة هود، الآية: (١١٤).

(٣) سورة الأحقاف، الآية: (١٥).

(٤) أضواء البيان، (١ / ٤٢).

(٥) سورة المائدة، الآية: (١).

(٦) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٧) سورة البقرة، الآية: (٢).

(٨) سورة فصلت، الآية: (٤٤). و انظر أضواء البيان، (١ / ٤٢).

(٩) سورة المائدة، الآية: (٣).

(١٠) سورة الأنعام، الآية: (١٤٥).

(١١) سورة النور، الآية: (٢).

(١٢) سورة النساء، الآية: (٢٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٥

العبد الذكر كالأمة فى ذلك يجلد خمسين فيبين هذا المفهوم أن المراد بالزاني خصوص الحر» (١).

ثم يكشف الشنقيطى أن خلافا اصطلاحيا واقعا بين العلماء «و اعلم أن مثل هذا من مفهوم الموافقة يسميه الشافعى و بعض الأصوليين قياسا، و هو المعروف عندهم بالقياس فى معنى الأصل، و يسمى مفهوم الموافقة، و إلغاء الفارق، و تنقيح المناط و أكثر أهل الأصول على أنه مفهوم و ليس بقياس» (٢).

الرابعة: بيان مفهوم بمفهوم، القول أن المراد بالمحصنات: الحرائر كما روى عن مجاهد فإنه يدل بمفهومه على أن الأمة الكتابية لا يجوز نكاحها، و يدل لهذا أيضا مفهوم قوله تعالى: «وَمَنْ لَّمْ يَسْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ (٣) فمفهوم قوله المؤمنات يدل على منع تزويج الإماء الكافرات و لو عند الضرورة» (٤).

لقد رأينا مما سبق العرض الإجمالى لأنواع بيان القرآن بالقرآن على نحو ما رآه الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار «الشنقيطى» و جعلتنا هذه التوطئة نعيش الجو العام «لأضواء البيان»، و أرى أن من المناسب أن نلخص المقدمة التى أثبتها الشيخ الشنقيطى قبل بدئه تفسير سورة البقرة، تلك المقدمة التى سماها «مقدمة فى تعريف الإجمال و البيان فى اصطلاح أهل الأصول [يقصد علماء أصول الفقه .

المجمل فى اللغة: المجموع، و جملة الشئ مجموعه .. و فى الاصطلاح: المجمل:

ما احتمال معنيين أو أكثر من غير ترجيح لواحد منهما.

* المبهم: أعم من المجمل فكل مجمل مبهم، و ليس كل مبهم مجمل. فقولك:

«تصدق بهذا الدرهم على رجل» فيه إيهام و ليس فيه إجمال، لأن معناه لا إشكال فيه لأن كل رجل تصدق عليه حصل به المقصود.

و يدلل الشنقيطى على صحة تحديده لمعنى المجمل بقوله: «أن اللفظ لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يدل على معنى واحد لا يحتمل غيره فهم النص نحو تَلَكَّ عَشْرَةَ كَامِلَةً (٥).

و إما أن يحتمل غيره، و هذا له حالتان: (١) أضواء البيان (١/٤٢).

(٢) المصدر نفسه، (١/٤٢).

(٣) سورة النساء، الآية: (٢٥).

(٤) أضواء البيان، (١/٤٣).

(٥) سورة البقرة، الآية: (١٩٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٦

الأولى: أن يكون أحد المحتملين أظهر، و الثانية: أن يتساويا بأن لا يكون أحدهما أظهر من الآخر، فإن كان أحد المعنيين أظهر فهو الظاهر، و مقابله محتمل ... و إن استويا فهو المجمل.

أما النص فلا يجوز العدول عنه إلا بنسخ ... لأن النص قاطع فى دلالة.

* و الظاهر: يلتزم به، إنما يعدل عنه إذا دلّ دليل على أن المراد منه خلاف الظاهر المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح .. و صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح هو المعروف فى اصطلاح أهل الأصول بالتأويل ...

و النصوص قد تكون واضحة الدلالة من جهة، و لكنها مجملة محتملة من جهة ثانية مثل: «وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (١) فإتيان الحق

واضح فى دلالة النص، لكنه مجمل فى المقدار الذى يجب فيه إتيان الحق لاحتماله النصف أو أقل أو أكثر.

* أما البيان: فهو الإيضاح. و علماء الأصول فى أغليتهم لا يطلقون البيان إلا على إظهار ما كان خافيا.

و أجاز العلماء المحققون بيان المتواتر من كتاب أو سنة بأخبار الآحاد، و يجوز بيان المنطوق بالمفهوم بخلاف أكثر المالكية.

و قد نقل الشنقيطى خلاف علماء أصول الفقه حول: هل البيان بالقول أقوى أو بيان الفعل. لكن الشنقيطى اعتمد كلام الشاطبى: «و هو

أن كل واحد منهما أقوى من صاحبه من جهة، فالفعل يبلغ من بيان الكيفيات المعينة المخصوصة ما لا يبلغه القول، و القول يبلغ من

بيان الخصوص و العموم فى الأحوال و الأشخاص ما لا يبلغه الفعل» (٢).

و هناك مسائل أخرى فى هذه المقدمة حول البيان لم أخصها خشية الإطالة. عدا عن كوننا أثبتنا الشيء الأساس اللازم فى فهم منهج

المؤلف رحمه الله.

المسائل الفقهية فى تفسير «أضواء البيان»:

لقد بدا الشيخ الشنقيطى صاحب نظر، و توفيق بين النصوص القرآنية و الحديثية، إلى جانب دراسته لأقوال العلماء الآخرين المنصبة

على هذه النصوص الشريفة- فقد تحدث المؤلف عن المقصود بالإنفاق فى قوله تعالى: (١) سورة الأنعام، الآية: (١٤١).

(٢) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١/٤٣، ٤٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٧

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ «١».

قال: عبر فى هذه الآية الكريمة ب «من التبعية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله، و لم يبين هنا القدر الذى ينبغى

إنفاقه و الذى ينبغى إمساكه [و هذا هو المجمل . و لكنه يبين فى مواضع أخر أن القدر الذى ينبغى إنفاقه هو الزائد على الحاجة و سد

الخلّة التى لا بد منها، و ذلك كقوله:

وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ «٢». و المراد بالعمو الزائد على قدر الحاجة التى لا بد منها على أصح التفاسير و هو مذهب

الجمهور» (٣).

و منه قوله تعالى: حَتَّىٰ عَفْوًا «٤». أى كثرُوا و كشرت أموالهم و أولادهم. و يرى المؤلف أن الإنفاق يجب أن يقتصر بالاعتدال، و

بالصواب، قال تعالى: وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ «٥». فيتعين الوسط بين الأمرين كما بينه بقوله تعالى:

وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُشِيرُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا «٦» و يجب على المنفق أن يفرق بين الجود و التبذير، و بين البخل و

الاقتصاد... فالمنع محل الإعطاء مذموم وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ «٧». و الإعطاء فى محل المنع مذموم أيضا و قد نهى الله

عنه نبيه صلى الله عليه و سلم وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ.

هنا يحاول الشنقيطى إزالة اللبس أو الإشكال الذى قد يقوم فى بعض الأذهان كأن يقولوا: «هذا الذى قررتم يقتضى أن الإنفاق

المحمود هو إنفاق ما زاد على الحاجة الضرورية، على أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق و هم فى حاجة إلى ما أنفقوا و ذلك فى

قوله: وَ يُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقْ شَحْنَفِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «٨».

أجاب المؤلف على هذه الإشكالية:

«من أن لكل مقام مقالا ففى بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعا و ذلك إذا كانت على المنفق نفقات واجبة كنفقة الزوجات و نحوها،

فتبرع بالإنفاق فى غير واجب، و ترك (١) سورة البقرة، الآية: (٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢١٩).

(٣) محمد الأمين الشنقيطى، (١/٥١).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٩٥).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (٢٩).

(٦) سورة الفرقان، الآية: (٦٧).

(٧) سورة الإسراء، الآية: (٢٩).

(٨) سورة الحشر، الآية: (٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٨

الغرض لقوله صلى الله عليه و سلم: «و ابدأ بمن تعول» «١». و كأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينطق ماله و يرجع إلى الناس يسألهم ما له فلا يجوز له ذلك، و الإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة و كان واثقا من نفسه بالصبر و التعفف و عدم السؤال «٢» و لكى يتضح نهج صاحب أضواء البيان فى معالجته للمسائل الفقهية يمكن عرض فهمه للحكم الشرعى فى أكل الميتة و ما يتعلق بها من أحكام المضطر و المكروه:

قال تعالى: فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ «٣».

نلاحظ إشارة المؤلف إلى اللفظ العام الوارد فى النص و كأن اللفظ يحتاج إلى تفسير.

يقول الشنقيطى: «لم يبين هنا سبب اضطراره، و لم يبين المراد بالباغى و العادى» «٤» لذا فإن المؤلف يستقصى الآيات الواردة فى الموضوع فيقول: «و لكنه أشار فى موضوع آخر إلى سبب الاضطرار المذكور: المَحْمَصَةُ و هى الجوع، و هو قوله تعالى: فَمَنْ اضْطُرَّ فى مَحْمَصَةٍ «٥» و أشار إلى أن المراد بالباغى و العادى المتجانف للإثم، و ذلك فى قوله: فَمَنْ اضْطُرَّ فى مَحْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ «٦» و المتجانف: المائل، و منه قول الأعشى:

تجانف عن حجر اليمامة ناقتى و ما قصدت من أهلها لسوائكا «٧»

يفهم من الآية أن الباغى و العادى كلاهما متجانف للإثم و هذا ما يفهم منها، و قال بعض العلماء: الإثم الذى تجانف إليه الباغى هو الخروج على إمام المسلمين، و كثيرا ما يطلق اسم البغى على مخالفة الإمام، و الإثم الذى تجانف إليه العادى هو إضافة الطريق، و قطعها على المسلمين و يلحق بذلك كل سفر فى معصية الله.

و قال بعض العلماء: إثم الباغى و العادى أكلهما المحرم مع وجود غيره و عليه فهو كالتأكيد لقوله فَمَنْ اضْطُرَّ. و على القول الأول: لا يجوز لقاطع الطريق و الخارج على الإمام الأكل من الميتة و إن خافا الهلاك ما لم يتوبا، و على الثانى يجوز لهما أكل الميتة إن خافا الهلاك و إن لم يتوبا «٨». (١) أخرجه مسلم فى (الحديث: ٢٣٨٣)، و أخرجه النسائى فى (الحديث: ٢٥٤٢).

(٢) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١ / ٥١، ٥٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٧٣).

(٤) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١ / ٨٥).

(٥) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٦) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٧) البيت من البحر الطويل.

(٨) محمد الأمين، أضواء البيان، (١ / ٨٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٦٩

و يستفيد صاحب أضواء البيان من آراء السابقين التى تساعد على فهم النص و تضىء المعنى أمام الدارسين، فقد نقل عن القرطبى عن قتادة و الحسن و الربيع و ابن زيد و عكرمة أن المعنى «غَيْرَ بَاغٍ» أى فى أكله فوق حاجته «و لا- عادٍ»: بأن يجد عن هذه المحرمات

مندوحة و يأكلها» (١).

و يستعين الشنقيطى فى توضيح المقصود بنقل عن القرطبى ينقله عن السدى:

(عَيَّرَ باغ): فى أكلها شهوة و تلذذا، و لا عاد: باستيفاء الأكل حدّ الشَّبع» (٢).

غير أن الشنقيطى المالكى يستعين كثيرا بالقرطبى المالكى فى استقصاء الواردة فى هذا النص: فينقل عن مجاهد و ابن جبير و غيرهما: المعنى: (غير باغ) على المسلمين، و لا عاد عليهم، فيدخل فى الباغى و العادى قطاع الطريق و الخارج على السلطان و المسافر فى قطع الرحم و الغارة على المسلمين و ما شاكله ..» (٣).

قال القرطبى بعدئذ مباشرة: «و هذا صحيح فإن أصل البغى فى اللغة قصد الفساد؛ يقال: بغت المرأة تبغى بغاء إذا فجرت! قال الله تعالى: وَلَا تُكْرِهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ» (٤).

و يلاحظ أن مؤلف أضواء البيان تبنى فهم القرطبى كونه نقله دون تعليق و خاصة الرأى الثانى.

و يمكن الجمع بين الآراء لأنها غير متعارضة إنما متكاملة، و النص يسمح بذلك:

ف «عَيَّرَ باغ و لا عاد» تفيد عدم أكله فوق حاجته من غير شهوة و لا تلذذ، دونما شبع، غير مرتكب للمعاصى ساعة أكله لما حرّم الله فى الحالة العادية.

مسائل تتعلق بالاضطرار إلى أكل الميتة:

قال صاحب أضواء البيان:

المسألة الأولى: أجمع العلماء على أن المضطر له أن يأكل من الميتة ما يسد رمقه، و يمسك حياته و أجمعوا أيضا على أنه يحرم ما زاد على الشبع، و اختلفوا فى نفس الشَّبع هل له أن يشبع من الميتة أو ليس له مجاوزة ما يسد الرَّمق، و يأمن معه الموت. فذهب مالك - رحمه الله - إلى أن له أن يشبع من الميتة و يتزود منها، و قال فى موطنه: (١) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، مج (١)، (٢/٢٣٦). ط (٢)، القاهرة، دار الحديث: (١٩٩٦ م).

(٢) المصدر نفسه. و انظر أضواء البيان، (١/٨٥، ٨٦).

(٣) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، مج (١)، (٢/٢٣٦)، ط (٢)، القاهرة، دار الحديث: (١٩٩٦ م).

(٤) سورة النور، الآية: (٣٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٠

إن أحسن ما سمع فى الرجل يضطر إلى الميتة أنه يأكل منها حتى يشبع، و يتزود منها، فإن وجد عنها غنى طرحها.

قال ابن عبد البر: حجة مالك أن المضطر ليس ممن حرمت عليه الميتة، فإذا كانت حلالا له أكل منها ما شاء حتى يجد غيرها، فتحرم عليه. و ذهب ابن الماجشون و ابن حبيب من المالكية إلى أنه ليس له أن يأكل منها إلّا قدر ما يسد الرَّمق و يمسك الحياة، و حجتهما: أن الميتة لا تباح إلا عند الضرورة، و إذا حصل سد الرَّمق انتفت فى الضرورة فى الزائد على ذلك.

و على قولهما درج خليل بن إسحاق المالكى فى مختصره، حيث قال: و للضرورة ما يسد غير آدمى، و قال ابن العربى: و محل هذا الخلاف بنى المالكية فيما إذا كانت المخمصة نادرة، أما إذا كانت دائمة فلا خلاف فى جواز الشَّبع منه.

و مذهب الشافعى: على القولين المذكورين عن المالكية، و حجتهما فى القولين كحجة المالكية فيهما .. و القولان المذكوران مشهوران عند الشافعية.

و اختار المزنى: أنه لا يجوز سد الرَّمق و رجحه القفال و كثيرون. و قال النووى:

إنه الصحيح .. و فى المسألة قول ثالث للشافعية و هو: أنه إن كان بعيدا من العمران حلّ الشَّبع و إلّا فلا، و ذكر إمام الحرمين و الغزالى

تفصيلا فى المسألة، و هو: أنه من كان فى بادية و خاف إن ترك الشبع ألا يقطعها و يهلك و جب القطع بأنه يشبع، و إن كان فى بلد و توقّع طعاما طاهرا قبل عود الضرورة و جب القطع بالاعتصار على سد الرّمق، و إن كان لا يظهر حصول طعام طاهر و أمكن الحاجة إلى العود إلى أكل الميته مرة بعد أخرى إن لم يجد الطاهر فهذا محل الخلاف.

قال النووى: و هذا التفصيل الذى ذكره الغزالي و الإمام تفصيل حسن و هو الراجح.

و عن الإمام أحمد رحمه الله فى هذه المسألة روايتان أيضا.

قال ابن قدامة فى المغنى: و فى الشبع روايتان:

أظهرهما: لا يباح، و هو قول أبى حنيفة، و إحدى الروايتين عن مالك و أحد القولين للشافعى، قال الحسن: يأكل قدر ما يقيمه لأن الآية دلت على تحريم الميته، و استثنى ما اضطر إليه، فإذا اندفعت الضرورة لم يحل له الأكل كحالة الابتداء، و لأنه بعد سد الرّمق غير مضطر فلم يحل له الأكل للآية، يحققه إنه بعد سد رّمقه كهو قبل أن يضطر و ثم لم يبح له الأكل كهاهنا.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧١

و الثانية: يباح له الشبع. اختارها أبو بكر، لما روى جابر بن سمره أن رجلا نزل الحرّة فنفتت عنده ناقة فقالت له امرأته: اسلخها حتى نقتد لحمها و شحمها نأكله، فقال:

حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه و سلم، فأتاه فسأله فقال: «هل عندك غنى يغنيك؟» قال: لا، قال:

«فكلوها». و لم يفرق «١».

و يدل له أيضا حديث الفجيع العامرى «٢» عنده: أن النبى صلى الله عليه و سلم أذن له فى الميته مع أنه يغتبق و يصطحب، فدل على أخذ النفس حاجتها من القوت منها. و لأن ما جاز سد الرّمق منه جاز منه الشبع كالمباح، و يحتمل أن يفرّق بين ما إذا كانت الضرورة مستمرة، و بين ما إذا كانت مرجوة الزوال، فما كانت مستمرة كحالة الأعرابى الذى سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم جاز الشبع: لأنه إذا اقتصر على سد الرّمق عادت إليه الضرورة عن قرب، و لا يتمكن من البعد عن الميته مخافة الضرورة المستقبلية، و يفضى إلى ضعف يديه و ربما أدى ذلك إلى تلفه، بخلاف التى ليست مستمرة، فإنها يرجو الغنى عنها بما يحل، و الله أعلم... «٣».

المسألة الثانية: حد الاضطرار المبيح لأكل الميته هو الخوف من الهلاك علما أو ظنا.

قال الزرقانى فى شرح قول مالك فى الموطأ: ما جاء فيمن يضطر إلى أكل الميته.

... و حد الاضطرار أن يخاف على نفسه الهلاك علما أو ظنا، و لا يشترط أن يصير إلى حال يشرف معها على الموت فإن الأكل عند ذلك لا يفيد...».

و قال النووى فى شرح المهذب: الثانية فى حد الضرورة.

قال أصحابنا: لا- خلاف أن الجوع القوى لا- يكفى لتناول الميته و نحوها، قالوا: و لا خلاف أنه لا يجب الامتناع إلى الإشراف على الهلاك، فإن الأكل حينئذ لا ينفع و لو انتهى إلى تلك الحال لم يحل له أكلها لأنه غير مفيد، و اتفقوا على جواز الأكل إذا خاف على نفسه لو لم يأكل من جوع أو ضعف عن المشى أو عن الركوب و ينقطع عن رفقته و يضيع و نحو ذلك «٤».

هل يجب أكل الميته و نحوها إن خاف الهلاك أو يباح من غير وجوب؟

«اختلف العلماء فى ذلك و أظهر القولين الوجوب لقوله تعالى: وَ لَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى (١) أخرجه أبو داود فى (الحديث: ٣٦٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الحديث: ٣٦٦٩).

(٣) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١/ ٨٥ و ٨٦ و ٩٨).

(٤) المصدر نفسه، (١/ ٨٧ و ٨٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٢

التَّهْلُكَةُ «١» و قوله: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا «٢».

و من هنا قال جمع من أهل الأصول: «إن الرخصة قد تكون واجبة كأكل الميتة عند خوف الهلاك لو لم يأكل منها، و هو الصحيح من مذهب مالك، و هو أحد الوجهين للشافعية، و هو أحد الوجهين عند الحنابلة، و هذا اختيار ابن حامد، و هو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ...» «٣» و ممن اختار عدم الوجوب و لو أدى إلى عدم الأكل إلى الهلاك أبو إسحاق من الشافعية و أبو يوسف صاحب أبى حنيفة رحمهم الله، و احتجوا بأن له غرضا صحيحا فى تركه و هو اجتناب النجاسة و الأخذ بالعزيمة. و الثانى: لا يلزمه لما روى عن عبد الله بن حذافة السهمى صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم أن طاعة الروم حبسه فى بيت و جعل معه خمرا ممزوجا بماء و لحم خنزير مشوى ثلاثة أيام فلم يأكل و لم يشرب حتى مال رأسه من الجوع و العطش و خشوا موته فأخرجوه فقال: قد كان الله أحله لى لأنى مضطر و لكن لم أكن لأشمتك بدين الإسلام، و لأن إباحة الأكل رخصة فلا تجب عليه كسائر الرخص، و لأن له غرضا فى اجتناب النجاسة و الأخذ بالعزيمة و ربما لم تطب نفسه بتناول الميتة و فارق الحلال فى الأصل من هذه الوجوه.

و يميل الشنقيطى إلى رأى القائل بوجوب أكل الميتة بالقدر الذى يمسك الحياة لأن الإنسان لا يجوز له إهلاك نفسه «٤». يلاحظ من طريقته لتفسير آيات الأحكام استقصائه الأقوال المتعددة فى الفقه الإسلامى على متوسط فى التوسع و يرجح أحد الأقوال دون تعنت و لا تعصب.

الشنقيطى و طريقته بالترجيح:

يبسط الشنقيطى منهجه فى تدعيم حجته الشرعية التى يمكن أن يواجهه مخالفوه «إننا إذا بينا قرآنا بقرآن فى مسألة يخالفنا فيها غيرنا و يدعى أن مذهبه المخالف لنا يدل عليه قرآن أيضا، فإننا نبين بالسنة الصحيحة صحة بياننا، و بطلان بيانه فىكون استدلالنا بكتاب و سنة، فإن استدلل من خالفنا بسنة أيضا مع القرآن الذى استدلل به، فإننا نبين رجحان ما يظهر لنا أنه الراجح، و كذلك إذا استدلل مخالفنا بقرآن و لم يقم دليل من سنة شاهدنا لنا و لا له، فإن نبين وجه رجحان بياننا على بيانه» «٥». (١) سورة البقرة، الآية: (١٩٥).

(٢) سورة النساء، الآية: (٢٩).

(٣) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١/ ٨٨).

(٤) محمد الشنقيطى، (١/ ٨٨).

(٥) أضواء البيان، (١/ ٣٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٣

أهمية الحديث النبوى فى تفسير القرآن بالقرآن:

إن تفسير «أضواء البيان» و إن كان موسوما ب «إيضاح القرآن بالقرآن» فإن هذا لا يعنى أن المفسر كان يشيخ بوجهه عن الأحاديث النبوية المفسرة. بل إن الأحاديث التى ساقها لإيضاح المبهم، أو تفصيل لمجمل .. و هذا شىء لا ضير فيه، و لا يخرج الشنقيطى عن منهجه الذى اختصه لنفسه «و هو إيضاحه القرآن بالقرآن» لأن الحديث يدعم وجهة نظره فى أن هذه الآية مفسرة لتلك، أو تخصص عامها، أو تقيدها مطلقا ..

قال تعالى: فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ «١».

قال الشنقيطى: «لم يبين هنا هذا المكان المأمور بالإتيان منه المعبر عنه بلفظة «حيث»، ولكنه يبين أن المراد به الإتيان فى القبل فى آيتين:

إحدهما: فى قوله: فَأَتُوا حَرْثَكُمْ «٢» لأن قوله: فَأَتُوا أمر بالإتيان بمعنى الجماع وقوله: «حرتكم» يبين أن الإتيان المأمور به هو فى محل الحرت يعنى بذر الولد بالنطفة، وذلك هو القبل دون الدبر كما لا يخفى، لأن الدبر ليس محل بذر الأولاد كما هو ضرورى» «٣».

وقوله تعالى: «أنى شئتم» يعنى أن يكون الإتيان فى محل الحرت على أى حالة شاء الرجل سواء كانت المرأة مستلقية أو باركة على جنب أو غير ذلك» «٤» ويستشهد الشنقيطى هنا بالحديث تدعيما لفهمه: «و يؤيد هذا ما رواه الشيخان و أبو داود و الترمذى عن جابر رضى الله عنه، قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت: نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ «٥». فظهر من هذا أن جابرا رضى الله عنه يرى أن معنى الآية:

فأتوهن فى القبل على أية حال شئتم و لو كان من ورائها، و المقرر فى علوم الحديث أن تفسير الصحابى الذى له تعلق بسبب النزول له حكم الرفع» «٦».

استعانة الشنقيطى بأقوال المفسرين السابقين:

لم يضرب الشنقيطى صفحا عن التفاسير السابقة إنما يستعين بها فى توضيح ما يريد، (١) سورة البقرة، الآية: (٢٢٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٢٣).

(٣) محمد الأمين الشنقيطى، (١/ ١٠٦).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٢٣) و الحديث أخرجه البخارى فى (الحديث: ٤٥٢٨). و مسلم فى (الحديث: ٣٥٢١)، و الترمذى فى (الحديث: ٢٩٧٨) و ابن ماجه فى (الحديث: ١٩٢٥).

(٦) محمد الأمين الشنقيطى، (١/ ١٠٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٤

أو نصره الحق الذى ظهر له و هذا حسنه له:

قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى: فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ «١» ما نصه: «و ما استدل به المخالف من أن قوله عزّ و جل: «أنى شئتم» شامل للمسالك بحكم عمومها، فلا حجة فيه إذ هى مخصصة بما ذكرناه، و بأحاديث صحيحة، حسان شهيرة، رواها عن رسول الله صلى الله عليه و سلم اثنا عشر صحابيا بمتون مختلفة، كلها متواردة على تحريم إتيان النساء فى الأدبار ذكرها أحمد بن حنبل فى مسنده، و أبو داود و النسائى و الترمذى و غيرهم» «٢».

وقال القرطبى: و قد جمعها [أى الأحاديث الواردة فى تحريم إتيان المرأة فى دبرها سماها: «تحريم المحل المكروه» و لشيخنا أبى العباس أيضا فى ذلك جزء سماه «إظهار إدبار من أجاز الوطء فى الأدبار» «٣».

قال القرطبى: قلت: و هذا هو الحق المتبع و الصحيح فى المسألة، و لا ينبغى لمؤمن بالله و اليوم الآخر أن يعرج فى هذه النازلة على ذلة عالم بعد أن تصح عنه» «٤». و ورد فى القرطبى أن ابن عمر «كان يكفر من أتى امرأته فى دبرها» «٥».

من هنا يظهر استفادة الشيخ الشنقيطى من جهود المفسرين السابقين، و لعل استفادته من القرطبى تنسجم مع مذهبه المالكي.

فهم الشنقيطى للتأويل، و علاقة ذلك بفهم آيات الصفات:

يستقصى الشنقيطى معانى التأويل الواردة فى الآيات الكريمة كى يؤسس فهما لآيات المتشابهة كآيات الصفات، و الآيات المحتملة المعنى أو التى يمكن أن تفهم على معانى متعددة.

يرى صاحب «أضواء البيان» من خلال ما قدمنا فى مقدمته دراسة «أضواء البيان» «أن من أنواع البيان كون أحد الاحتمالين هو الغالب فى القرآن يبين أن ذلك الاحتمال الغالب فى القرآن هو المراد، لأن الحمل على الأغلب أولى من الحمل على غيره. و إذا عرفت فاعلم أن الغالب فى القرآن إطلاق التأويل على حقيقة الأمر الذى يؤول (١) سورة البقرة، الآية: (٢٢٣). (٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج (٢)، (٣/٩٨). (٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. و أثبتنا «ذلة» أمانة للنقل، و هى خطأ طباعى. و الصحيح هى زلة. انظر أضواء البيان، (١/١٠٧)، و قد ورد فى القرطبي بعد عدة كلمات من ذلة: «و قد حذرنا من «زلة العالم». (٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج (٢)، (٣/٩٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٥ إليها «١». كقوله: هذا تأويل زءىاى من قبل «٢».

و قوله: هل ينظرون إلا تأويله «٣» .. و قوله: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و لما يأتهم تأويله «٤»، و قوله: ذلك خير و أحسن تأويلاً «٥» إلى غير ذلك من الآيات، قال ابن جرير الطبرى: و أصل التأويل من آل الشىء إلى كذا إذا صار إليه و رجع، و أولته أنا صيرته إليه و قال: و قد أنشد بعض الرواة بيت الأعشى:

على أنها كانت تأول حبها تأول ربعى السقاب فأصبحا «٦»

قال: و يعنى بقوله: تأول حبها مصير حبها، و مرجعه، و إنما يريد بذلك أن حبها كان صغيرا فى قلبه، فآل من الصغر إلى العظم، فلم يزل ينبت حتى أصبح فصار قديما كالسقب الصغير الذى لم يزل يشب حتى أصبح، فصار كبيرا مثل أمه. قال: و قد ينشد هذا البيت:

على أنها كانت توابع حبها توالى ربعى السقاب فأصبحا «٧»

و عليه فلا شاهد فيه، و الربعى السقب الذى ولد فى أول التاج، و معنى أصحاب أنقاد لكل من يقوده، و منه قول امرئ القيس: و لست بذى رثية إمر إذا قيد مستكرها أصحابا «٨»

و بعد هذا الشرح لمعنى التأويل، يحصر الشنقيطى معانى التأويل على النحو التالى:

«اعلم أن التأويل يطلق ثلاثة إطلاقات:

الأول: هو ما ذكرنا من أنه الحقيقة التى يؤول إليها الأمر، و هذا هو معناه فى القرآن.

الثانى: يراد به التفسير و البيان. و منه بهذا المعنى قول صلى الله عليه و سلم فى ابن عباس: «اللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل» «٩».

(١) محمد الشنقيطى، أضواء البيان، (١/١٦٨).

(٢) سورة يوسف، الآية: (١٠٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٥٣).

(٤) سورة يونس، الآية: (٣٩).

(٥) سورة النساء، الآية: (٥٩).

(٦) من البحر الطويل.

(٧) من البحر الطويل.

(٨) من البحر الطويل.

(٩) أخرجه البخارى فى (الحديث: ١٤٣) و مسلم فى (الحديث: ٢٤٧٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٦

و قد ثبت فى الصحيح: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر أن يقول فى ركوعه و سجوده «سبحانك اللهم ربنا و بحمدك اغفر لى» يتأول القرآن «١» تعنى يمثله و يعمل به، و الله تعالى أعلم.

الثالث: هو معناه المتعارف فى اصطلاح الأصوليين، و هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل على ذلك، و حاصل تحرير مسألة التأويل عند أهل الأصول أنه لا يخلو من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح. الأولى: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره بدليل صحيح فى نفس الأمر يدل على ذلك و هذا .. هو التأويل الصحيح. و التأويل الغريب: كقوله صلى الله عليه و سلم الثابت فى الصحيح.

فإن ظاهره المتبادر منه ثبوت الشفعة للجار، و محل الجار فى هذا الحديث على خصوص الشريك المقاسم حمل له على محتمل مرجوح، إلا أنه دل عليه الحديث الصحيح المصرح بأنه إذا صرفت الطرق، و ضربت الحدود فلا شفعة.

الثانية: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنه الصارف دليلاً و ليس بدليل فى نفس الأمر، و هذا المسمى عندهم بالتأويل الفاسد، و التأويل البعيد، و مثل له الشافعية و المالكية و الحنابلة بحمل الإمام أبى حنيفة رحمه الله فى قوله: «أيا امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، باطل» على المكاتب، و الصغيرة .. و حمله أيضا رحمه الله المسكين فى قوله: سَتَيْنَ مِسْكِينًا «٢» على المد، فأجاز إعطاء ستين مداً لمسكين واحد» «٣».

الثالثة: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره، لا لدليل أصلاً، و هذا يسمى فى اصطلاح الأصوليين لعباً «٤».

مناقشة الشنقيطى لأقوال العلماء فى تفسيرهم الآية و الراسخون فى العلم ... «٥»:

يعرض الشنقيطى أقوال العلماء فى الآية: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا يقول: (١) أخرجه أحمد فى المسند من حديث عائشة.

(٢) سورة المجادلة، الآية: (٤).

(٣) محمد أمين الشنقيطى، (١/ ١٦٩).

(٤) انظر أضواء البيان (١/ ١٦٩).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٧

الواو: استئناف (محتمل). الراسخون: مبتدأ، جملة يقولون (خبر) ... بناء على ذلك يقول «و عليه فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله وحده، و الوقف على هذا تام على لفظه الجلالة» «١».

«و الواو عاطفة محتملة فيكون:

الواو: عاطفة، الراسخون: معطوفة على لفظ الجلالة الله.

و عليه فالمتشابه يعلم تأويله الراسخون فى العلم.

و يذكر أسماء الصحابة و التابعين الذين قالوا: «إن الواو استئنافية، و بالتالى يجب الوقف عند قوله تعالى: وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ و الصحابة القائلين باستئنافية الواو:

عمر، و ابن عباس، و عائشة، و عروة بن الزبير، و ابن مسعود و أبى بن كعب، و عمر بن عبد العزيز نقلها عنهم القرطبي، و غيره، و نقله

ابن جرير عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس و هو مذهب الكسائي و الأخص و الفراء و أبى عبيد.
و قال أبو نهيك الأسدي: إنكم تصلون هذه الآية، و إنها مقطوعة، و ما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم آمنة به كل من عند ربنا، و القول: بأن الواو عاطفة مروى أيضا عن ابن عباس، و به قال مجاهد و الربيع، و محمد بن جعفر بن الزبير و القاسم بن محمد و غيرهم.
و ممن انتصر لهذا القول و أطل فيه ابن فورك، و نظير الآية فى احتمال الاستئناف و العطف قول الشاعر:

الريح تبكى شجوها و البرق يلمع فى الغمامة (٢)

فيحتمل أن يكون (البرق) مبتدأ. و الخير جملة (يلمع).

و احتج القائلون بأن الواو عاطفة بأن الله سبحانه و تعالى مدحهم بالرسوخ فى العلم فكيف يمدحهم بذلك و هم جهال.
قال القرطبي: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمرو: هذا القول هو الصحيح فإن تسميتهم راسخين يقتضى أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب، و فى أى شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع؟
قال صاحب أضواء البيان: «يجاب عن كلام القرطبي المذكور بأن رسوخهم فى العلم هو السبب جعلهم ينتهون حيث انتهى علمهم و يقولون فيما لم يقفوا على علم الحقيقة من كلام الله جل و علا آمنا به كل من عند ربنا بخلاف غير الراسخين فإنهم يتبعون ما (١) محمد أمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١/ ١٦٩).

(٢) البحر الكامل.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٨

تشابه منه ابتغاء الفتنة، و ابتغاء تأويله و هذا ظاهر» (١).

قال بعض العلماء: «و التحقيق فى هذا المقام أن الذين قالوا هى عاطفة جعلوا معنى التأويل: التفسير و فهم المعنى، كما قال النبى صلى الله عليه و سلم: «اللهم علمه التأويل» أى التفسير و فهم معانى القرآن. و الراسخون يفهمون ما خوطبوا به، و إن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هى عليه، و الذين قالوا هى استنافية جعلوا معنى التأويل حقيقة ما يؤول إليه الأمر، و ذلك لا يعلمه إلا الله و هو تفصيل جيد و لكن يشكل عليه أمران:

الأول: قول ابن عباس، التفسير على أربعة أنحاء ...

تفسير لا يعذر أحد فى فهمه، و تفسير تعرفه العرب من لغاتها، و تفسير يعلمه العلماء، و تفسير لا يعلمه إلا الله، فهذا تصريح ابن عباس أن هذا لا يعلمه إلا الله بمعنى التفسير لا ما تؤول إليه حقيقة الأمر.

و قوله هذا ينافى التفصيل المذكور.

الثانى: أن الحروف المقطعة فى أوائل السور لا يعلم المراد بها إلا الله إذ لم يقم دليل على شىء معين أنه هو المراد بها من كتاب و لا سنة و لا إجماع، و لا من لغة العرب فإن الجزم معناها كذا على التعيين تحكّم بلا دليل.

الشنقيطى و آيات الصفات:

إن آيات الصفات حازت من الدرس و الاهتمام الكثير، لأن هذه الآيات لصيقة بالذات الإلهية، فإن أى فهم مخالف من شأنه أن يبنى عليه فهما لحقيقة الإله مخالفا لما عليه الآخر من الفهم و التصور، لذا فإن الخلاف كان شديدا ما بين السلف و المتكلمين من الخلف، و مرد ذلك إلى اختلاف الفترة المتأخرة عن الفترة التى كان فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم بين الصحابة و التى امتازت بصفاء الفطرة، و وحدة المرجع، و عدم وجود أى مؤثرات فلسفية أو ثقافية تدعو العقل المسلم إلى التفكير بآيات الصفات، إنما الصحابة يتعاملون مع النص تعاملًا سهلا دونما تأثير بأى مؤثر خارجى، فكانوا عند ما يقرءون قول الله تعالى: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (٢). فينطلقون للعمل، و يتحسسون مؤازرة الله و نصرته للمؤمنين الذين عاهدوا الرسول صلى الله عليه و سلم صادقين .. أكثر مما يتصورون هل اليد

جارحة؟ هل اليد القدرة؟ ... إلى ما هنالك من تساؤلات.

و يجب أن لا يغيب عن الذهن أن هذه الاتجاهات التأويلية نشأت بعد ترجمة العلوم (١) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (١) (١٧٠).

(٢) سورة الفتح، الآية: (١٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٧٩

الفلسفية و علوم المنطق إلى اللغة العربية .. و الذين لجؤوا إلى تأويل النصوص (و هم علماء الكلام من الأشاعرة و المعتزلة) لم يكونوا يقصدون إلا تنزيه الذات الإلهية عن مشابهة المخلوقين، و إن كان العلماء الناهجون نهج السلف الرافضون تأويل الآيات تأويلا يصرفها عن ظاهرها وقفوا موقف المعارض لهذا الاتجاه ..

لقد قدمنا سابقا موقف الشنقيطى من الآراء و الأفهام التى تناولت الآية الكريمة: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) «١» ... و بقيت مسألة السلف و الخلف مسألة غير محسومة بين تيارين: الأول يعتبر أن الصحابة خير من فهم الدين و القرآن، و الرسول كان بين ظهراينهم، و لو أن التأويل هو الحق الذى ينزه الله عن المشابهة بالمخلوقين لبيته الرسول الله صلى الله عليه و سلم «لأنه لا يجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، و لا سيما فى العقائد فيما ظاهره الكفر و التشبيه» وفق قول المؤولة من الخلف، فسكوت النبى صلى الله عليه و سلم عن البيان على الرغم من وجود الحاجة يعكس على الخلق كثيرا وجهه نظر المؤولة إلى درجة كبيرة. و تفسير «أضواء البيان لإيضاح القرآن بالقرآن» تناول هذا الموضوع من خلال تفسيره الآيات الكريمة الموهمة للتشابه بين الخالق و مخلوقاته ... فتأسيسا على مقدمتنا الموضحة لموقف الشنقيطى من التأويل، فإننا نجد فيما تعرض له صاحب «الأضواء» ترجمة عملية لموقفه النظرى من التأويل، و فيه بيان لموقفه من الذين تأولوا آيات الصفات، و وصفهم بالمخطئين و دعا الله لهم أن يتجاوز عنهم الذى فعلوه لأنهم قصدوا تنزيهه عن المشابهة بالمخلوقين. فقصدهم حسن، و لكن طريقهم إلى ذلك القصد سيئ» «٢» و يعلل الشنقيطى سبب تأويلهم لهذه الآيات «و إنما نشأ لهم ذلك بسبب أنهم ظنوا لفظ الصفة التى مدح الله بها نفسه يدل ظاهره على مشابهة صفة الخلق، فنفوا الصفة التى ظنوا أنها لا تليق قصدا منهم لتنزيه الله، و أولوها بمعنى آخر يقتضى التنزيه فى ظنهم» «٣». و نحن نرجو أن يغفر الله لهم خطأهم و أن يكونوا داخلين فى قوله تعالى: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا «٤».

و من الحجج التى يسوقها الشنقيطى لدحض آراء خصومه هو «أن النبى صلى الله عليه و سلم عالم كل (١) سورة آل عمران، الآية: (٧).

(٢) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (٥) / (٧٠).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: (٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٠

العلم بأن الظاهر المتبادر، مما مدح الله به نفسه فى آيات الصفات هو التنزيه التام عن صفات الخلق، و لو كان يخطر فى ذهنه أن ظاهره لا يليق لأنه تشبيه بصفات الخلق لبادر كل المبادرة إلى بيان ذلك، لأنه لا يجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه و لا سيما فى العقائد و لا سيما فيما ظاهره الكفر و التشبيه» «١» إذا سلمنا بقول الذين نفوا الصفات.

ثم يعرض حجج القائلين بالتأويل نافين عن الله صفات المشابهة لمخلوقاته:

«إن العرب لا تعرف فى لغتها كيفية لليد مثلا إلا كبقية المعانى المعروفة عندها كالجارحة و غيرها من معانى اليد المعروفة فى اللغة»

«٢». لذا يجب فهم «اليد» الواردة فى القرآن على ضوء ما تفهمه العرب من لسانها الذى أنزل فيه القرآن.

يجيب الشنقيطى على الإشكال من وجهين:

الوجه الأول: أن العرب لا تدرك كيفيات صفات الله من لغتها لشدة منافاة صفة الله لصفة الخلق» «٣».

و توضيح ذلك: أن العقل العربى يدرك صفات المخلوقين، و بالتالى يعبر عن ذلك بأساليبه و أدواته ... فالعرب عند ما تعبر عن السمع و البصر تعبر عنهما من خلال الأذن و العين لأن الأذن و العين أدوات الإسماع و الإبصار. من ذلك يظهر «ألا فرق بين السمع و البصر، و بين اليد و الاستواء، فالذى تعرف كيفيته العرب من لغتها من جميع ذلك هو المشاهد فى المخلوقات» «٤».

و أما ما قاله الإمام مالك عند ما سئل عن الاستواء فيندرج تحت التعبير عن أصل المعنى و هذا واضح فى قوله: «الاستواء غير مجهول» [أى ثابت معلوم و الكيف غير معقول [أى لا ندرك كيفية الاستواء] و الإيمان به واجب [لثبوته فى النص القرآنى و السؤال عن بدعة [لأن الرسول و الصحابة من بعده لم يخوضوا فيه و لم يأولوه و لو كان ذلك واجبا ضروريا لما تأخر الرسول عن البيان فى موقع الحاجة كما بينا سابقا. كما أن العرب تعرف من لغتها «أن بين الخالق و المخلوق، و الرزق و المرزوق، و المحيى و المحيا و المميت و الممات، فوارق عظيمة لا حد لها تستلزم المخالفة التامة بين صفات الخالق و المخلوق» «٥». (١) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (٥/ ٧١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨١

الوجه الثانى: و يسوقه الشنقيطى حوارا بينه و بين مخالفه أنصار تأويل آيات الصفات «أن نقول لمن قال: بينوا لنا كيفية ليد ملائمة لما ذكرتم، من كونها صفة كمال و جلال منزهة عن مشابهة جارحة المخلوق.

هل عرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة باليد؟ فلا بد أن يقول: لا. فإن قال ذلك قلنا: معرفه كيفية الصفات متوقفة على معرفه كيفية الذات.

فالذات و الصفات من باب واحد.

فكما أن ذاته جلّ و علا تخالف جميع الذوات فإن صفاته تخالف جميع الصفات.

و معلوم أن الصفات تتباين و تختلف باختلاف موصوفاتها» «١».

و يضرب الشنقيطى أمثلة على ذلك كى يقرب من الأذهان فكرته فيقول:

«أ لا ترى مثلا أن لفظه (رأس) كلمة واحدة؟

يريد أن يقول: أن الكلمة الواحدة يختلف مدلولها بحسب ما تضاف إليه- إن أضفتها إلى الإنسان فقلت رأس الإنسان، و إلى الوادى فقلت: رأس الوادى. و إلى المال فقلت:

رأس المال، و إلى الجبل فقلت: رأس الجبل. فإن كلمة رأس اختلفت معانيها، و تباينت تباينا بحسب اختلاف إضافتها مع أنها فى مخلوقات، فما بالك بما أضيف من الصفات إلى الله و ما أضيف منها إلى خلقه، فإنه يتباين كتابين الخالق و المخلوق» «٢».

من خلال ما سبق يرى الشنقيطى أن لا نص فى القرآن يوهم صفة لله لا تليق به [يقصد الذين قالوا أن صفات الخلق كاليد و الاستواء؟ ... الخ لا- تليق أن يوصف بها الخالق على ظاهرها، لذا لا بد من تأويلها تنزيها لله عن الشريك و الشبيه أينما وردت فى النصوص القرآنية و النبوية و السبب «لأن نصوص الوحي الواردة فى صفات الله لا تدل ظواهرها البتة إلا على تنزيه الله و مخالفته لخلقته فى

الذات و الصفات و الأفعال» (٣).

و يرى أن الظاهر من النصوص ينزه الله تعالى بدهائه فالمسلمون «لا يشك أحد منهم فى أن الظاهر المتبادر إلى الذهن هو مخالفة الله لخلقه كما نص عليه بقوله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (٤) و قوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) (٥). (١) محمد الأمين الشنقيطى، (٧١ / ٥).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، (٧٢ / ٥).

(٤) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٥) سورة الإخلاص، الآية: (٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٢

و بهذا يرى الشنقيطى أن ما ادعاه بعضهم بوجود صرف هذه النصوص الظاهرة عن ظاهرها إجماعاً «لا وجود له البتة لأنه مبنى على شرط مفقود... فالإجماع المعدوم المزعوم لم يرد فى كتاب الله و لا سنة رسوله، و لم يقله أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و لا من تابعهم، و لم يقله أحد من الأئمة الأربعة، و لا من فقهاء الأمصار المعروفين» (١).

و هذا الأمر يبينه الشنقيطى فى مقدمته الأضواء «إن الله تبارك و تعالى موصوف بتلك الصفات حقيقة لا مجازاً لأننا نعتقد اعتقاداً جازماً.. أن ظواهر آيات الصفات و أحاديثها لا تدل البتة إلا على التنزيه عن مشابهة الخلق و اتصافه تعالى بالكمال و الجلال، و إثبات التنزيه و الكمال و الجلال لله حقيقة لا مجازاً لا ينكره مسلم» (٢).

لذا لا حجة لمن أول «استوى» باستولى مشبهين استيلاء الله باستيلاء بشر بن مروان على العراق، الذى ورد فى قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق

و لو أنهم تدبروا كتاب الله لمنعهم ذلك من تبديل الاستواء بالاستيلاء و تبديل اليد بالقدرة أو النعمة لأن الله جلّ و علا يقول فى محكم كتابه فى سورة البقرة:

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) (٣).

فالقول الذى قاله الله لهم هو قوله حطه، و هى فعله من الحط بمعنى الوضع، خبر مبتدأ محذوف أى: دعاؤنا و مسألتنا لك حطه لذنوبنا... و فى روايات الحديث أنهم بدلوا هذا القول بأن زادوا نونا فقط فقالوا حنطه و هى القمح.. و أهل التأويل قيل لهم على العرش استوى فزادوا لاما فقالوا: استولى... و هذه اللام التى زادوها أشبه شىء بالنون التى زادها اليهود فى قوله تعالى: وَقُولُوا حِطَّةٌ (٤) و يقول الله جلّ و علا فى منع تبديل القرآن قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ (٥).

و اليهود لم ينكروا أن اللفظ الذى قاله الله لهم هو لفظ «حطه» و لكنهم حرفوه بالزيادة المذكورة، و أهل هذه المقالة لم ينكروا أن كلمة القرآن استوى و لكن حرفوها و قالوا فى (١) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (٧٢ / ٢).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة البقرة، الآية: (٥٩).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٥٨)، و سورة الأعراف، الآية (١٦١).

(٥) سورة يونس، الآية: (١٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٣

معناها استولى، و إنما أبدلوها بها لأنها أصلح فى زعمهم من كلمة القرآن لأن كلمة القرآن توهم غير اللائق و كلمة استولى فى زعمهم هى المنزهة اللائقة بالله مع أنه لا يعقل تشبيه أشنع من تشبيه استيلاء الله على عرشه المزعوم باستيلاء بشر على العراق» (١).

و يطرح سؤالاً خطيراً: «هل كان أحد يغالب الله على عرشه حتى غلبه على العرش، و استولى عليه» (٢) يشير إلى المعنى الذى أخذوه

من بيت الشعر ... استوى بشر على العراق .. «و على كل حال فإن المؤول زعم أن الاستواء يوهم غير اللائق بالله لاستلزامه مشابهة استواء الخلق، و جاء بدله بالاستيلاء لأنه هو اللائق به فى زعمه، و لم ينتبه» (٣).

خلاصة رأى الشنقيطى فى آيات الصفات:

- أشعر أن الموضوع قد توسع بعض الشيء لذا فإننا نوجز رأى الشنقيطى كما يلى:
- ١- لا فرق البتة بين صفة يشق منها وصف كالسمع والبصر والحياة. و بين صفة لا يشق منها كالوجه واليد.
 - ٢- و أن تأويل الاستواء بالاستيلاء لا يجوز و لا يصح. [و هذا ينسحب على مختلف آيات الصفات الأخرى .
 - ٣- و اعتقاد السلف تبناه أبو الحسن الأشعري، و ليس معتقده اعتقاد المؤولة كما قالوا «٤»...».
 - كما أن هذا الاعتقاد «اعتقاد عامة السلف، و هو الذى كان عليه النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه» (٥).

الشنقيطى يبرئ أبا الحسن الأشعري من التأويل:

فمن ادعى أن أبا الحسن الأشعري يؤول صفة من الصفات كالوجه واليد والاستواء و نحو ذلك فقد افترى افتراء عظيما. بل الأشعري رحمه الله مصرح فى كتبه العظيمة التى صنفها بعد رجوعه عن الاعتزال. (١) محمد الأمين الشنقيطى، (٥ / ٧٢، ٧٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، (٥ / ٧٣).

(٤) المصدر نفسه، (٥ / ٧٤).

(٥) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٤

[كالوجز] و [مقالات الإسلاميين و [الإبانة عن أصول الديانة] أن معتقده الذى يدين به هو ما كان عليه السلف الصالح من الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسول الله صلى الله عليه و سلم و إثبات ذلك كله من غير كيف و لا تشبيه و لا تعطيل، و أن ذلك لا يصح تأويله و لا المجاز فيه، و أن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو تأويل المعتزلة و من ضاهاهم» (١).

ينقل الشنقيطى عن الأشعري من كتابه [الإبانة عن أصول الديانة] «و قال غير واحد أنه آخر كتاب صنفه» (٢). و هذا يعنى أن الأشعري رحمه الله قد استقر على ما ينقله عنه. قال أبو الحسن الأشعري: «فإن قال قائل: قد أنكروا قول المعتزلة و القدرية و الجهمية و الحرورية و الرافضة و المرجئة فعرفونا قولكم الذى به تقولون و ديانتكم التى تدينون بها:

قولنا الذى نقول به، و ديانتنا التى ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عزّ و جلّ و سنة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم و ما روى عن الصحابة و أئمة الحديث» (٣).

و أنقل فيما يلى قول أهل الحديث و دينهم الذى يدينون به فى مسائل آيات الصفات عن كتاب «مقالات الإسلاميين، و اختلاف المصلين» لأبى الحسن الأشعري، و هو من الكتب الممتازة .. قال أبو الحسن الأشعري فى سياق تبيان لاعتقاد الفرق الإسلامية فى الصفات الإلهية من معتزلة و خوارج و مرجئة و شيعة و زيدية و مجسمة إلى أن يقول: «و قال أهل أصحاب الحديث: لسنا نقول فى ذلك إلّا ما قاله الله عزّ و جلّ أو جاءت به الرواية من رسول الله صلى الله عليه و سلم فنقول: وجه بلا كيف و يدان و عينان بلا كيف» (٤).

و يجعل الشنقيطى أبا الحسن الأشعري العالم العظيم الفذ فى صف أهل الحديث اعتقادا، و بهذا يجرد المسلمين المتأولين واحدا من

أبرز أركانهم إذ ينسبون إليه اعتقادا فيقولون «قالت الأشاعرة» نسبة إليه .. وها هو يقول بخلافهم و يدين بالصفات ديانة أهل الحديث و الصحابة و التابعين. (١) الشنقيطى، أضواء البيان، (٥/ ٧٤).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه. لكن محمد بن أحمد بن مسكئ بن العتيق يعقوبى يتهم أولئك أنهم زوروا كتاب الإبانة عن أصول الديانة، و جعلوا أبا الحسن الأشعري فى صفهم زورا. انظر فتاوى ابن تيمية فى الميزان ص (٥٠). ط لا تاريخ لها، و مجهولة الدار الناشرة الصادرة عنها ... قال: التزوير فى آخر طبعه لكتاب الإبانة دون أن يذكر التاريخ و الصفحة المزورة!! و اتهمهم بتزويرات فى تفسير القرطبي لم أستطع الوقوف النهائى على صحة هذه الاتهامات.

(٤) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين، ط (٣)، فرانز، بقيسيان (١٩٨٠ م). ص (٢١٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٥

وجهة نظر فى آيات الصفات:

و إن كنا نقول ما قاله ربنا فى الكتاب و ثبت ما أثبتته لنفسه من الصفات بلا كيف، و لا تشبيه لئس كَمَثَلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «١». إلا أننا نرى أن المسألة ليست قطعية كما أبرزها صاحب أضواء البيان، و إن كان ما عرضه يمتاز بقوة الحجج و البرهان، و فصاحة الإثبات و البيان، مذكرين أن الصحابة كانوا ينطلقون للعمل بعد أن تفيض قلوبهم بمشاعر الإيمان، فعند ما يتلون يدُ الله فوق أيديهم فهم يندفعون نحو العمل بأن الله مناصرهم لأن وضع اليد على اليد فيه مناصرة و مؤازرة و معونة. و عند ما يتلون أن الله «سميع، بصير ... الخ». فهم ينطلقون إلى الحياة معمريين بانين، مجاهدين فاتحين، ذاكرين .. لأن الله يسمعهم، و يبصرهم فلا يقولون فحشا و لا زورا، و لا يفعلون منكرا و لا عيبا لأن الله سميع يسمعهم، و بصير يبصرهم. و بهذا المفهوم تحوّلت آيات الصفات إلى نصوص دافعة إلى العمل النظيف. و لم تتحول فى عهدهم الأول إلى مادة جدل لا طائل تحته. كأن يسمع بما ذا؟ و كيف بأذن أو بغير أذن؟ و يبصر بعين أو بغير عين؟ و يده كيف، و جنبه كيف ... الخ.

فخلاصته ضرورة الخروج من هذه المعارك و الالتفات نحو العمل بالمعاني التى تفيده مثل هذه الآيات ... و إن كان التسليم كما وردت - مع «لَيْسَ كَمَثَلِهِ شَيْءٌ» أسلم و أتقى ...

مقرين بصحة عقائد الصحابة و التابعين. و بعدم خروج من أول عن ساحة الإسلام إنما يحسن النية و سلامة القصد، نال المؤولون اجرا واحدا إن شاء الله.

هكذا يجب أن ينظر أهل الحديث و الذين أثبتوا لله ما أثبت لنفسه للمؤولة، ثم على المسلمين الذين تأولوا آيات الصفات خروجاً من التشبيه إلى التنزيه كان عليهم أن يقرأوا أولئك على ما قالوا به .. و أن ينظروا إليهم على أنهم مجتهدون رفضوا تأويل الصفات كى لا يقعوا فى التعطيل، و كى لا يقال أن استولى خير من استوى، و وضع القدرة أو النعمة أفضل من كلمة يد .. و أن يلتفت الطرفان إلى العمل بالمعاني العملية التى يمكن أن تؤثر فيها آيات الصفات على حياة المسلمين اليومية، و ألا يصرف المزيد من الحوار و الجدل الذى أخذ جهدا كبيرا من جهود الأمة فى القرون الأخيرة، و أحرز ما أحرز من الفرق و الفرقه، .. فالكل يعلم أن ابن تيمية رمى الأشاعرة بالتعطيل و وصفهم بالجهمية، و ربما بدعهم أو فسقهم - و رموه بالتشبيه و التجسيم و التكبر و صنّفوه مع الحشوية المشبهة مرة، و بالاعتزال مرة أخرى و امتد هذا الصراع عبر أجيال عديدة، و حقب زمنية متواليه .. (١) سورة الشورى، الآية: (١١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٦

من الصحيح أن نشوء التأويل فى الحياة الإسلامية له ظروفه الثقافية و عوامله الداعية، و لكن الصحيح أيضا أن هذه الظروف قد زالت و

يجب أن تزول معها نتائجها- و على الفريقين ألا- يعيشوا بمناخ القرن الخامس و السادس و السابع الهجرى، و ألا يظنوا أن السبكي الشافعى المؤول، و ابن تيمية الحنبلى ما زالوا يمتطيان صهوات النقاش و الجدل العنيف، .. و علينا أن نسأل أنفسنا: لما ذا لم يختلف المسلمون على حرمة الخمر أو الزنا أو السرقة، أو وحدانية الله، أو أن الله صاحب الحق فى التحريم و التحليل وحده لا غير .. و ما أظن الجواب خافيا على أحد، فالجميع سيقول إن هذه نصوص قاطعة حاسمة لا يجوز الخلاف فيها. و أما النصوص المحتملة، و إن كانت الأفهام تميل إلى هذا القوى أكثر من ذاك، فليس بالإمكان نقلها إلى اليقين و القطع كما نقلها الشنقيطى أو غيره .. و لا يجوز اتهام الذى أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه بالمشبهين و لا المجسمين «١». كما يجب إقفال المعارك الجدلية، و ليس إقفال الحوار الهادئ المهدب المراد منه إيصال الناس إلى الحق الذى ينقل الناس من براثن الخطأ، إلى نور الحقيقة لأن الحوار الناضج هو الذى يهب الفكرة صفاء و نقاء ينشده كل مخلص.

موقف صاحب أضواء البيان من التقليد:

ليس أمرا خفيا الخلافات الدائرة بين أنصار المذاهب الإسلامية الأربعة المشهورة و من خالفهم من الداعين إلى عدم جواز تقليد أى إمام كان .. لذا فإن صاحب أضواء البيان حاول أن يجلى المسألة فى كتابه «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن» فيقول:
التقليد لغة: جعل القلادة فى العنق ... و منه قول لقيط الإيادى:
وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا «٢»
«و أما التقليد فى اصطلاح الفقهاء فهو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليله» «٣».

و المذهب: لغة الطريق، ... ثم له معنى عرفى «ما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية محل الغرض منه بلفظه» «٤». (١)
انظر محمد بن أحمد مسكة بن العتيق يعقوبى، فتاوى ابن تيمية فى الميزان ص (٤٨، ٤٩، ٥٠)، ترى فيه تفسيق و تكفير ابن تيمية لأنه مجسم و كذا ابن القيم لنفس السبب. و لمن يقول بقولهم إلى يومنا هذا ... و ينقل المؤلف أقوالا لابن تيمية و لابن القيم فى تفسيق الأشاعرة، و لا حول و لا قوة إلا بالله! فى زمن نحن بحاجة فيه إلى توحيد صفوف المسلمين.

(٢) من البحر الطويل.

(٣) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (٥ / ٩٠).

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٧

و يرى المؤلف أن لا اجتهاد فى موارد النصوص القاطعة من كتاب أو سنة أو إجماع و ينكر على العلماء الذين أجازوا التقليد مطلقا. حتى و لو خالف النصوص.

و ظنى أن أولئك لم يقصدوا جواز التقليد لمن علم مخالفته للنصوص القاطعة إنما أجازوه لمن لا يعلم التمييز بين صواب المجتهد و خطئه ... لكن إذا تعلم هذا الرجل قدرا جعله يميز على نحو واضح من قلده ابتداء، فظنى أن أولئك لا يجيزون له التقليد لأن المسلم مطالب بالتعبد بنصوص القرآن و السنة، و ليس بأقوال الناس الخاطئة ... و يقسم صاحب «الأضواء» التقليد إلى أقسام:

التقليد الجائر: الذى لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامى عالما أهلا للفتيا فى نازلة نزلت به، و هذا النوع من التقليد كان شائعا فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم و لا خلاف فيه، فقد كان العامى يسأل من شاء من صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم يعمل بفتياه، و ينقل متنا من منظومة فى الأصول اسمها «نشر البنود فى شرحه لقوله فى وافى السعود» يميز رجوع المستفتى لمجتهد آخر غير الذى سأله أولا- لإجماع الصحابة على ذلك على أنه يسوغ للعامى السؤال لكل عالم، و لأن كل مسألة لها حكم نفسها.

قال القرافي: انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر، و أجمع الصحابة على أن من استفتى أبا بكر و عمر و قلدهما فله أن يستفتى أبا هريرة و معاذ بن جبل و غيرهما، و يعمل بقولهم بغير نكير» (١).

التقليد غير الجائز: تقليد رجل معين واحد دون غيره من جميع العلماء ... فهذا النوع من التقليد لم يرد به نص من كتاب و لا سنة، و لم يقل به أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و لا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير» (٢). و يرى أن تقليد الرجل الواحد بعينه «مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره من جميع المسلمين» (٣). و يرى أن تقليد رجل واحد معين من البدع المستحدثة «فتقليد رجل واحد معين من بدع القرن الرابع و من يدعى خلاف ذلك، فليعين لنا رجلا واحدا من دون غيره، من جميع علماء المسلمين» (٤).

لكن الشنقيطى لم يبين لنا ما يلي: (١) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (٥/ ٩١).

(٢) المصدر نفسه، (٥/ ٩١).

(٣) المصدر نفسه، (٥/ ٩٢).

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٨

١- ما ذا قال الأئمة الأربعة فى إنكارهم تقليد الواحد بعينه دون سواه ... و هل هذا الإنكار يرقى إلى عدم الجواز بالكرهية أم إلى الأفضلية أم إلى الحرمة؟! ٢- لم يقولوا (أى أئمة المذاهب) بالجمود على رجل واحد .. لكن هل قالوا بحرمة ذلك و أين. ٣- هل عدم وجود رجل معين فى القرون الأولى يقلد من قبل الناس دليل على بدعية الأمر.

و هنا: هب أن هذا الواحد بعينه كان موثوقا متمكنا من علمه، صالحا بنهجه و مسلكه، و أراد المقلد أن يقلده لمفرده أ لا يجوز ذلك؟ ثم إن الله تعالى عند ما يقول فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ (١) أ لا يعنى جواز التقليد للواحد أو أكثر من الواحد؟ فعلى العموم فقد أجاز صاحب أضواء البيان: تقليد العامى - و أنكر التقليد على غيره- و نقل عن كثيرين عدم جواز التقليد مطلقا فى الدين [و ظنى أنهم أرادوا عدم جواز التقليد مطلقا فى العقيدة و ليس فى فروع الدين ... لأنه نقل جواز تقليد العامى .

و نقل الشنقيطى عن محمد بن الحسن «جواز أن يقلد العالم من هو أعلم منه، و لا- يجوز له تقليد من هو مثله» و هذا صحيح لأن الأصل أن يحمل الإنسان العالم مسئولية نفسه لا أن يلقي أمر دينه على كاهل الآخرين .. و قد قلده الشافعى عمر و عثمان» (٢). و قلده مالك أهل المدينة فى عملهم و برز الشافعى تقليده الصحابة بقوله: «رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا، و نحن نقول و نصدق: [القائل هنا الشنقيطى: أن رأى الشافعى و الأئمة معه لنا خير من رأينا لأنفسنا» (٣).

تنبيه: ساق الشنقيطى نصوصا فى ذم نهج التقليد كقوله تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُحَبَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (٤) ... و قوله على لسان الكافرين: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٥). وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا (٦٧) (٦) .. و الملاحظ أن هذه النصوص القرآنية تهاجم من قلده فى أصول الدين لا فى فروعها، لأن (١) سورة النحل، الآية: (٤٣).

(٢) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان، (٥/ ١٠١).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة براءة، الآية: (٣١).

(٥) سورة الزخرف، الآية: (٢٣).

(٦) سورة الأحزاب، الآية: (٦٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٨٩

المؤلف أجاز للعامى التقليد على الأقل .. و نقل دون نكير قول الشافعى و غيره من الأئمة تقليدهم الصحابة، دونما وقوع إجماع منهم،

و لو وقع لارتفع إلى مرتبة النص.

الجانب اللغوى فى أضواء البيان:

لقد بينا فى مقدمة دراستنا «لأضواء البيان» أنه غنى بأبحاثه اللغوية و استشهاده الشعرية تبياناً و توضيحاً لمعاني و دلالة الكلمات القرآنية، و لا- غرابية فى ذلك لأن هذا القرآن نزل بلسان العرب. لذا كان الشنقيطى متمكناً من لسان العرب، حتى كان متضلعا فيه مقتدراً على فهم الكتاب الكريم، و سوف نبين فيما يلى جزءاً من الجانب اللغوى فى «أضواء البيان» من خلال دراستنا لسورة العصر الواقعة ضمن الأجزاء التى كتبها تلميذ الشنقيطى و على نهجه عطية محمد سالم.

العصر: اسم للزمن كله، أو جزء منه.

و لذا اختلف فى المراد منه، حيث لم يبين هنا.

و يربط المعنى اللغوى بالمعنى العقلى فى فهم الزمن:

«فالزمن متحرك يضاهى الساكن «١» .. قال الشاعر:

و أرى الزمان سفينة تجرى بنا نحو المنون و لا نرى حركاته «٢»

فهو فى نفسه آية سواء فى ماضيه لا يعلم متى كان أو فى حاضره لا يعلم كيف ينقضى، أو فى مستقبله.

و قيل العصر: «الليل و النهار» قال الشاعر:

و لم يلبث العصران يوم ليلة إذا طلبا أن يدركا ما يتما «٣»

و العصران: أيضا الغداة و العشى، كما قيل:

و أمطله العصرين حتى يملنى و يرضى بنصف الدين و الأنف راغم «٤»

و المطل: التسوية و تأخير الدين.

و قيل العصر: «صلاة العصر لكونها الوسطى، و قيل عصر النبى صلى الله عليه و سلم أو زمن أمته، (١) محمد الأمين الشنقيطى، أضواء

البيان، مج (٦)، ص (١٣٦).

(٢) البيت من البحر الكامل.

(٣) من البحر الطويل.

(٤) من البحر الطويل.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٩٠

و الذى يظهر .. أن أقرب هذه الأقوال كلها قولان إن العموم بمعنى الدهر للقراءة الشاذة «و العصر و نواب الدهر» لأن القراءة الشاذة

أقل درجاتها التفسير، و لأن يشمل بعمومه بقية الأقوال.

و إما عصر الإنسان أى عمره و مدة حياته، الذى هو محل الكسب و الخسران لإشعار، و لأنه يخص العيب فى نفسه و موعظة و انتفاعاً

«١».

و يستعين مؤلف أضواء البيان بالربط المعنوى بين السورة التى قبلها و هى سورة «التكاثر» التى تتحدث عن مشكلة الإنسان الذى انشغل

بجمع المال و التباهى بكثرته النسل دونما التفات إلى دينه و مرضاه ربه، حتى وجد نفسه فى مواجهة الموت و السؤال و الحساب عما

اقترفه فى حياته الدنيا من أمور الخير و الشر.

و كذا سورة العصر التى أكدت خسران الإنسان الذى أنكر الإيمان و الإسلام فى حين كان المؤمنون الآمرون بالمعروف الناهون عن

المنكر، الصابرون على ما أصابهم من مصائب، أولئك هم الفائزون الراضون فى هذه الحياة ...

و كذا قبل ذلك سورة «الهمزة» التى أخبرتنا عن ذاك الذى انهمك بجمع المال ظنا و توهما أن ماله سيوفر له الخلود. «مجتمع المال و تعداده فى حياة الإنسان، و حياته محدودة، و ليس مخلدا فى الدنيا كما أن الإيمان و عمل الصالحات مرتبط بحياة الإنسان.

و قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) «٢».

لفظ الإنسان و إن كان منفردا، فإن «أل» فيه جعلته للجنس.

و قد بين الشنقيطى فى دفع إبهام الاضطراب و تقدم التنبيه عليه مرارا فهو شامل للمسلم و الكافر إلا من استثنى الله تعالى.

و (إن الإنسان لفي خسر): جواب القسم، و الخسر: الغبن. و قيل النقص. و قيل العقوبة، و الهلكة ... و الكل متقارب.

و أطلق الخسران ليعم كل شئون الحياة، و جاء بحرف الظرفية ليشعر أن الإنسان مستغرق فى الخسران و هو محيط به من كل جهة، و لو نظرنا إلى أمرين و هما المستثنى و السورة التى قبلها لا تضح هذا العموم، لأن مفهوم المستثنى يشمل أربعة أمور: (١) لتلميذه عطية محمد سالم الشنقيطى، مج (٦)، ص (١٣٦، ١٣٧).

(٢) سورة العصر، الآية: (٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٩١

١- عدم الإيمان و هو الكفر.

٢- عدم العمل الصالح و هو العمل الفاسد.

٣- عدم التواصى بالحق و هو انعدام التواصى كلىة، أو التواصى بالباطل.

٤- عدم التواصى بالصبر، و هو إما انعدام التواصى كلىة أو الهلع و الجزع.

و يربط سورة العصر مع سورة التكاثر الواقعة قبلها فى المصحف «يظهر تلهى الإنسان بالتكاثر فى المال و الولد بغية الغنى و التكثر فيه، و ضده ضياع المال و الولد و هو الخسران» (١).

فعليه يكون الخسران فى الدين من حيث الإيمان بسبب الكفر و فى الإسلام و هو ترك العمل و إن كان يشمل الإيمان فى الاصطلاح و التلهى فى الباطل و ترك الحق و فى الهلع و الفراغ» (٢).

و على طريقة الشنقيطى يفسر من سورة العصر «إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات»- بالآيات القرآنية المفسرة لآيات سورة العصر بالجملة: قال تعالى:

لِئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ تَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ «٣».

و قوله: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ «٤». أى لأنهم لم يعملوا لهذا اللقاء و قصرُوا أمرهم فى الحياة الدنيا فضيعوا أنفسهم، و حظهم فى الآخرة.

و أما الخسران بترك العمل، فكما فى قوله تعالى: وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ «٥» لأن الموازين هى معايير الأعمال كما تقدم.

و أما الخسران بترك التواصى بالحق، فليس بعد الحق إلا الضلال، و الحق هو الإسلام بكامله و قد قال تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) «٦» و الخسران بترك التواصى بالصبر قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) «٧» .. زد على ذلك فإن كل بحث فى أضواء البيان ترى فيه الجانب (١) محمد عطية محمد سالم، أضواء البيان، (٦/١٣٨).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة الزمر، الآية: (٦٥).

- (٤) سورة الأنعام، الآية: (٣١).
 (٥) سورة الأعراف، الآية: (٩).
 (٦) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).
 (٧) سورة الحج، الآية: (١١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٩٢

اللغوى مشرقا نال من اهتمام المؤلف و تلميذه فيما بعد ما يستحق من الاهتمام، ثم التوظيف فى خدمه ما أراده.

خاتمة:

تظهر قيمة «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن» بتناول المؤلف الأصل محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطى الموريتانى المالكى الإفريقى تفسير القرآن بالقرآن من أول الكتاب الكريم حتى نهاية قد سمع، و من عجيب الصدف أن يكون موقفه رحمه الله فى التفسير على قوله تعالى: «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا- إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١). ثم أتمه تلميذ الشنقيطى عطية محمد سالم ...

إذا نحن أمام سفر جليل كريم تم إجماع العلماء على عظيم منهجه إذ أن أشرف أنواع التفسير و أجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كتاب الله جلّ و علا من الله جلّ و علا، ... علما أن المؤلف فى توضيحه القرآن بالقرآن لم يقبل أن يستشهد إلّا بالقراءة السبعية المتواترة. و ما ذكره أحيانا من قراءة شاذة هو من قبيل الاستشهاد للبيان بقراءة سبعة. و هذا اشتمل على الكتاب الكريم تقريبا.

ثم بيانه للأحكام الفقهية دون تعصب أو تعنت. و تمكن المؤلف من اللغة جعل بيانه جميلا مفهوما .. و إكثاره من الاستشهاد بكلام العرب الفصحاء الذين يعول عليهم فى فهم آى الكتاب دعم آراءه و وضّح مقاصده.

و دراستنا دراسة مبكرة تؤسس لدراسات قادمة أشمل و أعمق و أوسع، لأن دراسة حول هذا التفسير لم تكن بالمتناول و لو وجدت لاستفدنا منها، و لأسهمت فى التقليل من الثغرات الموجودة فى هذا البحث .. ثم إننا عزمنا على دراسة الأمور الهامة فى هذا التفسير. مثل الحديث و علاقته بالتفسير- الأحكام الفقهية فى التفسير- اللغة فى التفسير- التقليد عند المؤلف رحمه الله. آخر دعوانا سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

(١) سورة المجادلة، الآية: (٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٩٣

ثانيا: الدراسات القرآنية عند عبد الله سراج الدين

الشيخ عبد الله سراج الدين و التفسير:

الشيخ عبد الله سراج الدين عرفته حلب لعقود خلت بعلمه و تصوفه و ورعه، و بمدرسته الشعبانية التى يرتادها الكثيرون من طلبة العلم الشرعى، و درّس فيها غير قليل من علماء المدينة الكبار.

نشأ الشيخ عبد الله فى بيت علم و دين. والده الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسينى رحمه الله، كان عالما من علماء المدينة المشاهير ...

للشيخ عبد الله سراج عدد من المؤلفات فى علوم الشريعة (التوحيد و الحديث و الفقه و التصوف، الأخلاق، و الأذكار و الزهد).
أهم مؤلفاته:

- سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم خصاله الحميدة، شمائله المجيدة.
- التقرب إلى الله تعالى: فضله، طريقه، مراتبه.
- الإيمان بعوالم الآخرة و موافقها.
- الدعاء: فضائله- آدابه، ما ورد فى المناسبات و مختلف الأوقات.
- صعود الأقوال و رفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذى العزة و الجلال.
- شهادة أن لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم. فضائلها- معانيها، مطالبها.
- الصلاة فى الإسلام: منزلتها فى الدين، فضائلها، آثارها، آدابها- فوائدها.
- التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٢٩٤
- هدى القرآن الكريم إلى الحجة و البرهان- شرح المنظومة البيقونية فى مصطلح الحديث.
- هدى القرآن الكريم إلى معرفة العوالم و التفكير فى الأكوان- أدعية الصباح و المساء.
- حول تفسير سورة الفاتحة أم القرآن الكريم.
- حول تفسير سورة الحجرات.
- و له دراسات و كتب أخرى.

و ما دام موضوعنا التفسير عند الشيخ عبد الله سراج الدين فإننا نقول بعون الله:
يتناول الشيخ بعض السور تناولا خاصا فهو:

يقدم دراسة موجزة عن السورة: كأن يبين أ هذه السورة مكية أم مدنية؟ و يلخص بإيجاز السمات العامة للسورة من جانب الموضوعات و القضايا التى عالجتها السورة القرآنية موضوع الدرس مما يجعل القارئ فاهما لموضوع السورة بإيجاز قبل الدخول بالتفاصيل.

فعند ما درس سورة الحجرات قال:
«سورة الحجرات مدنية».

و قد اشتملت على جوامع من الحقوق الإيمانية الأدبية:
أولاً: مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم.

ثانياً: مع المؤمنين عامة و بيان الرابط بين المؤمنين، و هو الأخوة الإيمانية التى عقدها الله تعالى بينهم ثم بيان حقوق هذه الأخوة.
ثم بيان سبب التفاضل و الكرامة عند الله تعالى. ثم بيان ما يتميز به المؤمن الصادق عن المسلم المنافق إلى ما وراء ذلك من ذكر الإرشادات الإلهية» و نلاحظ الروح الصوفية بادية فى بيانه عند ما يتحدث عن هذه السورة و كل سورة، يقول عن سورة الحجرات:
«فى سورة الحجرات حجرات جامعة لمجامع الخيرات و أنواع السعادات، و فيها التوجيهات و الإرشادات للفضائل و الكمالات الإيمانية و الخلقية و فيها التحذير من المفسد و الضلالات، و أنواع المظالم، و انتقاص الحقوق الإنسانية الأدبية» «١». (١) عبد الله سراج الدين، حول تفسير سورة الحجرات، ط (١)، (١٤١ هـ - ١٩٩٢ م)، دمشق، ص (٥، ٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٢٩٥

اللغة فى دراسات عبد الله سراج الدين القرآنية:

امتازت لغة المؤلف بالوضوح والسهولة، و بدت مفهومة من قبل كل المستويات: من العالم و طالب العلم المبتدى. و فى منهجه اللغوى فى التفسير يكشف عن معانى المفردات، و قد يحلل معانى الأدوات و حروف المعانى إن رأى ما يدعو إلى ذلك.

قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) «١» يقول:

«يا: اعلم أن (يا) فى اللغة هى موضوعه للبعد، مكانا أو رتبة، و قد جرت عادة الله تعالى فى نداءه لعباده أن يناديهم بقوله: (يا) لا للبعد المكانى، و إنما هو من باب تعالى مقام الرب، و عزة سيادة ألوهيته سبحانه و عظمه سلطان ربوبيته، و علو شأنه، فينادى عباده الذين هم عبيده بقوله: (يا): و أين رتبة العبودية بالنسبة لعلو مقام الربوبية، على أن فى قوله تعالى: (يا) تنبيهها للعباد كى يقبلوا بكليتهم إلى ما سيلقى عليهم من الخطاب المشتمل على الأوامر و المناهى، و ما فى ذلك من جوامع الإرشادات و محاسن التوجيهات، إلى مراتب الكمالات و إلى ما فيه صلاحهم و سعادتهم» «٢».

و أما نداء العباد و دعاؤهم ربهم فإنه يأتى غالبا بحذف أداة النداء، فقد ذكر الله تعالى دعاء الأنبياء و الأولياء و المؤمنين «٣». قال تعالى مخبرا عن دعاء أبينا آدم عليه السلام:

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) «٤».

و يرى الشيخ عبد الله:

أن من أساليب الخطاب يتضح طبيعة الموضوع، أو يمكن القول إن لكل موضوع أسلوبه الخطابى، يقول المؤلف:

«إن كل من تدبر فى آيات القرآن الكريم يعلم أن الخطابات الإلهية التى فيها إرشادات الله تعالى لعباده، و التى فيها الأوامر و المناهى و نحو ذلك، جاء ذلك على أنواع فى الصفات و النعوت، فيقول سبحانه: (١) سورة الحجرات، الآية: (١).

(٢) عبد الله سراج الدين، حول تفسير سورة الحجرات، ص (٧).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٢٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٩٦

(يا بَنِي آدَمَ)، و يقول (يا أَيُّهَا النَّاسُ) و يقول: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) و يفسر الشيخ أنواع هذه الخطابات بقوله:

«فما جاء فى خطابه سبحانه لعباده بوصف بنى آدم- يدل على أن ما وراء ذلك هو أمر عام، و حكم شامل لجميع بنى آدم من أولهم إلى آخرهم، و فيه رشادهم و صلاح أمورهم، و سعادتهم على اختلاف أزمتهم و أمكنتهم، فمن ذلك ما جاء فى سورة الأعراف حين أهبط البشرية إلى عالم الأرض، قال تعالى:

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِىهَا تَعْبُونَ وَ فِىهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشًا وَ لِبَاسِ التَّقْوَىٰ ذِكْرٌ خَيْرٌ ذَلِكُمْ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) «١».

و أما الخطاب بوصف الناس فقد يراد به جميع الناس من المؤمنين و غيرهم قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) «٢».

و قد يراد به المشركون: قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا

يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧٣) «٣».

و كثيرا ما كانت تنزل الخطابات الإلهية بصفة الناس فى مكة المكرمة و قد نزل منها الكثير فى المدينة كقوله تعالى فى سورة البقرة: يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) «٤».

و أما الخطابات الإلهية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جاء ذلك خمس مرات فى هذه السورة الكريمة و فى الخطاب بهذه الصفة وجوه من الحكم «٥». (١) سورة الأعراف، الآيات: (٢٤-٢٧). و انظر تفسير سورة الحجرات، ص (١٠).

(٢) سورة النساء، الآية: (١).

(٣) سورة الحج، الآية: (٧٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢١).

(٥) عبد الله سراج الدين، حول تفسير سورة الحجرات، ص (١٠، ١١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٩٧

الدراسات القرآنية و الحديث الشريف عند الشيخ عبد الله سراج الدين:

من المعلوم أن الشيخ عبد الله شرح المنظومة البيقونية فى المصطلح. لذا فهو على تمكن من هذا الموضوع من هذا الجانب. و أما جانب الاستشهاد بالأحاديث فهو كثير جدا، فما من موضوع قرآنى إلّا و قد حشد المؤلف فيه عددا كبيرا من الأحاديث الشريفة ... و الحق أن القرآن يستعان على فهمه الفهم السديد بالاستئارة بالحديث. و من البديهي القول: إن السنة تخصص علم القرآن، و تقيد مطلقة، و تفصل مجمله.

و فى حديثه عن الخلق الذى ورد فى الآيات الكريمة مثل هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) «١» يسوق الحديث الذى يفسر معنى الآية: عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر و الأبيض و الأسود و بين ذلك، و السهل و الحزن- أى الغليظ الذى فيه عنف- و الخبيث و الطيب و بين ذلك» «٢».

و دراسات عبد الله سراج القرآنية: يتناول فيها مسائل التوحيد، و التصوف، و الفقه كما يشير إلى محاسن الأخلاق و كرائمها التى تهدى إليها السور القرآنية.

و يركز على أهمية حب الرسول صلى الله عليه و سلم و أهمية صدق المحبة التى ينبى عليها صحة الإيمان و صدقه- كما أنه يستثمر الآيات الكريمة لاستئارة النفس الإنسانية و دفعها باتجاه الأخلاق الحسنة و السلوك الأفضل.

خاتمة:

دراسات قرآنية مفيدة، تدفع القارئ بمراجعتها لسهولة لغتها، ... و تتمنى لو أن الأحاديث جميعها قد خرجت من قبل الشيخ كى تكون الفائدة أكبر إذ أن هناك بعض الأحاديث لا يذكر الشيخ رتبها، و هو إن أراد لقادر على ذلك إن شاء الله تعالى لأن ذلك فيه نفع أعظم لطلبه العلم و كل المطلعين و الله أعلم.

(١) سورة آل عمران، الآية: (٦).

(٢) أخرجه الترمذى.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٢٩٩

الفصل الرابع التفسير الأدبى الاجتماعى

إشارة

أولاً: التفسير عند الشيخ محمد رشيد رضا و معه تفسير الشيخ محمد عبده.

ثانياً: التفسير عند أحمد بن مصطفى المراغى.

ثالثاً: تعليق و مناقشة لآراء محمد عبده و رشيد رضا و المراغى.

رابعاً: فى ظلال القرآن لسيد قطب.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠١

أولاً: تفسير القرآن الحكيم للشيخ محمد رشيد رضا و معه تفسير الشيخ محمد عبده

مقدمة: اللون الأدبى الاجتماعى:

التفسير الأدبى يعمد إلى اكتشاف روعه البيان القرآنى، و دقته التعبيرية فى كيفية معالجة قضايا النفس الإنسانية المتشعبة، و يبين رقة اللفظ القرآنى و رشاقتة الفنية فى التصوير، و التشخيص ...، و كيف يجعل المعنوى حسياً ماثلاً أمام القارئ، و هذا عرف عند علماء الأدب بالتصوير و التشخيص.

ذلك التصوير يجعل الإنسان يتصور المعنوى قائماً أمام الحواس مرسوماً بأبعاده فيترك آثاره الهائلة على النفس البشرية. و هناك عدد من الدراسات الأدبية الاجتماعية فى هذا المجال .. كانت نتاج التقدم الثقافى و العلمى و الأدبى الحاصل فى فترة أواخر القرن التاسع عشر و بدايات القرن العشرين. و من هذه التفاسير الأدبية «المنار لمحمد عبده و تلميذه محمد رشيد رضا» و محمد مصطفى المراغى و محمد أمين الخولى و عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) و غيرهم. إن هؤلاء الكتاب و المفسرين استثمروا القديم من التفاسير و أفادوا أحسن ما تكون الفائدة، و سكبوا على القديم ألواناً من الجديد، فظهرت تفاسيرهم موشاة بثوب جديد فيه أصالة الماضى، و حداثة الجديد، .. ثم يجب ألا ننسى محاولة محمد متولى الشعراوى فى تفسيره الذى حاول فيه أن يحشد أنواعاً شتى من المعارف و العلوم كى ينشئ لنا التفسير إنشاءً آخر حاملاً روح العصر الحديث، متمسكاً بفصاحة اللغة و وضوحها و جمال بيانها، كل ذلك لينمى تذوقنا للقرآن و لبيانه العربى المشرق بنظرة منه ثاقبة، و ملاحظة منه لِمَاحه، فأحسن و أجاد، و أفاد عند ما وظف البلاغة و النحو و الصرف و علم

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠٢

النفس و العلم التجريبي توظيفاً متماسكاً منسجماً إذ جعلها علوماً تخدم بعضها إذ جعل كل منها يمسك بالآخر كى تنتج ثمراً طيباً لذة للاكلين فى رحاب الكتاب الكريم «١».

تفسير المنار لمؤلفيه محمد عبده و رشيد رضا

محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركمانى مفتى الديار المصرية و من كبار رجال الإصلاح و التجديد فى الإسلام، قال أحد من كتبوا عنه «تلخص رسالته حياته فى أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من حقد التقليد ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب و ما للشعب من حق العدالة على الحكومة».

ولد محمد عبده فى شبرا من القرى الغربية بمصر و نشأ فى محلة نصر بالجيزة، و أحب فى صباه الرماية و الفروسية و السباحة، و تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، و تصوف و تفلسف، و عمل بالتعليم، و كتب فى الصحف و لا سيما جريدة الوقائع المصرية، و قد تولى تحريرها، و أجاد اللغة الفرنسية. بعد الأربعين، و لما احتل الإنكليز مصر ناوأمهم، و شارك فى مناصرة الثورة العرابية، فسجن مدة ثلاثة أشهر للتحقيق، و نفى إلى بلاد الشام سنة ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م. و سافر إلى باريس و أصدر مع صديقه و أستاذه جمال الدين الأفغانى جريدة العروة الوثقى، و عاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس و التأليف، و سمح له بدخول مصر فعاد سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨ م. و تولى منصب القضاء، ثم جعل مستشارا فى محكمة الاستئناف، فمفتيا للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ، و استمر إلى أن توفى بالإسكندرية و دفن بالقاهرة» (٢) و له مؤلفات عدة:

تفسير القرآن الكريم، لم يتمه، و «رسالة التوحيد» و «الرد على هانوتوط»- و «رسالة الواردات ط صغيرة- فى الفلسفة و التصوف» و «حاشية على شرح الدوانى للعقائد العضدية ط-» و «شرح نهج البلاغة» و «الإسلام و الرد على منتقديه» ط- و «الإسلام و النصرانية: العلم و المدنية».

و تناول الكتاب و العلماء هذه الشخصية بالدراسة فكان منهم المادحون و منهم القادحون، أما المادحون فمن أبرزهم تلميذه المخلص محمد رشيد رضا- الذى كتب «تاريخ الأستاذ الإمام» و لمصطفى عبد الرزاق سيرة الإمام محمد عبده، و لعبد المنعم حمادة (١) راجع دراستنا حول «تفسير الشعراوى» ص (٢٣٩).

(٢) الزركلى، الأعلام، (٦/ ٢٥٢)، ط (٢)، دار العلم للملايين، (١٩٩٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠٣

«الأستاذ الإمام محمد عبده» (١).

و ما زال بعض الكتاب ينهجون نهج محمد عبده و الأفغانى، و يعتبرون أنفسهم امتدادا لمدرستهما فى التفكير و المنهج منهم «محمد عمارة» المفكر الإسلامى المصرى المعروف (٢).

و أما القادحون فأبرزهم محمد محمد حسين فى كتابه «الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر» (٣).

و نقل كمال سعد و هو صحفى عن محمد محمد حسين كلاما ألقاه فى ندوة فكرية عقدت فى منزل الأديب الشيخ عبد العزيز الرفاعى طرح خلالها المرحوم محمد محمد حسين ارتيابه «بجمال الدين الأفغانى» (٤) و تهجم على محمد عبده متهما إياه بارتباطات واضحة فى المحافل الماسونية (٥) فى كتابه «الاتجاهات الوطنية» و قد اعترف محمد عبده لرشيد رضا بانتماؤه إلى الماسونية ثم انسحب منها. و المحصلة العامة لتأثير محمد عبده و مدرسته على الثقافة الإسلامية فى الوطن العربى كانت محصلة إيجابية حتى لو سلمنا بكل هذه الارتياحات بهذه الشخصية .. فمنهج فى التفكير كان ذا أثر إيجابى على الحياة الثقافية عموما ... و لا يشترط بهذا التسليم بكل ما قاله محمد عبده أو غيره من أصحاب هذا الاتجاه الإصلاحى، و الثقافى.

٢- محمد رشيد رضا (١٢٨٢- ١٣٥٤ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م):

هو محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين، بغدادى الأصل، حسينى النسب، ولد و نشأ فى القلمون فى بلاد الشام ... أحد

دعاة الإصلاح، صاحب مجلة المنار.
 عالم بالحديث الشريف والأدب، رحل إلى مصر فى عام ١٣١٥ هـ فلزم الشيخ محمد عبده و تتلمذ له، بث آراءه الإصلاحية فى مجلته «المنار» حاول فيها التوفيق بين الإسلام و الحياة العصرية، كان يشارك فى النشاطات الوطنية فى بدء الاحتلال الفرنسى إذ ترأس المؤتمر السورى الذى دعا إلى حرية الوطن السورى و وحدته و استقلاله. و خلال وجوده فى سورية (١) الزركلى، الأعلام، (٦/ ٢٥٢)، ط (٢)، دار العلم للملايين، (١٩٩٧).
 (٢) موفق بنى المرجة، صحوة الرجل المريض ط، الكويت (١٩٩٤)، ص (٣٥١).
 (٣) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، بيروت، مؤسسة الرسالة ط (٦)، ١٩٨٣، ج (٢)، ص (٣٠٧، ٣٠٨).
 (٤) موفق بنى المرجة، صحوة الرجل المريض، ص (٣٤١).
 (٥) الزركلى، الأعلام، (٦/ ١٢٦).
 التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠٤
 اعترض عليه أحد المقاومين للإصلاح فعاد إلى القاهرة و مات فيها و فيها دفن.
 أشهر آثاره العلمية: مجلة المنار التى أصدر منها ٣٤ مجلدا. و «تفسير القرآن الكريم» ط ١٢ مجلدا و لم يكمله، و تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده. (ط)، و نداء للجنس اللطيف. (ط) - و الوحي المحمدى (ط)، و محاورات المصلح و المقلمد ... و غير ذلك من المؤلفات».

تفسير المنار: أحد نماذج التفسير الأدبى الاجتماعى:

تمهيد:

إن مدرسة محمد عبده صاحبة الكأس المعلى فى هذا المجال من التفسير، إذ قام رجال هذه المدرسة بجهود ضخمة فى سبيل تحرير التفسير من الأسلوب الجاف، و العبارة اليابسة، و القوالب الجامدة التى ألفت بثقلها على البيان العربى فى عهود الأيوبيين و المماليك و العثمانيين .. فما إن هبت رياح التقدم العلمى و الثقافى حتى استجابت رجالات هذه المدرسة لهذه العوامل الجديدة و أدلت بدلائها فى هذا المجال، فأنتجت آراء فى التفسير، و أساليب أداء هى للابتكار أقرب، حمد الباحثون و العلماء فى علوم القرآن الكثير مما جاء فيها و أنكرت عليها مسائل.
 و سوف نذكر محاسنها و معايها فى نهاية بحثنا فى تفسير المنار جاعلين من ذلك خاتمة للبحث و بالله التوفيق.

طلب الجمعية الخيرية الإسلامية من محمد عبده أن يفسر لها جزء عم:

و لعل من المناسب البدء بما أنتجه محمد عبده فى التفسير لأنه بدأ فى تفسير جزء «عم».
 هذا التفسير كتبه «بمشورة الجمعية الإسلامية الخيرية ليكون مرجعا لأساتذة مدارس الجمعية فى تفهيم التلاميذ معانى ما يحفظون من سور هذا الجزء» (١).
 و قد أتم محمد عبده تفسيره لهذا الجزء فى عام (١٣٢١ هـ) (٢).
 و حدثنا محمد عبده عن نهجه فى تفسير هذا الجزء باذلا جهده كى تكون «العبارة (١) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون، (٢/ ٥٥٢).

(٢) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠٥

سهلة التناول، خالية من الخلاف، و كثرة الوجوه فى الإعراب، بحيث لا يحتاج فى فهمها إلا أن يعرف القارئ كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع مع حسن النية و سلامة الوجدان» (١).

«كذلك فإن محمد عبده فسّر سورة «العصر» تفسيراً مطوّلاً- و كذلك ألقى بحوثاً تفسيرية فيها الذود عن القرآن فى وجه المشككين تناول توفيقه بين الآيات الموهمة للتضاد و التعارض، منها الآيات التى تنسب الأفعال لله، و أخرى تنسب الأفعال للبشر. و من ذلك تفسيره للآية فى سورة الحج و ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ... «٢» (و إبطاله قصة الغرائق و تفنيده لما بنى عليها من تفسير يذهب بعصمة النبي صلى الله عليه و سلم، و يرفع الأمان عن الوحي الذى تكفل الله بحفظه» (٣).

و من هذا القبيل ذوده عن الرسول صلى الله عليه و سلم فى قصة زواجه من زينب رضى الله عنها و ما أثاره المؤمنون من اتهامات كاذبة بحق الرسول صلى الله عليه و سلم إذ رموه بالشهوانية.

و من جهوده التفسيرية ما ألقاه فى جامعة الأزهر باقتراح من تلميذه محمد رشيد رضا كما قال محمد عبده (٤).

و عمل محمد عبده بدأ فى أول محرم ١٣١٧ هـ- و انتهى عند تفسير قوله تعالى فى الآية ١٢٦ من سورة النساء وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦) فى محرم ١٣٢٣ هـ/ إذ توفى فى هذا العام لثمان خلون من جمادى الأولى. و ينبغى التنبيه أن محمد عبده لم يكتب بيده ما فسّره من القرآن، إنما الذى كتبه منه مباشرة تلميذه محمد رشيد رضا ثم نشر محمد رشيد رضا هذه الكتابات المفسرة فى مجلة «المنار» و ذلك بعد اطلاعه محمد عبده على ما أعده للطبع ما تيسر له ذلك» (٥).

منهاج محمد عبده فى التفسير:

كان محمد عبده داعية تجديد و تحرر، و لم يكن داعية جمود و تقليد، و لما كان كذلك فإنه بذل جهوداً ضخمة من أجل التجديد، و التحرر من الجمود و التقليد، فأتى بأفكار خالف السابقين و دعا لاعتناقها الحاضرين، فجلبت له غضب الكثيرين من تيار المحافظين،

(١) محمد عبده، مقدمة تفسير جزء عم، مطبعة مصر، (١٣٤١ هـ)، ص (٢).

(٢) سورة الحج، الآية: (٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥).

(٣) محمد حسين الذهبي، التفسير و المفسرون، (٢/٥٥٣).

(٤) محمد عبده، تفسير المنار، (١/٤)، ط (١٣٤٦).

(٥) محمد حسين الذهبي، التفسير و المفسرون، (٢/٥٥٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠٦

غير أنها جمعت له أنصاراً و أعدت له معجبين، فكانوا بما قال من المؤمنين.

و هذا شأن كل جديد مع كل قديم يصطرع معه، فإن كان الجديد يمتلك قابلية الحياة و الاستمرار أخذ مكانه فى الأرض، و نمت شجرته، و نضج ثمره، و إن لم يكن حاملاً قابلية الحياة ذهب جفاء كما يذهب الزبد.

و يمكن القول: إن محمد عبده كان يدعو إلى فهم القرآن فهماً يبرز الدين أداه هداية و رشاد للإنسانية مبتغياً سعادتها غير مضيق عليها فى دنياها، فاتحا لها أبواب الآخرة السعيدة المبشرة بحياة طيبة فى جنات الله التى أعدت للمتقين .. لذا فإن محمد عبده نأى بنفسه من خلال تفسيره بعيداً عن التفريعات الفقهيّة، أو التطبيقات النحويّة و الصرفيّة، لأنه كان يرى أن التركيز على النحو و الصرف و الفقه فى كتب التفسير السابقة و القديمة منها على الخصوص قد أخرجت هذه التفاسير عن مقاصدها و أهدافها الداعية إلى الرشد و الهداية و

توضيح سبيل المؤمنين على نحو سهل ميسر (١).

و كى يستطيع محمد عبده أن يختط لنفسه نهجا نافعا فى التفسير فإنه درس التفاسير القديمة و وجدها لا تخرج عن نوعين: النوع الأول: «جاف مبعد عن كلام الله تعالى و هو الذى اهتم بتدبر معانى الألفاظ، و إعراب الجمل، و بيان ما ترمى إليه العبارات و الإشارات» و برأى محمد عبده أن هذا «لا يسمى تفسيرا و إنما ضرب من التمرين فى النحو و الصرف، و المعانى و نحوها». و النوع الثانى: اهتم بفهم المراد و المقاصد من القول، كما حاول أن يدرس علل التشريع و أسبابه و حكمه دراسة جلابة للدين و الأخلاق، منفرقة من الشر و الرذيلة و الأعراف.

بهذا يتحقق بهذا التفسير الفائدة المبتغاة، و الأمل المرجو بالدعوة إلى الخير و الهداية، المودعة فى القرآن الكريم الواضحة فى قوله تعالى فى وصف القرآن الكريم: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) «٢». هذا ما أراده محمد عبده من تفسيره كما قال «٣».

و عند ما قال محمد عبده إنه يريد الابتعاد عن الجوانب النحوية و البلاغية فى تفسيره، فإنه لم يبلغها تماما إنما تناول جوانب بلاغية بالقدر الذى يخدم تفسير المعنى، و يكسبه (١) محمد عبده، تفسير المنار، (١٧/١، ١٨).

(٢) سورة النحل، الآية: (٨٩).

(٣) محمد عبده، تفسير المنار، بتصرف (١/٢٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠٧

إضاءة و وضوحا ضمن الحدود المحتملة للمعنى، دون تحمل و إطالة فى هذا الجانب (١).

القرآن و العقيدة الإسلامية كما يتبينها المنار:

ما من شك أن القرآن الكريم هو المصدر الأساس للدين الإسلامى، أصولا و فروعاً، و الأصول هى العقائد، و العقيدة تؤخذ أصلا من القرآن الكريم، و قد أخطأ قوم عند ما أخذوا يتأولون القرآن كى يطوعوه لصالح آرائهم العقيدية، يقول محمد عبده. «إذا وزنا ما فى أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله من غير أن ندخلها أولا فيه، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين. و أما إذا أدخلنا ما فى أدمغتنا فى القرآن و حشرناها فيه أولا، فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال، لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدرى ما هو الموزون به» «٢».

يريد أن يقول: كى نستطيع أن نحدد صفاء عقيدتنا يجب أن نحافظ على سلامة المعيار أو القياس الذى هو القرآن عند كل المسلمين، ... أما إذا بدأنا نتلاعب فى المعيار فلن نستطيع أن نزن أو نقيس الأمور قياسا صحيحا ... و بهذا لا نستطيع أن نقرر أو أن ندرك أن نحن نمتاز بعقيدة صحيحة، أم بعقيدة فاسدة.

فمحمد عبده يريد أن يجعل من القرآن أساسا تقاس عليه القضايا و الآراء فى شتى شئون الحياة، و يريد أن تكون المذاهب خاضعة لهذا المقياس:

«أريد أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب و الآراء فى الدين، لا أن تكون المذاهب أصلا و القرآن هو الذى يحمل عليها. و يرجع بالتأويل أو التحريف إليها كما جرى عليه المخذولون، و تاه فيه الضالون» «٣».

عدم اعتماد محمد عبده على كتاب عند ما فسر القرآن:

إن طبيعة المخاطبين تؤثر تأثيرا كبيرا فى أسلوب المخاطب، و كان من عادة محمد عبده أن يراعى حال من يستمعون إليه «إذا حضره جماعة من البلداء، الخاملى الفكر شرح لهم المعنى بكلمات قليلة، و إذ كان هناك من يتتبه لما يقول و يلقي له بالا يفتح الله عليه

بكلام كثير، هذا ما حدث به محمد عبده عن نفسه «٤». (١) محمد عبده، تفسير سورة الفاتحة، ص (٥٤).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) محمد عبده، تفسير المنار، (١٤/١)، ط (١٣٤٦ هـ).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠٨

محمد رشيد رضا يتحدث عن طريقة محمد عبده فى التفسير:

يظهر من كلام محمد رشيد رضا عن أستاذه محمد عبده أن محمد عبده لم يكن ليريد أن يكرر ما قاله المفسرون الأوائل الذين سبقوه، ... إنما يلجأ إلى الاختصار فى القول فى المسائل التى أجاد فيها السابقون، و توسّعوا فيها مثل «مباحث الألفاظ، و الإعراب، و نكت البلاغة، و فى الروايات التى تدل عليها، و لا تتوقف على فهمها الآيات» (١).

كان الرجل ميالاً إلى التفكير و العقل الحر أكثر من ميله إلى التقييد بكتاب «إنه كان يقرأ المصحف و يلقى ما يفيض الله على قلبه» (٢).

و لعل محمد عبده كان حريصاً على ألا يقلد غيره من السابقين، و كأنه كان يدرك أن اطلاعه على من فسر سابقاً يجعله متأثراً بما قرأه لتوه، لذا كان يقول: «إننى لا أطلع قبل أن أقرأ لكننى ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب فى الإعراب أو كلمة غريبة فى اللغة» (٣).

و يقول محمد رشيد رضا عن محمد عبده إنه «قد يضع أمامه تفسير الجلالين الذى هو أوجز التفاسير فكان يقرأ عبارته فيقرأها أو ينتقد منها ما يراه منتقداً ثم يتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية و عبرة» (٤).

و فى كل الأحوال فإن محمد عبده كان معتاداً بآرائه، غير آبه بمن خالفه من السابقين، كان يقرأ لهم، و يحاكم ما قرأ «و لم يبلغ عقله أمام عقولهم، بل على العكس من ذلك وجدناه يندد بمن يكتفى فى التفسير بالنظر فى أقوال المتقدمين»، فيقول: «التفسير عند قومنا اليوم و من قبل اليوم بقرون هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير على ما فى كلامهم من اختلاف ينتزه عنه القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (٥).

محمد عبده يركز على أهمية التدبر و العمل بما ورد فى القرآن:

قلنا فيما سبق إن محمد عبده لم يركز على ما قاله السابقون، و لم يتوسع بما توسعوا به، و إنما همّه أن ينور عقول الناس بالقرآن، أو أراد أن يحض كل سامع أو كل قارئ له (١) محمد عبده، تفسير المنار، (١٤/١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عثمان أمين، محمد عبده، ص (١١). ط عيسى الحلبي، (١٩٤٤ م).

(٤) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (١٥/١).

(٥) سورة النساء، الآية: (٨٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٠٩

أن يكون لنفسه أدوات فهم للقرآن، لأنه لا يكفى أن تستقبل آراء الآخرين و ما قالوه فى القرآن «إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس، و ما فهموه إنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا و هدايتنا و عن سنة نبينا الذى بين لنا ما أنزل إلينا .. يسألنا: هل

بلغتكم الرسالة؟ هل تدبرتم ما بلغتكم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتكم و ما به أمرتم «(١)»؟

لقد كان تَوْافًا إلى الفهم المأخوذ عن دراسة و ترو «و أعنى بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبيه أساليب القرآن بعجائبها، و تملكه مواظبه فتشغله عما بين يديه مما سواه، لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذًا جافًا، لم يصحبه ذلك الذوق، و ما يتبعه من دقة الشعور و لطف الوجدان» «(٢)».

و قد كان محمد عبده مخلصًا متحمسًا لأهدافه الإصلاحية فى التفسير، كما كان حرا فى بحثه، لا يكثرث بضغط الواقع، و لا ينحني لثقله ما دام ما رآه مقتنعا به، فمن النوادير الطريفة التى وقعت له بعد تفسيره بعض آيات القرآن ما قاله أحد المحاورين: إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل، [يعنى بالجمل أحد الأشخاص الملقب بهذا اللقب و هو أحد المؤلفين الذين كتبوا الحواشى لتفسير الجلالين - فأجاب محمد عبده فورًا:

«إننى أقرر المعنى الجليل، و الكلام البليغ، و لا يعينى أوافق عليه الجمل أو الحمار» «(٣)».

محمد عبده و الإسرائيليات:

المقصود بالإسرائيليات: المرويات المنقولة عن أهل الكتاب.

كان محمد عبده نفورا من الإسرائيليات، لا يتدخل فى تفسير الجزئيات، قناعه منه بعدم الفائدة من ولوجها، و لعدم تكليف الله تعالى عباده بولوجها بحثًا عن دقائقها و تفصيلاتها، و لو كان فى ذلك فائدة للناس فى حياتهم «لدلنا عليه فى كتابه أو على لسان نبيه» «(٤)». و الحق أن المتتبع لتفسير محمد عبده و تلامذته من بعد فى المنار لوجدهم عزوفين عن التكلف فى فهم المبهمات أو الجزئيات، إنما كان «مذهبه فى جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعى لا يتعداه، و يثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه». (١) محمد عبده، و رشيد رضا، المنار، (١ / ٢٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عثمان أمين، محمد عبده، ط عيسى البابى الحلبي (١٩٤٤)، ص (٢٧).

(٤) محمد عبده، تفسير المنار، (٢ / ٣٢٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٠

و لعل بعض الأمثلة التطبيقية لما أسلفناه عن نهج محمد عبده تساعدنا فى توضيح الأمر، قال تعالى فى سورة الانفطار: وَإِنَّ عَلَيْنَا لَلْحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) «(١)». قال محمد عبده فى تفسير هاتين الآيتين: «و من الغيب الذى يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به فى كتابه: أن علينا حفظه يكتبون أعمالنا حسنات و سيئات، و لكن ليس علينا أن نبحت عن حقيقة هؤلاء و من أى شىء خلقوا، و ما هو عملهم فى حفظهم و كتابتهم، هل عندهم أوراق و أقلام و مداد كالمعهود عندنا ... و هو يبعد فهمه؟ أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال؟ و هل الحروف و الصور التى ترسم هى على نحو ما نعهد؟ أو إنما هى أرواح تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس إلى أن يبعث الله الناس؟ كل ذلك لا نكلف العلم به، و إنما نكلف الإيمان بصدق الخبر، و تفويض الأمر فى معناه إلى الله، و الذى يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل فى عملنا هو: أن أعمالنا تحفظ و تحصى، لا يضع منها نقير و لا قطمير» «(٢)».

و عند ما يفسر محمد عبده سورة البروج و يتحدث القرآن عن أصحاب الأخدود نرى المفسر غير مولع بتحديد المكان، و لا من هؤلاء المؤمنون؟ و أين كانوا؟ ... إنه كان يريد التقاط الموعظة، و وضع اليد على المنفعة التى تنفع الناس يقول: «غير أن المؤمن لا يحتاج فى الاعتبار و إشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم و الجهة، و خاصة الدين الذى كان عليه أولئك أو هؤلاء حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات، و الأساطير المحشوة بالخرافات، و إنما الذى عليه هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولاً، و لو علم الله خيرا فى أكثر من ذلك لتفضل علينا به» «(٣)».

و ينتقد محمد عبده تدخل بعض المفسرين فى تفسير بعض المغيبات التى لم يكشفها النص القرآنى مثل تناول بعضهم صفات الميزان الذى يزن أعمال الناس يوم القيامة، وذلك خلال تفسير سورة القارعة «إنه ميزان بلسان و كفتين كأطباق السموات و الأرض، و لا يعلم ماهيته إلا الله» يعقب محمد عبده على أقوال المفسرين: «فما ذا بقى من ماهيته بعد لسانه و كفتيه حتى يفوض فيه العلم إلى الله؟! و الكلام فيه جرأة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم. و لم يرد فى الكتاب إلا كلمة ميزان، و قد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لنتفح بما نعتقد، و ما عدا ذلك فعلمه إلى الله سبحانه، و قد قالوا: إن منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر، إذا كان القائل به يحدد له لسانا و كفتين مع أن البشر اخترعوا (١) سورة الانفطار، الآيتان: (١٠، ١١).

(٢) محمد عبده، تفسير جزء عم، ص (٣٦).

(٣) المصدر نفسه، ص (٥٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١١

من الموازين ما هو أتقن من ذلك و أضبط» (١).

و يرى محمد عبده أن ميزان الله غير ميزان القبائل أو ميزان عامة البشر مهما دق و أتقن، لأن الله أعظم من ذلك و لن يصل الإنسان إلى تصور صحيح و معرفة أكيدة عن مواصفات هذا الميزان لأن الله لم يخبرك عنه أيها الإنسان. لذا قال محمد عبده: «عليك أيها المؤمن المطمئن إلى ما يخبر الله به أن تؤمن أن الله يزن الأعمال. و يميز لكل عمل مقداره، و لا تسل كيف يزن، و لا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، و الله يعلم و أنتم لا تعلمون» (٢).

كيف عالج محمد عبده المسألة الاجتماعية فى تفسيره؟

لقد كان محمد عبده حريصا كل الحرص أن يأخذ من كل آية نفعا اجتماعيا لأن القرآن أنزل هدى و رحمة و بشرى للناس، لذا فإن كل آية تحمل فائدة للمجتمع، تعالج أمراضه، و تزكى روح الخير و الإيجابية فى الإنسانية المعطاءة.. فعند ما يتناول آية من القرآن تناولت قضية اجتماعية فإنه يتوسع فيها، و يلقي من تفسيره، و توضيحه حتى يبدو النص القرآنى واضحا للعقول إن العلاج فى القرآن. فسر الإمام محمد عبده سورة «العصر» تفسيراً مطوّلاً و تحدث عن معانى جليلة فى هذه السورة ثم وقف عند «و تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» و قال: «و الصبر ملكة فى النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتمالها، و الرضى بما يكره فى سبيل الحق، و هو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق، و ما أوتى الناس من شىء مثل ما أوتوا من فقدان الصبر أو ضعفه. كل أمة ضعف الصبر فى نفوس أفرادها، ضعف فيها كل شىء، و ذهبت منها كل قوة، و لضرب لذلك مثلاً: نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم، إذا دقت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر».. يجلس الطالب لدرسه سنة أو سنتين، ثم تعرضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل فى فهمه إلى حرفة أخرى يظنها أريح له، فينقطع عن الطلب، و يذهب فى الجهل كل مذهب، و كل هذا من ضعف الصبر.. يبخل البخيل بماله، و يجهد نفسه فى جمعه و كثره، و تعرض له وجوه البر فيعرض عنها، و لا ينفق درهما فى شىء منها، فيؤذى بذلك وطنه و ملتته، و يترك الشر و الفقر يأكل قومه و أمته، و لو نظرنا إلى ما قبضت يداه لوجدناه ضعف الصبر، و لو صبر (١) محمد عبده، تفسير جزء عم، ص (١٤٧).

(٢) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٢

على محاربة الفقر اللائح فى ذهنه يهدده بالنزول به، لما أصيب بذلك المرض القاتل له و لأهله» (١) ... و هكذا يضرب الأمثلة الكثيرة، و يستنبط منها العبر الغزيرة التى تحمل الفائدة للناس. و العلماء لا عذر لهم إذا تقاعسوا عن حمل الهداية إلى الناس ... «يجب على العلماء و من يتشبه بهم أن يتعلموا وسائل القيام بالواجب ما تدعو إليه الحال، على حسب الأزمان و اختلاف أحوال الأمم، و أول

ما يجب عليهم فى ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح، و علم تكوين الأمم، و ارتفاعها و انحطاطها، و علم الأخلاق و أحوال النفس، و علم الحس و الوجدان، و نحو ذلك مما لا بد منه فى معرفة مداخل الباطل إلى القلوب، و معرفة طرق التوفيق بين العقل و الحق، و سبل التفريق بين اللذة و المنفعة الدنيوية و الأخروية و وسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلى جانب الخير. فإن لم يحصلوا على ذلك كله فوزر العامة عليهم. و لا تنفعهم دعوى العجز، فإنهم ينفقون من أزمانهم فى القيل و القال و البحث فى الألفاظ و الأقوال ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار علم، و أعلام هدى و رشد» (٢).

محمد عبده يربط بين الفرد و المجتمع ربطاً محكماً:

موقع الإنسان الفرد فى مجتمعه، كموقع اليد من الجسد، فإذا ما أصاب اليد الشلل أو العطل، فإن هذا المجتمع أصيب بالقصور، و دان بالعجز، لذا كان لا بد للفرد أن يبذل من الجهد من أجل دفع مجتمعه نحو التقدم و التطور، و لاحظ كيف ربط محمد عبده علاقة الفرد بمجتمعه من خلال دور الفرد و ذلك فى تفسيره لقوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣)» (٣) .. قال محمد عبده: «فلا يعدّ الشخص باراً و لا برا حتى يكون للناس من كسبه و من نفسه نصيب، فلا يغترّ أولئك الكسالى الخاملون، الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركعات من الخشية خاليات، و بتحميدات و بتسيحات، و بتكبيرات، ملفوظات غير معقولات، و صيحات غير لانقات بأهل المروءة من المؤمنين و المؤمنات، ثم بصوم أيام معدودات لا- يجتنب فيها إيذاء كثير من المخلوقات، مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين قام أم سقط، ارتفع أو انحط، و مع حرصه و طمعه و تطلعه لما فى أيدي الناس، و اعتقاده الاستحقاق لما عندهم:

لا- لشيء سوى أنهم عاملون فى كسب المال و هو غير عامل؛ و هم يجرون على سنة الحق (١) محمد عبده، تفسير سورة الفاتحة، و ست من خواتيم القرآن، ص (٨٧، ٨٩).

(٢) المصدر نفسه ص (٩٩، ١٠٠).

(٣) سورة الانفطار، الآية: (١٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٣

و هو مستمسك بسنة الباطل، و هم يتجملون بحلية العمل، و هو منها عاطل فهؤلاء ليسوا من الأبرار بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار» (١).

القرآن و العلوم الحديثة فى تفسير محمد عبده:

ذكرنا فيما سبق أن محمد عبده كان رجلاً يحضّ على المعرفة بأنواعها، و من شدة ولعه بالعلم أدخله إلى ساحة تفسير النصوص القرآنية، إسهاماً منه بعظمة القرآن الذى نصّ على كثير من المسائل العلمية الحديثة قبل اكتشافها من قبل علماء الخبر و التجربة .. و قد حاول غيره أن يفسّر بعضاً من آيات القرآن على هدى بعض النظريات العلمية ففسّر قوله تعالى: «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١)» (٢) قال محمد عبده:

«انشقاق السماء مثل انفطارها، الذى مرّ تفسيره فى مثل «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ».

و هو فساد تركيبها، و اختلال نظامها، عند ما يريد الله خراب هذا العالم الذى نحن فيه» (٣). و نرى عبده عند ما يفسر سورة الفيل و قصة الطير الأبايل التى رمت جنود أبرهة بحجارة من سجيل» يقول:

«قد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى، أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فرق

عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض و أن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسده دخل فى مسامه، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم و تساقط لحمه، و إن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة، يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، و إن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن ميكروب لا يخرج عنها، و هو فرق و جماعات لا يحصى عددها إلا بارئها و لا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رءوس الجبال و لا على أن يكون من نوع عنقاء المغرب و لا على أن يكون له ألوان خاصة به .. «٤». (١) محمد عبده، تفسير جزء عم، ص (٣٧).

(٢) سورة الانشقاق، الآية: (١).

(٣) محمد عبده، تفسير جزء عم، ص (٤٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٥٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٤

موقف محمد عبده من حقيقة الملائكة و إبليس:

قال تعالى: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** (٣٤) «١» إلى آخر الآيات التى تحكى قصة استخلاف آدم و سجود الملائكة له، و رفض إبليس السجود بحجة أنه خير منه.

قال محمد عبده: «ذهب بعض المفسرين مذهبا آخر فى فهم معنى الملائكة، و هو أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات و خلقه حيوان، و حفظ إنسان، و غير ذلك فيه إيحاء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، و هو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص، نفخه الله فى البذرة، فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة.

و كذلك يقال فى الحيوان و الإنسان، فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجادها وإنما قوامه بروح إلهى سمى فى لسان الشرع ملكا و من لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسم هذه المعانى «القوى الطبيعية» إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا- ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة. و الأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقه أمرا هو مناطها، و به قوامها و نظامها، لا يمكن العاقل أن ينكره، و إن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا، و زعم أن لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية، أو ناموسا طبيعيا، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع فالحقيقة واحدة و العاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسّميات، و إن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجودا لا يدرك كنهه، و الذى لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح، و لكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها، و لا يعلم إلا الله علام يختلف الناس، و كلّ يقرب بوجود شىء غير ما يرى و يحس، و يعترف بأنه لا يفهمه حقّ الفهم. و لا يصل بعقله إلى إدراك كنهه؟

و ما ذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب و قد اعترف بما غيب عنه لو قال: أصدق بغيب أعرف أثره و إن كنت لا أقدر قدره فيتفق مع المؤمنين بالغيب، و يفهم بذلك ما يرد على صاحب الوحي و يحظى بما يحظى به المؤمنون» «٢».

و يريد أن يقول: «أن الداعى إلى الخير فى داخل النفس البشرية يمكن أن نسميه ملكا، أما داعى الشر فيمكننا أن نسميه شيطانا» يشعر كل من فكر فى نفسه، و وازن بين خواطره عند ما يهتم بأمر فيه وجه للحق أو للخير و وجه للباطل أو للشر بأن فى نفسه تنازعا (١) سورة البقرة، الآية: (٣٤).

(٢) محمد عبده، تفسير المنار، (١/١٦٧، ١٦٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٥

كأن الأمر قد عرض فيه على مجلس شورى، فهذا يورد و ذاك يدفع، واحد يقول افعل، و آخر يقول لا- تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين، و يترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذى أودع فى أنفسنا و نسميه قوة و فكرا، و هى فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، و روح لا- تكتنه حقيقتها، لا يبعد أن يسميها الله ملكا، أو يسمي أسبابه ملائكة أو ما شاء من الأسماء فإن التسمية لا حجر فيها، على الناس فكيف يحجر على صاحب الإرادة المطلقة و السلطان النافذ و العلم الواسع» (١).

و من غريب ما يراه محمد عبده، «أن الإنسان بعد ما خلقه و منحه قواه و خصائصه، على نحو ممتاز، و سخر له ما فى الأرض، عبر عن هذا التسخير بالسجود، أى إن سجد الملائكة و هو عبارة عن تسخير و بهذا الاستعداد، و بهذا التسخير، جعل الإنسان خليفة فى الأرض» استثنى من هذه القوة قوة واحدة عثر عنها إبليس... و هذه القوة هى التى تميل بالمستعد إلى الكمال، أو بالكامل إلى النقص، و تعارض من الموجود لترده إلى العدم..» (٢).

و يجعل قصة الملائكة تمثيلا «و تقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا: أن إخبار الله الملائكة فجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض و قوى هذا العالم و أرواحه، التى بها قوامه و نظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود فى هذه الأرض، و سؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره، و يعطى استعدادا فى العلم و العمل لا حد لهما هو تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك، و تمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض، و يعلم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شىء فى هذه الأرض و ارتفاعه بها فى استعمارها، و سؤالهم عنها و تصلهم فى الجواب تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته، و سجد الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح و القوى له،.. و إباء إبليس و استكباره عن السجود، تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر، و إبطال داعية خواطر السوء، التى هى مثار التنازع و التخاصم و التعدى و الإفساد فى الأرض..» (٣).

محمد عبده و موقفه من السحر كما ورد فى المنار:

لقد بدا موقف محمد عبده من مسألة سحر الرسول صلى الله عليه و سلم موقفا يتعارض مع أهل السنة و يلتقى مع المعتزلة، فقد فسر معنى «النفاثات بالعقد» من سورة الفلق بقوله: «المراد بهم (١) محمد عبده، تفسير المنار، (١/ ١٦٨).

(٢) المصدر نفسه، (١/ ١٦٩).

(٣) المصدر نفسه، (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٦

هنا النمامون، المقطعون لروابط الألفه،.. و أراد الله أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء و زوجته.

إنكار محمد عبده لبعض الأحاديث الصحيحة:

لقد وردت أحاديث صحيحة فى سحر الرسول صلى الله عليه و سلم فعمد عبده إلى ردّها اعتقادا منه إن هذا يتنافى مع مبدأ عصمة الرسول! «و قد رويها هنا أحاديث فى أن النبي صلى الله عليه و سلم سحره لبيد بن الأعصم، و أثر سحره فيه حتى كان يخيل له أنه يفعل الشىء و هو لا يفعله أو يأتى شيئا و هو لا يأتيه، و أن الله أنبأ بذلك...» و يقول لو أن هذا السحر وقع فعلا برسول الله صلى الله عليه و سلم «هو مما يصدق قول المشركين فيه: ... أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها و قال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا» (٨) (١)، و ليس المسحور عندهم إلا من خولط فى عقله و خيل إليه أن شيئا يقع و هو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحى إليه، و لا

يوحى إليه، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما النبوة؟ و لا ما يجب لها: إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة. قد صح فيلزم الاعتقاد به و عدم التصديق به بدع من بدع المبتدعين، لأنه ضرب من إنكار السحر» (٢).

و يحاول عبده أن يرسخ وجهة نظره فى إنكار السحر معتمدا على القرآن أيضا، الذى ردّ مزاعم المشركين عند ما اتهموه أنه ساحر أو مسحور «و الذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به و أنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه و سلم فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبت، و عدم الاعتقاد بما ينفى و قد جاء بنفى السحر عنه صلى الله عليه و سلم .. إذ و بخ القرآن المشركين على زعمهم أن الرسول مسحور .. فإذا هو ليس بمسحور قطعاً، أما الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد، و الآحاد لا يؤخذ فى باب العقائد، و عصمة النبي صلى الله عليه و سلم فى تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين، و لا يجوز أن يؤخذ فيها الظن و المظنون على أن الحديث الذى يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصل الظنّ عند من صحّ عنده، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة، و على أى حال فلنا بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث، و لا نحكمه فى عقيدتنا و نأخذ بنص الكتاب، و بدليل العقل، فإنه إذا خولط النبي فى عقله كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئا و هو لم يبلغه، أو أن شيئا نزل عليه، و هو لم ينزل عليه و الأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان» (٣) .. على أننا سوف (١) سورة الفرقان، الآية: (٨).

(٢) محمد عبده، تفسير جزء عمّ، ص (١٨١-١٩٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (٩١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٧

نناقش آراء محمد عبده فى هذا الموضوع و غيره فيما بعد إن شاء الله.

و لا بد من استكمال دراسة المنار مع الشيخ محمد رشيد رضا الذى كتب فى المنار فاعتبر امتدادا و فيا صادقا لمحمد عبده.

محمد رشيد رضا و اتصاله بمحمد عبده:

بينما كان يدرس الشيخ محمد رشيد بمساجد طرابلس الشام ببلدان مرشدا و معلما، وقعت فى يده نسخة من جريدة «العروة الوثقى» التى تصدر فى باريس من قبل جمال الدين الأفغانى و تلميذه محمد عبده، بعدئذ أخذ يسعى بالاتصال جاهدا دون جدوى بالإصلاحى جمال الدين الأفغانى - ثم سعى جاهدا للاتصال بمحمد عبده فكان له ما أراد، فى (١٣١٥ هـ). و اقترح محمد رشيد رضا على شيخه أن يكتب تفسيراً للقرآن على نهج ما كان قد كتبه من تفسير فى جريدة «العروة الوثقى» «و بعد أخذ و ردّ امتنع محمد عبده أن يلقى دروسا فى التفسير فى الجامع الأزهر و لم يلبث إلا قليلا حتى أخذ يلقى دروسه على طلابه و مرديه» (١).

و كان رشيد رضا أحرص الناس على حضور دروس محمد عبده، و أشدهم مواظبة و انتباها و تلقيا و ضبطا، فكان يكتب بعض ما يسمع ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك بعد مراجعة أستاذه لما كتب، و تناوله بالتنقيح و التهذيب» (٢).

و وصف محمد عبده علاقته برشيد رضا وصفا دقيقا عند ما قال عن رشيد رضا «إنه متحد معه فى العقيدة و الفكر و رأى و الخلق و العمل» (٣).

محمد رشيد رضا و إنتاجه التفسيري:

إن رشيد رضا أغزر أشخاص مدرسه محمد عبده فى التفسير، إذ فسّر من أول القرآن حتى سورة يوسف * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِي فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوْفِيقِي مُسْلِمًا وَ الْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) «٤».

هذا التفسير إلى هذه الآية طبع باثنى عشر مجلدا. ينتهى المجلد الثانى عشر عند قوله (١) أعددنا هذا مختصرا عن مقدمة تفسير المنار،

(١ / ١٠ - ١٥).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عبد الرحمن عاصم، مجلة نور الإسلام، عدد (١٢)، من السنة الخامسة للهجرة.

(٤) سورة يوسف، الآية: (١٠١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٨

تعالى فى سورة يوسف* وَ مَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) «١»:

مصادر رشيد رضا فى تفسيره:

قلنا سابقا إن بعض آيات القرآن يفسر بعضه «فكان رشيد رضا يستعين بالآيات المفسرة لآيات أخرى.

ثم كان يستعين بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الواردة فى تفسير القرآن ... و بما قاله الصحابة و التابعون. و بأساليب العرب و سنن الله فى خلقه» «٢».

و كان على نهج شيخه حر التفكير، لا- يتقيد بأقوال السابقين إلا إذا رأى صحة ما يقولونه، و إذا آتاه الله فهما للقرآن لم يسبق إليه أحد، أو لم يطلع عليه إلا بعد كتابته من عنده، فإنه يتحدث إلى إخوانه شاكرًا، و قد يقصه على أهل بيته مغتبطًا مسرورًا» «٣».

هدفه من التفسير:

قال رشيد رضا إنه كان يهدف إلى تلبية «حاجة الناس التى صارت شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه، و ما أنزل لأجله، من الإنذار و التبشير و الهداية و الإصلاح» «٤». إنه يريد توظيف التفسير لأجل جعل القرآن فى متناول الدارسين الباحثين عن الهداية.

منهج محمد رشيد رضا فى التفسير:

لم يختلف منهجه عن منهج أستاذه محمد عبده، فهو «لم يتقيد بأقوال السابقين من المفسرين، و لم يحكم العقيدة بالقرآن و إنما حكم القرآن على العقيدة- و كشف عن معانى العبارة القرآنية، ببيان جذاب، و أسلوب سهل.

غير أن رشيد رضا يخرج عن نهج أستاذه بعد وفاته لمصلحة ارتأها «و إننى لما استقلت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة (١) سورة يوسف، الآية: (٥٣).

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (١٩٦ / ٦).

(٣) عبد الرحمن عاصم، الشيخ رشيد رضا، مجلة نور الإسلام، عدد (١٢)، من السنة الخامسة (١٣٥٤ هـ).

(٤) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (١٠ / ١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣١٩

الصحيحة، سواء كان تفسيرها لها، أو فى حكمها، و فى تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية و المسائل الخلافية بين العلماء، و فى الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة، و فى بعض الاستطرادات لتحقيق حاجة تشدد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، ربما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر، أو يقوى حججهم على خصومه من الكفار و المبتدعة، أو بحل بعض المشكلات التى أعيهاها، بما يطمئن به القلب و تسكن إليه النفس» «١».

و لعل تفسير لجوئه إلى التوسع لم يكن مردّه أنه تخلّص من أستاذه و بدا حرا بعدئذ إنما مردّه إلى اتصاله بالصحافة، و تواصله مع القطاع الأوسع من الناس على اختلاف منازلهم و مشاربهم، و فيهم المتدين و الملحد...» (٢).

آراؤه فى التفسير:

امتاز رشيد رضا بحرية التفكير، و الاعتداد بالرأى، دونما اكرات بمخالفه، و فى هذا يشابهه أستاذه محمد عبده، .. و قد يأتي بآراء يخالف فيها جمهرة العلماء من أهل الفقه و التفسير .. و قد يقلد شيخه محمد عبده فى مسائل كثيرة.

رأى رشيد رضا فى من ارتكب الكبائر من الذنوب:

عند ما فسّر قوله تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) (٣). ظهرت له آراء مخالفة، إذ نفى التوبة عن قاتل النفس العمد لأنه فى درجة أكل الربا من الخروج من النار لأنه لم يتب فى حياته، يقول:

«أى و من عاد إلى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريره، فأولئك البعداء عن الاعتاض بموعظة ربهم الذى لا ينهاهم إلا عمّا يضرّهم فى أفرادهم أو جمعهم هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه فيكونون فيها خالدين». و قد قال عن الذين تأولوا الخلود من المفسرين إنهم فعلوا ذلك كى تتفق الآية مع المقرر فى العقائد و الفقه من كون المعاصى لا توجب الخلود فى النار، فقال أكثرهم: (١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (١٦/٤).

(٢) محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون، (٥٨٠/٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٧٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢٠

إن المراد من تحليل الربا و استباحته اعتقادا، و ردّه بعضهم بأن الكلام فى أكل الربا، و ما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم، فهو ليس بمعنى استباحة المحرم، فإذا كان الوعيد قاصرا على الاعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد على أكله بالفعل.

و هنا يظهر موقف رشيد رضا بجعل القرآن هو الذى يحكم العقيدة و الفقه:

«و الحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون و الفقهاء، يجب إرجاع كل قول فى الدين إليه، و لا- يجوز تأويل شىء ليوافق كلام الناس، و ما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد فى الخلود فى آية قتل العمد، و ليس هناك شبهة فى اللفظ على إرادة الاستحلال، و من العجيب أن يجعل الرازى الآية هنا حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة فى النار انتصارا لأصحابه الأشاعرة، و خير من هذا التأويل تأويل بعضهم الخلود بطول المكث.

أما نحن فنقول: ما كل ما يسمى إيمانا يعصم صاحبه من الخلود فى النار، الإيمان إيمانان: إيمان لا يعدو التسليم الإجمالى بالدين الذين نشأ فيه المرء أو نسب إليه، و مجاراة أهله و لو بعدم معارضتهم فيما هم عليه.

و إيمان هو معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة فى العقل بالبرهان، مؤثرة فى النفس بمقتضى الإذعان، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح فى الأعمال بحيث يكون صاحبها خاضعا لسلطانها فى كل حال، إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان.

و ليس الربا من المعاصى التى تنسى، أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة و الطيش كالحدة و ثورة الشهوة، أو يقع صاحبها منها فى

غمره النسيان كالغيبة و النظره، فهذا هو الإيمان الذى يعصم صاحبه بإذن الله من الخلود فى سخط الله، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم و الفواحش عمدا، إيثارا لحب المال و اللذه عن دين الله و خافية من الحكم و المصالح. و أما الإيمان الأول: فهو صورى فقط، فلا- قيمة له عند الله تعالى، لأنه تعالى لا- ينظر إلى الصور و الأقوال و لكن ينظر إلى القلوب و الأعمال كما ورد فى الحديث و الشواهد على هذا الذى قرنا فى كتاب الله تعالى كثيرة جدا، و هو مذهب السلف الصالح «(١)» ...

و يرى رشيد رضا أن مجرد إعلان الاعتراف بالدين، و الاعتقاد اللسانى به، و إن كان متوافقا مع انعقاد القلب دونما التزام عملى بتوجيهات الدين، فإن هذا عمل من شأنه هدم (١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٣/ ٩٨، ٩٩)، و انظر ما كتبه رشيد رضا عن قتل العمدة فى (٥/ ٣٣٩-٣٤٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٣٢١

الدين، و أن جعل السعادة عمادها على الاعتراف بالدين و إن لم يعمل به فإن من شأن هذا أن «صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات مع الاعتراف بأنها كبائر ما حرم، كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال: إننى لا أنكر أننى آكل الربا، و لكننى مسلم أعترف بأنه حرام، و قد فاته، أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل الوعيد، و بأنه يرضى أن يكون محاربا لله و لرسوله، و ظالما لنفسه و للناس ...» (١).

آراؤه فى قصة آدم:

يرى رشيد رضا أن سجود آدم للتكليف، و أنه وقع حوار بين الرب سبحانه و بين إبليس. و أما على القول بأن الأمر للتكوين و أن القصة بيان لغرائز البشر و الملائكة و الشياطين، فالمعنى: أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله و إذنه لأمرها بالسنن التى عليها مدار نظامها كما قال: فَأَلْمَدْبُرَاتِ أَمْرًا (٥) «٢» مسخرة لآدم و ذريته، إذ خلق الله هذا النوع مستعدا للانتفاع بها كلها بعلمه بسنن الله تعالى فيه و بعلمه بمقتضى هذه السنن كخواص الماء و الهواء و الكهرباء، و النور و الأرض ...» (٣).

لجوء رشيد رضا إلى المجاز و التشبيه:

بدا لرشيد رضا أن إعمال بعض الآيات على ظاهرها أمر غريب، و كى يخرج من هذه الغرابة، و يجعل الأمر موافقا للعقل صرف ظواهر هذه النصوص نحو المجاز و التشبيه.

قال رشيد رضا فى تفسير الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) «٤» المراد «آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم إليها فى كيد الإسلام، و نردّها خاسئة خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام و نصره عليكم، و فضيحتكم فيما تأتون به باسم الدين و العلم الذى جاء به الأنبياء ..

فهذا ما نفسر به على جعل الطمس و الرد على الأدبار معنيين» و هذا رأى محمد عبده أيضا. (١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٣/ ٩٨، ٩٩).

(٢) سورة النازعات، الآية: (٥).

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٨/ ٣٣٢).

(٤) سورة النساء، الآية: (٤٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٣٢٢

رأيه فى السحر:

لم يخالف رأى شيخه من جعله السحر خداعا و تمويهها، و ليس له وجود حقيقى، لذا فإنه عند ما فسّر قوله تعالى: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» (٧) نجده يقول: «و الآية تدل على أن السحر خداع باطل و تخيل يرى ما لا حقيقة له فى صورة الحقائق...» (١).

غير أن رشيد رضا لم يفعل ما فعله شيخه «فهو لم يرد حديث البخارى فى سحر الرسول صلى الله عليه و سلم و لكنه تأول الحديث على أنه كان من قبيل العقد على النساء».

و قد التمس العذر لمن طعن بحديث البخارى هذا «لأن هشاما راوى الحديث عن أبيه عن عائشة مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح و التعديل» (٢).

رأيه فى الشياطين و سلطانهم على البشر:

يرى ألا سلطان للشياطين على الإنسان إلا بالإغواء، و ما سوى ذلك «فهو كذب و جعل من شياطين الإنس و حدهم» (٣).

رأيه فى الجن:

لقد طعن فى الأحاديث الواردة فى البخارى، و شكك فى وجود الجن فى العالم الخارجى، و ما دعوى بعض الناس لرؤيتهم الجن إلا رؤية لحيوان غريب كبعوض القردة فظنه أحد أفراد الجن» (٤).

و عند ما عرض لحديث أبى هريرة «فيمن كان يسرق ثمر الصدقة، و إخبار النبى صلى الله عليه و سلم بأنه شيطان و هو فى البخارى و عرض لغيره من الأحاديث قال: «و الصواب أنه ليس فى هذه الروايات كلها حديث صحيح» (٥).

و ذهب مذهبا بعيدا عند ما جعل الجن كائنات من الجائز أن تكون ميكروبات (١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (١٤٥، ١٤٦).

(٢) المصدر نفسه، (٧ / ٣١١).

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير سورة الفلق، مجموعة تفسير سورة الفاتحة، و ست سور من خواتيم القرآن ص (١٢٩ - ١٣٤).

(٤) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٧ / ٥١٦).

(٥) انظر محمد حسين الذهبى، التفسير و المفسرون، (٢ / ٥٨٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢٣

الأمراض، و ذلك عند ما يعرض لتفسير قوله تعالى:

«الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...» (١) و المتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا ترى، و قد قلنا فى المنار غير مرة: «إنه يصح أن يقال: إن الأجسام الحية الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة و تسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعا من الجن، و قد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض» (٢).

رأيه فى معجزات الرسول صلى الله عليه و سلم:

قرر محمد رشيد رضا ألا معجزة لرسول الله صلى الله عليه و سلم إلا واحدة تلك هى معجزة القرآن الكريم، و يجحد الأحاديث التى تفيد بوجود معجزات أخرى، أو لجأ إلى تأويل بعضها:

كى يتفق مع رأيه الذى أخذه من بعض الآيات و الأحاديث مثل قوله تعالى: **وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) «٣».**

و من الأحاديث الصحيحة الواردة عند الشيخين: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، و إنما كان الذين أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا إلى يوم القيامة» «٤».

و إذا ما اصطدم ببعض نصوص القرآن المخالفه لما ذهب إليه مثل آية انشقاق القمر و الأحاديث الصحيحة الواردة فى ذلك «بظهور الحجة». و أما ما ورد من أحاديث تقول بانشقاق القمر إلى فرقتين فقط طعن بصحتها مؤكدا ألا معجزة له صلى الله عليه و سلم إلا بالقرآن «٥».

بعض الآراء الفقهية لرشيد رضا:

يظهر أن هذه المدرسة كانت تمتاز بالجرأة و الحدة بمخالفتها الآراء المخالفة السائدة، ربما أرادت أن توجه صدمة لأنصار من خلفهم الرأى أو تشعر بغضب على من خلفهم مع وضوح الصواب الذى بجانبها، و إعراض أكثرية العلماء و جماهيرهم عن اعتناق آرائها ...

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٧٥).

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٣/ ٩٦).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٥٩).

(٤) أخرجه البخارى. و أخرجه مسلم.

(٥) مصطفى صبرى، القول الفصل، ط عيسى البابى الحلبي، (١٣٦١)، ص (١٦٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢٤

عند ما عالج رشيد رضا قضايا «الوصية و الإرث» التى أشارت إليها الآية الكريمة كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى (١٨٠)، «فهو لم يعبا بما عليه جمهور العلماء من أهل السنة من أن حكم الآية منسوخ يصرف النظر عن كون النسخ آية الموارث أو حديث: «لا وصية لوارث» الذى رجح الشافعى فى الأم أن متنه متواتر- فراح يؤكد أن حكم الوصية باق لم ينسخ ...

و الحديث لا ينسخ الكتاب- و الآية لا تعارضها آية الموارث بل تؤيدها. لأن الله تعالى أكد قوله فى نهاية آية الوصية «بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى» «١».

و لا تنسى شدته على أهل البدع مع تشدد منه فى تفسير البدعة.

(١) رشيد رضا، تفسير المنار، (١/ ١٤١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢٥

ثانيا: تفسير المراغى أحمد بن مصطفى المراغى

المراغى (...، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م):

أحمد بن مصطفى المراغى مفسر مصرى من العلماء، تخرج بدار العلوم سنة ١٩٠٩ ثم كان مدرس الشريعة الإسلامية بها، عين أستاذا للعربية و الشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم، و توفى بالقاهرة، له كتب و مؤلفات:

الحسبة فى الإسلام. ط. و الوجيز فى أصول الفقه، ط. و تفسير المراغى فى ثمانية مجلدات «١» ...

المراغى يعلل كتابته التفسير «المراغى»:

ما من شك أن كل عصر يرخى بظلاله على أهله، ففى الوقت الذى ساد فيه علم الكلام قلما رأيت عالما يكتب كتابا إلا و يتكى على علم الكلام فى مسألة من مسأله، و عند ما ساد النحو و الصرف و الإعراب رأيت المفسرين يزجون النحو و الصرف فى التفسير .. و عند ما انتشرت علوم البلاغة بيانها و بديعها، ازدانت التفاسير القرآنية بالدراسات البلاغية الكشافة لإعجازات القرآن البيانية التى أشارت إلى جمال الاستعارات و التشابيه القرآنية ...

إلى أن أتى العصر الحديث بتطوراته العلمية، و بكشوفاته المذهله، و باختراعاته التى (١) الزركلى، الأعلام، (١/ ٢٥٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢٦

حوّلت العالم برمته إلى حارة صغيرة .. هذا التطور الذى بدأ فى بداية هذا القرن، لكن وتيرة التسارع كانت تزداد و تزداد .. أمام هذا التغيير حصلت تغيرات فكرية و أسلوبية أثرت على المؤلفين، و أثرت على القارئ، فأصبح من الصعب على قارئنا الحاضر المعاصر مطالعة الكتب القديمة، تلك الكتب التى كان مؤلفوها يتباهون بما حوته من مختلف العلوم و تنوعات الفنون، و الحق الذى لا بد من قوله: إن تلك التفاسير حوت من الفوائد الكثير الكثير، و لكن بعضها كان يحتوى على «أفاصيص مجانية لوجه الصواب، متنكبة عن حظيرة العقل ...» «١».

إذا «الزمان هو الحوّل القلّب غير آراء الناس فى الموسوعات العلمية، فأروا أن الكتاب الذى لا يناجيك معناه لدى قراءة لفظه أولى لك ألا تضيع وقتك فى قراءته و كدّ الفكر فى الوصول إلى المعنى من معناه» «٢».

أمام دافع التيسير، و تسهيل المعرفة، كى تكون سهلة التناول يسيرة الهضم كان المراغى مسرعا إلى هذا المؤلف التفسير ليكون «دانى القطوف، سهل المأخذ يحوى ما تطمئن إليه النفس من تحقيق علمى تدعمه الحجّة و البرهان، و تؤيده التجربة و الاختبار، و يضم إلى آراء مؤلفه آراء أهل الذكر من الباحثين فى مختلف الفنون التى ألمح إليها القرآن على نحو ما أثبتته العلم فى عصرنا» «٣».

و وصف تفسيره أنه «ترك الروايات التى أثبتت فى كتب التفسير و هى بعيدة عن وجه الحق مجانية للصواب ...» «٤».

لقد قدم المراغى لتفسيره بمقدمات، فبعد المقدمة الأولى (مقدمة الكتاب) قدم بيحث «طبقات المفسرين». و درس طرق رواياتهم، بدءا من عهد الصحابة ثم فى عهد التابعين و طبقة ثالثة تلك التى جمعت بين أقوال الصحابة و التابعين، و رابعة هى طبقة ابن جرير، و خامسة سماها «طبقة المفسرين بحذف الأسانيد» و ذكر لكل من هذه الطبقات الخمسة رجال و أعلام برزوا فيها و أسهموا فى تعميق و تنمية علم التفسير.

ثم تناول عصر المعرفة الإسلامية فى العهود العباسية الذى شهد اهتماما اختصاصيا فى القرآن فالعلماء تناولوه دارسين، موضحين من مواقعهم العلمية و المعرفية سواء كانت (١) أحمد مصطفى المراغى، تفسير المراغى، ط، دار إحياء التراث العربى، د. ت، (١/ ٣).

(٢) تفسير المراغى، (١/ ٤).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢٧

لغوية نحوية أو بلاغية أو صرفية أو فكرية كلامية .. أو فقهية أو إحياءات صوفية إشارية لا تنكشف إلا لأهل السلوك تلك الإشارات التى يمكن إرادتها مع إرادة ظاهر المعنى» «١».

ثم تحدث المراغى عن طريقة كتابته القرآن فأوجز العبارة حول الموضوع «خطان لا يقاس عليهما: خط العروض، و خط المصحف

العثمانى» (٢).

ثم ذكر آراء العلماء فى الرسم العثمانى لينقل لنا الآراء التى قالت بحرمه مخالفته و أخرى قالت إن الرسم العثمانى اصطلاحى لا توقيفى، و نقل لنا عبارة أبى بكر بن العربى: «و بالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص و جب عليه أن يقيم الحجة على دعواه، و أنى له ذلك؟»

ثم نقل لنا رأيا ثالثا للعز بن عبد السلام .. الذى ذكره من قبل الزركشى فى البرهان من جواز كتابة المصحف بخط يعلمه العامة من الناس و ذلك وفق الاصطلاحات المعروفة الشائعة، و لا تجوز كتابته لهم بالرسم العثمانى الأول، لثلا يوقع فى تغيير الجهال، و لكن يجب فى الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثمانى لثلا يؤدى بحسب عبارة العز إلى «دروس العلم، و شىء قد أحكمه القدماء، لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين و لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته» (٣).
و قد جرى المؤلف المجرى الذى أراد العز بن عبد السلام رحمه الله.

منهج المراغى فى التفسير:

أولاً: ذكر الآيات فى صدر البحث.

ثانياً: شرح المفردات بذكر مرادفها لإزالة الخفاء على الكثير من القارئ.

ثالثاً: ذكر المعنى المجمل للآيات، حتى إذا جاء التفسير توضّح ذلك المجمل.

رابعاً: ذكر أسباب النزول إن صحت أسانيد.

خامساً: أعرض عن الإكثار من المصطلحات و العلوم.

ثم بين المراغى استعانتة بالمعارف العلمية الحديثة «و قد سلكنا فى الوصول إلى فهم الآيات التى أشارت إلى بعض نظريات فى مختلف الفنون استطلاع آراء العارفين بها، (١) أحمد مصطفى المراغى، تفسير المراغى، (١/ ١٢).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ١٣).

(٣) عبارة منقولة عن تفسير المراغى، (١/ ١٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢٨

فاستطلعنا آراء الطيب النطاسى، و الفلكى العارف، و المؤرخ الثبت، و الحكيم البصير ...

ليدلى كل برأيه فى الذى تمهد فيه، لنعلم ما أثبتته العلم، و أنتجه الفكر فيكون كلامنا معتزاً بكرامة المعرفة».

موقفه من التفاسير السابقة:

أشار المراغى إلى دور أهل الكتاب الذين أسلموا «كعبد الله بن سلمة، و كعب الأبحار و وهب بن منبه» (١) فى ذكرهم القصص المجانبة للعقل حسب رأيه، و المعارضة للعلم، لذا أعرض عنها و نأى، خدمة للدين و العلم و العقل.
و كان تفسيره فى ثلاثين جزءاً، تسهيلاً للحمل، و تيسيراً للفائدة.

قصة استخلاف الإنسان و حوار الملائكة مع الله تعالى و تأثر المؤلف بمحمد عبده:

لقد جعل الشيخ المراغى من قصة استخلاف الإنسان، و سجد الملائكة، و عصيان إبليس، و خلق المرأة من ضلع. ميداناً فسيحاً لآرائه، إذا أظهر فيها الكثير من اتجاهاته بالتفسير:

فرد على الرأى القائل إن المرأة خلقت من ضلع. علما أنه ذكر الحديث صحيح المروى فى البخارى و مسلم الذى رواه أبو هريرة: «و استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع، و إن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، و إن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا» (٢).

قال عن هذا الحديث: «إنه لتمثيل جاء على طريق تمثيل حال المرأة و اعوجاج أخلاقها، باعوجاج الضلوع، و يؤيد هذا قوله آخر الحديث: (١) عبد الله بن سلام، و كعب الأحبار و وهب بن منبه. أما ابن سلام أول من صدق الرسول من اليهود، بشره الرسول بالجنة، و روى عنه أبو هريرة و عوف بن مالك، و عطاء بن يسار و غيرهم، شهد الغزوات، بعضهم عدّه بدريا. و شهد الخندق. و شارك بفتح القدس، مات سنة (٤٣ هـ) بالمدينة. و ما صحّ عنه قبلناه، و ما لم يصح عنه ردناه. و اعتمد روايته البخارى و لم يطعن أحد فى عدالته. كعب الأحبار: ثقة عدل، روى عن ابن عباس، و أبو هريرة و غيرهما. و أخرج له مسلم و الترمذى و النسائى، و هذا دليل الثقة. انظر تهذيب التهذيب (٨ / ٤٣٨ - ٤٤٠).

وهب بن منبه: زاهد، عابد، يجب تدقيق رواياته، ذكره ابن حبان فى الثقات، و وثقه البخارى، انظر وفيات الأعيان، و تهذيب التهذيب. (٢) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٥١٨٦)، و مسلم فى (الحديث: ٣٦٣٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٢٩

«و إن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، و إن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا» فهو على حد قوله: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ «١».

و الحق لا علاقة لقوله تعالى فى تفسيره بحواء «فَالْآيَةُ تَحْدُثُ عَنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عَجَلٍ، و الحديث فى النساء: «فإنهن خلقن من ضلع أعوج».

يرى أن الحديث جاء للتمثيل - و أما حوار الملائكة الحادث عند علمهم بجعل الله تعالى الإنسان خليفة: هو تهيئة للأرض، و قوى العالم و أرواحه التى بها قوامه و نظامه لوجود نوع يتصرف فيه و يكون به كمال الوجود فى هذه الأرض، و سؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد الأرض و يعطى استعدادا فى العلم و العمل لا حد لهما تصوير لما فى استعداد الإنسان ... أما سجود الملائكة فهو تسخير هذه الأرواح و القوى له ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك.

و أما إباء إبليس و استكباره عن السجود فهو تمثيل لعجز الإنسان عن إبطال روح الشر، و إبطال داعية خواطر السوء.

و لا بد من الوقوف عند قول المراغى فى قصة إبليس و آدم، و قصة حوار الملائكة:

«إن ذلك من المتشابه كسائر ما جاء فى القصة، مما لا يمكن حمله على ظاهره.

و يجب تفويض أمره إلى الله كما هو رأى سلف الأمة، أو هو من باب التمثيل كما هو رأى الخلف» (٢).

و الحق أن ليس كل الخلف قالوا بالتمثيل فى هذا الموضوع، بل الأكثر قالوا بوجود حوار حقيقى، و أما التمثيل فقد أشار إليه الشيخ محمد عبده فى تفسيره ... و المراغى أثبت النص كاملا للشيخ محمد عبده «٣» .. فى حين أن المطالع لما قاله محمد الطاهر بن عاشور يرى أن الحوار حقيقى: «و عندى أن هاته الاستشارة جعلت لتكون حقيقة مقارنة فى الوجود لخلق أول البشر حتى تكون ناموسا أشربته نفوس ذريته...» (٤).

حتى أن المعتزلة لم يعتبروا الحديث تمثيلا كما قال الإمام محمد عبده، و اعتبره المراغى أحد الوجوه المقبولة تقريبا للعقول دون أن يلغى قيمة رأى السلف. (١) سورة الأنبياء، الآية: (٣٧).

(٢) تفسير المراغى، (٢ / ٩٤).

(٣) المصدر نفسه، (١ / ٩٤، ٩٥).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، (١ / ٣٨٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٠

و الرازى من كبار المؤولين من علماء الخلف اعتبر قصة آدم و إبليس و حوار الملائكة حقيقة و ليست تمثيلا «١». أما قصة سجود الملائكة لآدم و استكبار إبليس فيبدو من ظاهر قول المراغى أنها حقيقة عند ما فسّر سورة (ص): «إن الله تعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام أنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، و أمرهم بالسجود له متى فرغ من خلقه و تسويته إجلالا- و إعظاما له، فامتثل الملائكة كلهم و ذلك سوى إبليس» و يقرر موافقا الصواب أن إبليس لم يكن من الملائكة «بل كان من الجن» «٢».

تفسير المراغى و الوقوف عند النص القرآنى فى قصصه:

لقد وقع بعض المفسرين فى الزلل و الخطأ عند ما اعتمدوا الإسرائيليات الواهيات الأسانيد فى تفسير بعض القصص، و ذلك عند ما تزيدوا على النص الكريم .. فى حين كان المراغى محتاطا لهذا الأمر و لم يتردد. تجلّى ذلك فى تفسيره لسورة (ص) عند تفسيره الآيات الكريمة المعلمة عن قصة سليمان عليه السلام: إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَيْشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسِيحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (٣٣) «٣».

فسّر المسح: بتمرير اليد على الجسم، و ليس تقطيعا لأرجل الخيل كما ذكرت الإسرائيليات الواهيات. و بعد «أن اطمأن سليمان عليه السلام و حمد جميل أمرها قال:

(رُدُّوها عليّ) فقد كفى ما قامت به من حفر دلت به على نجابتها و فراهتها و أنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملمات عندئذ: (فطفق مسحاً بالسوق و الأعناق): أى فجعل يمسخ سوقها و أعناقها إظهارا لكرامته لديه إذا هى أعظم الأعوان فى دفع العدوان «٤». و يمكن ذكر خلاصة قصة سيدنا سليمان عليه السلام «إن سليمان احتياطا للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التى تتكون منها قوة الفرسان- فجلس و أمر بإحضارها إجرائها أمامه و قال: إني ما أحببتها للدنيا و لذاتها إنما أحببتها لأمر الله و تقوية دينه، حتى إذا ما أجريت و غابت عن (١) الرازى، التفسير الكبير، ط، دار إحياء التراث العربى، (١/ ٣٨٩-٣٩١) و ما بعدهما. (٢) تفسير المراغى (٢٢-٢٤/ ١٣٧، ١٣٨). فى تفسير سورة (ص)».

(٣) سورة ص، الآيات: (٣١-٣٣).

(٤) المراغى، تفسير المراغى، (٢٢-٢٤/ ١١٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣١

بصره، أمر راعيها بأن يردوها إليه، فلما عادت طفق يمسخ سوقها و أعناقها سرورا بها، و امتحانا لأجزاء أجسامها، ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى فتكون سببا فى عدم أدائها مهمتها على الوجه المرضي «١».

أما قوله: «ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب...». فهذا احتمال و ليس فى النص ما يدل على ذلك.

و يلاحظ دحضه للإسرائيليات أيضا فى تفسيره لقوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) «٢».

«لقد ابتلينا سليمان بمرض عضال صار بسببه ملقى على كرسيه لشدة وطأته (و العرب تقول فى الضعيف: (إنه لحم على وضم))، (و جسم بلا روح) ثم رجع بعد إلى حالة الأولى و استقامت له الأمور كما كان» «٣».

قال رَبِّ اغْفِرْ لِي «٤» طلب المغفرة من ربه لأنه قد يترك الأفضل و الأولى فاحتاج إلى المغفرة من ربه ... و هذا فى «مقام التذلل و الخضوع» «إني لأستغفر الله فى اليوم و الليلة سبعين مرة» «٥».

و يرد قصص و أخبار الإسرائيليات بقوله:

«و ما روى من قصص الخاتم و الشيطان، و عبادة الوثن فى بيت سليمان فذلك من أباطيل اليهود و دسائسهم على المسلمين، و أبى قبولها العلماء الراسخون و منهم ابن كثير ...» (٤).

الحديث النبوى فى تفسير المراغى، و مراعاته أسباب النزول:

جاء يوماً وفد من نصارى نجران إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم مؤلفاً من ستين راكباً «و خاصموه فى عيسى ابن مريم عليهم السلام. و قالوا له: من أبوه؟ [و فى رواية قالوا: يا محمد من أبوك؟ قال: عبد الله. قالوا: من أبو موسى؟ قال: عمران. قالوا من أبو عيسى؟] .. و الرواية التى (١) المراغى، تفسير المراغى، (٢٢-٢٤ / ١١٩).

(٢) سورة ص، الآية: (٣٤).

(٣) أحمد مصطفى المراغى، تفسير المراغى، (٢٢-٢٤ / ١٢٠).

(٤) سورة ص، الآية: (٣٥).

(٥) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٦٣٠٧) بلفظ: «و الله إنى لأستغفر الله و أتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة».

(٦) أحمد مصطفى المراغى، تفسير المراغى، (٢٢-٢٤ / ١٢١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٢

ساقها بعد أن قالوا على الله الكذب و البهتان، قول رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«أ لستم تعلمون أنه لا- يكون ولد إلا- و هو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: أ لستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت، و أن عيسى يأتى عليه الفناء؟. قالوا: بلى، قال: أ لستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء؟ يكلؤه و يحفظه و يرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: أ لستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء، و أن ربنا لا يأكل الطعام و لا يشرب الشراب و لا يحدث الحديث؟ قالوا: بلى، قال: أ لستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبى، ثم كان يأكل الطعام و يشرب الشراب و يحدث الحديث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم فعفرونا ثم أبوا إلماً جحوداً» فأنزل الله: الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (١) إلى آخر تلك الآيات و موقفه من الاستشهاد بالحديث النبوى الصحيح بارز حال اللزوم مثل ذلك ما ساقه من الأحاديث عند تفسيره لآيات الربا فى سورة البقرة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَإِن تُبْتِمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) «٢».

فى معرض تفسيره لهذه الآيات يرد على من زعم أن الربا المحرم هو الربا الفاحش، و يعرض التسلسل الزمنى لتحريم الربا الفاحش و غير الفاحش فيقول:

«هذه أيها السادة و السيدات نصوص التشريع القرآنى فى الربا مرتبة على حسب تسلسلها التاريخى. و إنكم لترون الآن أن الفئة التى تزعم أن الإسلام يفرق بين الربا الفاحش و غيره، و هى الفئة من المتعلمين الذين ليس لهم رسوخ فى علوم القرآن، لم تكتف بأنها خالفت إجماع علماء المسلمين فى كل العصور، و لا بأنها عكست الوضع المنطقى المعقول حيث جعلت التشريع الإسلامى بعد أن تقدم إلى نهاية الطريق فى إتمام مكارم الأخلاق يرجع على أعقابه و يتدلى إلى وضع غير كريم، بل إنها قلبت الوضع التاريخى إذا عبرت النص الثالث مرحلة نهائية، بينما لم يكن إلا خطوة انتقالية فى التشريع لم يختلف فى ذلك محدث و لافقيه و لا مفسر» (٣) و المقصود بالنص بالمرحلة الثالثة آية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) من سورة آل عمران (٤).

وقد وردت آية المرحلة الأولى: «وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيُزْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزْبُوا عِنْدَ (١) سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: (١، ٢)».

(٢) سورة البقرة، الآيتان: (٢٧٨، ٢٧٩).

(٣) المراغى، تفسير المراغى، (١-٣ / ٦١).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٣٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٣

اللَّهُ «١». و المرحلة الثانية: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ. و المرحلة الثالثة: الآية الواردة فى آل عمران و المرحلة الرابعة آيات الربا فى سورة البقرة.

يقول المراغى: «على أن لو فرضنا المحال و وقفنا معهم عند النص الثالث [الوارد فى آل عمران فهل نجد لهم ربحا لقضيتهم فى التفرقة بين الربا الذى يقل عن رأس المال، و الربا الذى يزيد عليه أو يساويه؟ كلا.. فقبل كل شىء لا دليل فى الآية على أن كلمة الأضعاف شرط لا- بد منه فى التحريم. إذ من الجائز أن يكون ذلك عناية بدم نوع من الربا الفاحش الذى بلغ مبلغا فاضحا فى الشذوذ عن المعاملات الإنسانية من غير قصد إلى تسويغ الأحوال المسكوت عنها التى تقل عنها فى الشذوذ. و من جهة أخرى فإن قواعد العريئة تجعل كلمة أضعافا فى الآية وصفا للربا «لا لرأس المال». كما يفهم من تفسير هؤلاء الباحثين، و لو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن لا- يحرم من الربا إلا ما بلغ ٦٠٪ من رأس المال بينما لو طبقنا القاعدة العريئة على وجهها لتغير المعنى تغيرا تاما، بحيث لو افترضنا ربحا قدره واحد فى الألف أو المليون لصار بذلك عملا محظورا غير مشروع بمقتضى النص الذى يتمسكون به» (٢).

و يرد المراغى على من قال إن القرآن خاطب بلغاتهم. و هذا صحيح. أما غير الصحيح هو: أن العرب لم تكن تعرف إلا الربا الفاحش الذى يساوى رأس المال أو يزيد عليه و يهاجم المراغى هذا القول بقوله:

«فإنه لا يصح إلا إذا أغمضنا أعيننا عما لا يحصى من الشواهد التى نقلها أقدم المفسرين و أجدرهم بالثقة» (٣).

و يوضح المراغى أن كلمة «ربا» لم يفهمها العرب و لا- العبرانيون إلا- بمعنى الزيادة قلت أو كثرت «و هذا هو المعنى الحقيقى و الاشتقاقى للكلمة» (٤).

و يتساءل المراغى تساؤلا وجيها محكما:

«أ فلا يكون من التناقض أن هذه الشريعة التى تضع الإحسان إلى الفقير فى أبرز موضع من قانونها و الذى تحت على إنظار المعسر أو على ترك الدين له- تعود فتأخذ منه (١) سورة الروم، الآية: (٣٩).

(٢) المراغى، تفسير المراغى، (١-٣ / ٦١).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٤

بالشمال ما منعه باليمين، إذ تأذن للغنى بأن يطالبه ببعض الزيادة على الدين؟» (١).

أمام هذا الواقع من الأخذ و الرد فى فهم النص «... لا- تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة..» و ذروا ما بقى من الربا..» يستعين المراغى بأحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم لحسم الموقف. لأن السنة تتصل بالقرآن، و تعطيه من قواطع المعانى، و صارم الدلالة ما تجعل أصحاب الآراء الضعيفة فى موقف حرج، فقد ورد عن الرسول صلى الله عليه و سلم نصوص لا تكتفى بتحريم الربا على آكله كما ورد فى القرآن و لم تكتف بجعل المعطى و الآخذ و الكاتب سواء فى اللعن و الإجماع، بل إنه أحاط هذه الجريمة بنطاق من الذرائع و الملابس جعلها حرم محرما تحريم الوسائل الممهدة إلى الحرمة الأصلية. و الطريف فى أمر هذه الإضافة أنه جعل التحريم فيها على مراتب متفاوتة فى تدرج حكم ينتقل من الإباحة التامة رويدا رويدا إلى الحظر الكلى مارا بكل المراتب المتوسطة» (٢).

و بعد أن بين أن قيام المرابين كالمجانين المصروعين فى الدنيا لعبادتهم المال و هيامهم به. ذكر قول جمهرة المفسرين أن قيام المرابين صرعى هو «القيام من القبور حين البعث، و أن الله جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يعثون كالمصروعين و رروا ذلك عن ابن عباس و ابن مسعود» (٣).

و نقل المراغى عن بعض العلماء قولهم:

«إن الإقدام على كبائر الإثم و الفواحش عمدا إثارا لحب المال أو اللذة به فلا يجتمع مع الإيمان الحق الذى يملأ النفوس خوفا و رهبة ... و منه قول رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لا يزنى الزانى حين يزنى و هو مؤمن، و لا يشرب الخمر حين يشربها و هو مؤمن». هذا من قبيل محق الربا.

و أخرج البخارى و مسلم عن أبى هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب، و لا يقبل الله تعالى إلا طيبا فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبه كما يربى أحدكم فلو حتى تكون مثل الجبل».

و أخرج عن ابن جريج قال: كانت ثقيف قد صالحت النبى صلى الله عليه و سلم على أن ما لهم من ربا على الناس و ما لهم من ربا عليهم فهو موضوع، فلما كان فتح مكة استعمل عتاب بن أسيد عليها، و كان بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من المغيرة، و كان بنو المغيرة (١) المراغى، تفسير المراغى، (١-٣/٦٢).

(٢) المصدر نفسه، (١-٣/٦٢، ٦٣).

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٥

يربون لهم فى الجاهلية فجاء الإسلام و لهم عليهم مال كبير فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم فى الإسلام، و رفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد فكتب عتاب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فنزلت فكتب بها رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى عتاب و قال: «إن رضوا و إلا فآذنهم بالحرب».

هذه الأحاديث و غيرها كانت تعبر عن المناخ الذى رافق نزول الآيات: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

من هذا يظهر المدى الذى ذهب إليه بالاستعانة بسنة رسول الله لغاية فهم كتاب الله سبحانه.

هذا لا غرابة فيه، بل الغرابة عدم الاستعانة بالسنة لأنها هى المقيدة لمطلق القرآن، و هى المخصصة لعامته، و المفصلة لمجمله، و من فهم القرآن منحيا السنة فقد ضلّ و أضل.

تفسير المراغى و استفادته من المعارف الحديثة:

عمد المراغى إلى تقريب المعانى القرآنية إلى الأذهان، بالحديث عن الوسائل المعرفية الحديثة و كيف أن الإنسان يؤمن بعمل هذه المعارف، و أداءها لوظيفتها من خلال النتائج لأن يادراكنا تفاصيل آليتها عملها .. فعند ما فسّر قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِنْ لِيُظْمِنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) «١».

خلاصة المعنى العام للآية:

«يا رب أرني كيفية إحيائك للموتى.

قال: أو لم تؤمن، قال: بلى، قال: أ لم تعلم ذلك و تؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى إراءته؟ قال: بلى علمت ذلك و صدقت الخبر، و لكن تاقت نفسى للخبر و الوقوف على كيفية هذا السر ليظمنن قلبى بالعيان بعد خير الوحي» (٢).

و هنا يظهر النص لنا أن طبع الإنسان ميل إلى الرؤية الحسية، فالرؤية الحسية هي التي تولد عنده الاطمئنان، ... و كأن الاطمئنان القلبي مسألة فوق القناعة العقلية فإبراهيم رسول كان مقتنعا بقدره الله على إحياء الموتى، و لكن أراد الاطمئنان القلبي الذى يصل إليه بالمشاهدة. (١) سورة البقرة، الآية: (٢٦٠).

(٢) المراغى، تفسير المراغى، (٣/ ٢٦ و ٢٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٦

«و فى إرشاد إبراهيم خليله تأديب لعامة المؤمنين و منع لهم عن التفكير فى كيفية الخلق و التكوين، فإن هذا مما استأثر الله تعالى بعلمه .. و يجب أن نفرق بين مشاهدة إبراهيم عملية إحياء الموتى و بين معرفته كيف يخلق الله تعالى الحياة فهذا إلهي، لا يعلمه أحد إلا الله الخالق سبحانه.

فطلب إبراهيم «رؤية كيفية إحياء الموتى طلب للطمأنينة» (١) «لأن طلب الطمأنينة تنزع إليه القلوب، و تميل إليه النفوس المؤمنة، لكن لا يتوقف إيمان العاقلين المؤمنين على المشاهدة العينية.

هنا أذكر يجب ألا يخطر بالبال مقارنة طلب إبراهيم «أرني كيف تُحْيِي الْمَوْتَى ...

و بين طلب بنى إسرائيل من موسى أنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله جهره». و هناك عدة فروق:

١- طلب إبراهيم للاطمئنان القلبي لا للقناعة العقلية الإيمانية فهذا حاصل.

٢- إن إبراهيم طلب مشاهدة عملية الإحياء لا كيف يتم الأحياء من حيث دقة التفاصيل.

٣- طلب بنى إسرائيل طلب تعجيزى قائم على الهوى، و تعطيل العقل، و جعله يعمل فى غير ساحته المخصصة له، لأنه لن يستطيع أن يدرك الإله بالمشاهدة «و هو يدرك الأبصار و لا تدركه الأبصار.

يحاول المراغى أن يقرب إيماننا بقدرته تعالى على الإحياء دون معرفتنا تفاصيل عملية الإحياء .. بتسليماً و إيماننا بأمور كثيرة «إيماننا يقينياً و لا- نعرف كيفيتها و نود لو نعرفها فهذا «الأثير»، التلغراف اللاسلكى ينقل أخبار العالم فى لحظة و لا نعرف كيفية ذلك، بل أكثر من ذلك نقل الصور بالتلغراف من الأفطار النائية و القارات البعيدة، و مثله أصوات المذياع و أصوات التلفزة .. التى تنتشر فى جميع الأقطار» (٢).

و لو أن المراغى حيا شاهدا لثورة المعلومات الحديثة و الاتصالات المعاصرة لضرب الكثير من الأمثلة التى نسلم بها دون معرفتنا بتفاصيل العملية على نحو دقيق، إنما تتعامل مع النتائج و المشاهدات الحاصلة أمامنا. هذا صنع الإنسان فما بالك بقدره خالق الإنسان و من فى العالم بأجمعه، بل بقدره من خلق كل شىء، سبحانه و تعالى! (١) المراغى، تفسير المراغى (٣/ ٢٧).

(٢) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٧

قال المرحوم النطاسى عبد العزيز باشا إسماعيل فى رسالته «الإسلام و الطب الحديث» أثناء كلامه فى المعجزات التى وقعت على أيدي الأنبياء ليتجلى لك ما ربما غاب عن فكرك و ند عن بالك، و تفهم ذلك حق الفهم، قال:

«و المعجزات كلها من صنع الله مباشرة، و معناها سنة جديدة، بخلاف ما نراه يوميا من عظمة كالولادة، نمو الحيوان و النبات، فإنه مع إعجازه يأتى مطابقا لقواعد و نظم وضعها الله لا تتغير، و أظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس، فإن ذلك مع عظمتها يحدث صدمة لتعودنا إياه، و لكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للإنسان، مع أن الحركتين من صنع الله و لا فرق بينهما.

و لا- تحدث المعجزات إلا- على أيدي الأنبياء لأن صدقها إن كانت شديدة على الحاضرين فهى أشد على من يكون واسطة فيها، لذلك اختار الله الأنبياء و اصطفاهم.

و صفوة القول: إن أساس المعجزة و عظمتها ليس فى نتائجها و غرابتها فالدشهة من سماع الأبيكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة، و لكن أهمية المعجزة فى طريق صنعها دون السنن الاعتيادية و هى لذلك لا تتكرر أبداً إلا بإذن الله لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها، و لا يدرك طريق صنعها، أما الاختراع فإنه اكتشاف لنا موس إلهي طبيعي، و لذلك هو يتكرر فى الظروف نفسها على يد كل إنسان» (١).

و المعجزة لا- تحدث للإنسان الرسول أو غيره متى أراد ذلك، لأن المعجزة لا- دور للإنسان فيها و لا- يملك السنن المؤدية إلى إيجادها. بخلاف الاختراع فإن الجهد الإنسانى فى إيجادها على شكل من الأشكال باد لا مريه فيه. و إن كان الاختراع خاضع للسنن التى أرادها الله للأشياء فى هذا العالم (٢).

تفسير المراغى و الأحكام الفقهية:

لم يكن المراغى قليل اهتمام بالمسائل الفقهية فى تفسيره، و إن كان قليل النظر لخلافات أهل المذاهب الفقهية الأربعة و غير الأربعة ... إنما منهجه يفسر الآيات الكريمة ذات الأحكام، و يدعم رأيه موضحاً، و مفصلاً بأحاديث نبوية ... و لا بأس من الاستعانة بهذا المثال توضيحاً لذلك .. قال تعالى: (١) المراغى، تفسير المراغى، (٣/ ٢٧، ٢٨).

(٢) للمزيد من الاطلاع على الناحية العلمية فى تفسير المراغى راجع (١٤/ ١٠٦- ١٠٨) فى هذه الصفحات بحوث علمية مطولة عن العسل و فوائده الطيبة.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٨

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) «١».

بعد أن يذكر المراغى معانى المفردات يربط هذه المفردات بالتركيب الموضحة للمعانى فيقول:

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢): أى يا أيها الذين آمنوا و صدقوا رسوله. إذا طلقتم النساء و انقضت عدتهن و أراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن و أردن هن ذلك فلا تمنعهن الزواج إذا رضى كل من الرجل و المرأة بالآخر زوجاً و كان التراخي فى الخطبة بما هو معروف شرعاً و عادة، بالألأ يكون هناك محرّم، و لا شىء يخل بالمعروف و يلحق العار بالمرأة و أهلها» (٢) و لنلاحظ بعض الاستنباطات الفقهية للمراغى من هذه الآية:

و فى قوله «بينهم» دليل على أنه لا مانع أن يخطب الرجل المرأة إلى نفسها و يتفق معها على الزواج بها، و يحرم حينئذ على الولي أن يفصلها و يمنعها من الزواج.

كما أن فى قوله «بالمعروف»: دليلاً على أن العضل من غير الكفء غير محرّم كأن تريد الشريفة فى قومها أن تتزوج برجل خسيس يلحقها منه عار، و يمس كرامة قومها منه أذى و حينئذ ينبغى أن تصرف عنه بالنصح و العظة» (٣).

و معلوم أن المسألة التى ساقها المراغى من جواز أن يتزوج الرجل بالمرأة باتفاق بينهما دون العودة إلى ولي الفتاة مسألة اختلف عليها: فقد أجازها الحنفية إلا- إذا كان الزوج غير كفء فلولى الأمر الاعتراض- و المالكية قالوا لا نكاح إلا بولي، و الشافعية قالوا بمثل ما قالت المالكية مع بعض التفصيل (٤). و قد أشار المراغى إلى حق الأولياء بمنع الفتاة من الزواج إذا ألحق بهم عارا.

و المقصود بالشريفة: المرأة ذات السيادة و الجاه فى قومها ... و الخسيس: هو المغمور من غير السادة أو الوجهاء. (١) سورة البقرة، الآية: (٢٣٢).

(٢) المراغى، تفسير المراغى، (٢/ ١٨١).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر المبسوط للسرخسى، (١٠ / ٥)، و انظر بداية المجتهد، لابن رشد (٣ / ٤٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٣٩.

حالات أجاز البعض فيها الفصل:

نقل المراغى عن بعض أهل العلم حالات جَوَز فيه الفصل أى منع الزواج إذا كان المهر دون مهر المثل» (١)». غير إن المراغى دعا إلى عدم الفصل و تيسير الزواج إذا كان الزوج صالح السيرة طيب السمعة «و يعسر عليه دفع المهر الكثير و النفقات الأخرى للزواج لا يجوز الفصل بل يجب تزويجه» (٢)».

و هاجم المراغى عادات القوم الذين يكرهون النساء على الزواج ممن لا يحبون. و قد كان من عادات الجاهلية «أن يتحكم الرجال فى تزويج النساء إذ لم يكن يزوج المرأة إلّا وليها، و قد يزوجها بمن تكره، فقد أخرج البخارى و خلق كثير غيره عن معقل بن يسار: كان لى أخت فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة و لم يراجعها حتى انقضت عدتها فهويها و هويته، ثم خطبها مع الخطاب فقلت: يا لكع [يا لثيم أكرمتك بها، و زوجتكها، فطلقتها ثم جئت تخطبها و الله لا ترجع إليك أبدا، و كان رجلا لا بأس به، و كانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله حاجته إليها، و حاجتها إلى بعلها فأنزل الآية قال: ففئى نزلت فكفرت عن يمينى و أنكحتها إياه» (٣)».

و فى رواية: فلما سمع معقل الآية: قال: أرغم أنفى، و أزوج أختى، و أطيع ربي.

من الواضح أن المراغى ليس مقيدا بمذهب من المذاهب على الأقل فيما بدا لنا من تفسيره للآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، إنما كان يقف على الدلالات و المعانى و يعطى رأيه الفقهى دونما عصبية، و دون تعنيف لمن خالفه من العلماء، ... و اعتماده على معانى الآيات و الاستفادة من دلالة المفردات على نحو ما رأينا ب «بينهم» و «بالمعروف» و غيرها من المفردات الموحية بفهم من الفهوم .. ثم رأيناه يستعين بالأحاديث و الآثار المعينة على فهم النصوص خاصة إذا كانت من الآثار ذات الصلة بأسباب النزول.

كما ظهر أن المراغى لا يقدم الحكم الفقهى جامدا إنما يدرس أبعاده النفسى و الاجتماعى، لأن الفقه فى حقيقته علاج لمشاكل يقع فيها الناس فيجب تحديد الرأى الفقهى أو فهم الحكم الشرعى على ضوء فهم نفسية البشر، و مدى قدرته على معالجة داءاتهم التى هم فيها. (١) المراغى، تفسير المراغى، (٢ / ١٨١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٥١٣٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤٠.

اللغة و الأسلوب فى تفسير المراغى:

امتاز تفسير المراغى بميزات لغوية أدبية قلما تجدها فى تفسير آخر غيره، فكل آية فسرهما أوضح معانى المفردات بدقه. و ببساطة ميسرا، و مسهلا الفائدة على صغار الطلبة، و عوام الناس. و يجعلهم فى موقع المتفهم لمعانى المفردات على نحو مقبول، و لا بأس من الاستعانة ببعض الأمثلة:

وَ ادْكُرْ عِبَادَنَا إِبرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَ الْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاكُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) «١».

إنه يفسر المفردات القرآنية كما يلي:

الأيدى: أى القوى فى طاعة الله. و الأبصار: واحد بصر، و يراد هنا البصيرة و الفقه فى الدين و معرفة أسرارهم. أخلصناهم: أى جعلناهم خالصين. لنا بخالصة: أى بخالصة لا شوب فيها تذكرة الدار الآخرة و العمل لها. المصطفين: المختارين من أبناء جنسهم. و الأختيار: واحد خير و هو المطبوع على فعل الخير» (٢).

و بعد أن ذكر المفردات ربطها بالمعنى العامة للنص موضحا «و اذكر خير عبادنا الذين شرفناهم بطاعتنا و قويناهم على العمل لما يرضينا و آتيناهم البصيرة فى الدين و الفقه فى أسرارهم و العمل النافع فيه» (٣).

و هنا نلاحظ:

العبارة السهلة المفهومة من قبل المستويات العلمية المتعددة، بل من قبل العوام إذا كانوا يقتدرون على القراءة فهم على مسافة قريبة جدا من فهم المراد. و الملاحظ على الجانب اللغوى فيه:

١- ابتعاده عن التطبيقات النحوية و الصرفية و البلاغية، و عدم ولوعه بذكر المراجع اللغوية على اختلاف مناحيها، و تعدد مراميها. لأنه على ما يظهر لى كان مهتما بتوصيل المعلومة القرآنية بالدرجة الأولى، فهو لم يبتعد عن الجانب البلاغى و النحوى و الصرفى لعدم أهمية هذا الجانب. لا، إنما لاعتقاده أن التفاسير الأولى قد كفت هذا الجانب.

و لكى لا يمل القارئ الجديد من جعل التفسير يند عن طريقه و غرضه إلى جانب الدراسات (١) سورة ص، الآيتان: (٤٥، ٤٦).

(٢) تفسير المراغى، ج (٢٣)، سورة ص، (١٢٧).

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤١

المعجمية و الصرفية و اللغوية» لذا فإن من طالع المراغى فى تفسيره يجد سلاسة الأسلوب، و حلاوة العبارة تتال على لسانه سهلة معبرة، سهلة الهضم، لينه على الفهم.

تفسير المراغى و علم الكلام:

لم يكن المراغى ليهتم بعلم الكلام- بل لم يهتم بكثرة النقول عن المفسرين السابقين لأن المنهج الذى وضعه لنفسه و هو العمل على جعل التفسير سهل المنال للعامة أو للقطاع الأوسع من الناس يجعل علم الكلام عائقا أمام هذا الهدف. رأيناه لا يذكر تطبيقا صرفيا أو نحويا أو بلاغيا كى لا يبتعد عن الهدف الذى أراده، و لا ينأى عن الحجة التى يمم وجهه شطرها.

خاتمة:

ظنى أنه كان وفيا لشروطه الذى ارتضاها لنفسه من بعد عن الإسرائيليات، و تجنب لغريب اللغة و وحشيها، و عدم الإيغال فى كتب التفاسير السابقة، و الإخلاص لتقريب التفسير إلى الأذهان دونما اختصار مخل، و لا تطويل ممل. و أخيرا حسب المراغى و فؤاه لما وعد .. و ظنى أنه أفلح فى تبسيط التفسير دون اعوجاج أو خلل على نحو عام.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤٣

تعليق و مناقشة لآراء محمد عبده و رشيد رضا و المراغى

مما لا شك فيه أن المدرسة المصرية بأقطابها المشاهير من رجال الإصلاح: جمال الدين الأفغانى، ثم محمد عبده و رشيد رضا أثرت تأثيرا كبيرا على سير الحياة الفكرية و الثقافية فبلقائهم «التقى حسن التدبير بقوة الحجة، و نصاعة البيان بالاستهداء بالقرآن. و غير ذلك

مما غير من أوضاع. و تبه ما تبه من همم، و حقق ما حقق من نتائج» (١).

فجريدة «العروة الوثقى» تجلّت فيها الأفكار الجمالية السامية متمتجةً بالعبارات الفكرية العالية تجمع بين الحكمة و فصل الخطاب» (٢). بهذه الإمكانية العالية أظهر محمد عبده «للعيان صورة من العلم الدينى اختلفت عن الصور المألوفة عندهم التى عكف الناس عليها منذ قرون، و اطرد سيره ذلك المنهج فيما ألقى فى بيروت من دروس أهمها درس العقيدة الذى كان يلقيه بالمدرسة السلطانية.

إن محمد عبده و رشيد رضا و قبلهما جمال الدين الأفغانى هما أركان تفسير المنار وفق محمد الفاضل بن عاشور (٣) ... «إن الأفغانى الذى انقذت عن فكره نظرية و جوب إصلاح المجتمع الإسلامى يرجوع المسلمين إلى منبع الدين ..» (٤). (١) محمد الفاضل ابن عاشور، التفسير و رجاله، ص (٢٠١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص (٢١٣).

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤٤

و محمد عبده «باشر فعلا بتفسير القرآن على الطريقة التى بشر بها الأفغانى» (١).

و ثالث الرجال «محمد رشيد رضا الذى قيد ما كتبه محمد عبده، و نشره فى مجلة المنار، ثم أكمله بعد وفاة محمد عبده».

فإذا كان محمد عبده و رشيد رضا يرتبطان بالمنهج و العمل و الرأى فلا بأس من القول: أن عبده و رضا أسهما إسهاما فعالا فى تخليص التفسير من قيود الماضى الذى ملأه التفاسير بعلم و بحوث أبعدت التفاسير عن المتناول لما فيه من وجوه إعراب كثيرة، و بلاغة، و منطق و علوم بدت بعيدة عن جعل القرآن مادة يتناولها الجميع.

فرشيد رضا و محمد عبده قدما التفسير بثوب جديد، و حلّه بهية، من روعة البيان، و بساطة الأسلوب مما جعل تفسير القرآن علما جماهيريا ينشر بالجرائد و المجلات، و لغة المجلات كما هو معلوم لغة الشعب بشرائحه الواسعة، و ليست لغة النخب الميالة إلى التكلف أو التألق.

و بتفسيره هذا ربط المعانى القرآنية بالحياة الاجتماعية اليومية للناس، بجعله و صفه نفسية تربوية لمعالجة كافة إشكالاتهم الحياتية .. عند ما عالج مفهوم الصبر فى سورة العصر مثلا- و لمعالجة مفهوم البرّ الصحيح فى سورة الانفطار: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣).

و أرسى مفهومه جليلا للمفسرين من بعده: بعدم الخوض بتفصيلات من شأنها أن ترهق الطاقة العقلية للمسلمين بجدل لا فائدة منه ترجى، و لا نفع منه يتغى كرفضه الدخول فى تفاصيل «الكرام الكاتبين» و أحوال أقلامهم، و مواصفات أحبارهم، و أشكال أوراقهم و غير ذلك.

*** غير أن المرء يعجب كيف أنه خالف هذه الشروط و لو أحيانا قليلة .. عند ما بدأ يخوض بتفصيلات، و افتراضات كان منكرا على غيره لاتباعهم إياها .. عند ما راح يتأمل مفهوم الملائكة و إبليس «فى سورة البقرة».

و تأويله «الطير الأبايل و الحجارة من سجيل» بالجراثيم .. (و ظنى أنه فعل ذلك كى يقرب القرآن من الفهوم العلمية الحديثة المتأثرة بالمنهج الحسى التجريبي)، إلّا أنه اقترب بذلك من آراء بعض المستشرقين الذين ردّوا المعجزات و أنكروها و أولوها تأويلات علمية. أما ردّه لأحاديث الآحاد الصحيحة فقد أحيا ما كان ميتا من مطاحات بين سنه و اعتزال إذ رد المعتزلة الكثير من أحاديث الآحاد الصحيحة، بحجة أن الآحاد لا تفيد اليقين. (١) محمد الفاضل ابن عاشور، التفسير و رجاله، ص (٢١٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤٥

و الحق:

١- أن أحاديث الآحاد تفيد الظن عند الجمهرة الكبرى من العلماء .. ورد الأحاديث هذه لا يجوز إلّا بحال استحالت عملية التوفيق بين

القرآن و هذه الأحاديث. و المعلوم أن الأحاديث الأصل فيها الأعمال.

٢- لا- يعنى أن الأحاديث الآحاد الصحيحة ظنية يجوز ردّها جزافاً، فأحاديث الأحاديث يجب التصديق بها لا الاعتقاد .. و الفرق بين التصديق و الاعتقاد هو أن:

التصديق: تغليب جانب الصدق على جانب الكذب ... و الاعتقاد: هو التصديق الجازم بمطابقته الواقع عن دليل .. و الخلاصة أن أحاديث الآحاد لا تثبت ابتداء على وجه اليقين قضايا عقيدية .. إنما يؤخذ بأخبار الآحاد و على وجه اليقين بقضايا تفصيلية مثل: الإيمان باليوم الآخر (الجنة و النار) لأن أصولها قرآنية. تفصيلاته: كصفات الحور العين، أو وصف فواكه الجنة، أو وصف شرر جهنم أو لون النار، فإن أحاديث الآحاد كافية لإثبات هذه على وجه اليقين ليقينية الأصل الموجود بأدلة متواترة قاطعة، و ينسحب هذا الكلام على كل ما قاله محمد عبده، و رشيد رضا فى أحاديث الآحاد الصحيحة.

*** و ظنى أن ما فعله محمد عبده، و رشيد رضا فى الموقف من المعجزات نابع من تأثر بالمنهج التجريبي الحسى الذى بدأ يبسط سلطانه على العقل العربى و الإسلامى .. و كان بداية تعرض العقل العربى و الإسلامى الذى بدأ يهتز و يتراجع أمام زحف الغرب العلمى و الثقافى، بقواه الهائلة .. و كان يقابله العقل المسلم المتراجع، و العربى المتخلف المتصارع المتجزئ، فأراد عبده و رضا تحت ضغط الواقع الضعيف من جانب العرب و المسلمين، و تحت ضغط الواقع القوى بسلاحه، و بأفكاره، و بمعارفه الشاملة أن يزيل أى حالة رفض للإسلام، أو أى احتجاج، .. فلا بد أمام هذا من تأويل ما يمكن تأويله، ورد ما يمكن رده .. فأية انشقاق القمر متواترة فأولت «بقوة الحجّة و البرهان النبوى» فأعطى المعجزة صفة برهانية عقلية، و هذا ما يتسق مع المنهجية السائدة حينئذ. أما حوارات الملائكة، و السحر، و الشياطين - فمؤولة - و ما ورد من أحاديث آحاد، فمن السهل ردّها، كما ردّت من قبل المعتزلة سابقاً.

و بالمحصلة: فإن هذه المدرسة أسست للتفسير الاجتماعى الأدبى الذى قدم للدراسات القرآنية فوائد كثيرة، و للمجتمع مادة نافعة بثوب جديد.

و رأينا أنها أخطأت فى نقاط تمت الإشارة إليها فى هذه العجالة.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤٧

ثالثاً: فى ظلال القرآن لسيد قطب

إشارة

المؤلف - سيد قطب:

فى ١٣٢٤ هـ - ١٣٨٧ هـ الموافق لسنة ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م.

هو سيد قطب بن إبراهيم من مواليد قرية «مواشا» فى أسيوط، تخرج من كلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) و عمل فى جريدة الأهرام، و كتب فى مجلتى «الرسالة» و «الثقافة» و عين مدرسا للعربية، فموظفاً فى ديوان وزارة المعارف، و له مؤلفات عديدة فى مجال النقد الأدبى و الفكر الإسلامى أهمها: النقد الأدبى: أصوله و مناهجه، و «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» و «التصوير الفنى فى القرآن» و «مشاهد القيامة فى القرآن» و «كتب و شخصيات» و «أشواك» و «فى ظلال القرآن» «١» و هو أضخم أعماله «٢».

و لما كان البحث معداً لتناول التفسير الأدبى فإن أصول هذا التفسير قد بثّ فى التصوير الفنى و النقد الأدبى على نحو متناثر يفتقر إلى المنهجية الواضحة، غير أن كتاب «الظلال» قد اشتمل على دراسة القرآن الكريم من أوله حتى آخره، و على الرغم من تناثر الأسس التى اعتمدها الكاتب فى دراساته الأدبية القرآنية فإن الباحث يتمكن من تصييدها فى هذا الكتاب أو ذاك، كما أنه بإمكانه أن يبلور

معالمها أو بعضها، أو يمكنه أن يحدد مراحلها التي مرت بها. (١) الزركلى، الأعلام مج (٣)، ص (١٤٧، ١٤٨).
 (٢) للكاتب مؤلفات أدبية أخرى فى مجال الرواية، و له قصائد منتشرة فى بعض الدراسات عنه.
 التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤٨

مرحلة البدايات (المرحلة الفطرية):

إشارة

يقول الكاتب: «لقد قرأت القرآن و أنا طفل صغير، لا ترقى مداركى إلى آفاق معانيه، و لا يحيط فهمى بجليل أغراضه، .. لقد كان خيالى الساذج الصغير يجسم لى بعض الصور من خلال تعبير القرآن. و إنها لصور ساذجة، و لكنها كانت تشوق نفسى و تلذ حسى، فأظّل فترة غير قصيرة أتملاها، و أنا بها فرح، و لها نشيط» (١).
 و يضرب الكاتب مثلا تبدو فيه صورة الخيال المرسوم فى مخيلة الكاتب فى مراحل طفولته الأولى عند ما كان يقرأ قوله تعالى: وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ (٢).
 و عند ما نشرع بدراسة تفسير الظلال كتفسير أدبى لأنها البارزة المميّزة له، هذا لا يعنى أن صاحب الظلال لم يبت فيها آراء فقهية، و نتفا من علم الكلام، و آراء عقيدية، ...
 غير أن البحث حول الظلال يركز على سمته البارزة الموسومة بالأدبية ...

يمكن أن تقول: إنّ صاحب الظلال كان صاحب نظرية التصوير الفنى فى القرآن، و هذا اشتمل على عدة منح وضحها المؤلف، مشكلة بمجموعها نظرية التصوير الفنى و يمكن إيجاز نظرية المؤلف فى التصوير الفنى أو إيجاز آفاق التصوير الفنى وفق ما يلى:

١- تصوير المعانى الذهنية:

من نافله القول: إن القرآن لم ينقل حالة ذهنية لأجل الحالة الذهنية إنما نقل حالة ذهنية مستخدما التصوير لترسم هذه الحالة على نحو مشخص، و كأنها بدت محسوسة على حين أن الحالة الذهنية فى الأصل حالة تجريد، و الحالة الذهنية فى الأصل «لا تخاطب إلا الذهن المجرد، و المنطق العقلى، و فى هذه الحال لا تتجاوز المنطق الذهنية الباردة» (٣).
 أما طريقة القرآن البديعة فإنها تجعل من التصوير وسيلة لنقل المجرّد إلى محسوس شاخص أمام المشاهد لتكون أكثر تأثيرا فى النفس الإنسانية و بهذه الحال فإن التعبير القرآنى التصويرى «يخاطب الذهن و العقل و الوعى و الحس و الوجدان المنفعل بالأصداء و الأضواء و يكون الذهن منفذا واحدا من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها الوحيد» (٤). (١) التصوير الفنى فى القرآن.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) التصوير الفنى فى القرآن.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٤٩

قال الله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَيِّدٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وراءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) (١).

إن المعنى الذهني الذي صورته هذه الآية الكريمة هو أن الذين أوتوا الكتاب جحدوا كتاب الله الذي أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وابتعدوا عنه بتفكيرهم وحياتهم و كافة شؤونهم، بيد أن التعبير القرآني صور المشكله بنقلها من دائرة التجريد إلى المحسوس «و يمثل عملهم بحركة مادية متحيلة تصور هذا التصرف تصويرا بشعا زريا ينضح بالكنود والجحود و يتسم بالغلظة و الحماقة، و يفيض بسوء الأدب و يدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة: حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور» (٢).

وقال تعالى: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) (٣).

فالمعنى الذهني الذي تريد الآية الكريمة أن تبينه هو أن الكفار الذين عكفوا على عبادة الأصنام التي لا تسمع كلاما، و لا تبادر أبدا إلى استجابة لدعاء، عبادتهم خاطئة زائفة و دعاؤهم لها طيش و حرق و سفه لا فائدة فيه. و لكن الكتاب الكريم قدم هذه الحال الفكرية الذهنية بصورة فيئة حسية، خالعا عليها «صورة زرية تليق بأعمالهم، صورة البهيمه السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيتها سمعت مجرد صوت لا تفقه ما ذا يعنى! بل هم أضل من هذه البهيمه، فالبهيمه ترى و تسمع و تصيح و هم صم بكم عمى» (٤).

٢- تصوير الحالات النفسية:

كذلك فإن القرآن يجعل من الحالات النفسية المجردة حالات مشخصة محسوسة على ما رأينا في تصوير القرآن الكريم للحالات الذهنية. من المعلوم أن القرآن تضمن الكثير من الآيات الكريمة المصورة للحالات النفسية الإيمانية و الحالات النفسية عند المشركين مثل قوله تعالى و هو يصور حالة المشرك النفسية: قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَ لَا يَضُرُّنَا وَ نُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَ أُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) (٥) (١) سورة البقرة، الآية: (١٠١).

(٢) الظلال (١/ ٩٥).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٧١).

(٤) الظلال، (١/ ١٥٥).

(٥) سورة الأنعام، الآية: (٧١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٠

و منها صورة الذين يناون بأنفسهم عن علم الله و ائبل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين (١٧٥) (١).

و لكننا نريد الوقوف على هذه الأمثلة المأخوذة من الظلال.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) (٢).

«يعبر القرآن الكريم عن حالة الكفار النفسية المتمثلة بعدم استفادتهم مما يسمعون من آيات الله- لأن الإنذار و عدم الإنذار سواء بالنسبة لهم- يعبر عن هذه الحالة تعبيرا تصويريا تخيليا على طريقته المعهودة فى التعبير: طريقة التصوير بالتخييل و التجسيم، و يرسم لهم هذه الصورة: صورتهم و قد ختم على قلوبهم بالأفقال فلا تصل إليهم آيات الله ... و ختم على سمعهم، فلا يسمع صوت الهدى. و جعل على أبصارهم غشاوة فلا تبصر النور الهادى. و لأجل هذا تساوى عندهم الإنذار و عدمه. إنها صورة صلاة مظلمة، جامدة، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة، حركة الختم على القلوب و الأسماع و التغطية على العيون و الأبصار» (٣).

٣- تصوير الحالات الواقعية:

و هو الأفق الثالث من آفاق التصوير فى الأسلوب الأدبى على رأى المؤلف من أن القرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب لجعل الصورة ماثلة أمام الأعين شاخصه و بذلك يكون الأسلوب القرآنى أعظم تأثيرا على النفس الإنسانية.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبُنْيَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا (١) سورة الأعراف، الآية: (١٧٥).

(٢) سورة البقرة، الآيتان: (٦، ٧).

(٣) الضلال، (١/ ٤٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥١

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعْبُدُوهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصِفُونَ عَنِ الْمَسِيحِ جِدِّ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّوُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)* وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِ بَيْتِهِ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنِ بَيْتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمِيزِ فِي أَغْنِيكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَغْنِيَهُمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) «١» يقول:

«إن المعركة فى هذا المشهد معروضه عرضا تصويريا عجيبا، و أن الألفاظ المصوّرة التى عرضت المعركة من خلالها لتدعو الخيال إلى استحضار مشاهدتها و مواقفها، إن القارئ ليكاد يرى يد الله عزّ و جلّ من وراء الأحاديث و الحركات التى يقوم بها كل من الفريقين. إن المعركة لتبدو بهذا المشهد التصويرى الفريد شاخصه بمواقع الفريقين فيها، و شاهدة بالتدبير الخفى من ورائها ... إن يد الله تكاد ترى، و هى توقف هؤلاء هنا، و هؤلاء هناك، و القافلة من بعيد و الكلمات تكاد تكشف عن تدبير الله فى رؤيا الرسول صلى الله عليه و سلم، و فى تقليل كل فريق فى عين الفريق الآخر، و فى إغراء كل منهما بالآخر. و ما يملك إلا الأسلوب القرآنى

الفريد، عرض المشاهد، و ما وراء المشاهد، بهذه الحيوية، و بهذه (١) سورة الأنفال، الآيات: (٢٤-٤٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٢

الحركة المرئية و فى مثل هذه المساحة الصغيرة من التعبير «١».

و هناك مشهد واقعى قدّمه القرآن بطريقته الفنية التصويرية فى يوم حنين، قال تعالى:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ

(٢٦) «٢» يقول مفسرا تفسيراً تصويرياً لمشاهد يوم حنين الشاحصة المتحركة، الشاحصة بمشاهدها المادية و الانفعالية حتى أن القارئ و لشدة براعة الرسم بالكلمات و التصوير اللافت البديع يرى نفسه و كأنه يرافق المؤمنين فى سيرهم إلى الطائف، و يقع بصره عليهم فى وادى حنين، و يرى مسلسل الأحداث على شريط مسجل مرسوم يصور ملامحهم، و يوضح حركاتهم:

«فمن انفعال الإعجاب بالكثرة، إلى زلزلة الهزيمة الروحية، إلى انفعال الضيق و الحرج، حتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم و تشد عليهم، إلى حركة الهزيمة الحسية و تولية الأدبار و النكوص على الأعقاب» ثم أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين «و كأنما السكينة دواء ينزل فيثبت القلوب الطائرة و يهدئ الانفعالات الشائرة» «و أنزل جنوداً لم تروها» فلا- نعلم ماهيتها و طبيعتها .. و ما يعلم جنود ربك إلا هو» «٣».

٤- التصوير بضرب المثل:

لقد ضرب القرآن الكريم كثيراً من الأمثال فكثيراً ما يشبه الأعمال الكريمة المبرورة بأشياء حسية مادية لها فى قلوب الإنسان التقدير و الأهمية لما لها من أثر فى حياتها الواقعية، من ذلك: تمثيل القرآن للصدقة فى سبيل الله بالحبّة التى تنبت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة، و منها تمثيل الصدقة التى تبذل رياء الناس بصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً. و مثل القرآن الصدقة المبدولة فى سبيل الله بجنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل، و منها تمثيل أعمال الكفار بريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته و تمثيل الذين يتخذون أولياء من دون الله كمن يلتجئ إلى بيت العنكبوت، و الذين يدعون من دون الله كمن ينطق بما لا يسمع ...

و وقف صاحب الظلال عند كل هذه الأمثال السابقة و غيرها، و لكن سنعرض قوله فى هذا التمثيل الذى رسم حال المنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى حيث رسم لهم (١) الظلال (٣/٤، ١٥). دار الشروق، ط (٢)، (١٩٧٥).

(٢) سورة براءة، الآيتان: (٢٥، ٢٦).

(٣) الظلال، (٣/١٦١٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٣

مشهدين مصورين حيين متحركين: المثل الأول هو: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمْ بِكُمْ عُمَىٰ فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) «١».

«فى هذا صور القرآن طبيعة المنافقين المتقلبة المتأرجحة، فهم لم يعرضوا عن الهدى و الإيمان ابتداءً مثل الذين كفروا، و لكنهم أعرضوا عنه بعد ما عرفوه و بعد ما استوضحوا الأمر و تبيّنوه، و لذلك استحبوا العمى على الهدى، فسبق لهم هذا المثل المصور لحالتهم:

مثلما استوقد ناراً فلما أضاء نورها لم ينتفع به لأن الله ذهب بنوره، فلم يعد يبصر شيئاً» «٢».

مشاهد الطبيعة المصورة:

لقد أبرز القرآن كثيرا من مشاهد الطبيعة، فحدث عن ينابيع المياه، و الطيور الصافات القابضات، و السماء المرفوعة من دون عمد ترونها، و الجبال المتحركة، و الشمس و القمر، و النجوم، و غير ذلك...». و ستوقف عند بعض النماذج التى صورها القرآن بتصويره الفنى:

قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٍ وَ جَنَاطٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زُرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرٌ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نَفَضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (٣).

«فى هذه المشاهد تصوير حى معجز ترسمه الريشة القرآنية على شكل لمسات تصويرية: لمسه فى السموات حيث رفعت بغير عمد. لتبين العلو المنظور للناس. تجاوزها و تتسق معها لمسه تصويرية أخرى فى العلو المطلق (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) ثم لمسه مصورة ثالثة فى تسخير العلو المنظور إلى الناس حيث سَخَّرَ الشمس و القمر، ثم تهبط الريشة القرآنية لتخطط وجه الأرض خطوطا تصويرية عريضة فى لوحة مصورة اللمس الأولى فيها، هى الأرض مبسطة، ممدودة، فسيحة. ثم ترسم خط الجبال الرواسى و خط الأنهار الجارية فى هذه اللوحة، ثم ترسم خطوطا كلية لما فى هذه الأرض (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) ثم المشهد المتحرك لليل و هو يغشى النهار، ثم تخطط الريشة (١) سورة البقرة، الآيتان: (١٧، ١٨).

(٢) الظلال، (١/ ٤٦).

(٣) سورة الرعد، الآيات: (٢-٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٤

القرآنية المعجزة وجه الأرض بخطوط جزئية أدق. اللمس الأولى فيها: و فى الأرض قطع متجاورات متعددة الشيات، ثم تأتى التفصيلات بعد هذه اللمس: و جنات من أعناب، و زرع، و نخيل صنوان و غير صنوان. هذه التفصيلات الجزئية و هذه المفروشات، تسقى كلها بماء واحد، و لكن الله يفضل بعضها على بعض فى الأكل و كل مخلوق ذاق الطعم المختلفة فى نبت البقعة الواحدة» (١).

تصوير مشاهد القيامة:

«لقد كانت القيامة حافلة بمظاهر التصوير البديعة المتنوعة» (و ذلك لأن التعبير المصور أعظم تأثيرا، و أكثر إيماء من التعبير اللفظى المجرد، و القرآن يهدف من عرض مشاهد القيامة فيه إلى أن تكون حاضرة فى ذهن و حس و قلب و وجدان و شعور المؤمن، و هو يتحرك على وجه الأرض يرجو نعيمها و يخشى عذابها، و هى لن تكون حاضرة حية، مؤثرة موحية تؤدى الغاية من إيرادها، إلا إذا عرضت بأسلوب معين، و طريقة خاصة تمنحها هذا التأثير. و هذه الطريقة هى طريقة التصوير، و بسببها اكتسبت تلك المشاهد قوتها و تأثيرها و إيماءاتها» (٢) و لمشاهد القيامة كتاب خاص سماه المؤلف: «مشاهد القيامة فى القرآن» و لعل السبب كثرة النصوص التصويرية المتحدثة عن ذلك اليوم العظيم. و فيما يلى بعض مشاهد القيامة التصويرية.

قال تعالى: * هَذَا نَحْنُ نَحْنُ خَصِيمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) (٣).

«إنَّ المشهد هنا عفيف صاحب متحرك، و إطالة المشهد هنا بتفصيل الحركات و تعددها و بالتكرار الذى تخيله الألفاظ: هذه ثياب

من نار تقطع و تفضيل، و هذا حميم يصب من فوق الرؤوس، يصهر به ما فى بطونهم و الجلود، و هذه مقامع من حديد. و هذا هو العذاب يشتد، و يتجاوز الطاقة، فيهب الذين كفروا من الوهج الحميم و الضرب الأليم يهيمون بالخروج من هذا الغم و ها هم أولاء يردون بعنف، ذوقوا عذاب الحريق ... و يظل الخيال يكرر هذه الصورة من أولى حلقاتها إلى آخرتها حتى يصل إلى حلقة الخروج ثم الرد العنيف «٤». (١) الظلال، (٢٠٤٤، ٢٠٤٧) و فى هذه الصفحات المزيد من تحليلات المؤلف.

(٢) صلاح عبد الفتاح الخالدى نظرية التصوير الفنى عند سيد قطب، عمان، دار الفرقان، ص (٢١٥).

(٣) سورة الحج، الآيات: (١٩-٢٢).

(٤) راجع الظلال فى تفسير سورة الحج للآيات (١٩-٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٥

تصوير مشاهد النعيم:

عرض القرآن مشاهد النعيم فى الجنان على نحو مادي محسوس تتلذذ فيه الجوارح و الأبدان و من هذه المشاهد البديعة قول الله تعالى:

وَ أَصْحَابُ الَّتِيْمِيْنَ مَا أَصْحَابُ الَّتِيْمِيْنَ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُوْدٍ (٢٨) وَ طَلْحٍ مَّنْضُوْدٍ (٢٩) وَ ظِلٍّ مَّمْدُوْدٍ (٣٠) وَ مَاءٍ مَّسْكُوْبٍ (٣١) وَ فَاكِهَةٍ كَثِيْرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوْعَةٍ وَ لَا مَمْنُوْعَةٍ (٣٣) وَ فُرْشٍ مَّرْفُوْعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرْبًا أَتْرَابًا «١».

و هو نعيم مادي محسوس يتمتع به المؤمنون فى الجنة، و هو متاع دائم لا ينفد فهو أبدا متجدد. متجدد فى صور محسوسة: الجنات ذات الأبواب، و النسوة قاصرات الطرف عفيفات طاهرات متودعات:

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيْرَةٍ وَ شَرَابٍ (٥١) * وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ «٢».

و فى بعض المشاهد يمتزج المادي بالمعنوي النفسى الرقيق: إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُوْمٌ (٤١) فَوَاكِهَةٌ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيْمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِيْنٍ (٤٥) يَبْيَضَاءُ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَ لَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِيْنٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُوْنٌ (٤٩) «٣».

و يبدو النعيم على هيئة ظلال و ارفة لطيفة: «تلقيها التعبيرات فتدل على الاسترواح كما فى قوله تعالى: وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُوْرٌ شَكُوْرٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوْبٌ (٣٥) «٤». «فنجس برد الراحة و لذة النعيم، و روح الاطمئنان، و هدوء الضمير ..» «٥».

المسائل الفقهية:

عند ما صنف تفسير الظلال فى صف التفاسير الأدبية فإن هذا لا يعنى البتة أن هذا التفسير لم يناقش مؤلفه بعض المسائل الفقهية. (١)

سورة الواقعة، الآيات: (٢٧-٣٧).

(٢) سورة ص، الآيات (٤٩-٥٣).

(٣) سورة الصافات، الآيات: (٤٠-٤٩).

(٤) سورة فاطر، الآيات: (٣٤، ٣٥).

(٥) الظلال، (٢٣٢١ / ٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٦

لقد وقف صاحب الظلال على بعض النصوص القرآنية التى تعالج بعض العبادات و لا سيما الصوم .. فعند ما فسر المؤلف قول الله تعالى: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» (١) قال: «و ظاهر النص فى المرض و السفر يطلق و لا يحدد، فأى مرض و أى سفر يسوغ الفطر، على أن يقضى المريض حين يصح و المسافر حين يقيم.

و هذا هو الأولى فى فهم هذا النص القرآنى المطلق، و الأقرب إلى المفهوم فى رفع الحرج، و منع الضرر. فليست شدة المرض و لا مشقة السفر هى التى يتعلق بها الحكم، إنما هى المرض و السفر إطلاقاً، لإرادة اليسر بالناس لا العسر، و نحن لا ندرى حكمه الله كلها فى تعليقه بمطلق المرض و مطلق السفر؛ فقد تكون هناك اعتبارات أخرى، يعلمها الله و يجهلها البشر فى المرض و السفر؛ و قد تكون هناك مشقات أخرى لا تظهر للحظتها، أو لا تظهر للتقدير البشرى، و ما دام الله لم يكشف عن علة الحكم فمن الأفضل أن لا تتأولها؛ و لكن تطيع النصوص و لو خفيت علينا حكمتها. فورها قطعاً حكمته، و ليس من الضرورى أن نكون نحن ندر كها» (٢).

صاحب الظلال يرد على من يقول أن الترخيص بالعبادات قد يؤدي إلى إهمال هذه العبادات:

يرى المؤلف أن ما يقوله بعض المتشددون فقهاء «أن الترخيص يؤدي بالناس إلى إهمال العبادات المفروضة لأدنى سبب» (٣).

و هذا السبب على ما يرى المؤلف «جعل الفقهاء يتشددون و يشترطون» (٤) و يقول رادا على ذلك:

«و لكن هذا فى اعتقادي لا يبرر التقييد فيما أطلقه النص».

و يعلل ذلك بقوله: «الدين لا يقود الناس بالسلاسل إلى الطاعات، إنما يقودهم بالتقوى» و يقول: «و الذى يفلت من أداء الفريضة تحت ستار الرخصة لا خير فيه منذ البدء» (٥). (١) سورة البقرة، الآية: (١٨٤).

(٢) الظلال (١/ ١٦٨)، بيروت، دار الشروق، ط (٢)، (١٣٩٥-١٩٧٥).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الظلال، ج (١/ ١٦٩) فى تفسير سورة البقرة.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٧

و يسوق المؤلف عدداً من الأحاديث و الوقائع التى جرت فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم ليؤكد ما ذهب إليه، و بلغت هذه النصوص الحديثية أحد عشر حديثاً و منها:

١- عن جابر رضى الله عنه قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم عام الفتح إلى مكة فى رمضان فصام حتى بلغ «كراع الغميم» فصام الناس، ثم دعا بقدر من ماء فرفعه حتى نظر الناس، ثم شرب.

ف قيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة» (١).

٢- و عن أنس رضى الله عنه قال: «كنا مع النبى صلى الله عليه و سلم فى سفر فمنا الصائم و منا المفطر، فنزلنا منزلاً فى يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، و منا من يتقى الشمس بيده. فسقط الصوام، و قام المفطرون فضربوا الأبنية، و سقوا الركاب، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر» (٢).

٣- و عن جابر رضى الله عنه قال: «كان النبى صلى الله عليه و سلم فى سفر، فرأى رجلاً قد اجتمع عليه الناس، و قد ظلل عليه. فقال: «ماله؟ فقالوا: رجل صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «ليس من البر الصوم فى السفر» (٣).

٤- و عن أنس رضى الله عنه قال: «كنا مع النبى صلى الله عليه و سلم فمنا الصائم و منا المفطر فلا الصائم يعيب على المفطر، و لا المفطر يعيب على الصائم» (٤) ..

عقب المؤلف على هذه الأحاديث بقوله:

«فهذه الأحاديث فى جملتها تشير إلى تقبل رخصة الإفطار فى السفر فى سماحة و يسر، و ترجح الأخذ بها. و لا تشتت وقوع المشقة للأخذ بها كما تشير إليها بعض الأحاديث، و خاصة هذان الحديثان:

فعن عبيد بن جبير قال: كنت مع أبى بصير الغفارى صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم رضى الله عنه فى سفينة من الفسطاط فى رمضان فدفع فقرب غذاؤه، فقال: اقترب. قلت: أ لست ترى البيوت؟ قال: أ ترغب عن سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ فأكل و أكلت «٥».

و عن منصور الكلبي: أن دحية بن خليفة رضى الله عنه خرج من قرية من دمشق إلى قدر قرية عقبه من الفسطاط أو ذلك ثلاثة أميال، فى رمضان. فأفطر و أفطر معه ناس كثير، و كره آخرون أن يفطروا، فلما رجع إلى قريته، قال: و الله لقد رأيت اليوم أمرا ما كنت أظن أن أراه، إن قوما رغبوا عن هدى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه. اللهم اقبضنى إليك. (١) أخرجه مسلم فى (الحديث: ٢٥٤٤) و الترمذى فى (الحديث: ٧١٠)، و انظر الظلال، (١ / ١٦٩).

(٢) أخرجه البخارى. و انظر الظلال (١ / ١٦٩).

(٣) أخرجه البخارى فى (الحديث: ١٩٤٦). و انظر الظلال (١ / ١٦٩).

(٤) أخرجه البخارى فى (الحديث: ١٩٤٧). و انظر الظلال، (١ / ١٧٠).

(٥) أخرجه أبو داود، و انظر الظلال، (١ / ١٧٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٨

يقول المؤلف: إن هذين الحديثين يشيران إلى استحباب الإفطار فى السفر.

و أما ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ظل مرة صائما على الرغم من المشقة هو و عبد الله بن رواحة فقد كانت له صلى الله عليه و سلم خصوصيات فى العبادة يعفى منها أصحابه، كنهيه لهم عن مواصلة الصوم و هو كان يواصل أحيانا أى يصل اليوم باليوم بلا فطر. فلما قالوا له فى هذا، قال:

«إنى لست مثلكم، إننى أظلل يطعمنى ربى و يسقبنى» «١».

و قد ثبت من الحديث الأول السابق أنه أفطر، و قال عن الذين لم يفطروا: «أولئك العصاة»، و هذا الحديث متأخر - فى سنة الفتح - فهو أحدث من الأحاديث الأخرى، و أكثر دلالة على الاتجاه المختار «٢».

و يرى المؤلف من جملة هذه الأحاديث «استحباب الفطر» «٣».

و أما من ناحية المرض فإنه يقول: «فلم أجد فيه شيئا إلا أقوال الفقهاء، و الظاهر أنه مطلق فى كل ما يثبت له وصف المرض بلا تحديد فى نوعه و قدره و لا - خوف شدته، على وجوب القضاء، يوما بيوم فى المرض و السفر من غير موالاة فى أيام القضاء على رأى الأرجح» «٤».

خاتمة:

«لم تكن مفردات القرآن وحدها شاغلة للمؤلف بموسيقاها، و لا تراكيب القرآن وحدها مستأثرة باهتمامه بتناسقها و ترابطها، و إنما كان نظره مركزا فى الأداة المفضلة للتعبير فى كتاب الله، و لقد وجدها فى التصوير ... و راح يتحدث عنها بأسلوب يستهوى النفوس و يهدىها إلى جمال القرآن» «٥» و قد أنشأ المؤلف يذكر الدليل إثر الدليل على صحة نظرتة ... مؤكدا فى نهاية المطاف أن الجدل القرآنى قائم على ضرب من المنطق الوجدانى الذى تشترك فيه «الألفاظ المعبرة، و التعبيرات المصورة، و الصور الشاخصة، و المشاهد الناطقة، و القصص الكثيرة» «٦». (١) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٧٢٩٩)، و انظر الظلال، (٢ / ١٧٠).

(٢) الظلال، (٢/ ١٧٠).

(٣) الظلال، (٢/ ١٧١).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) د. صبحى الصالح، مباحث فى علوم القرآن، ص (٣١٩).

(٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٥٩

الفصل الخامس التفسير الفقهي

إشارة

أولاً: روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام لمحمد على الصابونى.

ثانياً: تفسير آيات الأحكام للسايس و آخرون.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦١

أولاً: روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام لمحمد على الصابونى

«روائع البيان، تفسير آيات الأحكام من القرآن» لمحمد على الصابونى

عرف الشيخ محمد على الصابونى بنشاطه العلمى و البحثى و التأليفى، إذ أصدر عدداً غير قليل من الدراسات الأدبية الحديثية، و القرآنية و لا سيما: «صفوة التفاسير» و «روائع البيان، تفسير آيات الأحكام من القرآن». و كذلك له «من كنوز السنه» إذ درس بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم دراسةً تربويةً، لغويةً، بلاغيةً، ببيان ناصح، و أسلوب شيق و له «التبيان فى علوم القرآن» و «رسالة الصلاة»، و الموارد فى الشريعة الإسلامية، و غير ذلك من الدراسات و البحوث.

إن إقامة المؤلف الطويلة فى الديار المقدسة، خاصة فى أم القرى البلد الأمين، و فى وسط علمى أكاديمى، وقر له من المناخ العام، و الوقت الخاص ما ساعده أن يخلو خلوة مفيدة مع الكم الكبير من إرثنا العلمى على كافة الصيعد: القرآنية، و الفقهية، و اللغوية، و الأدبية، و استطاع أن يتجول فى كل زاوية من زواياها، و فى كل ساحة من ساحاتنا المعرفية، و يلتقط من هنا و هناك لينظم خيطاً جامعاً لهذه المعارف، لتشكل معاً نسيجاً واحداً، مبلوراً موضوعاً متكاملًا ذا نفع للناس أجمعين إن شاء الله، و للعلماء، و لطلبة العلم على نحو خاص. و قد عبّر المؤلف عن ذلك بأسلوب جميل «و ما مثلى إلّا كمثل إنسان رأى جواهر و لآلىء، و دررا ثمينة مبعثرة هنا و هناك فجمعها و نظمها فى عقد

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦٢

واحد» (١). و يقول أيضاً مفسراً طبيعة جهده و عمله: «أو كمثل شخص دخل حديقة غناء فيها من أحسن الأثمار، و الورود و الأزهار ما يدهش الأبصار فامتدت يده برفق إليها فجعلها فى باقة واحدة، و وضعها فى كأس، فكانت بهجة للقلب، و فتنة للعين» (٢). و ما أظن خافياً على القارئ أن الأزهار و الثمار و الحدائق إن هى إلا ما خلفه العلماء من بديع الآراء و البيان و الأحكام الشرعية المبتوثة فى هذا السفر أو ذاك، فجاء المؤلف منظمًا و جامعاً، مسهلاً، موضحاً، مبوّباً.

إنه عمد إلى تلخيص ما قاله المتقدمون و المتأخرون، فكان جامعاً القديم و الحديث موائماً بينهما و خاصة إذا كان القديم معترفاً بانثاق هذا الحديث الجديد عنه، و ليس عاقلاً له، جاحداً فضله، ثم كان الحديث معترفاً بالفضل لمن سبق و أسس و أرسى.

نعم إنه جهد كبير ذلك الذى بذله المؤلف لأنه ما ثبت شيئا حتى قرأ «ما يزيد على خمسة عشر مرجعا من أمهات المراجع فى التفسير، عدا عن مراجع اللغة و الحديث» (٣) - عندئذ يكتب محاضراته منها إلى المصادر التى أخذ متحريرا الدقة فى نقولاته.

«روائع البيان تفسير آيات الأحكام» خرج إلى ساحات المعرفة بمجلدين، و جمعت فيه الآيات الكريمة «آيات الأحكام خاصة» على شكل محاضرات علمية جامعية، تجمع بين القديم فى رصانته، و الحديث فى سهولته.

إن المؤلف تناول الآيات تناول المتحرى المدقق، المتعمق إذ كتب عنها من عشرة وجوه هى:

أولا: التحليل اللفظى مع الاستشهاد بأقوال المفسرين، و علماء اللغة.

ثانيا: المعنى الإجمالى للآيات الكريمة على نحو مقتضب.

ثالثا: سبب نزول إن كان للآيات الكريمة سبب [إذ كما هو معلوم ليس لكل آية سبب نزول .

رابعا: وجه الارتباط بين الآيات السابقة و اللاحقة.

خامسا: البحث عن وجوه القراءات المتواترة. (١) محمد على الصابونى، روائع البيان، تفسير آيات الأحكام من القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربى ط (١٩٩٧)، (١٢ / ١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦٣

سادسا: البحث عن وجوه الإعراب بإيجاز.

سابعا: لطائف التفسير، و تشتمل (الأسرار، و النكات البلاغية، و الدقائق العلمية).

ثامنا: الأحكام الشرعية و أدلة الفقهاء مع الترجيح بين الأدلة.

تاسعا: ما ترشد إليه الآيات الكريمة باختصار.

عاشرا: خاتمة البحث و تشمل حكمه التشريع لآيات الأحكام المذكورة «١».

و إذا أردنا دراسة مثال فقهي نستطلع أسلوب المؤلف فى دراسته لآيات الأحكام فقد عنون لأحد بحوثه ب:

الطلاق قبل المساس:

و هذه مثل باقى كتابه، محاضرة ألقاها على طلبة كلية الشريعة فى مكة المكرمة، و قد قدم الآية الكريمة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَحوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) «٢».

و تبدأ دراسته للآية بالتحليل اللفظى: يحلل ألفاظ النص: نكحتم - المؤمنات تمسوهن، عدة، فمتعوهن، و سرحوهن، سراحا جميلا.

(نكحتم): يطلق النكاح تارة و يراد به العقد، و يطلق تارة و يراد به الوطء، و المراد به هنا العقد باتفاق العلماء بدليل قوله تعالى: «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ» و أصل النكاح فى اللغة «الضم» و «الجمع» قال الشاعر:

ضممت إلى صدرى معطر صدرها كما نكحت أم الغلام صبيها

قال القرطبي: النكاح حقيقته الوطء. و تسمية العقد نكاحا لملاسته له من حيث أنه طريق إليه و نظيره تسمية الخمر إنما لأنها سبب فى

اقتراف الإثم، و لم يرد لفظ النكاح فى القرآن إلا - فى معنى العقد لأنه فى معنى الوطء، و من آداب القرآن الكناية عنه بلفظ

(الملاسة. المماسه. و القربان. و التغشى، و الإتيان).

(المؤمنات): فيه إشارة إلى أنه ينبغى أن يقع اختيار الأزواج على المؤمنات. و قوله:

المؤمنات ليس قيذا و لا شرطا بل هو لمراعاة الغالب من المؤمنين أنهم لا يتزوجون إلا بمؤمنات، و هذا مما اتفق عليه الفقهاء و لو كان

للقيد أو للشرط لكان حكم الكتابيات مختلفا عن المؤمنات مع أن الحكم واحد» (٣). (١) محمد على الصابوني، تفسير آيات الأحكام، (١١/٢).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٤٩).

(٣) محمد على الصابوني، روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام (٢/٢٨٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦٤

(تمسّوهن): المراد بالمسّ (هنا بالآية) الجماع بإجماع الفقهاء. وقد اشتهرت الكناية به و بلفظ الملامسة و المماسّة و نحوها فى لسان الشرع عن الجماع .. و لو كان المراد فى الآية حقيقة المس باليد و هى إصاق اليد بالجسم للزمت العدة فيما لو طلقها بعد أن مسّها بيده من غير جماع و لا خلوة، و لم يقل بذلك أحد من الفقهاء.

(عدة): العدة فى اللغة مأخوذة من العد لأن المرأة تعد الأيام التى تجلسها بعد طلاق زوجها لها أو وفاته، و هى شرعا: المدة التى تتربص فيها المرأة، لمعرفة براءة رحمها، أو للتعبد أو للتفجع على وفاة الزوج. (تعدونها): أى تعدونها عليهن. أو تستوفون عددها عليهن ...

(فتمتعوهن): أى أعطوهن المتعة، و المتعة فى الأصل: ما يتمتع به من مال أو ثياب، و المتعة لا تختص بثياب بل هى على لسان الشرع: كل ما يعطيه الزوج لمطلقته إرضاء لها و تخفيفا من شدة وقع الطلاق عليها.

(و سرحوهن): أى طلقوهن. قال القرطبي: التسريح إرسال الشىء. و منه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض، و سرح الماشية: أرسلها ..

(سِرَاحًا جَمِيلًا): طلاقا بالمعروف، فهو مثل قوله تعالى: فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ (١) بالسراح الجميل يكون بالتلفظ مع المطلقة بالقول، و ترك أذاها، و عدم حرمانها مما وجب لها من حقوق، و الإحسان إليها.

و بعد أن يشرح المفردات الواردة فى الآية محللا تلك المفردات، ذكرا الشواهد المثبتة لما ذهب إليه من الشروح، و قد يذكر بعضا من المراجع التى اعتمدها فى الشرح.

يأتى على ذكر المعنى الإجمالى للآية.

فالمعنى الإجمالى للآية السابقة:

«يخاطب الله تعالى المؤمنين فيقول: يا أيها الذين آمنوا إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات و تزوجتم منهن، ثم طلقتموهن من قبل أن تقر بهن فليس لكم عليهن حق فى العدة تستوفون عددها عليهن لأنكم طلقتموهن قبل المساس، و هذا لا يستلزم احتباس المرأة فى البيت، و جلوسها فى العدة من أجل صيانة نسبكم لأنكم لم تعاشرهن فليس هناك احتمال للحمل.

فالواجب عليكم أن تمتعوهن بدفع ما تطيب نفوسكم لهن، و تكرموهن بشىء من (١) سورة الطلاق، الآية: (٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦٥

المال أو الكسوة تطيبا لخاطرهن، و تخفيفا لشدة الطلاق عليهن، و أن تفارقوهن بالمعروف فلا تؤذوهن بقول أو عمل. و لا تحرموهن مما وجب لهن عليكم من حقوق. فإن ذلك مما يقتضى إيمانكم و طاعتكم لله عزّ و جلّ. و الله أعلم «١».

ثم يربط بين الآية و الآيات السابقة:

كان الحديث فى الآيات السابقة عن نساء النبى صلى الله عليه و سلّم و ما ينبغى أن يكنّ عليه من طاعة الله و رسوله، و زهد فى الدنيا و طهارة، و كمال لأنهن لسن كبقية النساء، و الله تبارك و تعالى يريد لهن أن يحافظن على ذلك الشرف الرفيع و هو انتسابهن إلى رسول الله صلى الله عليه و سلّم حيث أصبحن أمهات للمؤمنين، و زوجات الرسول الطاهرات و قد أعقب ذلك بذكر قصة (زيد بن حارثة) و تطليقه (زينب) رضى الله عنها التى تزوجها الرسول بعد ذلك بأمر من الله سبحانه و تعالى و ذلك لحكمة جليّة و هى

إبطال (بدعة التبنى)، ثم جاء الخطاب هنا للمؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل المساس و كيف يجب على المؤمنين أن يفعلوا فيما إذا وقع منهم الطلاق قبل المعاشرة، و ما الأحكام الشرعية التى ينبغى عليهم أن يتمسكوا بها فى مثل هذه الأحوال، فهذا هو وجه الارتباط و الله أعلم «٢».

و بذلك يربط المؤلف بين ما سبق من الآيات، و ما تلاها، ثم يذكر لطائفه فى التفسير و يعنون ب: لطائف التفسير:
اللطيفة الأولى: قوله تعالى: «نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» فيه إشارة إلى أن المؤمن ينبغى أن يتخير لنطقه و أن ينكح المؤمنة الطاهرة، لأن إيمانها يجعلها تحافظ على عفتها و يحجزها عن الوقوع فى الفاحشة و الشر، فتصون عرض زوجها و تحفظه فى حضرته و غيبته و صدق الله: «وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ» (٣).

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: «ثم طلقتموهن» التعبير (بشم) دون الفاء أو الواو.
و العطف بها (التراخى) للإشارة إلى أن الطلاق ينبغى أن يكون بعد تريت و تفكير طويل، و لضرورة ملحة لأن الطلاق من الأمور التى يبغضها الله تعالى حيث فيها هدم و تحطيم للحياة الزوجية و لهذا قال بعض الفقهاء: إن الآية ترشد إلى أن الأصل فى الطلاق الحظر. و أنه لا يباح إلا إذا فسدت الحياة الزوجية، و لم تفلح وسائل الإصلاح بين الزوجين.

و الحكم واحد: لا يختلف فيمن تزوج ثم طلقها على الفور، أو طلقها على التراخى .. (١) محمد على الصابونى، تفسير آيات الأحكام، (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٢١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦٦

اللطيفة الثالثة: «من قبل أن تمسوهن» كنى بالمس عن الجماع و هذا كما أسلفنا- أدب من آداب القرآن، ينبغى على المسلم أن يتأدب به فى كنى عن كل شىء قبيح أو فاحش، و ما أجمل أدب الرسول صلى الله عليه و سلم حين قال للمرأة المطلقة المبتوتة التى جاءت تستأذنه فى العودة إلى زوجها الأول: «أ تريدان أن ترجعى إلى رفاعه؟ لا، حتى تذوقى عسيلته و يذوق عسيلتك» (١).

اللطيفة الرابعة: قوله تعالى: «فما لكم عليهن من عدة» فى إسناد العدة إلى الرجال إشارة إلى أنها حق للمطلقة، فوجوب العدة على المرأة من أجل الحفاظ على نسب الإنسان فإن الرجل يغار على ولده، و يهمله ألا يسقى زرعه بماء غيره، و لكنها على المشهور ليست حقا خالصا للعبد بل تعلق بها حق الشارع أيضا، فإن منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع» و الصحيح أن وجوب العدة فيها (حق الله. و حق العبد) و لهذا قال الفقهاء:

العدة تجب لحكم عديدة: لمعرفة براءة الرحم و للتعبد، أو التفجع (فتدبره) «٢».

وجوه القراءات:

قلنا فى منهج المؤلف سابقا إنه قد يذكر وجوها للقراءات و ردت فى قراءة الآية الكريمة إن كانت هنالك قراءات، و فى هذه الآية:

١- قرأ الجمهور «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ» أى تقربوهن، و قرأ حمزة و الكسائى «من قبل أن تماسوهن» بزيادة ألف. و المعنى واحد.

٢- قرأ الجمهور «مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا» بتشديد الدال من العدة أى تستوفون عددها. من قولك: عدّ الدراهم فاعتدها أى استوفى عددها.

و قرأ ابن كثير و غيره بتخفيف الدال (تعدونها) قال الزمخشري: أى تعدونها فيها كقوله: و يوما شهدناه. و المراد بالاعتداء ما فى قوله تعالى: «و لا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا». قال أبو حيان: المعنى تعدون عليهن فيها فلما حذف حرف الجر وصل الفعل إلى ضمير العدة كقوله: و يوما شهدناه سليما و عامرا أى شهدنا فيه» (٣).

وجوه الإعراب:

أولا قوله تعالى: **فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا**. (١) محمد على الصابوني، تفسير آيات الأحكام، (٢/ ٢٨٨).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٢٨٩).

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦٧

(ما): نافية حجازية تعمل عمل ليس «١».

(لكم): جار و مجرور خبر مقدم.

و من صلة «٢» تأديبا. و (عدة): اسم ليس (مؤخر) مجرور لفظا مرفوع محلا. قال ابن مالك:

و زيد فى نفى و شبهه فجر نكرة كما لبغ من مفر

و المعنى: ليس لكم عليهن عدة توجبونها عليهن.

ثانيا: قوله تعالى: **وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا**.

(سراحا): مفعول مطلق.

(جميلا): صفة منصوب.

الأحكام الشرعية:**الحكم الأول: هل يقع الطلاق قبل النكاح؟**

أجمع الفقهاء على أن الطلاق لا يقع قبل النكاح استدلالا بقوله تعالى: **إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ فَقَدْ رَتَبَ الطَّلَاقَ عَلَى النِّكَاحِ وَ عَطَفَهُ (بِثَمِّ) الَّتِي تَفِيدُ التَّرْتِيبَ مَعَ التَّرَاخِي وَ اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: (لَا طَّلَاقَ قَبْلَ النِّكَاحِ) .. وَ اخْتَلَفُوا فِيمَنْ عَلَّقَ الطَّلَاقَ مِثْلَ قَوْلِهِ: (إِنْ تَزَوَّجْتَ فَلَانَةَ فَهِيَ طَالِقٌ) أَوْ قَوْلِهِ: (كُلُّ امْرَأَةٍ أَتَزَوَّجَهَا فَهِيَ طَالِقٌ) عَلَى مَذْهَبَيْنِ:**

١- مذهب الشافعى، و أحمد: أنه لا يقع الطلاق و هو مروى عن (ابن عباس) رضى الله عنهم.

٢- مذهب (أبى حنيفة، و مالك): أنه يقع الطلاق بعد عقد الزواج، و هو مروى عن (ابن

مسعود).

أدلة الشافعية و الحنابلة:

قالا: التعليق مثل التنجيز طلاق قبل النكاح، و إذا طلق الإنسان امرأة لا يملكها لا يقع الطلاق، لأن الطلاق لا بد أن يعتمد على الملك». و استدلوا بحديث: «لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، و لا عتق له فيما لا يملك. و لا طلاق له فيما لا يملك». (١) هناك ما: التيمية، نافية فقط. (لا تعمل عمل ليس). مثل: و ما محمد إلا رسول.

(٢) اللغويون: يقولون زائدة. و أهل التفسير تأدبا مع القرآن يقولون: صلة.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦٨

و هذا مذهب الجمهور ...

أدلة المالكية و الحنفية:**إشارة**

و استدل المالكية و الحنفية بأن الطلاق يعتمد الملك أو الإضافة إلى الملك لكنه فى حالة الإضافة إلى الملك يبقى معلقا حتى يحصل شرطه، فإذا قال للأجنبية: (إن تزوجتك فأنت طالق) كان هذا تعليقا صحيحا ... و لا يقع هذا الطلاق إلا بعد أن يتزوجها .. و فرقا: بين طلاق الأجنبية الذى لا يقع .. و طلاق يقع بعد الملك كقوله: إن تزوجت فلانة فهى طالق، فهو معلق على الملك و الفرق واضح بينهما» (١).

الحكم الثانى: هل الخلو الصحيحه توجب العدة و المهر:

ظاهر الآيه الكريمة من قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ الذى هو كناية عن الجماع و أنّ الخلو و لو كانت صحيحه لا توجب ما يوجب الجماع من العدة و المهر .. و هذا مذهب الشافعى رحمه الله و دليله: «أن الله نفى وجوب العدة إذا طلقت قبل الجماع، و الخلو ليست جماعا فلا يجب بها العدة و المهر.

و ذهب الجمهور: (المالكية و الحنفية و الحنابلة) إلى أن الخلو كالجماع توجب المهر كاملا، و توجب العدة. و استدلوا بـ

١- ما رواه الدارقطنى عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «من كشف خمار امرأة و نظر إليها و جب الصداق دخل بها أو لم يدخل».

٢- و روى عن عمر أنه قال: (إذا أغلق بابا و أرخى سترا، و رأى عورة فقد و جب الصداق و عليها العدة، و لها الميراث.

٣- و روى عن زرار بن أبى أوفى أنه قال: (قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخى الستور، و أغلق الباب فلها الصداق كاملا و عليها العدة دخل بها أو لم يدخل).

يقول الصابونى: «إن أدلة الجمهور أقوى، و حجتهم أظهر، إذا يحتمل أن يبقى الرجل مع زوجته عاما كاملا- يبيت معها فى فراش واحد، و لكنه لم يجامعها طيلة هذه المدة فلا بد أن توجب عليه دفع المهر كاملا، و نلزمها بالعدة و ذلك اعتبارا بالخلو الصحيحه و دفعا للنزاع و الخلاف ...» (٢). (١) محمد على الصابونى، تفسير آيات الأحكام، (٢/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٦٩

الحكم الثالث: ما حكم المطلقة رجعية، فيما إذا طلقها زوجها بعد المراجعة قبل أن يمسه على أقوال:

١- مذهب الظاهرية: أنه لا عدة عليها جديدة، و العدة الأولى قد بطلت بالطلاق الثانى.

فلا يجب عليها أن تكمل العدة الأولى (و هذا رأى ضعيف) حسب رأى الصابونى.

٢- مذهب الشافعى: تبنى على عدة الطلاق الأول و ليس عليها أن تستأنف عدة جديدة.

٣- مذهب مالك و أبى حنيفة: عليها أن تستأنف عدة جديدة. قال القرطبى: و على هذا أكثر أهل العلم.

دليل الظاهرية: استدل داود الظاهرى، و من قال بقوله: أن المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدتها ثم فارقها قبل أن

يمسها أنه ليس عليها أن تتم عدتها و لا عدة مستقبلة لأنها مطلقه قبل الدخول بها أخذاً بظاهر الآية. دليل الشافعى: استدلل الشافعى رحمه الله بأن المطلقة تبنى على عدتها الأولى و ليس عليها أن تستأنف عدة جديدة: بأن الطلاق الثانى لا عدة له. لأنه طلاق قبل المساس فإنه طلاق بعد دخول يجب أن تراعى فيه حكمه الشارع فى إيمان العدة، فطلاقه له قبل أن يمسها فى حكم من طلقها فى عدتها قبل أن يراجعها و من طلق امرأته فى كل طهر مرة بنت و لم تستأنف. دليل المالكية و الحنفية: قال القرطبى نقلاً عن الإمام مالك: إنها تنشى عدة مستقبلية و قد ظلم زوجها و أخطأ إن كان ارتجعها و لا حاجة له بها، و على هذا أكثر أهل العلم لأنها فى حكم الزوجات المدخول بهن فى النفقة و السكنى و غير ذلك. و هو قول جمهور فقهاء البصرة و الكوفة و مكة و المدينة و الشام «١».

و أكتفى بالمثل الفقهى. و لننتقل إلى:

ما ترشد إليه الآيات:

١- على الإنسان أن يختار الزوجه المؤمنة.

٢- الطلاق هدم للحياة الزوجية لا يصح إلا للضرورة. (١) محمد على الصابونى، تفسير آيات الأحكام، (٢/ ٢٩٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧٠

٣- لا تجب العدة قبل الدخول بالمرأة إذا طلقت.

٤- على الزوج أن يجبر خاطر زوجته بالمتعة.

٥- حرمة إيذاء المطلقة، و تسريحها بالمعروف و الإحسان.

و يختم بحوثه بالحكمة من التشريع:

١- الزواج شرع لاستمرار النوع الإنسانى، و إباحة الطلاق للخلاص من شقاء محتم.

و لا يقدم على الطلاق إلا بعد دراسة شاملة متأنية ...

الحديث الشريف فى تفسير آيات الأحكام:

كما أسلفنا ما من حكم شرعى صحيح بإمكانه الاستغناء عن الحديث الشريف، فالحديث يقيد المطلق، و يخصص العام، و يفصل المجمعل .. الخ.

لذا كان اعتماد المؤلف على الأحاديث واضحة، و غزيراً.

اللغة فى تفسير آيات الأحكام:

كانت اللغة الأدبية الجميلة سمة هامة، أكسبت الاطلاع على الأحكام الشرعية سمة اللين و التشوق ... فأضحى القارئ بمطالعة الأحكام بهذه اللغة جامعاً الفقه و الأدب .. لذا فإن القارئ يجد نفسه مشدوداً، غير مألٍ من مطالعة الأحكام الفقهية على غير ما يمكن أن نراه بالمطولات الفقهية القديمة ... التى كانت تمتاز باللغة المضغوطة المحدودة.

كذلك فإن النكت البلاغية، و الأمثلة الإعرابية جعلت الكتاب ذا فائدة جلية فى مختلف العلوم الشرعية و اللغوية و الأدبية.

الخاتمة:

أخلص لمنهج الذى وضعه لنفسه، بسط الفكرة، و سهل الأسلوب، و مهد الطريق لكل من يريد التعمق مستقبلاً فى المطولات الفقهية،

و زاد القارئ معلومات لغوية و بلاغية.

استعان بأقوال الفقهاء محترما لها، مرجحا بعضها بأدب جم، لخص الفكرة الواسعة، مرجعا القارئ إلى أدلتها و مكانها، مما جعل تفسيره لنا مرنا سهلا، و صار مرجعا مقدما لطلاب كليات الدراسات الإسلامية لأسلوبه العلمى المتقن .. و الحمد لله أولا و آخرا.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧١

ثانيا: تفسير آيات الأحكام للسايس و آخرون

تفسير آيات الأحكام للسايس:

كان كتاب «أحكام القرآن» لأبى بكر بن العربى المالكى المتوفى سنة (٥٤٣ هـ) من الكتب المبكرة التى تناولت آيات الأحكام على نحو مستقل ثم جاءت كتب أخرى، و دراسات عدة مثل أحكام القرآن للجصاص ...

و كتاب تفسير آيات الأحكام للسايس طبع لأول فى عام (١٩٣٩) فى مطبعة الشرق الإسلامية، و طبع ثانية فى مطبعة حجازى سنة (١٩٤٨)، و قد ذكر فى مقدمتها أنه أشرف على تنسيقها و جمعها الشيخ عبد اللطيف السبكى، (من هيئة كبار العلماء) و الشيخ محمد إبراهيم كرسون و كيل كليه الشريعة .. و طبع ثالثة فى مطبعة صبيح (١٩٥٣) و قد أثبت على ظهرها أنه جمعها و نسقها و صححها الشيخ محمد على السائس رحمه الله تعالى «١».

و آيات الأحكام نالت من اهتمام العلماء الدارسين حديثا قسطا غير قليل، من أبرز هؤلاء الدارسين الشيخ محمد على الصابونى، ثم الأستاذ أحمد الحصرى، إلا أن هذا الكتاب يتميز عما ألفه الذين من بعده بأنه أجمع فى بابه منها و أنه لا يخرج عن موضوعه، و أنه أسهل عبارة «٢» و الطبعة الثالثة التى بين أيدينا حظيت باهتمام يليق بموضوع على درجة كبيرة من الأهمية إذ كانت نسخة مصححة، مراجعة ..

هذا الكتاب تفسير آيات الأحكام من الكتب المقررة فى كثير من المعاهد العلمية ..

ذلك لأن الشيخ السائس رحمه الله تعالى لم يأل جهدا فى جمعها و تنقيحها و تصحيحها من (١) انظر كلمة المصحح فى ج (١)، من تفسير آيات الأحكام، ط (٣)، دمشق (١٩٩٨)، (١/٩).

(٢) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧٢

أمهات كتب التفسير و الحديث و الفقه، و قد جاء شرحه وسطا بين المطولات المملة، و المختصرات المخلة، و جرى الأسلوب فيه سهلا واضحا، بعيدا كل البعد عن أى غموض أو تقعر «١».

و سوف نحاول فيما يلى أن نقدم دراسة موجزة لهذا الكتاب إن شاء الله.

المنهج المتبع فى الكتاب:

لم يكن الكاتب ميالا إلى التقعر، و الإيغال فى غريب المفردات اللغوية، إنما كان ديدنه التسهيل و التوضيح كى يكون الكتاب مناسبا للمستويات المتباينة.

راعى المؤلف فى شرح آيات الأحكام الإمام فى تلك الآيات، و ما تحتويه من حكم و أحكام و ما فيها من بعض نواحي البلاغة، و وجوه الإعراب بقدر ما يفى بحاجة الطالب، و يشبع رغبة القارئ على ألا تبلغ حد الإسهاب، و لا تقف عند الإيجاز ... «٢».

كان المؤلف عند ما يتناول نصا قرآنيا يعمد إلى:

١- شرح المفردات شرحا واضحا، وقد يذكر أصول المفردة من الناحية الصرفية، و يتكلم على حروف الزيادة و حروف الحذف فيها إن كان ذلك موجودا. و إذا وجد حاجة ذكر بعض وجوه الإعراب خاصة المساعدة على فهم النص.
ثم يقدم تلخيصا وافيا للمعنى العام للآيات الكريمة، و بعدئذ يذكر الأحكام الشرعية الفقهية التى تؤخذ من هذا النص و تنبثق عنه.
و يعمل المؤلف على متابعة الآراء الفقهية، و يعمل على دراسة أدلتها، للخلوص إلى رأى فى الموضوع الذى تم بحثه .. أو يراد بحثه. مسلطا الأضواء على الآراء المتباينة، عارضا أدلة كل من هذه الاتجاهات الفقهية المذهبية.
ثم يذكر أدلة الفقهاء من الأحاديث النبوية المساعدة على توجيه الفهم نحو السداد و الصواب.
و بهذه الطريقة يجعل صاحب تفسير آيات الأحكام القارئ أمام المسألة الفقهية وجها لوجه .. و يعلمه كيف نشأت المسألة الفقهية، و كيف تطورت حتى صار لدينا هذا الثراء الفقهى العظيم. (١) انظر كلمة الناشر فى الجزء الأول، ص (٥).
(٢) كلمة المصححين، فى الجزء ١١، ص (١٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧٣

ألف تفسير آيات الأحكام فى أربعة أجزاء ضمنا فى مجلدين اثنين:

كانت الموضوعات الأولى من الكتاب متضمنة موضوعات كتب حولها العلماء الأوائل الكثير و أخذت وقتا غير قليل من جهودهم دون أن يؤدي ذلك إلى قول حاسم أو حكم قاطع مثل: تعليم آدم عليه السلام المسميات أو اللغات. و من ثم تطرق الكتاب إلى أصل اللغة هل هى توقيف أو تواضع و اصطلاح، ليتتهى الكتاب إلى رأى ليس جديدا بكل تأكيد يقول: إن «اللغة تواضع و اصطلاح، و ليس معنى ذلك أن فردا أو أفرادا وضعوا اللغة تامه و علموها الناس، و إنما المعنى أنها عمل جمهورى يبدو صغيرا، ثم ينمو و يتلاحق، و يزيد متأخر على متقدم، و كلما دعت الحاجة وضعوا جديدا» (١)، و هذا ما يتفق مع آراء ابن جنى و أبو على الفارسي (٢).

رأى الكتاب فى النسخ و المنسوخ:

الحق أن النسخ و المنسوخ من مباحث علم أصول الفقه، إنما أدرجها المؤلفون فى تفسير آيات الأحكام نظرا للصلة الوطيدة بين بحث النسخ و المنسوخ و استقرار الأحكام الشرعية على الحالة التى آلت إليها ... ثم إن الخلاف فى النسخ يورث اختلافا فى الأحكام. و المؤكد: أن الخلاف فى أصول الفقه جملة ينشأ عنه خلاف فى الحكم الشرعى.
يعرف الكتاب: النسخ: على أنه رفع للحكم الشرعى بدليل شرعى آخر (٣).
و يقول: أجمع المسلمون على وقوعه، و لم يخالف إلا أبو مسلم الأصفهاني (٤).
و فيه يشتّم أن المؤلف يقول بجواز نسخ القرآن بالسنة لقوله: «على أنه قد وقع نسخ القرآن فى آية الوصية بحديث «و لا وصية لوارث» (٥). و قد ذكر الخلاف فى ذلك و على رأس المخالفين لهذا الرأى الإمام الشافعى رحمه الله تعالى. (١) محمد على السائس و زملاؤه، تفسير آيات الأحكام، (١ / ٥٩).

(٢) راجع السيوطى فى المزهرة، ت محمد أحمد جاد المولى، على محمد البيجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم، (١ / ٨ - ١٠).

(٣) محمد على السائس، تفسير آيات الأحكام، (١ / ٧٨).

(٤) هو محمد بن بخرت (٣٢٢ هـ).

(٥) محمد على السائس، تفسير آيات الأحكام، (١ / ٨٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧٤

الموقف من إعجاز القرآن:

يرى المؤلفون «لتفسير آيات الأحكام» أن القرآن معجز بنظمه و أسلوبه و الأدلة على إعجازه كثيرة: منها: أن القرآن لم يعارض معارضة جدية [و إنما من عارضه كان سخيفا مضحكا، كمعارضة الكذاب مسيلمه و غيره .

أن العرب أخفقوا أمام تحدى القرآن لهم إذ تحداهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله. و هم أصحاب الصنعة البليغة الفصيحة!.

و إعجازه من وجوه:

١- اشتماله على النظم الغريب، و الوزن العجيب، و الجزالة التى ترق لها القلوب، و كلام خصوم القرآن عن القرآن لشاهد قاطع، إذ قال عما يتلوه محمد من القرآن:

«و الله إن لقوله [قول محمد من القرآن الذى يقوله لحلاوة، و إن عليه لطلاوة، و إنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، و إنه ليعلو و ما يعلى» (١).

٢- تقاصر بلاغة البلغاء قبل نزول القرآن و بعد نزوله.

٣- إعجازه الغيبى عن الماضى و المستقبل.

٤- سلامته مع طوله من التعارض و التناقض و الاختلاف و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٢).

٥- اشتماله على كثير من آيات الله فى جميع أنواع المخلوقات، و تحقيق الحقائق العلمية مثل قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) (٣).

و لعل كتاب «تفسير آيات الأحكام» أبرز موقفه من الإعجاز، ليؤسس الإيمان الكامل لدى القارئ أن هذا القرآن من عند الله ليتلقى أحكامه بالرضا و القبول.

الموقف من آيات الصفات فى تفسير الأحكام:

تطرق مؤلفو الكتاب إلى صفة الاستواء عند إتيانه على قوله تعالى: (١) محمد على السائس، تفسير آيات الأحكام، (١/ ٤٤).

(٢) سورة النساء، الآية: (٨٢).

(٣) سورة الحجر، الآية: (٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧٥

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) «١».

(ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ): الاستواء فى اللغة: الاعتدال و الاستقامة، و يطلق على الارتفاع و العلو على الشىء. قال تعالى: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ «٢» و قال:

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ «٣» و هذا المعنى المناسب .. و قد يطلق الاستواء بمعنى الاستيلاء، قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق بغير سيف و دم مهران «٤»

و لما كان معنى العلو و الارتفاع إلى السماء يوهم الجسمية و المكانية أمسك السلف عن التعرض لتفسير الاستواء هنا، و فى مثل قوله

تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) «٥»، فأوجبوا الإيمان بها إجمالاً من غير تعرض لمعناها، و خالفهم آخرون «٦»، و كأنه يشير

إلى مخالفة علماء الكلام الذين قالوا: الاستواء أى: الاستيلاء، قال صاحب تفسير آيات الأحكام: «و لكن الاستيلاء لا يظهر معناه هنا»

(٧). و هذا ما يشعر أن السائس و زملاءه ممسكون عن تفسير الاستواء كما فعله السلف من قبل.

و لكن السائس و زملاءه لم يشنعوا عن من خالفهم و لم يبدعوهم، أو يفسقوهم و هذه نظرة حسنة، و رؤيته عاقلة، لأن الذين تأولوا كانوا المالكين لشروط الاجتهاد و البحث، و لا يشك فى مقاصدهم الحسنه التى أرادت تنزيه الله عن المشابهة لمخلوقاته و الله أعلم. و بعد هذه النقاط التى بحثناها كان لا بد من دراسة منهج الكتاب الذى اتبع فى تفسير آيات الأحكام:

- ١- يبدأ المؤلف بشرح المفردات.
- ٢- يربط الآيات بما قبلها إن كان هناك ما يدعو إلى ذلك كأن تكون علاقة معنوية بين الآيات التالية و السابقة مما يوجه الاستدلال توجيهها يساعد على الوصول إلى الصواب. (١) سورة البقرة، الآية: (٢٩).
- (٢) سورة المؤمنون، الآية: (٢٨).
- (٣) سورة الزخرف، الآية: (١٣).
- (٤) لم يظهر لى من متابعة المراجع التى توردها هذا البيت من قائله!!
- (٥) سورة طه، الآية: (٥).
- (٦) محمد على السائس، تفسير آيات الأحكام، (٢/ ٥٠).
- (٧) المصدر نفسه، (٢/ ٥٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧٦

و قد يذكر الآراء المتعددة المختلفة الواردة فى المسألة الواحدة، و أحيانا يتجه إلى ترجيح واحد من الآراء التى رأى أن الأدلة تميل معها و إليها. و نضرب مثالين لتغطى منهجية المؤلف فى كتابه (المدروس):

١- الوسطية و الاعتدال فى أمة الإسلام:

قال تعالى: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا «١».

١- ربط الآية بما قبلها:

«جاء فى الكتاب العزيز اعتراضا بين كلامين متصلين وقعا خطابا للنبي صلى الله عليه و سلم استطرادا لمدح المؤمنين بوجه آخر، بعد مدحهم بالهداية، أو تأكيداً لرد الإنكار بأن هذه الأمة و أهل هذه الملة شهداء عليكم يوم الجزاء، و شهادتهم مقبولة عندكم، و فى كتبكم ما يشير إلى ذلك، فأنتم أحق باتباعهم و الاقتداء بهم، فلا وجه لإنكاركم عليهم. بعد هذه الأفكار حول الآيات السابقة يشرح المفردات فى الآية محل الشاهد: (الوسط): الخيار أو العدول.

التفسير: جعل بعضهم الكاف للتشبيه و ذكر فى اسم الإشارة و جهين:

الأول: أنه راجع إلى معنى يهدى، أى كما أنعمنا عليكم بالهداية، كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم أمة وسطاً».

و الثانى: كما جعلنا قبلكم و هى الكعبة أفضل القبل مع تساوى الجهات جعلناكم أمة وسطاً مع تساوى الخلق فى العبودية.

و يرى بعضهم أن الكاف مقحمة للمبالغة و محلها فى الأصل النصب على الوصفية لمصدر محذوف و أصل التقدير: جعلناكم أمة وسطاً جعلاً كائناً مثل ذلك الجعل، فقدّم على الفعل لإفادة القصر و أقحمت الكاف، فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتاً له، أى ذلك الجعل البديع جعلناكم لا جعلاً آخر أدنى منه.

(وسطاً): يقال: جلست وسط القوم- بتسكين السين- و جلست وسط الدار بالتحريك و الضابط فى ذلك أن كل موضع صلح فيه

(بين) فهو (وسط) و إن لم يصلح فيه بين فهو (وسط) و الوسط فى الأصل: اسم لما تستوى نسبة الجوانب إليه، ثم استعير للخصال (١)

سورة البقرة، الآية: (١٤٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧٧

البشرية المحموده لكونها أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفى الإفراط و التفریط، كالجود بين الإسراف و البخل، و الشجاعة بين الجبن و التهور، ثم أطلق على المتصف بها إطلاق الحال على المحل، و لذلك استوى فيه الواحد و الجمع لأنه كما قلنا اسم جامد فلا تعتبر مطابقتة، و لما كانت العدالة جماع هذه الصفات سميت وسطا، قال زهير:

هو وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

و قيل الوسط: الخيار، و يؤيده قوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «١» و الأمة المحمدية وسط المفرطين و المفرطين، فلا هم كالتنصاري جعلوا الرسول إلها و لا كاليهود قتلوا الأنبياء، و كذبوا الرسل، و بدلوا الكتب، غير أن الأنسب بقوله: لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ أَنْ يَرَادَ بِالْوَسْطِ: الْعَدُولُ «٢».

و قد يوشى المؤلف تفسيره آية الأحكام بفوائد بلاغية أسلوبية، و يعلل تعليقات نافعة، و إن لم يكن لها علاقة بمآل الحكم ... إنما استنباطات تجعل القارئ المطلع أشد إحاطة بعظمة البيان القرآنى و أدائه البديع و فيما يلي دراسة لمثال واحد من آيات الأحكام ذات الصلة:

قال تعالى: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ «٣».

(الزنى): مقصور فى اللغة الفصحى، و هى لغة الحجازيين. و قد يمد فى لغة أهل نجد.

و الزنى من الرجل و طء المرأة فى قبل من غير ملك و لا شبهة ملك، و الزنى من المرأة تمكينها الرجل أن يزنى بها .. «٤».

(و الجلد بفتح الجيم): ضرب الجلد - بكسرها - و قد جاء صوغ فعل مفتوح العين من أسماء الأعيان فيقال: رأسه، و ظهره و فؤاده، و حسه: إذا أصاب رأسه و ظهره و بطنه و فؤاده و حسه ... و جوز الراغب أن يكون معنى جلده: ضربه بالجلد، مثل عصاه: ضربه بالعصا. و سافه: ضربه بالسيف، و رمحه: طعنه بالرمح.

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا): شروع فى تفصيل الأحكام التى أشير إليه فى قوله:

«و فرضناها» و الرفع فى قوله جل شأنه: «الزانية» عند سيويوه و الخليل على أنه مبتدأ خبره (١) سورة آل عمران، الآية: (١١٠).

(٢) محمد على السائس، تفسير آيات الأحكام (١/ ٩٥-٩٧).

(٣) سورة النور، الآية: (٢).

(٤) محمد على السائس، تفسير آيات الأحكام، مج (٣)، (٢/ ٢٠٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٧٨

محذوف، و الكلام على حذف مضاف، و التقدير: ما يتلى عليكم فى حكم الزانية و الزانى، و يفهم من كلام سيويوه فى الكتاب: أن المنهج المألوف فى كلام العرب إذا أرادوا بيان معنى و تفصيله اعتناء بشأنه - أن يذكروا قبله ما هو عنوان و ترجمة له، و هذا لا يكون إلا بأن يبنى الكلام على جملتين «١».

و هنا يكشف لنا المؤلف عما ظهر له من الحكمة [و ربما قد سبقه غيره بذكر هذه الحكمة] من تقديم النص القرآنى الزانية على الزانى و السارق على السارقة فيقول:

«إن الزنى من المرأة أقبح، فإنه يترتب عليه تلطيخ فراش الرجل، و فساد الأنساب، و عار على العشيرة أشد و أزم، و الفضيحة بالحمل منه أظهر و أدوم، فلهذا كان تقديمها على الرجل أهم» «٢» [و يمكن أن يقال: و لو لا رضا المرأة بتمكينها الرجل من نفسها لصعب الزنى .

و أما السرقة فالغالب وقوعها من الرجال، و هم عليها أجرأ من النساء و أجدد و أخطر فقدّموا عليهن لذلك» «٣».

الآية نزلت فيهن، و كذلك أخرج العبيد لأنه لا فرق بين الذكر و الأنثى بتحقيق المناط.

و قال بعض أهل الظاهر عموم قوله تعالى: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي يُقْتَضَى وجوب المائة على العبد و الأمة، إلا أنه ورد نص بالتنصيف فى حق الأمة، فلو قسنا العبد عليها لزم تخصيص عموم الكتاب بالقياس، يعنى و هم لا- يقولون به. [لا يقولون بالقياس على أنه مصدر من مصادر التشريع . و من الظاهرية من قال: الأمة إذا تزوجت فحدّها فى الزنى خمسون جلده لبقوله تعالى: فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِذَا لَمْ تَتَزَوَّجْ فَحَدَّاهَا مائة جلده للعموم فى كلمة الزَّانِيَةُ.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٣٨٠

و قد ردّ جمهور الفقهاء هذين الرأيين بما سلف لك هنا، و بما أوردناه فى سورة النساء «١».

الزانية و الزانى يشمل المسلم و غيره:

تشتمل آية الزانية و الزانى المسلم و الكافر [المعاهد الذى رضى الإقامة بدار الإسلام غير أن الكافر الحربى المحارب لدار الإسلام لا سلطان لنا عليه، و لم يلتزم أحكام وطن المسلمين، و لم تنله يدنا] و بقى العموم فىمن عداه من المسلمين و أهل الذمة، و بهذا قال جمهور الفقهاء.

و روى عن مالك إن الذمى لا يجلد إذا زنى: قيل: و هو مبنى على أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة» «٢».

أما فى حكم التغريب بعد الجلد:

فقد تمسك أبو حنيفة بظاهر النص القرآنى، و اعتبر التغريب عقوبة بإمكان الإمام إنفاذها لأنه من العقوبات التعزيرية. أما مالك و الشافعى و أحمد و الثورى و الحسن بن صالح فقد ذهبوا جميعا إلى أن التغريب من تمام الحد على تفصيل ذلك يعرف من كتب الفروع [أى كتب أمهات الفقه .

أدلة الخوارج المنكرة للرجم:

و كنا قد وعدنا القارئ تناول أدلة الخوارج المنكرة للرجم:

استدل الخوارج على أن الرجم غير مشروع بثلاثة أدلة.

الأول: إن الله تعالى قال فى حق الإمام: فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصِنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ «٣» فجعل حد الإمام نصف حد المحصنات من الحرائر و الرجم لا ينتصف، فلا يصح أن يكون حدا للمحصنات من الحرائر.

و الثانى: أن الله تعالى فصل أحكام الزنى و أظن فيها بما لم يطب فى غيرها، (١) راجع تفسير آيات أحكام سورة النساء «أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (٢) محمد على السائس، تفسير آيات الأحكام، مج (٢)، (٣/ ٢٠٨- ٢١٠).

(٣) سورة النساء، الآية: (٢٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٣٨١

و الرجم أقصى العقوبات و أشدها فلو كان مشروعا كان أولى بالذکر.

و الثالث: أن قوله تعالى: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مائة جلده يقتضى وجوب الجلد و عمومه لكل الزناة، و إيجاب الرجم على بعضهم يقتضى تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد، و هو غير جائز على مذهبهم.

الرد على أدلة الخوارج:

الرد على الأول: أن المراد بالمحصنات فى قوله تعالى: **فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ** الحرائر، و الحرائر نوعان: ثيبات و أبكار، و حد النوعين على التوزيع الرجم، و جلد مائة.

و لما كان الرجم لا يتنصف كان العذاب مخصوصا بغير الرجم [أى مخصوصا بالجلد]. للدليل العقلى، و كان الرجم غير مشروع بحق الأرقاء.

و الرد على الثانى: بأن الأحكام الشرعية كانت تنزل بحسب تجدد المصالح فلعل المصلحة التى اقتضت وجوب الرجم حدثت بعد نزول هذه الآيات و كفى بالسنة و وظيفتها البيان.

و الرد على الثالث: بأن تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد جائز عندنا لأن اللفظ العام فى القرآن الكريم و إن كان قطعيا فى متنه ظنى فى دلالة، فأمكن تخصيصه بالدليل المظنون، و إن سلمنا أن خبر الآحاد لا يخصص القرآن فلا نسلم أن الرجم ثبت بطريق الآحاد، بل هو ثابت بالتواتر.

رواه أبو بكر و عمر و على رضى الله عنهم و جابر و أبو سعيد الخدرى و بريدة الأسلمى، و زيد بن خالد فى آخرين من الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، فهو على الأقل متواتر المعنى كشجاعة على وجود حاتم. و الآحاد إنما هى فى تفاصيل صورة و خصوصياته، و الخوارج كسائر المسلمين يوجبون العمل بالمتواتر معنى كالتواتر لفظا إلا أن انحرافهم عن الصحابة، و تركهم التردد على علماء المسلمين و الرواة منهم أوقعهم فى جهالات كثيرة، و لقد عابوا على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه القول بالرجم و قالوا: ليس فى كتاب الله فألزمهم بأعداد الركعات [أى لا يوجد فى كتاب الله عدد ركعات الصلاة] و مقادير الزكاة فقالوا ذلك من فعله صلى الله عليه و سلم و فعل المسلمين. فقال عمر: و هذا أيضا كذلك» «١». (١) محمد على السائس، تفسير آيات الأحكام، مج (٢)، (٣/ ٢١١، ٢١٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٨٢

الحديث فى تفسير آيات الأحكام:

تجنبنا للإطالة: فيما أسلفنا من دراسة لنماذج فقهية، و تفسيرية رأينا اعتماده على الحديث الشريف اعتمادا يتنا ملبوسا، و هذا ما يتسق مع المنهج البحثى الإسلامى الصحيح، و لعل ما زاد هذه الطبعة ثباتا علميا و رفعة تخريج الأحاديث و ذكر رتبها مع عزوها إلى مصادرها الأصلية.

اللغة فى تفسير آيات الأحكام:

اللغة سلسلة سهلة، واضحة، تجعل القارئ مقبلا على قراءة آيات الأحكام، لسهولة الفهم، و لشعوره بالفائدة الملموسة عند انتهائه من قراءة كل موضوع أو كل فقرة.

و زاد النفع الأسلوب المنظم فى عرض الآراء مقترنا بلغة مفهومة مناسبة للغة العصر الذى نحن فيه، و لعل حسن المؤلف أتى من تبسيط المعلومة و تقديمها بلغة العصر الحال.

الخاتمة:

كان هذا التفسير «تفسير آيات الأحكام» من التفسيرات المبكرة التى استفادت من الأعمال المشابهة قبله و الممهدة لما بعدها من أعمال مشابهة، و ذكرت بضرورة التبسيط لجعل الأحكام الشرعية فى المتناول الميسور و السهل.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٨٣

الفصل السادس التفسير الإشارى

إشارة

- المنح الفاخرة فى معالم الآخرة لمحمد شاکر الحمصى المصرى.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٨٥

المنح الفاخرة فى معالم الآخرة لمحمد شاکر الحمصى المصرى

حياة المؤلف:

المؤلف هو محمد شاکر بن محمد بن على شاکر الفيومى المصرى الحمصى. ولد فى حمص سنة (١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م).

علومه:

تلقى على يد والده مبادئ القراءة و الكتابة، ثم تعلم اللغة التركىة فى المدرسة الرسمیة العثمانیة الرشیدیة على يد الشيخ مصطفى الترك.

ثم سلك طريق العلم فى زمرة طلاب جامع البازرباشى فى حمص، و ذلك فى سنة (١٣٠٧ هـ).

شيوخه:

أخذ عن الكثيرين من علماء عصره كالشيخ عبد الغنى السعیدى، و الشيخ عبد الساتر الأتاسى و الشيخ أحمد الصافى، و الشيخ محمد المحمود الأتاسى و خالد النقشبندى، و أحمد الطوزقلى، و حسين الخطيب الطيبانى و غيرهم «و ذكر قسم من هؤلاء فى تفسيره الآیة (١٢٠) من سورة النحل.

لقد كان الشيخ متفتحا إلى الثقافة و العلوم الحديثة إذ طالعا مطالعة جيدة، و وظيفها توظيفا حسنا فى «تفسيره» الذى ستتحدث عنه إن شاء الله.

قرأ كتاب «الدورة الدمویة» لفان ديك و غيره من كتب العصر الحديث.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٨٦

طريقته الصوفیة:

سلك محمد شاکر بن محمد شاکر الحمصى الطريقة النقشبندیة، و لازم المشهور محمد سليم خلف رحمه الله سنين عديدة، فأحب الشيخ سليم محمد شاکر الحمصى و قرّبه، و جعل الشيخ محمد سليم من محمد شاکر الحمصى كاتبه الوحيد لكل ما يحتاج إليه

السالكون، وقرأ على الشيخ محمد سليم علم التصوف وغيره .. كما كتب بعهدده بعض المسائل المتعلقة بالطريقة النقشبندية - وقد أشار المؤلف فى تفسيره هذا إلى شيخه عددا من المرات.

المناصب التى تولاها:

تولّى وظيفة الإمامة و الخطابة و التدريس فى جامع مصطفى باشا الحسينى بحمص سنة (١٣٢١ هـ)، و تسلّم وظيفة محرر ديوان الرسائل لمقام محافظ حمص، و عين عضوا علميا فى دائرة أوقاف حمص، و أستاذا فى المدرسة العلمية الوقفية فى حمص. رحل إلى دمشق، و كان شيخه سليم يقول له: «أنت فى آخر عمرك تسكن الشام» فأقام فيها بضع سنين و درّس فيها فى جامع سنان باشا ... و لكنه ما لبث أن عاد إلى حمص و ظل بها إلى أن توفاه الله فيها صبيحة يوم الجمعة ١٢ شوال (١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م) و دفن فى مقبرة باب تدمر بالكثير الأحمر.

أهم مؤلفاته «١»:

- ١- تفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، و قد فرغ من تصنيفه يوم الأحد فى ٢٤ ذى القعدة ١٣٦٢ هـ. و يزيد على خمس مائة صفحة و طبع بدمشق سنة ١٩٧٢ م.
 - ٢- لكل نبأ مستقر: و هو تفسير يقع فى ١٠٠٠ ورقة فصل فيها أحوال الآخرة و مواقفها مرحلة مرحلة.
 - ٣- الفتوحات الربانية فى الوقائع الحشرية.
 - ٤- المنهج الأقدس فى تحقيق الكلام الأقدس.
 - ٥- الجواب المنضود على قول بعضهم: أنت الوجود. (١) حياة الشيخ و مؤلفاته و كل ما يتعلق بشخصه أخذناها من مقدمته كتابه المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (١ / ١١، ١٢).
 - التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٨٧
 - ٦- رسالة تجويد فى القرآن.
 - ٧- رسالة فى الإملاء العربى.
 - ٨- رسالة فى الفرائض.
 - ٩- قصائد و منظومات شعرية و خطب منبرية.
 - ١٠- المنح الفاخرة فى معالم الآخرة الذى هو موضوع درسنا فى هذا الكتاب.
- عدا عن بعض المؤلفات الأخرى ...

عنوان الكتاب: المنح الفاخرة فى عوالم الآخرة:

إن هذا العنوان يوحى للقارئ الكريم بجمال السجعة و لطافتها، و ميل المؤلف إلى طريقة القدماء فى تسمية كتبهم - و هذا الميل على ما يبدو ليس ميلا شكليا يكتفى بتسمية الكتاب و لكن يمثل نزوعا حقيقيا إلى كل ما هو قديم قد يتحول أحيانا إلى حب مؤصل فى النفس يجعله يحاول أن يثبت صحة آراء هؤلاء القدماء بما قدمته الحضارة الحديثة من طائرات و سيارات و غواصات «١».

سبب تأليف الكتاب:

لقد فسّر محمد شاکر بن محمد شاکر المصرى الحمصى «الجزء الثلاثين» من القرآن الکریم، وقرأه على بعض أولاده فرغب الولد إلى والده أن یؤلف تفسیرا للقرآن كاملا على الطریقه ذاتها التى فسّر فیها المؤلف (جزء عمّ) أو الجزء الثلاثین. ذلك أن الولد شعر بدنو أجل والده إذ بلغ من العمر عتیا- و الواقع أن الشیخ لم یبلغ سورة الفرقان فى مشروعہ التفسیری هذا حتى أصیب بالعمى مما اضطره إلى اختصار التفسیر «٢».

قال الشیخ محمد شاکر الحمصى: «و لما طالع [أى الولد] تفسیر الجزء الثلاثین و سطع نوره الوقاد، و لاح له أن الناس بحاجه کلیه لبيان ما أجمل من آیات القرآن الأخریة، ثم لما تدبر ما هنالك، و أدرك شدة المسالك، و رأى ما دهمنى من عجز الكبر، و عوارض الكدر، رغب إلى و هو یعزّ على، أن أختصر على جمع أشتات ما كنت كتبت على بعض الآيات ثم أضمت إليها أقصر تعليقات، و أوجز تفصیلات ..» «٣». (١) انظر مقدمه ریاض عبد الحمید مراد من المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (١٦/١).

(٢) مقدمه الكتاب لریاض عبد الحمید مراد، مج (١)، ص (١٥).

(٣) المصدر نفسه.

التفسیر و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٨٨

لمنح الفاخرة فى أحوال الآخرة، لما ذا؟

قد يتساءل الباحث أو القارئ: لما ذا لم یسم المؤلف كتابه «منح الرحمن فى تفسیر القرآن» و سماه «المنح الفاخرة فى أحوال الآخرة». الواقع أن كتاب «المنح الفاخرة فى أحوال الآخرة» لا یعدّ تفسیرا بالمعنى الصحیح للتفسیر .. لما ألفنا أن المفسر یفسر الآيات الکریمه کلها و ترتیب السور الواردة فى المصحف الشریف.

فى حین أن الشیخ محمد شاکر بدأ بتفسیر «جزء عمّ» الذى صدر فى عام (١٩٤٣ م) ثم عاد لیفسر القرآن حسب ترتیبه التوقیفی. هذا أمر، و هناك أمر آخر و هو أنه لا- یفسر کل الآيات القرآنیة، و إنما یختار من كل سورة الآيات التى تخص موضوع الآخرة، و ترك الآيات الأخرى لأن المفسرین القدامى قد وفوا الغرض.

یقول الشیخ معللا ذلك: «و قد رأیت أسیادی المفسرین قد أهملوا ذلك فیما أعلم و سکتوا عن تنسیقه على سنن المثنائى المحکم [أى أهملوا الآيات المتضمنة لموضوع عوالم الآخرة].»

«و لم أر فى علماء هذا العصر من التفت لسد ثغرة هذا الأمر. لذلك أصبح كالواجب علیّ بیانہ» «١».

و یقول صاحب المقدمة: «و یدو أن هذا الاتجاه- أقصد التفسیر الحشرى للقرآن الکریم- قد سلکة المؤلف فى أكثر كتبه التى تتعلق بتفسیر آیات القرآن الکریم» «٢».

مصادر المؤلف فى كتابه المنح الفاخرة فى عوالم الآخرة:

مصادره:

١- الکتب: و هى تشمل:

أ- التفاسیر الأخرى: و بخاصة تفسیر ابن کثیر، و روح المعانی للآلوسى، و تفسیر الخازن ... الخ. (١) مقدمه الكتاب لریاض عبد الحمید مراد، (١٧/١، ١٨)، بتصرف.

(٢) المصدر نفسه، ص (١٨).

التفسیر و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٨٩

ب- كتب الحديث: كصحيح البخارى، و صحيح مسلم، و سنن الدارمى، و سنن ابن ماجه و سنن أبى داود، و مسند الإمام أحمد، و الفتح الكبير، و ذخائر المواريث، و الجامع الصغير و غيرها كثير.

ج- كتب أخرى: ككتاب الإشاعة، و حاشية الباجورى على الجوهره، و كتاب الروح لابن القيم، و كتاب التذكرة و اليواقيت، و الأنوار المحمدية، و غيرها.

٢- مشايخه:

من مصادره: المشايخ و هو المصدر المعتمد بعد التفاسير و كتب الحديث الشريف.

و قد ذكر منهم أربعة:

- الشيخ خالد النقشبندى، و الشيخ أحمد الطوزقلى، و الشيخ محمد سليم خلف.

و حسين الخطيب الطيبانى ..

غير أن أكثر هؤلاء المشايخ ذكرا فى كتابه هذا هو الشيخ محمد سليم خلف فهو ينقل عنه أقواله، و أحواله، و آراءه، فمن ذلك قوله: «بما أن قوة نور القلب وسعته تتبع مرتبة إخلاص نيته و آداب طويته، لذلك كان فوق كل ذى علم عليم، و كان منهم من تكون دائرة مشكاته من حوله بضعة أذرع و يسمى عند العارفين قطب نفسه، و منهم من يحيط نور مشكاته ببلده و يسمونه قطبا على بلد، و منهم من يحيط نور مشكاته بقطره و يسمى قطبا على قطر، و منهم من يحيط نور مشكاته بسائر الكرة الأرضية و يسمونه قطب الدائرة، و يشير لهذا قول سيدنا عمر: «يا سارية الجبل» كذا أفادنى سيدى محمد سليم قدس الله سره الكريم» (١).

٣- التجربة الشخصية:

من ذلك هذه الحادثة التى حدثت للمؤلف شخصيا، قد أوردها فى تفسيره لقوله تعالى: «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ» (٢)، و قد ذكر حادثة سماها «إصابة العين» إذ أن جارة نظرت إلى ولد له جميل و قد اهترت قزحية عين تلك المرأة، و إذ بالولد يصاب بمرض الحمى- و جاءت تلك المرأة مستفسرة عن حال الولد، و قد حاول الشيخ أن يبعد فكرة الإصابة بالعين غير أن تلك المرأة أكدت بقولها:

«أصيب، و أصيب»- و قد حدثته جدته أن أم تلك المرأة كانت عينها فتاكة أيضا» (٣). (١) انظر المقدمة، ص (١٩، ٢٠).

(٢) سورة القلم، الآية: (٥١).

(٣) انظر المقدمة، ص (٢٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٠

هذه تجربة حقيقة و صحيحة مطابقة للنصوص الشرعية ...

«العين تدخل الرجل القبر و تدخل الجمل القدر» و لعل الإصابة بالعين لون من ألوان الحسد الذى أمرنا أن نستعيذ من شروره «و من شر حاسد إذا حسد».

ميزات كتاب المنح الفاخرة فى معالم الآخرة:

هذا الكتاب موضوعه الأساسى «معالم الآخرة» فبذل جهدا ليس قليلا بجعل الآيات الواردة فى موضوع الآخرة متناسقة مرتبة كى تأتى مجتمعة موضحة لموضوع الآخرة و مشاهد القيامة، بتفصيلاته ... و بتوالى مراحلها.

و لم يكن الشيخ الحمصى بمنأى عن الاستشهادات التى تؤكد ما يذهب إليه من الكتب المقدسة التوراة و الإنجيل إذ يقول: «و من يتأمل ما فى الكتاب المقدس الذى بين يدى أهل الكتاب كالتشيه، و أشعيا، و أرميا، و حزقيال و الزبور، و يوحنا، و يرى ما فيها من صفات محمد صلى الله عليه و سلم على رغم تحريفاتهم المتواليه يعجب من أمرهم كيف يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض ...

و من نقوله عن الأنجيل: «سيقم لكم الرب من بنى إخوانكم نيا». و جاء فى أشعيا ص ٤٢: «هو ذا عبدى الذى أعدّه مختارى الذى سرت به النفس».

من مزايا هذا التفسير:

تفسير القرآن بالقرآن:

فهو عند ما يفسر آية من الآيات الكريمة يورد آيات كثيرة من سور كريمة أخرى تقصد معنى الآية المراد تفسيرها، و قد يكون فى هذه الآيات فوارق بالمعنى أو لا يكون.

* و ظهرت منهجيته المنسقة للآيات الكريمة المتشابهة:

إنه يورد الآيات المتشابهة فى فن واحد، و يعرضها بطريقة مرتبة كى تصبح بالموقع المناسب لإعطاء فكرة واضحة عن الموضوع الذى يتناوله المؤلف.

بذا يظهر الموضوع مشتملا على نصوص الكتاب الكريم و ذلك من خلال ترتيب المؤلف للنصوص و إيرادها للآيات الكريمة المتشابهة.

و مثال ذلك:

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩١

«لما بينت هذه الآيات تنسيق كثير من أمور بدء الخلق و أجملت بعضها فضلها آيات و أحاديث أخر أوردنا بعضها منسقة فى كتابنا لكل نبأ مستقر ...

و فى تفسيرنا سورة النازعات، فلأجل زيادة الإيضاح عن لى أن الحق هنا بعض آيات أجعل عقيانها منظمة فيما بين درارى آيات الأنبياء لتمثل للمطالع عقدا تتجلى فيه مواضع الإجمال منها مزدانه ما فضيلها، فيشهد بعين العلم كيفية تنسيق أمور بدء الخلق أخذنا من الكتاب و السنة بصورة محسوسة، و إليك صور ذلك: أ و لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا «١».

* قُلْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) «٢» وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ «٣»، وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ «٤» وَ بَارَكْ فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ «٥».

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا «٦» ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

(١٢) «٧» وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَافًا مَحْفُوظًا «٨» وَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «٩». وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ «١٠» .. إلى

آخر الآيات التى حشرها مجتمعة فى نسق. (١) سورة الأنبياء، الآية: (٣٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: (٩).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٣٠).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: (٣١).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٩).

(٦) سورة فصلت، الآيتان: (١١، ١٢).

(٧) سورة البقرة، الآية: (٢٩).

(٨) سورة الأنبياء، الآيتان: (٣١، ٣٢).

(٩) سورة فصلت، الآية: (١٢).

(١٠) سورة الأنبياء، الآية: (٣٢). وانظر محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (٢/ ٨٥٢). وانظر المقدمة من (١) ٨٥٢، ٨٥٣.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٢

المعاصرة فى تفسير المنح الفاخرة فى معالم الآخرة:

إن المفسر توفى عام (١٩٥١ م) فإذا ما قسنا تطوّر العلوم فى منتصف القرن العشرين حتى نهايته، لكان الفارق كثيرا، و البون واسعا ... غير أن مع كل ذلك فإن تطورا علميا لا يستهان به قد جرى فى تلك الفترة .. لذا فإن المؤلف حاول أن يبث روح العصر العلمية السارية فى تلك الفترة فى ثنايا تفسيره هذا ... بهذا بدا تفسيره قديما حديثا و بدت الحداثة واضحة فيه مع تمسكه بالقديم الأصيل. فبدت استخداماته للمفردات الدالة على منجزات العصر مثل البرجكتور، و السينما و المذياع و الطائرات و الغواصات .. و لكن بطريقة موطّفة لخدمة الهدف الذى أراده و هو إعلاء شأن كتاب الله فى القلوب و العقول فى العصر الحاضر ... فاستخداماته المفردات العلمية لم تكن غليظة فجّة غير مقبولة، و بالإمكان أن تتصيد مثلا: يقول: «فتجلّت لديهم أفلام صحف سينما قبائحهم كاشفه عن سرهم و جهرهم، لا تغادر منهم صغيرة و لا كبيرة» (١). «و لأن النور النبوى يكشف البدر عن دقائق الأشياء كما يكشف المذياع عما انتشر فى بحر المنطقه الهوائية من الأصول الخفية تقريبا» (٢).

و يجب أن لا يخطر بالبال أن المعاصرة فى تفسيره مجرد ألفاظ فحسب، لا بل تتعداها إلى الأفكار و الآراء إذ يقول: *اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَىَ الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) (٣).

قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ) بأن ذلك و جعله على حاله يمكنكم الانتفاع به و لو أهاجه لتعدّر اقتحامه. (لَتَجْرَىَ الْفُلُوكُ) على اختلاف أنواعها (فيه) يعم ما يجرى على ظهره، و ما يجرى فى بطنه كالغواصات و نحوها، (بأمره): أى ياذنه متعلق بتجرى، و فيه دليل على أن ما فى الوسائل البحرية من الآلات الشراعية و الميكانيكية على اختلاف أنواعها، لا تسير البواخر، و لا الغواصات بذاتها و إنما هى أسباب عادية و مسيرهن الحقيقى هو الله تعالى وحده قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ (٤) و الاعتماد على متانة (١) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (١/ ٢٣)، المقدمة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة الجاثية، الآيتان: (١٢، ١٣).

(٤) سورة يونس، الآية: (٢٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٣

الباخرة و حسن أدواتها من دون الله أمر يستدعى غرقها و إتلافها فليحذر العاقل» (١).

الحروف المقطعة فى المنح الفاخرة فى معالم الآخرة:

تظهر الفقرة التالية نظرة المؤلف إلى تفسير الحروف المقطعة التى أنزلت فى بداية تسع و عشرين سورة من سورة القرآن الكريم: «قوله تعالى: (الم) افتتح تعالى الفاتحة الشريفة بالأحرف الظاهرة المحكمة [الحمد لله رب العالمين . و افتتح البقرة بالأحرف المتشابهة

إشارة إلى أن هذا الكتاب فتح لأهل الظاهر أبواب الهداية للعلوم الظاهرة، وفتح لخصوص المحبوبين معارج الهداية للعلوم الباطنة، فهو هدى للمتقين على سائر طبقاتهم فلا يحل أن يقال: (الم) و أمثاله لا معنى لها لأن كلام الله الأقدس منزّه عن اللغو و العبث بل على الأقل يجب أن تقول: الله أعلم بمراده» (٢).

قلت: بل جل السلف على هذا القول، غير أن المؤلف يرى «أن هذه الحروف المقطعة هي بالنسبة لأفهامنا من قبيل المعميات التي تكون فيما بين الملوك و ولاتهم تقريبا فلا يمكن أن يعقلها إلا من أوتى مفتاحها، و عنده مفتاح الغيب» (٣) و يرى المؤلف أن حظوظ الناس من معرفتهم بأسرار هذه الحروف المقطعة بقدر تقرب الله سبحانه لهم. لذا فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم أعطى من المعرفة بأسرارها أكثر من باقى المخلوقات ...

«و التجلى بالم البقرة، غير التجلى بالم آل عمران، و الم السجدة، و كذا التجلى بقوله حم الغافر غير التجلى بقوله حم «فصلت» و هكذا لأن لكل حرف من الكلام الذاتى مجلى يختص به، و من مراجعة أوائل السور و ما يتبعها من الآيات يلوح لك أن زكريا عليه السلام قد فتح له من هذا المنح الأقدس بقوله تعالى: كهيعص (١) ذِكْرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا (٢) (٤) و أن النبيين عليهم السلام فتح لهم بقوله تعالى: حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) (٥) و يرى أن علم النبى صلى الله عليه و سلم من بحار مجالى (١) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (٢/١٢٤٣) عند تفسيره أول سورة الجاثية. و انظر تفسير سورة المائدة، الآية: (١٢٥).

(٢) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة (١/٦٥).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٧٩).

(٤) سورة مريم، الآيتان: (١، ٢).

(٥) سورة الشورى، الآيات: (١-٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٤

الحروف المقطعة هو أكبر العلوم «فلا- تظن أن مبلغ علم زكريا عليه السلام من بحار مجالى (كهيعص) أو مبلغ علم النبيين من بحار مجال حم (١) عسق يساوى مبلغ علمه صلى الله عليه و سلم بأسرار هذه الحروف الجليلة» (١).

تحليل تمثيل الحق بما ينفع و تمثيل الباطل بزبد يدفع:

قال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) (٢).

«لما مثل سبحانه فى آية (١٦) الكافر بالأعمى و المؤمن بالبصير، و الكفر بالظلمات، و الإيمان بالنور، ضرب لنا مثلين للحق، و مثلين للباطل ليتجلى للعالم سرّ ذينك المثلين الآنفين فقال:

(أنزل من السماء) السحاب أو الفضاء الذى يجرى فيه السحاب لقوله تعالى:

فَيَسِيلُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ (٣) (ماء) مطرا كثيرا (فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ): أى سال الماء فى أودية: جمع واد و هو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة فهو مجاز عقلى من إسناد الشئ لمكانه و الأصل: سال الماء فى الأودية، و العدول عن الحقيقة إلى المجاز لمعنى لطيف لا يعلمه إلا الأولياء المقربون (بقدرها) أى: بقدر استعدادها لتلقى ما ينصب إليها.

(فاحتمل السيل زبدا رابيا) مرتفعا يربو على وجه السيل شيئا فشيئا كالرغوة التى تعلق وجه القدر عند غليانه، و قد تمّ المثل الأول و يحسن حمل (السيل) على ما نزل من الهدى فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم و حمل (الزبد) على ما انتشر هنالك من لفظ

الكفرة و لغط المنافقين» (٤).

و المثل الثانى: قوله تعالى: وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ (من) لابتداء الغايه أى و يخرج مما يوقدون عليه فى النار، أو تبعية أى: و بعض ما يوقدون عليه فى النار، و صيغه المضارع لإفاده استمرار الإيقاد على المعدن (اِئْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ) كالذهب و الفضة (أو متاع) كالحديد و غيره (زبد مثله) أى مثل زبد السيل فى كونه يعلو على ما خالطه و هو ما يرفعه الصهر أو ينفيه الكير من الخبث المخالط للمعدن. (١) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (١/٦٦).

(٢) سورة الرعد، الآية: (١٧).

(٣) سورة الروم، الآية: (٤٨).

(٤) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (١/٦٠٨، ٦٠٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٥

(كذلك) المذكور من الأمور الأربعة (يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) فى مثلها فمثل الحق فى الأول الماء و فى الثانى الجوهر الخالص. و مثال الباطل فى الأول زبد الماء و فى الثانى زبد المعدن و خبثه.

قوله تعالى: (فَأَمَّا الزَّبَدُ) الرابى على سطح الماء و الممتاز على أعلى المعدن حال تحليله فى التفصيل لف و نشر مشوش مناسبة لتشويش البازل و طيشه و ترفعه فى الحس الظاهر على الحق الرزين (فَيَذْهَبُ جُفَاءً) أى: باطلا لا ثبات له و لا خير فيه.

(وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ) من الماء الصافى و الجوهر الخالص (فَيَمُكُّهُ فِي الْأَرْضِ).

أى يستقر و لا- يزول فيكون من الماء أنهار و عيون و آبار و ما يتغذى به الزرع و الأشجار البادية على وجه الأرض. و ما تتحول به الأشجار المدفونه إلى فحم حجرى و مادة بتروليه و غير ذلك، و يكون من الجوهر الثابت فى مواطن التحليل الصناعيه و الطبيعیه ما يستعملونه حليه أو متاعا كالذهب و الحديد و الزفت و الفحم الحجرى و الفلز النافعه...» (١).

و نلاحظ مما سبق كيف أن المؤلف تحدث عن المسائل العلميه التى يمكن استنباطها و استنتاجها من الآيات الكريمة.. و هذا يكشف عن تأثره بدراسه للعلوم الحديثه.

الجانب الصوفى فى المنح الفاخرة فى معالم الآخرة:

لقد رأينا شرح المؤلف للآيه من سورة الرعد قبل هذه الفقره.

و الآن يستنبط بعضا من المسائل الصوفيه النورانيه و ذلك من الآيه السابقه نفسها:

و يعقب على شرح ما سبق فيقول:

و تحت ما ذكر وجوه نذكر منها ثلاثه أوجه:

١- يحتمل أن يكون فى هذا مثل أناس من كمله العارفين قام لديهم غافل جاهل يعترض و يعارض فأزاحوا بعزم فتوتهم الربانيه عن قلبه ران الجهل و زبد الغفلة فذهب جفاء و قادوه بإذن الله إلى معالم الحق بحكم و مَمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) «٢». (١) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (١/٦١٠، ٦١١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٨١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٦

وجوه الشبه:

«شبه سبحانه مطالع أنوار الفرقان بالسماء:

٢- و يحتمل أن يكون مثل أناس من العارفين أطلعهم الله تعالى على معرض أعمال العبد الحسنه منها و السيئه فأوا بعين بصائرهم صور الأعمال الحسنه بيضاء نورانية يرتفع سناها من قلوب المخلصين إلى سماء عليين بحكم و العمل الصالح يرفعهُ «١» .. و رأوا صور الأعمال السيئه سوداء ظلمانية تخط من قلوب عاملها هاوية إلى سجين بحكم إن كتاب الفجار لفي سجين «٢» فكان ظهور تلك الأعمال الظلمانية الباطلة فى صفاء دوائر أنوار قلوب العارفين أشبه بزبد طغا على صافى بحر من نور ثم نكس متلاشيا هاويا إلى سجين» «٣».

٣- (و يحتمل أن يكون مثلا لأناس من السالكين أمت بهم أثناء سيرهم بعض خواطر شهوانية فدفعوا بعزم الحزم فورا إلى الساحل و لم يركنوا لشيء منها فذهبت كأن لم تكن: إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون (٢٠١) «٤».)
*** ثم يستخرج وجوه شبه أخرى:

إذ شبه أنوار الهداية المتواصل بالمطر بجامع الإحياء فى كل [أى كما أن المطر يحيى الأرض و تدب الحركة و الرفعة فى حياة الناس كذلك الإيمان ينهض بسلك المؤمن، و يحسن من أساليب حياته مع المجتمع . قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ «٥» و شبه مراتب انتشاره فى قلوب المؤمنين على قدر استعداداتهم بانصباب الماء على الأودية بقدر استعداداتها كما شبه تفاوت مراتب استعدادات قلوب المؤمنين بتفاوت أحوال الأودية سعة و انخفاضها و مكانة.

و شبه ما يفيض من أنوار هديهم على قلوب السالكين فيحى الله به القلوب بعد موتها كما قال تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) «٦» بما فاض من الأودية على الأرض الجزر فأحيها الله بعد موتها. (١) سورة فاطر، الآية: (١٠).

(٢) سورة المطففين، الآية: (٧).

(٣) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (١ / ٦١١).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٢٠١).

(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٢٢).

(٦) سورة الأنعام، الآية: (٤٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٧

و شبه ما ربا على ذلك النور حالة فيضه و سيلانه من عوارض جهالة المريرين أو كدورات لمم خواطرهم التي محتها أيدي العناية بما ربا على السيل من الزبد الذى أذهبه الله جفاء كأن لم يكن ... «١».

بين يدى الساعة:

ذكر صاحب المنح الفاخرة فى معالم الآخرة و تحت عنوان: «ذكر بعض ما بين النفختين»: و على نهج المؤلف فى تفسيره هذا فإنه يجمع أو يحشر الآيات ذات الصلة بالحشر أو بيوم الساعة.

قال تعالى: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ بِيَدِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ بَاطِنًا عَلَى أَكْفِ الْحَامِلَاتِ وَقَرَأَ ظَاهِرًا لِتَسْتَوْفَى الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ حَقًّا. فَذُكِّنَا بَعْدَ أَنْ مَزَقْتَهُمَا عَوَامِلَ الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا، وَ قَنَابِلَ الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ فَحْوَى تَثْنِيَّةِ دَكِّهِمَا دَكَّةً وَاحِدَةً لَمْ تَحْتَجِ إِلَى ثَانِيَةٍ غَادَرَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً فَاتَّبَعَهَا مَدَلُولٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) «٢» إكمالاً لتحليل ذراتهما لاستخلاص دقائق أجزاء الحيوانات المتحجرة فيهما كما يؤخذ من قوله تعالى: * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) «٣».

قوله تعالى: **فَيَوْمَئِذٍ أَى: يوم وقوع تلك الدكة العظمى وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** النازلة من خزائن الريح الغيبية التى ستخفف الجبال و ترفع الوديان و تقضى بدكهما دكا و بفكك أجزاءهما فكا.

قوله تعالى: **وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ: ليدخل الريح النازل عليها من أعلى إلى قعرها فيدك الأرض و الجبال فهو رديف و فُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩).**

و قوله: **فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ: لما نزل بها من ضنك الانشقاق فكانت كالحايبة إذا انشقت.** و على ما يؤخذ من تنسيق سورة الانشقاق يكون انشقاقها فيما بين النفختين.

أما انقطاعها الباعث لوقوع الصاخة فإنما يكون بعد البعث و حصول التعارف» (٤).

و جمع آيات الحشر و القيامة هى التى جعلته يسمى عمله هذا بالتفسير الحشرى. (١) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (١/٦١١، ٦١٢).

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: (٤، ٥).

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: (٥٠، ٥١).

(٤) محمد شاكر الحمصى، المنح الفاخرة فى معالم الآخرة، (٢/١٤٩٦، ١٤٩٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٨

خاتمة:

كان هذا التفسير مقتصرًا على جميع الآيات الواردة فى معالم الآخرة وفق مراحلها بدءًا من علامات قيام القيامة حتى قيامها .. كما تناول الآيات المشتملة على مشاهد النار و الجنة بوصفهما أبرز مشهدين من مشاهد القيامة.

لم يتعرض المؤلف لآيات الوعد و الأحكام اكتفاء بما فعله المفسرون السابقون.

كذلك لم يكثر من الأحاديث الشريفة، إنما ركز على جمع الآيات المتشابهة. و لَوْن تفسيره بالإشارات الصوفية، و اللطائف النورانية .. و نقل عن عدد من أشياخه فى الطريقة النقشبندية.

و كان متفاعلاً مع منجزات عصره العلمية فدخلت المصطلحات العصرية العلمية دخولا بينا حتى ظهرت الأفكار العلمية العصرية فى كتابه هذا ...

أما مصادره فهى التفاسير، و الحديث الشريف، و التجارب الشخصية ..

فالتجارب ليست طريقة لفهم الدين، و لا لتفسير القرآن. أما ما نقله عن تجاربه حول إصابة العين .. فهذا أصله ثابت فى الأحاديث الصحيحة. و أما حصوله على يد هذه المرأة أو غيرها، أو على هذا الرجل أو ذاك .. فهذا مصداق للحديث الشريف.

و على العموم يمكن القول: إن الدين له طريقة خاصة بالبحث و الاستدلال.

و التجربة ليست واحدة من الطرق التى يفسر بها القرآن أو يفهم بها الدين. و الله أعلم.

لم يخل تفسيره من الإشارات التفسيرية و من اللمع اللطيفة .. كذلك فإنه كثيرا ما يفسر القرآن بالقرآن.

و امتازت لغته بالمتانة و عبارته بالرصانة ...

و خلا التفسير من الأحكام الفقهية لأنه لم يفسر آيات المواعظ و الأحكام، و إنما كان ينهج نهج أهل الإشارة فى التفسير.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٣٩٩

الفصل السابع التفسير البلاغى

إشارة

- الإعجاز البيانى فى القرآن لعائشة عبد الرحمن.
 - إعراب القرآن و بيانه، محى الدين الدرويش.
 - تفسير القرآن و إعرابه و بيانه لمحمد على طه الدرّة.
- التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٠١

أولاً: الإعجاز البيانى فى القرآن لعائشة عبد الرحمن

مقدمة فى تاريخ التأليف فى الإعجاز البيانى:

ما أروع ذلك البيان- السحر الحلال- الذى شغل العلماء ماضيا، و شغلهم حاضرا و سيشغلهم فى المستقبل .. نعم لم لا ما دام الكتاب الكريم «لا تنقضى عجائبه، و لا يخلق على كثرة الرد» ..

ما جاء باحث و لا عالم ليتأمل نص القرآن إلّا وجده عذب المأخذ سخي العطاء، كريم البذل .. أجل إنه بيان السماء! فى القرن الثالث للهجرة توضع الأقوال بالإعجاز هنا و هناك- ذاك يبحث فى الإعجاز ليجد ما يؤيد مذهبه، و هذا يتعمق فى البيان ليجد ما ينصر به رأيه، لذا فى كثير من الأحيان بحثت مسألة إعجاز القرآن مترافقة مع مسائل عقديّة كلامية «خاصة تلك التى تتصل بالنبوة و المعجزة كالذى فى تأويل «مشكل القرآن» لابن قتيبة و «مقالات الإسلاميين» لأبى الحسن الأشعري و «حجج النبوة» للجاحظ و «الانتصار» لأبى الحسين الخياط الذى نقض كتب ابن الراوندى و منها «الزمر» و «الدافع» و «الفريد».

إذا فى القرن الثالث ظهرت كتب الإعجاز مشدودة الساعد، سوّية العود، غير أنها تحمل عنوان «الإعجاز بالضرورة»، و إن كان المحتوى لا يخرج عن هذا المعنى بلا شك.

تطالعنا الدراسات القرآنية بأسماء كتب هامة: أولها و أبرزها «نظم القرآن» للجاحظ.

هذا الكتاب لم يصل إلينا، و إن كان «الجاحظ قد ذكره فى كتاب الحجج» «١» و ألف أبو بكر (١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى للقرآن و مسائل ابن الأزرق، دراسة بيانية لغوية، ط دار المعارف، ص (١٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٠٢

السجستاني «١» عبد الله كتابه «نظم القرآن».

و هناك كتب أخرى فى القرن الثالث كثيرة يصعب الإحاطة بأسمائها فى هذه العجالة من الدرس.

ثم أتى القرن الرابع لتستقر الدراسات الباحثه فى سر البلاغة القرآنية على مصطلح الإعجاز، فى حين كان اصطلاح القرن الثالث «نظم القرآن».

و كان لنا فى القرن الرابع رصيد من دراسات الإعجاز نذكر أشهرها:

(النكت فى إعجاز القرآن) لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى. (ت ٣٨٤ هـ).

(بيان إعجاز القرآن)، للخطابى، أبى سليمان حمد بن محمد. (ت ٣٨٦ هـ).

(إعجاز القرآن) لأبى بكر الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ).

و معها مجلد إعجاز القرآن من كتاب (المغنى) فى أبواب التوحيد و العدل، للقاضى عبد الجبار أبى الحسن المعتزلى- (ت ٣١٥ هـ)

«٢».

مع كل هذا الكم من الدراسات القرآنية بقى الباب مفتوحا لمن أراد الإدلاء بدلائه فى هذا المضمار .. فجاء عبد القاهر الجرجاني فى القرن الخامس ليقول كلمته فى «الإعجاز».

و كأن الكلمات التى قيلت سابقا من غيره لم تكن شيئا مذكورا، فكان كتابه «دلائل الإعجاز» ... عرّف رشيد رضا الجرجاني بقوله: «الشيخ عبد القاهر هو مؤسس علم البلاغة و مقيم ركنيها «المعاني و البيان» بكتابه أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز، و أن السكاكي و من دونه من علماء هذا الشأن عيال عليه» «٣» ..

لذا فليس غريبا أن يتوارد على تصحيحه و تحقيقه علماء المعقول و المنقول: الشيخ محمد عبده، و الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطى «٤».

أطلع الجرجاني على السابقين فشدّ عليهم النكير «و لو أن هؤلاء القوم إذ تركوا هذا الشأن تركوه جملة فلم يأخذوا أنفسهم بالتقوى فيه، و التصرف فيما لم يعلموا منه و لم يخوضوا فى التفسير، و لم يتعاطوا التأويل» «٥». (١) السجستاني أبو بكر عبد الله ت (٣١٦هـ).

(٢) هناك طبعة لرسالتى الرمانى و الخطابى نشرتا مع شافية الجرجاني تحت عنوان «رسائل فى إعجاز القرآن، ط، الذخائر و كذلك نشر إعجاز القرآن للباقلانى فى طبعة الذخائر ب ت السيد أحمد صقر.

(٣) مقدمة دلائل الإعجاز لمحمد رشيد رضا ط (١)، (١٩٩٤)، ص (٤).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٦).

(٥) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت محمد عبده و الشنقيطى، ط دار المعرفة (١٩٩٤)، ص (٤٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٠٣

و يوضح الجرجاني صفة القادر على صناعة من الصناعات فيقول:

«و جملة الأمر: إنك لن تعلم فى شىء من الصناعات علما تمر فيه و تملى حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب و يفضل بين الإساءة و الإحسان، بل حتى تفاضل بين الإحسان و الإحسان. و تعرف طبقات المحسنين» «١».

فإذا كان هذا فى مختلف الصناعات فكيف الحال فى صناعة الفصاحة و البلاغة؟ نرى عبد القاهر يشترط، و يوضح و يفصل: «و إذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفى فى علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا ما، و أن تصفها وصفا مجملا، و تقول فيها قولاً مرسلاً» «٢» بل يشترط الجرجاني حينئذ التحديد و التفصيل لصالح الفصاحة:

«بل لا تكون فى معرفتها فى شىء [الفصاحة]، حتى تفصل القول و تحصل و تضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم و تعدّها واحدة واحدة، و تسميها شيئا شيئا.

و معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذى يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذى فى الديباج» «٣».

و فى القرن الخامس الهجرى شدد ابن حزم النكير على الباقلانى و وصفه بأوصاف ما تمنينا أن يصف بها العالم الكبير عالما كبيرا آخر.

أما مجيء القرن السادس فلم يحسم المسألة، و لم ير فى ما أتى به الجرجاني كافيا، و لا فيما دونه ابن حزم فى فصله ما يضع حدا للصراعات المذهبية. فى هذه الحال أطل ابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ) فأنكر الصراعات، و أسلوب الخصومات الذى ألحق الضرر بالإسلام .. و دعا إلى اكتشاف الصلة الوطيدة ما بين الشريعة و الحكمة [الفلسفة] ... ثم جاء الرازى ليتهم الجرجاني بعدم الترتيب فى درسه، و إسهامه و إطنابه.

و فى القرن السابع ظهر ابن أبى الإصبع المصرى (ت ٦٥٤هـ) بكتابه بديع القرآن، ثم كان القرن الثامن ليرى الإمام يحيى بن حمزة العلوى (ت ٧٤٩هـ) ساحة البلاغة فارغة [على ما رآه بل أنحى باللانحة على أولئك لتقصيرهم، و عدم كفاءتهم:

«ثم لو عذرنا من كان منهم ليس له حظ فى المباحث الكلامية، و لا- كانت له قدم راسخة فى العلوم الإلهية، و هم الأ-كثر منهم كالسكاكى و ابن الأثير و صاحب التبيان «٤» ...

فما بال من كان له اليد الطولى كالرازى فإنه أعرض عن ذلك فى كتابه المصنّف فى علم (١) عبد القاهر الجرجانى، دلائل الإعجاز، ص (٤٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) التبيان فى علم البيان لكامل الزملىكانى، و عبد الواحد بن عبد الكريم (٥٦١٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٠٤

البيان فلم يتعرض لهذه المباحث و لا شتم منها رائحة! و لكنه ذكر فى صدر «كتاب النهاية» كلاما قليلا فى وجه الإعجاز لا ينفع من غلة و لا يشفى من علة» (١).

و لكن ما إن أتى القرن التاسع حتى قلبوا ظهر المجنّ لما أنتجه أبو حمزة، فرموه بعدم الإتيان بجديد، إنما أتى بالمكروه.

فى هذا القرن أخرج برهان الدين البقاعى بن عمر (ت ٨٨٥ هـ) كتابه (نظم الدرر) ذلك الكتاب الذى وصفه حاجى خليفة فى كشف الظنون:

«إنه كتاب لم يسبق إليه أحد جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير فيه العقول و أتقن فيه المناسبات و أوضح المعانى المشكلات ...».

و عند ما يبرز الزركشى بكتابه «البرهان» نراه يلخص ما قيل فى الإعجاز أقوال السابقين فى النوع الثامن و الثلاثين. ثم السيوطى الذى كتب فى إتقانه «وجوه الإعجاز».

و قلت فى البدء: إن مساحة الإعجاز القرآنى ستبقى النبع الذى لا ينضب و يشغلهم فى المستقبل ... و حقا جاء العصر الحديث و وراءه إرث لا يستهان به أبدا من دراسات فى الإعجاز عميقة، غاص فى بحاره سباحون مهرة، و إن كان هؤلاء قلما اعترفوا بفضل أولئك، و تجسد ذلك فى الرافعى مصطفى صادق الذى «نظر فى تراث المكتبة القرآنية فلم ير فيه كله شيئا ذا بال بل وجد «أن القوم من علمائنا رحمهم الله قد أكثروا من إعجاز القرآن و جاءوا بقائل من رأى لونوا فيها مذاهبهم ألوانا مختلفات و غير مختلفات، بيد أنهم يرون فى ذلك عرضا على غير طريق» (٢).

و يشدد الرافعى من وطأه هجومه على السابقين، لكنه لا يلبث أن يكون من الأولين السابقين قياسا للتأليف، و لكن قدّر لكتاب الباقلانى أن يظهر من جديد بوصفه الكتاب الأول فى الإعجاز- ثم ليظهر من الكتاب و الدارسين من يقول إنه لا يقبل ما قاله سعد زغلول و يعقوب صروف فى كتاب الرافعى ... عندئذ انقضّ الرافعى على هؤلاء و سامهم القاسى من الكلام، و العنيف من البيان و هذا شأن الباحثين مع البحوث- فريق مع، و فريق ضد ..

ما أكثر ما أنكره الآخرون على الأولين السابقين ... ثم تظهر عائشة عبد الرحمن لتقول كلمة فى الإعجاز جديدة بالتأمل لأنها كشافة لقيمة البحث فى هذا الموضوع، معتبرة (١) أبو حمزة العلوى، الطرازى فى أسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز (٣/٣٦٣)، (ط) المقتطف لدار الكتب (١٩١٦ م).

(٢) مصطفى صادق الرافعى، إعجاز القرآن، ط (٣)، ص (٢٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٠٥

عن تقدير شأن السابقين الذين سلمونا الطريق معبّدة للسير فى خضم هذا النوع من الدراسات و كلمتها تقول:

«لعل من إعجاز القرآن أن تظل الأجيال تتوارد عليه جيلا- بعد جيل و هو رحب المدى سخى المورد كلما حسب جيل أنه بلغ منه مبلغا، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح، و فوق كل طاقة» (١).

هدف تأليف كتاب الإعجاز البيانى لعائشة عبد الرحمن:

عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء: نشأت فى بيت علم والدها الشيخ محمد على عبد الرحمن، و درست على نخبة من الأساتذة الأجلاء و على رأسهم الشيخ «أمين الخولى» الذى أولته المزيد من الاحترام لجزيل فضله، دونما نسيان لفضل والدها، تقول:

«مع الكتاب المعجزة عشت عمرى كله، و فى المدرسة القرآنية كانت تلمذتى الطويلة التى تولّأها أبى فى مراحلها الأولى، و إليها انتهى تخصصى فى الدراسة العليا التى وجهنى إليها أستاذى الإمام «أمين الخولى» و ظل لمدى ثلث قرن يقود خطاى على الطريق الشاق، و يحمنى من عثرة الرأى و مزلق التأويل، و سطحية النظر، و يأخذنى بضوابط منهجه الدقيق الصارم الذى لا يجوز لنا أن نفسّر كلمة من كلمات الله تعالى دون استقراء لمواضع ورودها بمختلف صيغها فى الكتاب المحكم، و لا- أن تناول موضوعا قرآنيا أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية دون استيعاب لنظائرها، و تدبّر سياقها الخاص فى الآية و السورة، و سياقها العام فى القرآن كله» (٢).

من ذلك يتضح أن عملها يحدد ب:

بدراسة الكلمة بأماكن متعددة من ورودها- و دراسة ما يشبهها من الكلمات من جانب الدلالة و المعنى- ثم دراسة الكلمة فى الموقع الخاص الذى يراد فهمه.

أما الذى استثار عند المؤلفه دوافع البحث هو تحدى القرآن لأولئك العرب العظماء الأصلاء بأن يأتوا بسورة من مثله بعد أن تحداهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، ثم كانت قمة التحدى أن يأتوا بسورة من مثله.

الكاتبة عائشة تمرّست فى البحث اللغوى البيانى، فهى أستاذة التفسير و علوم القرآن فى جامعة القرويين فى المغرب، ثم إنها أشرفت على عدد غير قليل من الرسائل الجامعية (١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٣٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (١١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٠٦

فى علوم القرآن و الحديث و العربية بجامعة القرويين و الأزهر و عين شمس، و كلية البنات بالرياض، ثم أنها اطلعت على المخطوطات و مطبوعات مفيدة جدا ساعدتها على النضج و الثبت «١». ناهيك عن الندوات و المؤتمرات الثقافية التى دعيت إليها فلبت فى الكثير من الدول العربية و الإسلامية كمؤتمر المستشرقين بالهند، ١٩٦٤، و الأدباء العرب ببغداد ١٩٦٥ و ندوة علماء الإسلام بالمغرب ١٩٦٨، و أسبوع القرآن بجامعة أم درمان الإسلامية ١٩٦٨.

و كتابها يتألف من جزءين:

١- الإعجاز البيانى و اشتمل على ٢٧٩ صفحة. و اشتمل على مباحث ثلاث: البحث الأول اشتمل على شرح المفهوم المعجزة و الجدل و التحدى، و وجوه الإعجاز البيانى، ثم علماء السلف و الإعجاز البيانى.

أما البحث الثانى فهو: محاولة فى فهم الإعجاز، و لهذه المحاولة درست المؤلفه:

فواتح السور و سر الحرف، دلالات الألفاظ و سر الكلمة، و الأساليب و سر التعبير.

أما الجزء الثانى فقد اشتمل على دراسة المسائل الإعجازية البيانية فى تراث السلف، مثل: مسائل ابن الأزرقي، و كتاب الكامل للمبرد، و إيضاح الوقف و الابتداء لأبى بكر بن الأنبارى، و المعجم الكبير للطبرانى، و الاتقان للسيوطى. ثم قامت بالدراسة التطبيقية لموضوع الإعجاز البيانى.

مفهوم الإعجاز:

من المعلوم أن القرآن نزل بلغة العرب التى يمتلك العرب أدواتها، و عرفوا بشاعريتهم، و بجودة قرائحهم، و بعضهم فصاحتهم- من هنا

جاء عظيم الإعجاز القرآنى لأولئك العرب البلغاء الفصحاء .. تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن .. ثم تحداهم بعشر سور من مثله، ثم كانت ذروة التحدى أن يأتوا بسورة من مثله. وقد وقعت الواقعة فى هذا التحدى الذى يجعل صناديد العرب البلغاء، و أساطين الفصاحة فى حيرة من أمرهم، عند ما تحداهم القرآن و أثار حفيظتهم كى يقبلوا التحدى. و لو أنهم أتوا ب «سورة واحدة كانت تعفيهم كذلك من التورط فى حملة الاضطهاد السفهية الشرسة التى أرهقوا بها من أسلم منهم» (٢). (١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (١٣).

(٢) المصدر نفسه ص (٨٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٠٧

و ما من شك لو قدروا لفعلوا «و معلوم بالضرورة أن رجلا عاقلا لو عطش عطشا شديدا خاف منه الهلاك على نفسه و بحضرتة ماء معروض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشا، أنه عاجز على شربه غير قادر عليه، و هذا بين واضح لا يشكك على عاقل» (١).
حصل بعض الخلاف فى فهم الإعجاز لكن الأمر الذى «لا ريب فيه هو أن إعجازه البلاغى لم يكن قط موضع جدل أو خلاف .. و إنما كان الجدل بين الفرق الإسلامية فى اعتباره الوجه فى الإعجاز أو القول معه بوجه أخرى ...» (٢).

و قرر العلماء الوسائل الواجب توفرها كيف نفهم أبعاد هذه المعجزة الخالدة، فمن الوسائل الواجب توفرها «علم البيان و المعانى لإدراك معجزة رسول الله صلى الله عليه و سلم و معرفة لطائف حجته» (٣).

و ابن حزم الظاهرى قد أكد إعجاز القرآن، و أكد عدم قدرة البشر أن يأتوا بمثله «لم يقل أحد إن كلام غير الله تعالى معجز، لكن لما قاله الله تعالى - أى القرآن - و جعله كلاما له، أصاره معجزا و منع من مماثلته .. و هذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره».
و أكد الفخر الرازى أن القرآن معجز بدليل عدم قدرة العرب على الإتيان بمثله.

و الخلاصة أن مباحث الإعجاز كانت مباحث مذهبية جدلية كلامية، غير أن بنت الشاطى عائشة عبد الرحمن حاولت بحث الإعجاز البيانى بقطع النظر عن السجال الكلامى المذهبى الحادث فى مسيرة الحياة الإسلامية.

فواتح السور و سر الحرف:

تقول بنت الشاطى: «ما من حرف فى القرآن الكريم تأولوه زائدا أو قدروه محذوفا أو فسروه بحرف آخر لا يتحدى بسرهِ البيانى كل محاولة لتأويله على غير الوجه الذى جاء به فى البيان المعجز» (٤).

و تقول: «إن الخطابى لمح الإعجاز فى «اللفظ فى مكانه، إذا أبدل فسد معناه، أو ضاع الروتق الذى يكون منه سقوط البلاغة».
و برأى عائشة أن هذه الفكرة تلتقى «محور فكرة عبد القاهر فى النظم، و لعلها أيضا (١) الخطابى، بيان إعجاز القرآن ص (٢٢)، من ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.

(٢) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٨٢).

(٣) الزمخشري، الكشاف (١ / ٣٠).

(٤) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (١٣٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٠٨

تلتقى مع جانب فكرتنا فى الإعجاز البيانى «١» ... و إن كانت عائشة عبد الرحمن تقر باختلافها مع الجرجانى و الخطابى فى «إدراك مغزاها و لمح أبعادها» (٢).

أول ما لفت الباحثة إلى سر الحرف و الكلمة القرآنية:

تكشف لنا عائشة عبد الرحمن عن الشيء الذى قدح فى ذهنها فكرة البحث عن سر الحرف و الكلمة فى القرآن و تقول: «إن أول ما لفتنى إلى سر الحرف و الكلمة و قفتى أمام فواتح السور، و هى الحروف المقطعة التى افتتحت بها ست و عشرون سورة مكية، و ثلاث من السور المدنية المبكرة» (٣). و البحث فى فواتح السور نال اهتمام علماء قدامى أمثال ابن أبى إصبع المصرى «مؤلف بديع القرآن و قد صنّف كتابا عنوانه «الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح» و عنى بالفواتح: أنواع الكلام فى مفتاح السور القرآنية» (٤). و كذلك بحثها السيوطى فى الإتيان (٥).

و السور المكية المستهله بالفواتح هى على المشهور فى ترتيب النزول:
القلم (ن)، ق، ص، الأعراف: (المص)، يس - مريم: (كهيعص)، طه، الشعراء:
(طسم)، النمل: (طس)، القصص: (طسم)، يونس، و هود، و الحجر: (الر)، لقمان:
(الم)، غافر و فصلت: (حم)، الشورى: (حم عسق)، الزخرف و الدخان و الجاثية و الأحقاف: (حم)، إبراهيم: (الر)، السجدة و الروم و العنكبوت: (الم).

و السورة المدنية هى:

البقرة و آل عمران: (الم)، و الرعد: (الم).

و قد كان السلف متنبهين إلى مجموع هذه الحروف، بغير المكرر منها، أربعة عشر حرفا هى نصف الحروف العربية» (٦).
و أطال العلماء البلاغيون النظر فى هذه الفواتح «فلفتحهم منها أنها نصف الحروف الهجائية على أى وجه من الوجوه التى اصطلح عليها علماء اللغة بعد نزول القرآن بزمن (١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (١٤٠).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن إصبع المصرى، السوانح فى أسرار الفواتح. انظر المقدمة.

(٥) انظر السيوطى فى الإتيان، (٢/٩٦٧). ط (٣)، (١٩٩٦) دار ابن كثير.

(٦) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (١٤١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٠٩

طويل، ففيها: خمسة مهموسة، و عدد المهموس من الحروف العربية عشرة.

و فيها كذلك نصف الحروف المجهورة بغير زيادة و لا نقصان.

و فيها ثلاثة من حروف الحلق، هى نصف الحروف الحلقية، كما أنه فيها نصف الحروف غير الحلقية.

و فيها نصف الحروف الشديدة، و نصف الحروف الرخوة.

و فيها حرفان من الأحرف الأربعة المطبقة، و نصف الحروف الأخرى المنفتحة غير المطبقة.

و فيها نصف الحروف المستعلية، و نصف الحروف المنخفضة.

و قد ذهب الباقلانى إلى «أن مجيء هذه الحروف على حدّ التضييق مما تواضع عليه العلماء بعد العهد الطويل هو من دلائل الإعجاز من حيث لا يجوز أن يقع هكذا إلّا من الله عزّ و جلّ لأن ذلك يجرى مجرى علم الغيوب» (١).

و مما لا شك فيه أن آراء كثيرة قيلت فى فواتح السور من الحروف .. و من هذه الآراء ما ليس مقبولا و لا سيما التأويل اليهودى» (٢).

دلالات الألفاظ و سر الكلمة فى القرآن:

«من قديم شغلت قضية الترادف علماء العربية و اختلفت مذاهبهم فيها» (٣) و من أبرز القائلين بنفى الترادف: ابن فارس المعجمي المشهور، و اللغوى الفذ .. غير أن «البيان القرآنى يجب أن يكون له القول الفصل فيما اختلفوا فيه حين يهدى إلى سر الكلمة لا تقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول بترادفها» (٤).

و تفرق عائشة بين تعدد الألفاظ للمعنى الواحد إذا كان عن اختلاف لغات القبائل العربية و ذلك لا خلاف فيه، فيما أعلم» (٥). (١) انظر عائشة عبد الرحمن فى الإعجاز البيانى ص (١٤٢)، ناقلة عن الباقلانى.

(٢) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (١٤٧)، [و التأويل اليهودى هو إعطاء كل حرف قيمة عددية و تأويل ذلك بزمن وجود الأمة المحمدية، انظر تفسير ابن كثير فى تفسير سورة البقرة، الآية الأولى .

(٣) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٢٠٩).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص (٢١٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١٠

و بمراجعتنا «المزهر» للسيوطى يظهر لنا أنه يعرض أقوال القائلين بعدم الترادف أمثال ابن فارس، و يعرض أقوال القائلين بالترادف و يذكر أمثلة مطولة عن الكلمات التى استدل بها القائلون بالترادف.

و على كل حال فإن من أبرز القائلين بالترادف: قطرب أبو على البصرى و الفخر الرازى، و التاج السبكي .. و يوشك أن يكون مذهب السيوطى مذهبهم أيضا.

و من أبرز القائلين بعدم وجود الترادف: ابن فارس صاحب «المقاييس» و ابن جنى ..

و «أبو العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب» (١).

و قد ذكر السيوطى مبررات القول بالترادف و اعتبره من محاسن اللغة.

أمثلة تطبيقية على دلالة الألفاظ و سر الكلمة:

١- الرؤيا و الحلم:

قال تعالى فى سورة يوسف: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَ سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) (٢). المعاجم تفسر الحلم بالرؤيا» (٣).

«فهل كان العرب الخَلَص فى عصر المبعث يضعون أحد اللفظين بدلا من الآخر حين تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله: «أفتونى فى حلمى إن كنتم للحلم تعبرون» (٤).

تعلق عائشة قائلة: «ذلك ما لا يقوله عربى يجد حس لغته سليقة و فطرة» (٥).

و نقول: نستقرئ مواضع ورود اللفظين فى القرآن فلا يترادفان.

استعمل القرآن الأحلام ثلاث مرات يشهد سياقها بأنها الأضغاث المهوشة و الهواجس المختلطة، و تأتى بالمواضع الثلاثة بصيغة الجمع دلالة على الخلط و التهوش لا يتميز فيها حلم من آخر فى جدل المشركين: (١) السيوطى، المزهر، (١/ ٤٠٢-٤٠٦).

(٢) سورة يوسف، الآيتان: (٤٣، ٤٤).

(٣) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٢١٥). وانظر المقاييس باب الحاء و اللام و ما تليهما (٢/٩٣).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١١

يَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥) «١» و وردت على لسان الملائكة من قوم العزيز حيث سألهم أن يفتوه فى رؤياه:

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) «٢».

إذا جاءت الأحلام بمعنى الأضغاث المختلطة المهوشة.

«و أما الرؤيا فجاءت فى القرآن سبع مرات كلها فى الرؤى الصادقة، و هو لا يستعملها إلا بصيغته المفرد دلالة على التميز و الوضوح و الصفاء» «٣».

«و من بين المرات السبع جاءت الرؤيا خمس مرات للأنبياء فهو من صدق الإلهام القريب من الوحي:

رؤيا إبراهيم فى سورة الصافات:

وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) «٤».

و رؤيا يوسف إذ قال له أبوه:

يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ «٥».

و لما كانت الرؤيا تستخدم للتعبير عن صدق الواقعة قال تعالى:

وَ رَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا «٦».

و رؤيا المصطفى عليه السلام فى سورة الإسراء:

وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ «٧».

و رؤيا الرسول صلى الله عليه و سلم فى سورة الفتح: (١) سورة الأنبياء، الآية: (٥).

(٢) سورة يوسف، الآية: (٤٤).

(٣) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٢١٥).

(٤) سورة الصافات، الآية: (١٠٤، ١٠٥).

(٥) سورة يوسف، الآية: (٥).

(٦) سورة يوسف، الآية: (١٠٠).

(٧) سورة الفتح، الآية: (٢٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١٢

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) «١».

«فهذه خمس مرات من استعمال القرآن للرؤيا من الأنبياء. و المرتان الأخريان فى رؤيا العزيز، و قد صدقت، و فى آيتها عبر عنها القرآن مرتين على لسان الملك بالرؤيا لوضوحها فى منامه و جلائها و صفائها، و إن بدت للملائكة من قومه هواجس و أضغاث أحلام»

«٢» ...

٢- النأى و البعد:

يأتى بها أكثر المعجميين بمعنى واحد. أو تأويلا لأحدهما بالآخر دون إشارة إلى فرق بينهما لأنهم يقولون بالترادف- أما الذين أنكروا الترادف فقد فرقوا بين النأى و البعد:

«و نستقرئ مواضع الاستعمال القرآنى للنأى و البعد فلا يترادفان: النأى بمعنى الإعراض و الصد و الإشاحة بصريح السياق فى آياته: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ «٣».

وقوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ أَنْ يَرَوْا كَلِمَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَتَأَوَّنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (٢٦) «٤».

و أما البعد فيأتى بمختلف صيغه فى القرآن على الحقيقة أو المجاز فى البعد المكانى أو الزمانى المادى منها و المعنوى بصريح آياته: لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ «٥».

وقوله: حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعِدَ الْمَشْرِقِينَ فَبَسَّ الْقَرِينُ (٣٨) «٦».

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا (١٢) «٧». (١) سورة الإسراء، الآية: (٦٠).

(٢) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٢١٦).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٨٣). و سورة فصلت، الآية: (٥١).

(٤) سورة الأنعام، الآيتان: (٢٥، ٢٦).

(٥) سورة التوبة، الآية: (٤٢).

(٦) سورة الزخرف، الآية: (٣٨).

(٧) سورة الفرقان، الآية: (١٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١٣

وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ «١». أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ «٢». وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ «٣».

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) «٤».

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا «٥».

وَ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدًا مَا تُوعَدُونَ «٦».

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) «٧».

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. «٨».

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتِكَ مِنْ سَبَائِلِنَا يَقِينٍ (٢٢) «٩».

وَ أَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) «١٠».

و كلها فى البعد المكانى أو الزمنى.

و جاء البعد نقيضا للقرب فى لعنة الطرد بآيات:

أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعُدْتَ ثَمُودُ «١١».

وَ قِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «١٢».

كما جاءت «بعد» بمعنى البعد المعنوى فى:

شِقَاقٍ بَعِيدٍ آيات البقرة ١٧٦، الحج: ٥٢، فصلت ٥٢. (١) سورة سبأ، الآية: (٥٢).

(٢) سورة فصلت، الآية: (٤٤).

(٣) سورة هود، الآية: (٨٣).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: (١٠١).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٣٠).

(٦) سورة الأنبياء، الآية: (١٠٩).

(٧) سورة المعارج، الآية: (٦).

(٨) سورة سبأ، الآية: (١٩).

(٩) سورة النمل، الآية: (٢٢).

(١٠) سورة ق، الآية: (٣١).

(١١) سورة هود، الآية: (٩٥).

(١٢) سورة هود، الآية: (٤٤). و وردت «بعدا» فى هود فى الآيتان: (٦٠، ٦٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١٤

و ضلالٍ بَعِيدٍ بآيات إبراهيم ٣، ١١٨، و النساء ٦، ١١٦، ١٣٦، ١٦٧، و الحج:

١٢. و الشورى: ١٨، و سبأ: ٨، و ق: ٢٧.

و البعد منها جميعا نقيض القرب. على حين يخلص التأى للصد و الإعراض نقيض الإقبال «١».

٣- النعمة و النعيم:

اللفظان من مادة واحدة و هما يلتقيان فى الدلالة العامة لمادتهما المشتركة و المعاجم اللغوية لا تكاد تفرق بين الصيغتين، و المفسرون يؤولون النعيم بكل ما تحتله الدلالة المعجمية للمادة «٢».

فى حين ترى عائشة أن «استقراء الصيغتين فى القرآن كله تجعلنا نراه يفرق بينهما تفرقه واضحة».

كل نعمة فى القرآن إنما هى نعم الدنيا على اختلاف أنواعها، يترد ذلك و لا يتخلف فى مواضع استعمالها مفردا و جمعا و عددها ثلاثة و خمسون موضعا «٣».

و أما صيغة النعيم فتأتى فى البيان القرآنى بدلالة إسلامية خاصة بنعيم الآخرة، يترد هذا أيضا، و لا يتخلف فى كل آيات النعيم و عددها ست عشرة آية منها خمس عشرة آية لا يحتمل صريح لفظها أى تأويل بغير نعيم الجنة «٤».

قال تعالى:

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَ رِيحَانٌ وَ جَنَّاتٌ نَعِيمٌ (٨٩) «٥».

أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّاتٍ نَعِيمٍ (٣٨) «٦».

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) «٧».

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) «٨». (١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٢١٩، ٢٢٠).

(٢) للمزيد، انظر تفسير الطبرى، و تفسير الرازى لسورة التكاثر.

(٣) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ص (٢٣٥).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة الواقعة، الآيتان: (٨٨، ٨٩).

(٦) سورة المعارج، الآية: (٣٨).

(٧) سورة المطففين، الآية: (٢٤).

(٨) سورة المطففين، الآية: (٢٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١٥

وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) «١». وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا (٢٠) «٢» وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) «٣». تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ «٤».

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) «٥». الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) «٦». وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ «٧».

و تبقى آية التكاثر خطابا لمن ألهاهم التكاثر:

ثُمَّ لَتَسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) «٨».

النعيم فى هذه الآية من هذه السورة يدل ظاهر السياق على أنه نعيم الدنيا. غير أن عائشة عبد الرحمن تقول قولاً كى ينسجم مع النصوص الشاملة الواردة فيها كلمة النعيم بمعنى نعيم الآخرة: «لا نستطيع أمام اضطراد تخصيص القرآن صيغته (نعيم) لنعيم الآخرة أن نفسرها بنعمة من نعيم الدنيا التى لا تأتى فى البيان القرآنى إلا بصيغته نعمة و نعمة و نعم، و سرّ البيان فيها أن الذين ألهاهم التكاثر فى أعراض الدنيا عن التزود لأخراهم، سوف يسألون يوم يرون الجحيم، و سيرونها عين اليقين، عن النعيم الحق ما هو، و عندئذ يعلمون علم اليقين حقيقة النعيم الذى أضاعوه، و ألهاهم عنه التكالب على نعم الدنيا الفانية و التكاثر فى أعراضها الزائلة» «٩».

و تعلق عائشة على الشواهد السابقة التى أوردناها و غيرها: «أكتفى بما قدمت من شواهد تؤيد ما ذهب إليه المحققون من أهل اللغة فى إنكار القول بالترادف إلا أن يجيء فى لغتين مثل «الحنطة [لغة قبيلة]»، و البر [لغة أخرى لقبيلة أخرى]» «١٠».

و من أشهر الكتب الباحثة فى إثبات الترادف و نفيه «الخصائص» لابن جنى، و المزهرة (١) سورة الشعراء، الآية: (٢٠).

(٢) سورة الإنسان، الآية: (٢٠).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٦٥).

(٤) سورة يونس، الآية: (٩).

(٥) سورة القلم، الآية: (٣٤).

(٦) سورة الحج، الآية: (٥٦).

(٧) سورة التوبة، الآية: (٢١).

(٨) سورة التكاثر، الآية: (٨).

(٩) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ص (٢٣٦).

(١٠) السيوطى، المزهرة، (١/٤٠٣) بتصرف بزيادة ما بين المعقوفتين.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١٦

للسيوطى، و أحمد بن فارس فى كتابه «فقه اللغة و سنن العربية و سنن العرب و كلامها» و نقله عن شيخه أبى العباس ثعلب «١» و هنا لا بأس من إيراد معنى المترادف فى اللغة أو المقصود بمصطلح الترادف. قال فخر الدين الرازى: «هو الألفاظ المفردة الدالة على شىء

واحد باعتبار واحد. قال: واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحد، فليسا مترادفين، و بوحدة الاعتبار من المتباينين، كالسيف والصارم، فإنهما دلًا على شيء واحد لكن باعتبارين:

أحدهما على الذات [السيف والآخر على الصفة] «٢» [الصارم .

*** و عودة إلى كلمة «النعيم» فى سورة التكاثر»:

«أخرج عن ابن أبى شيبه و هناد و أحمد و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن محمود بن لبيد قال: لما نزلت: أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ (١)، فقرأ حتى بلغ: ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) قالوا: يا رسول الله عن أى نعيم نسأل؟ قال: «إِذَا كَانَ ذَلِكَ سَيَكُونُ» (٣).

و أخرج مسلم و أصحاب السنن و غيرهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: خرج النبى صلى الله عليه و سلم فإذا هو بأبى بكر و عمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟» قالوا: الجوع يا رسول الله قال: «و الذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما فقوما» فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته فلمّا رأته المرأة قالت: مرحبا، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: «أين فلان؟» قالت: انطلق يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى النبى صلى الله عليه و سلم و صاحبه فقال:

الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر و تمر. فقال: كلوا من هذا، و أخذ المديّة، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إياك و الحلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة و من ذلك العذق و شربوا، فلما شبعوا و رروا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأبى بكر و عمر رضى الله عنهما «و الذى نفسى بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة» (٤).

و هناك أحاديث أخرى فى هذا الباب ..

فظنى أننا غير مضطرين لتأويل عائشة عبد الرحمن، ما دام الحديث- بل الأحاديث الحسنه و الصحيحه الواردة عن الرسول صلى الله عليه و سلم- يؤكد أن النعيم فى الآية نعيم الدنيا. زد على (١) السيوطى، المزهر، (١/٤٠٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) إسناده صحيح رواه الإمام أحمد فى المسند (٥/٤٢٩).

(٤) أخرجه مسلم فى (الحديث: ٥٢٨١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١٧

ذلك أن معنى النعيم الوارد فى سياق الآية هو نعيم الدنيا .. و هو الأساس الذى سلكته المؤلفه بالاعتماد على السياق، و استقراء الآيات.

الأساليب و سز التعبير:

تذكر عائشة عبد الرحمن أن البلاغه عرفناها علما و لكن لا بد لنا «أن نجتليها ذوقا أصيلا و حسا مرهفا فى آيات الفصاحه العليا و البيان المعجز» (١).

لذا انصبت دراستها الأسلوبية على نقاط، أكتفى بواحدة و هى:

الاستغناء عن الفاعل:

ربطت بنت الشاطى بحثها بموضوع بناء الفعل للمجهول و صيغه المطاوعه، و تقرأ فى علم النحو: أحكام نائب الفاعل ... «أما لما ذا حذف الفاعل و بنى فعله للمجهول؟ فهذا يدرس فى علم المعانى ذلك العلم الذى انفصل عن علم الإعراب، فعاد هذا الإعراب صنعته، و هو فى الأصل مناط المعنى» (٢).

و ترى عائشة أن الدارسين لم يحاولوا و لو لمرة واحدة أن يجمعوا الشتات المنتشر لظاهرة أسلوبية واحدة لاستجلاء سرها الذى من أجله تستغنى العربية عن الفاعل فتسندة إلى غير فاعله على سبيل المجاز» (٣).
و استشهدت الكاتبة المؤلفة بالآيات التى حذف فيها الفاعل عند بناء الفعل للمجهول، فى آيات نذكر بعضها: وقد حذف الفاعل فى موقف القيامة:

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) «٤».
يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَ فَتَحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) «٥».
كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا «٦». (١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٢٣٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢٤٠).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة الحاقة، الآيتان: (١٣، ١٤).

(٥) سورة النبا، الآيات: (١٨ - ٢٠).

(٦) سورة الفجر، الآية: (٢١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤١٨

وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) «١».

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) «٢».

* أَ فَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) «٣».

و هناك آيات حذف فيها الفاعل فى آيات كثيرة من سور: الكهف: ٩٩، المؤمنون:

١٠١، يس: ٥١، الزمر: ٦٨، ق: ٢٠، الحاقة: ٢٣، الأنعام: ٧٣، طه: ١٠٢، النحل:

٨٧، النبا: ١٨ (...). و هناك آيات أخرى فى سور أخرى.

و هناك مواقع استغنى البيان القرآنى عن الفاعل فى موقف الآخرة بإسناد الفعل إلى غير فاعله مطاوعة أو مجازا، كما فى آيات على سبيل المثال:

أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انشَقَّ الْقَمَرُ (١) «٤».

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) «٥».

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (٢) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (٤) «٦».

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا «٧».

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) «٨».

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) «٩».

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ (٧) وَ حَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) «١٠».

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَ قَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) «١١». (١) سورة الفجر، الآية: (٢٣).

(٢) سورة المرسلات، الآيات: (٨ - ١٠).

(٣) سورة العاديات، الآيتان: (٩، ١٠).

(٤) سورة القمر، الآية: (١).

(٥) سورة الرحمن، الآية: (٣٧).

(٦) سورة الانشقاق، الآيات: (١-٤).

(٧) سورة ق، الآية: (٤٤).

(٨) سورة الطور، الآيات: (٩، ١٠).

(٩) سورة الدخان، الآية: (١٠).

(١٠) سورة القيامة، الآيات: (٨-١٠).

(١١) سورة الزلزلة، الآيات: (١-٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤١٩

و تخرج عائشة عبد الرحمن عن الأطر البلاغية المعروفة التى تقول: إن الفاعل يحذف فى حالات منها: للعلم أو الجهل به- للخوف منه أو عليه» (١).

غير أن القرآن لا تنطبق عليه هذه التقنيات، و من العجب كيف لم يلتفت البلاغيون لهذا الأمر على الرغم من اضطراده «٢». و تلجأ إلى تفسير ذلك بقولها: «إن أساليب البناء للمجهول، و المطاوعة و الإسناد المجازى، تلتقى جميعا فى الاستغناء عن ذكر الفاعل و إن كان لكل أسلوب منها ملحظه البيانى الخاص يجلوه استقراء مواضعه فى الكتاب المحكم .. و أطراد هذه الظاهرة فى موقف البعث و القيامة ينبه إلى أسرار بيانية وراء ضوابط الصفة البلاغية و إجراءات الإعراب الشكلية، فبناء الفعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه. و المطاوعة: فيها بيان للطوعية التى يتم بها الحدث تلقائيا أو على وجه التسخير، و كأنه ليس فى حاجة إلى فاعل. و الإسناد المجازى: يعطى المسند إليه فاعلية محققة يستغنى بها عن ذكر الفاعل الأصلى» (٣).

من مسائل نافع (أبو راشد الذهلى رأس الأزارقة (٦٥ هـ) و ما كان من حرصه على طلب العلم و تحريره عن الابتلاء بالفتنة):

إشارة

و قامت الكاتبة المؤلفة بدراسة نحو مائتين كلمة دراسة بيانية. و قد ذكر خبر المسائل المبرد فى «الكامل» (٢٨٥ هـ).

و خبر المسائل كما يرويه المبرد:

«و يروى عن أبى عبيدة من غير وجه، أن ابن الأزرق أتى ابن عباس فجعل يسأله حتى أمله فجعل ابن عباس يظهر الضجر. و طلع عمر بن أبى ربيعة على ابن عباس و عمر يومئذ غلام فسلم و جلس، فقال له ابن عباس: أ لا تنشدا شيئا من شعرك فأنشده:

أ من آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

(١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٢٤٢).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٢٠

و نقل المبرد أربعة عشر بيتا ...».

و أخرج المسائل أبو بكر ابن الأنبارى- (ت ٣٢٨ هـ)- فى مقدمات كتابه الجليل (إيضاح الوقف و الابتداء من كتاب الله عز و جل)

سماعا من شيخه بشر بن أنس كما أخرج الطبرانى المسائل (٢٦٠-٣٦٠هـ) فى معجمه الكبير فى سياق ابن عباس رضى الله عنهم «١». و ذكر السيوطى فى «الإتقان» أن عدد مسائل ابن الأزرق مائة و تسعون مسألة «٢». و فيما يلى نأخذ بعض الأمثلة التطبيقية كما قدمتها عائشة عبد الرحمن فى الإعجاز البيانى.

١- شرعة و منهاجا:

(الشرعة): الدين. و (المنهاج): الطريق.
قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:
لقد نطق المأمون بالصدق و الهدى و بين للإسلام دينا و منهجا
و الشرعة و المنهاج كلمتان من سورة المائدة: لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجًا «٣». و لم تأت صيغته «شرعة» إلا فى هذه الآية، و جاء منها الفعل الثلاثى ماضيا فى آيتى الشورى (١٣، ٢١)- و «شريعة من الأمر» فى آية الجاثية (١٨) و «شراعا» فى الأعراف. و أما «منهاجا» فوحيدة فيه صيغته و مادة.
الشريعة فى اللغة: المشرع و المورد إلى الماء. و يقال شرعت الباب إلى الطريق و أشرعت أى فتحته على الشارع: الطريق الواسع. جمعه شوارع. و استعير الشرع و الشريعة لما شرعه الله تعالى لعباده.
أما المنهاج: فإن أصله الطريق البين الواضح يقال عنه نهج و منهج كما قال الراجز:
من يك فى شك فهذا فلج ماء روى و طريق نهج
ثم يستعمل فى كل شىء كان يتنا واضحا، قاله الطبرى.
تأويلهما فى المسألة عن ابن عباس: الشرعة: الدين و المنهاج الطريق، و الذى أسنده الطبرى عن ابن عباس من عدة طرق، قال: سيلا و سنة، و أسند مثله عن قتادة، قال: (١) راجع عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٢٩٠، ٢٩١).
(٢) السيوطى، الإتقان، (١/٣٨٣).
(٣) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢١

و السنن مختلفة: للتوراة شريعة و للإنجيل شريعة و للقرآن شريعة. و لكن الدين الواحد الذى لا يقبل غيره: التوحيد و الإخلاص الذى جاءت به الرسل. ثم أسند عن قتادة الدين واحد، و الشريعة مختلفة «١». و الشرع من الدين بصريح قوله تعالى فى سورة الشورى:
شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا «٢». و قوله عز و جل: أَمْ لَهُمْ شِرْكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ «٣».

٢- ريشا:

و سأله عن قوله تعالى: «ريشا».

قال: المال، و استشهد بقول الشاعر:

فرشنى بخير طال ما قد بريتنى و خير الموالى من يريش و لا يبرى «٤»

و (ريشا): كلمه وارده فى سورة الأعراف:

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوَآتِكُمْ وَ رِيشًا وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكُمْ خَيْرٌ ذَلِكُمْ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) «٥».
وحيدة فى القرآن صيغته و ماده.

و جاء المال فيه نكرة و معرفة، مفردا و جمعا ستا و ثمانين مرة. مما يؤذن بفرق بين مال و ريش فى آية الأعراف.

و ذكر الفراء و الطبرى قراءة لغير السبعة: «و رياشا» و وجهه عندهما إمّا أن يكون مصدرا مثل: لبس و لباس، أو جمعا واحده ريش كصحب و صحاب. و أورده.

قال: الرياشى: و الريش واحد هو- فى الآية- ما ظهر من اللباس و الشارة ..

و الرياش: الخصب و المعاش.

و قال الطبرى: الرياش: ... الأثاث، و ما ظهر من الثياب و المتاع مما يلبس أو (١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٣١١)، (٣١٢).

(٢) سورة الشورى، الآية: (١٣).

(٣) سورة الشورى، الآية: (٢١).

(٤) البيت لسويد بن الصامت الأوسى، و هو من البحر الطويل.

(٥) سورة الأعراف، الآية: (٢٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢٢

يحشى من فراش أو دثار، و الريش إنما هو فى المتاع و الأموال عندهم، و ربما استعملوه فى الثياب و الكسوة دون سائر المال، و قد يستعمل فى الخصب و رفاهة العيش ...

و سياق الآية أقرب فى الريش إلى اللباس، مستعار من الريش لأنه كالثياب للإنسان، على ما قاله الراغب. و أما فى الشاهد فهو من ريش السهم يريشه إذا ألصق به الريش و سدده، و استعير للإصلاح كما أن البرى مجاز من براية القلم و استعير للعجز و الضعف «١». و الريش لفظ أراد به الثياب لأنه يقوم بوظيفة الستر كما الريش يستر ظهر الطائر ...

٣- يئاس:

قال تعالى: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتِ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) «٢».

قال نافع لابن عباس: «فأخبرنى عن قول الله عزّ و جلّ أَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا

قال: أ فلم يعلم، و هل كانت العرب تعرف ذلك؟

قال نعم: أما سمعت بقول مالك بن عوف:

لقد يئس الأقبام أنى أنا ابنه و إن كنت عن أرض العشيرة نائيا

وردت فى القرآن سبع مرات، استيأس، و استيأسوا، و يئوس ثلاث مرات.

و قالوا: أ فلم يتبين- و الحق أ فلم يتبين قريبه من أ فلم يعلم، لأن البيان علم.

و ورد عن ابن قتيبة (فى تأويل مشكل القرآن) يئست بمعنى «علمت» «٣».

و ورد فى الأساس للزمخشري:

يئس مجازا (علمت) مثل «قد يئست أنك رجل صدوق» (٤). و استشهد الزمخشري- و ساق عائشة الشاهد نفسه- من قول سحيم:

(١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٣١٤، ٣١٥).

(٢) سورة الرعد، الآية: (٣١).

(٣) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص ٣٢١.

(٤) الزمخشري، الأساس، مادة يئس.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢٣

أقول بالشعب إذ ييسرونى أ لم تياسوا أنى ابن فارس زهدم «١»

و ذلك أن مع الطمع القلق، و مع انقطاعه السكون و الطمأنينة كما مع العلم و لذلك قيل: اليأس إحدى راحتين» (٢).

و أنكروا الفراء أن يكون محفوظا من كلام العرب ما يثبت (يأس) بمعنى (يعلم)، و رده الطبرى بأن من حفظ حجة على من لم يحفظ.

و حكاها عن ابن حجر فى «فتح البارى» (٣) و ظنى: أن اليأس لم تصفها العرب أصلا بمعنى العلم. فاليأس بالأصل القنوط: نقيض

الرجاء. إنما قصد: «أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضى العلم، فثبت يأسهم: مقتضى علمهم» (٤).

و المعنى العام للآية من سورة الرعد:

«أ فلم يعلم الذين آمنوا علما يئسوا معه أن يكون ما علموه ...

و قيل معناه: «أ فلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون. و القول: قد يئست منك أنك لا تفلح»

كأنك تقول: قد علمت علما» (٥).

٤- يحور:

قال نافع: فأخبرنى عن قول الله عزّ و جلّ: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (٦) «وحيده الصيغة فى القرآن» (٧).

و من المادة جاء المضارع الرباعى «يحاوره» فى آيتى الكهف ٣٤، ٣٧. و المصدر يحاور كما فى آية المجادلة (٨).

«و جاءت «حور» أربع مرات، و الحواريون خمس مرات» (٩). (١) الزمخشري، الأساس، مادة: يئس. و انظر الإعجاز البيانى، ص ٣٢١،

و زهدم: فرس سحيم و سحيم والد الشاعر، و قيل إن سحيم رجل من عبس، اللسان/ مادة «يأس».

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عائشة عبد الرحمن الإعجاز البيانى، ص (٣٢٢).

(٤) المصدر نفسه، ص (٣٢٣).

(٥) ابن منظور، اللسان/ مادة يأس.

(٦) سورة الانشقاق، الآية: (١٤).

(٧) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص ٣٧٩.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢٤

و قول ابن عباس: «لن يرجع» بلغة الحبشة يسوّغ الترادف [غير المقصود] النوع [و هو المقبول من الترادف ... عند من قال بعدم الترادف

و نقل الزمخشري عن ابن عباس: «ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنتي لها: حورى. أى ارجعى» ...
و التحاور رجوع للكلام يتردد بين المتحاورين. و المحور: العود الذى تدور فيه البكرة، و الحوارى: النصير يرجع [وقت طلب النصرة] ..
و المحارة: شبه حارة يتردد الهواء فيها برجع الصوت، و شبهت بها الحور لاستدارة العين و نضوع البياض فيها حول سواد المقله» (١).

٥- أدنى أأا تعولوا:

الأبعد- الأجدر- الأقرب.

و سأل نافع عن معنى قوله تعالى: وَ إِن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣) «٢».

فقال ابن عباس: أجدر ألا تميلوا.

قال نافع: و هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

إنا اتبعنا رسول الله و أطرحوا قول النبي و عالوا فى الموازين

... و يأتى الدنو فى القرآن فعلا- ماضيا و مضارعا، و اسم فاعل دان و دانية» و معنى الجدارة فى «أدنى» يأتى من دلالة الدنو على القرب. و الكلمات الثلاث: أدنى و أجدر، و أقرب، قرآنية. و هى متقاربة. و إن كان اختلاف ألفاظها يؤذن باختلاف فى المعنى. و لعل الأصل فى الأقرب أنه يقابل الأبعد و فى الأدنى مقابل الأنأى، و الأجدر بمعنى الأولى.

و أما كلمة «يعولوا» فوحيدة الصيغة فى القرآن.

و جاء اسم الفاعل فى آية الضحى: وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) «٣».

و المصدر فى آية التوبة: وَ إِن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ «٤». (١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى، ص (٣٧٩، ٣٨٠).

(٢) سورة النساء، الآية: (٣).

(٣) سورة الضحى، الآية: (٨).

(٤) سورة التوبة، الآية: (٢٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢٥

و الواوى [الفعل]: يعول و عيل متقاربان لتداخلهما فيما يلحق عينهما من إعلال و إبدال، و قيل أكثر ما يستعمل الواوى فى العول، و العالة و العويل. و اليائى فى العيلة من عال: يعيل عيلا و عيلة إذا افتقر و الاسم العيلة.

و تقول فى الواوى: «عال اليتامى يعولهم فهو عائل و هم عيال:

كما تقول فى اليائى: يتيم عائل، أى فقير.

و تفسير العول بالميل فيما نقل عن قول ابن عباس على وجه تقريب أشار إليه الراغب فقال: و معنى الجور جاء من ترك النصفه، بأخذ الزيادة «١» ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا و إلى هذا ذهب أبو عبيدة، قال: «أى أقرب ألا تجورا» «٢». و فسّر الراغب الميل: العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين، و يستعمل فى الجور» «٣».

خاتمة:

يظهر أن عائشة عبد الرحمن صبّت اهتمامها فى بحث «الإعجاز البيانى» و راجعت معانى المفردات القرآنية القريبة المعنى ... و درست

مدى قرب المعانى من بعضها- و هى ليست ذاتها .. لتصل إلى حقيقة قالها بعض السابقين: «ألا ترادف فى اللغة» .. كى تثبت قوة الأداء البياني القرآنى، و اختياره اللفظة الدقيقة التى لا تحل محلها لفظه أخرى. لأن اللغة قررت ألا تحل كلمة محل كلمة أخرى حلولا تاما مؤدية الوظيفة المعنوية و البلاغية، لأن كل كلمة لها معنى مختلف عن تلك و إن اشتركتنا فى جزء من المعنى، غير أنهما لا يتطابقان تمام التطابق، و من ثم أن القرآن ليس بالإمكان أن نحذف حرفا فيحل محله حرف، فما بالك باللفظة؟ و الحمد لله رب العالمين.

(١) انظر الراغب الأصفهاني، المفردات فى غريب القرآن، مادة: عول.

(٢) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ص (٣٨١).

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات فى غريب القرآن (مادة: ميل).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢٧

ثانيا: إعراب القرآن و بيانه محيى الدين درويش

محيى الدين درويش و كتابه (إعراب القرآن و بيانه):

يمتاز كتاب «إعراب القرآن و بيانه» باشماله على إعراب القرآن الكريم كله، و يمتاز بتطبيقاته البلاغية القرآنية، فضلا عن الشواهد النحوية و البلاغية من الشعر العربى، و الأمثلة التى أنشأها المؤلف ليوضح المقصود، و ليسهل الصعب.

و أما الشرح اللغوى فإنه:

يذكر اللغات الواردة إن كان هناك أكثر من لغة.

و يذكر الأصل الاشتقاقي إن كان هناك ما يدعو إلى ذلك.

و يذكر الأوزان الصرفية للأسماء و الأفعال إن دعت الحاجة، و قد يتحدث عن أصل بعض الحروف و يذكر الحرف الذى انقلبت عنه. على العموم كان العمل الذى بين أيدينا مجهدا، و شاقا، و استطاع المؤلف أن يضىء الجوانب اللغوية و البلاغية فأسهل فهم فى توضيح الآيات الكريمة، كما وضع القارئ فى جوف التدقيق السليم للنص الكريم، زد على ذلك تزويد الباحثين و الطالبين بمادة تفسيرية، و نحوية، و صرفية و بلاغية، كل هذه العلوم اللغوية امتازت فى هذا العمل بالغرارة و التوسع، إلى جانب الأسلوب البسيط، و اللغة السهلة الموضحة التى ذللت الصعب. إلا فى بعض الأماكن التى يكثر المؤلف فيها من ذكر وجوه الإعراب، و الأصل الصرفي، و تعدد وجوه الجوانب البلاغية مما يحتاج إلى تخصص للإحاطة بمثل هذه الحالات.

إن إعراب «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» و ذكر جوانب الصرف فيها، و وجوه البلاغة لم

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢٨

تذكر فى التفاسير الأخرى، لذا رأينا ذكر المعانى و الوجوه الصرفية و البلاغية عند دراستنا لهذا الكتاب، لما رأينا فيه من التوسع و الوضوح.

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

غنى عن القول إن الخلاف قائم بين أهل العلم حول قرآنية «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» و ملخص الأقوال:

١- أن البسملة آية من سورة «الحمد» و آية من أوائل كل سورة عند الشافعى، و ليست آية فى كل ذلك عند مالك و عند أبى حنيفة. و [عند] أحمد بن حنبل هى آية من أول الفاتحة و ليست آية فى غير ذلك. و الاحتجاج لذلك مبسوط فى كتب الفقه و التفاسير الموسعة. فهذه الكتب مظان المسألة.

و الشرح اللغوى:

(اسم): ذهب علماء البصرة أن اشتقاق الاسم من «السمو» و هو العلو، و ذهب الكوفيون أنه مشتق من «السمة» و هى العلامة و كلاهما صحيح من جهة المعنى و فيه خمس لغات:

اسم بكسر الهمزة، و اسم بضمها، و سم بكسر السين، و سم بضمها، و سمى بوزن هدى. و هذا و الاسم هو واحد الأسماء العشرة التى بنوا أوائلها على السكون، فإذا نطقوا بابتداءها زادوا همزة تفاديا للابتداء بالساكن لسلامة لغتهم من كل لكنة و إذا وقعت فى درج الكلام لم تفتقر إلى شيء.

(الله): علم لا يطلق إلا على المعبود بحق، خاص لا يشركه فيه غيره و هو مرتجل غير مشتق عند الأكثرين، و إليه ذهب سيويه فى أحد قوليته، فلا يجوز حذف الألف و اللام منه و قيل: هو مشتق و إليه ذهب سيويه أيضا و لهم فى اشتقاقه قولان:

١- أن أصله إله على وزن فعال من قولهم: أله الرجل يأله إلهة أى عبد عبادة، ثم حذفوا الهمزة تخفيفا لكثرة وروده و استعماله ثم أدخلت الألف و اللام للتعظيم و دفع الشيوخ الذى ذهبوا إليه من تسمية أصنامهم و ما يعبدونه آلهة من دون الله.

ب- إن أصله «لاه» ثم أدخلت الألف و اللام عليه و اشتقاقه من «لاه» يليه إذا تستر كأنه سبحانه يسمى بذلك لاستتاره و احتجابه عن إدراك الأبصار، و ما أجمل قول الشريف الرضى الشاعر:

«تاهت العقلاء فى ذاته تعالى و صفاته، لاحتجابها بأنوار العظمة».

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٢٩

و تحيروا أيضا فى لفظ الجلالة كأنه انعكس إليه من تلك الأنوار أشعة بهرت أعين المستبصرين، فاختلفوا: أ سريانى هو أم عربى؟ اسم صفة؟ مشتق و مم اشتقاقه؟ و ما أصله؟

أو غير مشتق؟ علم أو غير علم؟».

(الرحمن): صيغة فعلا فى اللغة تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة للصفات الطارئة كعطشان و غرثان.

(الرحيم): صيغة فعيل تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة للصفات الدائمة الثابتة و لهذا لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر.

الإعراب:

(بسم): جار و مجرور متعلقان بمحذوف و الباء هنا للاستعانة أو للإلصاق، و تقدير المحذوف: أبتدئ فالجار و المجرور فى محل

نصب مفعول به مقدم، أو ابتدائى فالجار و المجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف و كلاهما جيد و «الله» مضاف إليه.

(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) صفتان لله تعالى، و جملة البسملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب.

البلاغة:

الأولى: فى متعلق «بِسْمِ اللَّهِ» أن يكون فعلا مضارعا لأنه الأصل فى العمل و التمسك بالأصل أولى و لأنه يفيد التجدد الاستمرارى، و إنما حذف لكثرة دوران المتعلق به على الألسنة، و إذا كان المتعلق به اسما فإنه يفيد الديمومة و الثبوت كأنما الابتداء باسم الله حتم دائم فى كل ما نمارسه من عمل و نردده من قول.

ب- الإيجاز بإضافة العام إلى الخاص و يسمى إيجاز قصر.

ج- إذا جعلنا الباء للاستعانة فيكون فى الكلام استعارة مكنية تبعية لتشبيها بارتباط يصل بين المستعين و المستعان به، و إذا جعلنا الباء للإلصاق فيكون فى الكلام مجاز علاقته المحلية نحو مررت بزيد أى بمكان يقرب منه لا بزيد نفسه» (١).

ثم يذكر فوائد من البسملة:

١- لم يوصف بالرحمن فى العربية بالألف و اللام إلا الله تعالى، و قد نعتت العرب مسيلمة الكذاب به مضافا فقالوا: رحمان اليمامة. قال شاعر منهم يمدح مسيلمة: (١) محى الدين درويش، إعراب القرآن و بيانه، ط (٤)، (١٩٩٤)، مج (١)، ص (٧-١٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٠

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا و أنت غيث الورى لا زلت رحمانا «١»

٢- تكتب بسم الله بغير ألف فى البسملة خاصة استغناء عنها بياء الاستعانة بخلاف قوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١).

٣- تحذف الألف من الرحمن لدخول الألف و اللام عليها.

٤- يقال لمن قال: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»: مبسمل، و هو ضرب من النحت اللغوى، و قد ورد ذلك فى شعر لعمر بن أبى ربيعة:

لقد بسملت ليلي غداة لقيتها فيا حنذا ذاك الحبيب المبسمل

* ثم يذكر أنواع النحت فى العربية:

«بسمل، و حوقل: إذا قال: لا- حول و لا- قوة إلا بالله .. و هلل إذا قال: لا إله إلا الله، و سبجل إذا قال: سبحان الله و حمدل إذا قال:

الحمد لله، و حوصل، و حيعل إذا قال:

حَى عَلَى الصَّلَاةِ، و حى على الفلاح، و جعفل إذا قال: جعلت فداك.

و من النحت: أنهم يأخذون اسمين فينحتون منهما اسما واحدا فينسبون إليه كقولهم:

حضرمى، و عبقسى، و عبشمى. نسبة إلى حضرموت، و عبد القيس، و عبد شمس، على أن الفراء ذكر عن بعض العرب: معى عشرة

فأحدهن لى أى: صيرهن أحد عشر، و قال الفراء: معنى اللهم: يا الله أمنا بخير أى: اقصدنا بخير، فكثرت فى كلام العرب، و نحت

العرب من اسمين فقيل عن الصيلىم إنه من الصيلىم و الصيلىم و منه بلحارث لبنى الحارث، و لعل الحقلد منحوت من الحقد و الثقل. و

نحتوا من فعل و حرف من لم يزل ... الخ» «٢».

ثم إن المؤلف يحاول أن يبرز عظمة الأداء البلاغى القرآنى بذكر الأبيات الشعرية المساعدة للقارئ على تفهم مقاصده، و إدراك

أهدافه، التى تتركز على التعمق بفهم القرآن، لأن فهم القرآن فهما صحيحا عميقا عمدته العمق فى إدراك أسرار اللغة لأن هذا

الكتاب الكريم أنزل بلسان عربى مبين «لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ».

و يذكر المؤلف أيضا فوائد نحوية و بلاغية مرتبة ترتيبا منهجيا.

مثال آخر:

قال تعالى: * وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

«٣». (١) البيت من البحر البسيط.

(٢) محى الدين درويش، إعراب القرآن و بيانه، مج (١)، ص (١١).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٢٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣١

يبدأ المؤلف بشرح المفردات اللغوية:

(إبراهيم): معناه فى السريانية أب رحيم ... إلخ.

و لوضوح معنى المفردات فى هذه الآية، ينتقل إلى الإعراب:

الإعراب

(و إذ): الواو استثنائية، و الجملة مستأنفة مسوقة للتأسى بما جرى للماضين مما يدل إلى التوحيد و يزع عن الشرك، و إذ ظرف لما مضى من الزمان فى محل نصب بفعل محذوف تقديره «أذكر».

(ابتلى): فعل ماض.

(إبراهيم): مفعول به مقدم.

(ربه): فاعل مؤخر. و جملة (ابتلى): فى محل جر بإضافة الظرف إليها.

(بكلمات): جار و مجرور متعلقان بابتلى.

(فأتمهن): معطوف على ابتلى و معنى الإتمام أداؤهن أحسن تأديته من غير تفريط أو توان، و المراد بالكلمات ما أوحى إليه من أوامر و نواه.

(قال): فعل ماض. و فاعله ضمير مستتر تقديره هو و الجملة مفسرة لا محل لها.

(إنى): إن و اسمها.

(جاعلك): خبرها و الجملة مقول القول.

(للناس): جار و مجرور متعلقان بجاعلك، و لك أن تعلقه بمحذوف فى محل نصب حال لأنه كان فى الأصل صفة لإماما.

(إماما): مفعول جاعلك الثانى، أما المفعول الثانى فهو الكاف لأنه من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله.

(قال): فعل ماض و فاعله هو.

(و من ذريتي): الواو عاطفة، و الجار و المجرور عطف على الكاف كأنه قال: و جاعل بعض ذريتي كما يقال لك سأكرمك فتقول: و

أخى؛ هذا ما أعربه الكثيرون. و فى النفس منه شىء فالأولى فى رأينا أن يتعلقا بمحذوف و التقدير: و اجعل من ذريتي إماما.

(قال لا ينال عهدى الظالمين) عهدى فاعل و الظالمين مفعول به.

و بعد أن أعرب الآية انتقل إلى البلاغة فى الآية:

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٢

البلاغة:

فى هذه الآية الكريمة جوانب بلاغية، فيها فنّ طريف من فنونهم يقال له: فن المراجعة و هو أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول جرت بينه و بين محاور فى الحديث أو بين اثنين غيره، بأوجز عبارة و أبلغ إشارة، و أرشق محاوره مع عذوبة اللفظ و جزالته، و سهولة السبك، انظر إلى هذه القطعة من الكلام التى عدة ألفاظها ثلاث عشرة لفظة كيف جمعت معانى الكلام من الخبر و الاستخبار، و الأمر و النهى و الوعد و الوعيد و تفصيل ذلك:

١- الخبر فى قوله تعالى: «إِنِّى جَاعِلُكَ» و هو فى الحقيقة وعد باستخلافه على الناس.

٢- الاستخبار فى ضمن الخبر لأنه فرع عليه إذ الخبر (بصيرا) استخبارا بتصوير ما يدل على الاستفهام.

٣- الأمر فى قوله: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي». فإن معناه الطلب لذريته ما وعد به من الاستخلاف فكأنه قال: رب و افعل ذلك لبعض ذريتي و كل طلب أمر لكنه إذا كان من الله سبحانه أوجب حسن الأدب أن يسمى دعاء، و لا يطلق عليه لفظ الأمر، و إن كان أمرا فى أصل الوعد.

٤- النهى و هو فى ضمن الأمر لأن الأمر بالشىء نهى عن ضده فكأن معناه و لا تحرم بعض ذريتي ذلك.

٥- الوعد تقدم بيانه فى الخبر.

٦- الوعيد فى قوله: «لا- يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» فإن حاصل ذلك أن الظالمين من ذريتك لا ينالهم استخلافى و حرمان ذلك غاية الوعيد.

و يستشهد بأبيات شعرية لعمر بن أبى ربيعة المخزومى:

بينما ينعتننى أبصرنى دون قيد الميل يعدو بى الأغر

قالت الكبرى: ترى من ذا الفتى؟ قالت الوسطى لها: هذا عمر «١»

قالت الصغرى و قد تيمتها قد عرفناه، و هل يخفى القمر؟

فى هذه الأبيات نكتتان بليغتان تدلان على قوة عارضه الشاعر صاحب الفستق المقشر، كما يسمون شعره و معرفته بوضع الكلام مواضعه و هما: (١) فى رواية: «قالت الكبرى: أ تعرفن الفتى! قالت الوسطى: نعم هذا عمر» و الأبيات من البحر الطويل.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٣

١- أن قوافى الأبيات لو أطلقت لكانت كلها مرفوعة.

٢- أنه جعل التى عرفته من جملة البنات، و عزفت به، و شبهته تشبيها يدل على شغفها بحبه هى الصغرى منهن ليدل على أنه فتى السن بدليل الالتزام إذ الفتية من النساء لا تميل إلا إلى الفتى من الرجال غالبا ليدمج فى ذلك عذره بالصبوة و أنه إنما كان منه ذلك فى أيام الشبيبة.

٣- و نكتة ثالثة: تربو على جميع ما تقدم و هى فى التذييل الذى أخرجه مخرج المثل السائر حيث قال فى الحكاية عنها: و هل يخفى القمر، و لا يحسب أحد أن الصغرى مالت إليه لغراتها و ضعف عقلها و تقاصره عن التمييز و قلة التجربة، ذلك أنه أخبر عن الكبرى أنها ما كانت تعرفه، و قد راقها و شغفها جبا حين رأته حتى لم تتمالك عن التساؤل عنه أو أنها عارفة به، و إنما سألت عنه تغطية لأمرها، و تعمية فيه من باب تجاهل العارف، إما إظهارا لفرط التوله و التدله فى الحب أو لأنها كانت تنتظر أن تجاب باسمه فتلتد بسمعه، أما الوسطى فقد صرحت باسمه و معرفته بالنسبة، و أبانت الصغرى عما فى نفسها منه بوصفها له بصفة تدل على عظم مكانته من قلبها لمكان سنّها من الأختين، و هذا من عجائب ما يسمع فى هذا الباب و لا نحب أن نختم بحث هذا الفن قبل أن نورد بعض الشواهد، فمن شواهد قول ديك الجن و هو عبد السلام بن رغبان:

مرت فقلت لها: تحية مغرم ما ذا عليك من السلام فسلمى «١»

قالت بمن تعنى؟ فطرفك شاهد بنحول جسم قلت: بالمتكلم

فتضحكت فبكيت قالت: لا ترع فرب مثل هواك بالمتبسم

قلت اتفقنا فى الهوى فزيارة أو موعدا قبل الزيارة قدمى

فتبسمت خجلا و قالت: يا فتى لو لم أدعك تنام، بى لم تحلم

*** و الاهتمام بالجانب البلاغى سمة بارزة من عمل المؤلف محيى الدين درويش، لأن البلاغة جانب هام من جوانب علوم اللغة العربية، و لأن البلاغة علم يمكن أن يقال فيه جديد. [أى يقبل إضافات جديدة]. لذا فإن عمل الدرويش له قيمته اللغوية لأنه غطى بدراساته هذه شتى فروع علوم العربية .. و لناخذ مثلا بلاغيا يساعد على معرفتنا بجانب مهم من جوانب البلاغة. قال تعالى: (١) الأبيات من البحر الخفيف.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٤

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَشْتَكِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) * وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِذَا تَوَلَّى فَرَغَ مِنْهُ (٥١) وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَ غَيْرِ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) «١».

أهم الجوانب البلاغية فى الآيات الكريمة:

١- التغليب:

فى قوله تعالى: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ

«فقد أتى بلفظ ما الموصولية فى قوله: «ما فى السماوات وما فى الأرض» للتغليب لأن ما لا يعقل أكثر ممن يعقل فى العدد، والحكم للأغلب، (و ما) الموصولة فى أصل وضعها لما لا يعقل، كما أن (من) موضوعة فى الأصل لمن يعقل وقد تتخالفان، و من استعمال «من» لغير العاقل فى الشعر، قول العباس بن الأحنف:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطير «٢»

فأوقع «من» على سرب القطا و هو غير عاقل. و منه قول امرؤ القيس:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى و هل يعمن من كان فى العصر الخالى «٢»

فأوقع «من» على الطلل و هو غير عاقل «٤».

و يذكر المؤلف ضابطا هاما لهذا الموضوع، و موجزه يقول:

أ- قد تستعمل «من» لغير العقلاء فى ثلاث مسائل:

١- أن ينزل غير العاقل منزلة العاقل كقوله تعالى: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ «٥».

الشاهد [من لا يستجيب له . و مثل قول امرؤ القيس، و العباس بن الأحنف، فدعاء الأصنام التى لا تستجيب الدعاء فى الآية الكريمة و نداء الطلل و القطا فى البيتين سوغا تنزلهما منزلة العاقل إذ لا ينادى إلّا العقلاء.

٢- أن يندمج غير العاقل مع العاقل فى حكم واحد كقوله تعالى: (١) سورة النحل، الآيات: (٤٩-٥٢).

(٢) من البحر الطويل.

(٤) محى الدين درويش، إعراب القرآن و بيانه، ط (١٩٨٨)، مج (٥)، ص (٣١٤).

(٥) سورة الأحقاف، الآية: (٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٥

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ «١» و قوله: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ «٢».

٣- أن يقترن غير العاقل بالعاقل فى عموم مفصل كقوله تعالى:

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ «٣»، فالدابة تعم أصناف من يدب على وجه الأرض و قد فصلها على ثلاثة أنواع.

٤- و قد تستعمل (ما) للعاقل إذا اقترن العاقل بغير العاقل فى حكم واحد كما فى الآية المتقدمة «٤» [فى سورة النحل / ٤٩].

٢- الاحتراس:

و نتابع أهم الجوانب البلاغية فى آيات سورة النحل:

قال الله تعالى: وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ «و المعروف أنه لا يجمع بين العدد و المعدود، إلا فيما وراء الواحد و الاثنین فيقولون عندى، رجال ثلاثة و نساء ثلاث لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فلو لم تشفعه بصفته لما فهمت العدد

المراد و أما رجل و امرأة و رجلان و امرأتان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد و امرأة واحدة، و رجلان اثنان و امرأتان اثنتان، أما فى الآية فالاسم الحامل لمعنى الأفراد و التثنية و هو إله و إلهان دال على شيئين على الجنسية و العدد المخصوص فإذا أريد الدلالة على أن المراد الذى يساق إليه الحديث هو العدد كان لا بد من أن يشفع بما يؤكد أنه لا ترى أنك لو قلت إله و لم تؤكد بواحد لم يحسن و خيل إليك أنك تثبت الإلهية لا الوجدانية فكان لا بد من الاحتراس و هذا من روائع البلاغة التى تتقطع دونها الأعناق» (٥).

المسائل العقيدية فى إعراب القرآن و بيانه:

قال المؤلف فى كلمه «الكرسى» الواردة فى قوله تعالى:

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ «٦». (١) سورة النحل، الآية: (١٧).

(٢) سورة الحج، الآية: (١٨).

(٣) سورة النور، الآية: (٤٥).

(٤) محى الدين درويش، إعراب القرآن و بيانه، ط (١٩٨٨)، مج (٥)، ص (٣١٤، ٣١٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٣١٥، ٣١٦).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٥٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٦

و فى سياق كلامه فى القسم البلاغى:

«الاستعارة تصريحية فى قوله: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»، فالكلمة مجاز عن علمه تعالى أو ملكه و تصوير صحيح لعظمته،

حذف المشبه و هو العلم و القدرة و العظمة و ما يترتب على الجلوس فوق كرسى الملك من معانى الأبهة و الإحاطة الجامعة» (١).

و نقل محى الدين درويش قول ابن قتيبة فى كتابه «مشكل القرآن» أن هذا يخالف نصوص اللغة. ورد على المعتزلة فى آرائهم، قال

ما نصه:

«و فسروا [أى المعتزلة] القرآن بأعجب تفسير يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم، و يحملوا التأويل على نحلهم، فقال فريق منهم فى «وَسِعَ

كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» أى: علمه.

و جاءوا على ذلك بشاهد لا- يعرف و هو قول الشاعر: «و لا يكرسى علم الله مخلوق». كأنه عندهم: «و لا يعلم علم الله مخلوق». و

الكرسى غير مهموز، و يكرسى مهموز، يستوحشون أن يجعلوا لله كرسيا...».

يقول محى الدين درويش: و لكننا لا نوافق ابن قتيبة على رأيه فإن كثيرين من أهل السنة ذهبوا إلى ذلك، و نقل رأى التفتازانى: «إنه

من باب إطلاق المركب الحسى المتوهم على المعنى العقلى المحقق» (٢) [و كأن التفتازانى ينفى وجود الكرسى .

رأى القرطبي:

و نقل القرطبي عن ابن عباس «كرسيه: علمه».

«و رجحه الطبرى، و قيل كرسية: قدرته التى يمسك بها السموات و الأرض كما تقول:

اجعل لهذا الحائط كرسيا أى ما يعمده.

و هذا قريب من قول ابن عباس (٣). [و ما من شك فالأمر كما قاله محى الدين درويش: و هذا بحث طويل يتشعب فيه الجدل بين

أهل السنة و الاعتزال «٤».

و ذكر القرطبي: «و منه قيل للعلماء: الكراسى لأنهم المعتمد عليهم كما يقال أوتاد الأرض، و استدل بقول الشاعر:

يحف بهم بيض الوجوه عصبه كراسى بالأحداث حين تنوب

(١) محى الدين درويش، إعراب القرآن و بيانه، ط (٤)، مج (٤)، ص (٢٨٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٨٤).

(٣) انظر القرطبي، مج (٢)، ط دار الحديث، القاهرة، ص (٢٧٤، ٢٧٥).

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٧

كراسى بالأحداث: علماء بحوادث الأمور.

و لكن كان الأفضل لمحبي الدين درويش أن ينقل الرواية التالية عن القرطبي ما دام نقل عن القرطبي قول ابن عباس السالف الذكر الذى تأول الكرسى بالعلم.

هذه الرواية تقول: «و سائر الروايات عن ابن عباس و غيره تدل على أن المراد به الكرسى المشهور مع العرش، و هاجم القرطبي على من يتأول الآية بقوله: «و أرباب الإلحاد يحملونها على عظم الملك و جلالة السلطان، و ينكرون وجود العرش و الكرسى و ليس بشىء. و أهل الحق يجيزونهما» (١).

و قد رد الإمام المالكي ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى المتوفى فى سنة (٦٨٣ هـ) على أحد الأقوال المفسرة لكلمة الكرسى التى ساقها الزمخشري فى الكشف و هو أن «كرسيه لم يضيق عن السموات و الأرض لبسطه و سعته، و ما هو إلا تصوير لعظمته و تخيل فقط، و لا كرسى ثمة، و لا قعود، و لا قاعد...» (٢).

قال ناصر الدين محمد بن المنير الإسكندرى المالكي:

«قوله: إن ذلك تخيل للعظمة، سوء أدب فى الإطلاق و بعد فى الإضرار، فإن التخيل إنما يستعمل فى الأباطيل و ما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحا فقد أخطأ فى التعبير عنه بعبارة موهمة لا مدخل لها فى الأدب الشرعى...» (٣).

و قد نقل العلامة الألوسى الأقوال الواردة فى «الكرسى» مثل: موضع قدميه و العرش لا يقدر قدره، أو العرش نفسه. أو قدرة الله، و قيل: تدبيره. و قيل: ملك من الملائكة و قيل: مجاز عن العلم من تسمية الشىء بمكانه لأن الكرسى مكان العالم الذى فيه العلم فيكون مكانا للعلم بتبعيته لأن العرض يتبع المحل فى التحيز...، و قيل عنه: الملك أخذنا من كرسى الملك. و قيل: أصل الكرسى ما يجلس عليه، و لا يفضل عن مقعد القاعد، و الكلام مساق على سبيل التمثيل لعظمته تعالى شأنه و سعة سلطانه و إحاطة علمه بالأشياء قاطبة، ففى الكلام استعارة تمثيلية، و ليس ثمة كرسى و لا قاعد، و لا قعود.

و هذا الذى اختاره الجهم الغفير من الخلف فرارا من توهم التجسم، و حملوا الأحاديث التى ظاهرها حمل الكرسى على الجسم المحيط على مثل لا سيما الأحاديث التى فيها ذكر القدم... و كالحديث الذى أخرجه البيهقى و غيره عن أبى موسى الأشعري (١) القرطبي، الجامع، ط دار الحديث، القاهرة، مج (٢)، ص (٢٧٥). راجعه فيه المزيد.

(٢) الزمخشري، الكشف، مج (١)، ط (١)، (١٩٩٧)، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ص (٣٢٨).

(٣) المصدر نفسه، انظر الحاشية.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٨

«الكرسى: موضع القدمين، و له أطيظ كأطيظ «١» الرجل، و فى رواية عن عمر مرفوعا: له أطيظ كأطيظ الرجل الحديد إذا ركب عليه من يثقله ما يفضل منه أربع أصابع» (٢).

بعد أن نقل الألوسى ما أثبتته أعلاه قال:

«و أنت تعلم أن ذلك و أمثاله ليس بالداعى القوى لنفى الكرسي بالكثيئة.

فالحق أنه ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة، و توهم التجسيم لا يعأ به، و إلا للزم نفى الكثير من الصفات، و هو بمعزل عن اتباع الشارع و التسليم له» (٣).

و قال: «و أكثر السلف الصالح جعلوا ذلك من المتشابه الذى لا يحيطون به علما و فوضوا علمه إلى الله تعالى مع القول بغاية التقديس و التنزيه له تعالى شأنه» (٤).

و لا بد من التنويه إلى أن الكرسي غير العرش للأحاديث الواردة «أن الكرسي مخلوق بين يدي العرش و العرش أعظم منه، و روى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر رضى الله عنه قال:

قلت: يا رسول الله أى ما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي»، ثم قال: ليهنك العلم أبا المنذر» (٥) «ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة فى أرض فلاة و فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة» (٦).

قال سيد إبراهيم فى تحقيقه أحاديث «فتح القدير» للشوكاني: عن الحديث: إن كرسيه و سع السموات و الأرض و إن له أطيئا كأطيئ الرّحل الحديد يثقله «ضعيف» قال الشوكاني:

«فى إسناده عبد الله بن خليفة و ليس بالمشهور. و فى سماعه من عمر نظر» (٧).

الحكمة من المتشابه كما فى إعراب القرآن و بيانه

لقد تناول المسألة هذه المفسرون على اختلاف مشاربهم، و تعدد مذاهبهم، لذا لا ضير على محيى الدين درويش أن يتناول المسألة إذ يقول: «إن القرآن فى الأصل نزل على أسلوب العرب و بألفاظهم و وفقا لكلامهم، و هو على ضربين: (١) أطيئ الرّحل: كور الناقه، و أطيئ الرّحل بالراكب، إنما يكون لقوة ما فوقه و عجزه عن احتمال و المراد تقرير عظمتة سبحانه. انظر النهاية (١/٥٤).

(٢) الألوسى، روح المعانى، ط (٤)، (١٩٨٥)، دار التراث، (٣)، ٩ / ٤، (١٠).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) أخرجه مسلم.

(٦) قال القرطبي فى (٣/٢٧٦): أخرجه الآجرى، و أبو حاتم البستي فى صحيح مسنده، و البيهقى و ذكر أنه صحيح.

(٧) انظر فتح القدير للشوكاني، (١/٤٠٦) ص (١)، (١٩٩٣)، دار الحديث.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٣٩

منه المحكم الذى لا- يخطئه السامع و لا- يغرب عن الفهم، و منه ما حفل بضرور المجازات، و أنواع الكنايات و الإشارات و التلويحات. و قد كان هذا الضرب الثانى أفعال فى نفوسهم و أكثر استهواء لهم، فأنزل القرآن مفرغا فى أسلوبين، حاويا للنوعين، ليكون التحدى أعم و أشمل، و لو نزل كلّه محكما لما ترددوا فى التماس المطاعن، و لما أحجموا عن المكابرة و اللجاج و الاعتراض، و لقالوا: هلا نزل بالضرب الذى نستحسنه و نميل إليه؟

هذا من جهة، و من جهة ثانية لما يتميز به المتشابه من كد القرائح فى استخراج المغالقات و اكتناه المرامى و حسر الستار عن الطرائف التى تتعالى على النظرة السطحية البدائية، حتى إذا فتح الله عليه و تمكن من سبر أغوار المتشابه كان إيمانه أرسخ، و يقينه أقوى من أن تعصف به الشهوات ..» (١) و هذا الكلام مفعم بالصواب و الله أعلم.

خاتمة:

خلا- كتاب «إعراب القرآن و بيانه» من الدراسات الفقهية و الكلامية خلّوا يكاد يكون تاما- و ركز الكتاب على الدرس اللغوى بتفريعاته: البيانية اللغوية البلاغية و النحوية و الصرفية، كذلك خلا- من الاستشهادات الحديثية إلا قليلا ... و كان عامرا بالشواهد الشعرية خدمة للنحو و البلاغة فكان الكتاب كتاب طالبى العلم، و باحثى الدرس القرآنى البلاغى، و قد بسّطت فيه المعلومة اللغوية تبسيطا فغدت مفهومة، واضحة.

كذلك فإن النماذج البلاغية القرآنية كانت تتلى بنماذج أنشأها المؤلف إنشاء من عنده، أو أتبعها بأبيات من الشعر تسهم فى توضيح المبهم، و إضاءة الغامض، و إلا أحيانا قليلة أكثر فيها من ذكر وجوه الإعراب مما يجعل الطالب معرضا للبلبل و الحيرة. إذا قرأ القارئ الكتاب حصل فوائد جمة إذ يتقوى مخزونه التفسيري و تزداد إمكاناته النحوية و البلاغية ... و يتنامى ذوقه الفنى لما يقرأ من قرآن أو من شعر أو لأى نص عربى آخر خضع لقواعد اللسان العربى.

ثم إن الكاتب كان يتبع بحثه النحوى أحيانا بفوائد صاغها على شكل دساتير نحوية قاعدية تسهила للفهم، و تيسيرا للحفظ، فبدت هذه الطريقة مقربة للقواعد النحوية للفهوم و المدارك. و بكلمة مختصرة: لقد كان الكتاب كتاب علوم اللغة العربية عدا العروض. (١) محى الدين درويش، إعراب القرآن و بيانه، مج (١)، ص (٤٥٧).
التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤١

ثالثا: تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه لمحمد على طه الدرّة**إشارة**

الشيخ محمد على طه الدرّة من مدينة حمص فى سورية، اهتم باللغة العربية اهتماما يليق بموقع هذه اللغة الكريمة من الدين، و بموقعها الأساسى من تكوين الأمة. كانت جهود الشيخ منصبه على النحو و الصرف فشرح كتاب قواعد اللغة العربية، و اهتم بإعراب أمثلته و شواهد، فاستفاد منه الطلبة و المدرسون على حد سواء. ثم عكف على إعراب شواهد «جامع الدروس العربية» لمصطفى الغلايينى، هذا الكتاب الذى شكل باكورة الكتب فى النحو فى قرننا الماضى فيما نعلم، و الكتب الأخرى التالية جاءت مستفيدة منه أيما استفادة ...

و الشيخ محمد طه الدرّة شرح شواهد «الجامع» و أعرب كلماتها، و قبل هذا كان قد انتهى من إعراب شواهد المغنى للنحوى الجليل ابن هشام- و تيسر لهذين العاملين أن يريا النور، إذ دفع بهما نحو المطبعة، فكانا بين يدى الطلبة و الدارسين خير معين، و مفيد على فهم الإعراب و التصلع فيه.

غير أن للمؤلف عملين اثنين لم يكتب لهما حتى الساعة الخروج إلى ساحة الحياة اليومية، فبقيا مخطوطين بانتظار الفرصة السانحة، راجين من الله أن تكون قريبة.

و هذان العملان هما: إعراب شواهد جمع الهوامع و شرحها، و إعراب شواهد المعلقات العشرة و شرحها» (١).

فبعد هذه الجهود فى خدمة اللغة العربية، كلل أعماله بإعراب للقرآن الكريم كامل كاف و واف ... فكان هذا العمل الكريم «تفسير القرآن و إعرابه و بيانه». (١) محمد على طه الدرّة، تفسير القرآن و إعرابه و بيانه، بيروت، دار الحكمة، ط (١٩٨٢)، مج (١)، ص (٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤٢

منهج المؤلف فى تفسير القرآن الكريم و إعرابه:

إن هذا العمل يفيد الطالب المبتدئ من شرح و تفسير كلام الله تعالى: أفراداً و جملاً.

أما الإعراب فى هذا الكتاب فلا يستفيد منه إلا من ألم بقواعد النحو الأساسية أعنى: «معرفة الأفعال الخمسة و أحوال إعرابها، و أحوال إعراب المثنى، و الجمعين السالمين المذكر و المؤنث، و أسماء الإشارة، و الأسماء الموصولة، و إعراب المنقوص و المقصور و نحو ذلك» (١).

أما طريقة الإعراب: فقد كانت ميالة إلى الإيجاز- كما أنه كان يحيل الإعراب و الإعلال على آية سلفت فى سورة سبقت- و قد يقع مثل ذلك فى التفسير أيضاً. و قد تكون الإحالة على آية تأتى فى سورة قادمة- [كأن تكون آية أصحاب السبت فى سورة البقرة فيشير إلى الرجوع إلى آية السبت فى سورة الأعراف .

كذلك فإنه لم يعرب و يشرح التعوذ و البسملة إلا مرة واحدة فى أول الكتاب، و لم يضع لسورة الفاتحة اسماً إنما كان يحيل إليها باسمها لقصرها.

و رقم السور القرآنية: البقرة رقم (٢)- و آل عمران رقم (٣) و هكذا. و إذا أحال إلى رقمين فالرقم الأول رقم الآية، و الرقم الثانى رقم السورة. فمثلاً الرقم ٢٠-٥ فالرقم عشرون رقم الآية، و الرقم (٥) رقم السورة. يعنى أنه من سورة المائدة. و الرقم ١٧، ٧ يعنى أنه من سورة الأعراف و هكذا ... أما الرقم الواحد فإنه يعنى نفس السورة.

و اعتبر المؤلف إعراب الضمائر: إياك، إياكم و نحو ذلك مبني على ما ينتهى به آخر اللفظ.

و لم يغفل المؤلف أوجه القراءات، و ما انبثق عن الخلاف فى القراءات من خلافاً إعرابية نحوية. و هذا ما ساعد القارئ على تعرفه على وجوه الإعراب المتعددة، و هذا من شأنه أن ينمى الملكة النحوية الإبداعية، و يزوده بكم غير قليل من معرفة بالأساليب النحوية و اللغوية، مما يسهم فى اكتشاف أسرار البيان القرآنى و دقة أدائه البلاغى، و إعجازه البيانى.

و لم يدع المؤلف أنه الأول فى هذا الميدان، بل أرجع الفضل لأهله على سنة العلماء المخلصين و طريقة العلماء المتواضعين غير الغامطين فضل الآخرين، فذكر أن مراجعه فى عمله هذا هى: (١) محمد على طه الدرء، تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه، مج (١)، ص (٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤٣

تفسير الخازن، و تفسير الكشاف للزمخشري، و تفسير البيضاوى، و تفسير النسفى، و تفسير الجلالين و حاشية الجمل عليهما، و إعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى، و إعراب مشكل القرآن لمكى بن طالب القيسى، و كتب المؤلف: فتح القريب المجيب، إعراب شواهد مغنى اللبيب، «و فتح رب البرية إعراب شواهد جامع الدروس العربية». و كتاب قواعد اللغة العربية و ما صنعه من شرح و إعراب فى هذا الكتاب» إضافة إلى كتب ذكرها فى هوامش الكتاب (١).

و لم يدع لعمله الكمال إنما طلب من الذى وجد هفوة أو كبوة أن يتبه المؤلف، و يرشده إليه موجهها شكره الكبير لمن أرشده إلى خطأ أو تقصير ...».

السنة النبوية فى تفسير القرآن الكريم و إعرابه:

إن القارئ المتتبع لتفسير القرآن و إعرابه و بيانه يرى أن المؤلف لم يستشهد بالحديث الشريف إلا نادراً، لأن همّه كان ذكر المعنى العام للآية، فيشرح أفكارها بعد أن يشرح مفرداتها: فمثلاً عند شرحه و تفسيره لقوله تعالى:

* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

المفردات:

(السفهاء): جمع سفيه، و هو الجاهل. و السفه: سخافة العقل، و من ركب متن الباطل سفيها فكل هذه المعانى يجوز إطلاقها على السفه و السفه «و السفاهة الحمق و الطيش» (٣).

إن المؤلف يذكر ترتيب الآية نزولا فيقول: «و هذه الآية نزلت قبل رقم الآية (١٤٤).

[و هذه الآية رقمها (١٤٢). و هى مترتبة على ما يذكر فيها من تحويل القبلة إلى الكعبة المعظمة فإذا هى من الإخبار بالغيب، و الحكمة من الإخبار بما يقوله المجرمون قبل وقوعه توطين نفوس المؤمنين على الصبر، إذ المفاجأة بالمكروه أشد، و إعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، و أبلغ فى الحجّة، فقبل الرمي يراش السهم هذه الآية متقدمة فى نظم القرآن، متأخرة فى النزول عن الآية التى أشرت إليها، و يعزّون هذا إلى ابن عباس رضى الله عنهم (١) محمد على طه الدرّة، تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه، مج (٢)، ص (٥، ٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٤٢).

(٣) محمد على الدرّة، تفسير القرآن و إعرابه و بيانه، مج (١)، ص (٣٦).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤٤

و غيره، فمعنى سيقول: ... إلخ أنهم يستمرون على هذا القول، و إن كانوا قد قالوه، و حكمه الاستقبال أنهم كما قالوا ذلك فى الماضى منهم أيضا من يقوله فى المستقبل (انتهى ملخصا من الجمل).

السفهاء: الطائشون الراكبون متن الباطل «١».

(الناس): اسم جامد، لا- واحد له من لفظه كالقوم و الرهط، واحد إنسان من غير لفظه و هو يطلق على الإنس و الجن لكن غلب استعماله فى الإنس قال تعالى: مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) و أصله الأناس حذف منه الهمزة تخفيفا على غير قياس، و حذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكاد يقال: الأناس و قد نطقه القرآن الكريم بهذا الأصل و لكن دون التعريف، قال تعالى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ (٢) و قيل: إن أصله النوس، و لم يحذف منه شيء، و إنما قلبت الواو ألفا لتحركها و انفتاح ما قبلها «٣».

(ما ولأهم): ما صرفهم.

(قيلتهم): بيت المقدس.

(كانوا عليها): يتوجهون إليها فى صلاتهم.

(المشرق و المغرب): «قال المؤلف عند تفسيره للآية ١١٥ من سورة البقرة: «يريد بهما ناحيتى الأرض، أى له سبحانه الأرض كلها لا يختص به مكان دون مكان، فإن منعم أن تصلوا فى المسجد الحرام أو فى المسجد الأقصى، فقد جعلت لكم الأرض كلها مسجدا، و فى سورة الرحمن: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) أى مشرقى الشتاء و الصيف، و مغربيهما، و قال تعالى فى سورة المعارج: فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَ الْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ فَقَدْ جمع المشرق و المغرب كما ترى باعتبار مشارق الشمس و مغاربها فى السنة و هى ثلاث مائة و ستون، تشرق كل فى يوم واحد منها، و كذا تغرب فى واحد منها، و كان فى حق المشرق و المغرب فتح العين و هى الراء لأن المصدر الميمى، و اسمى الزمان و المكان إذا أخذ أحدها من فعل ثلاثى مفتوح العين (أو مضمومها فى المضارع) أن يكون بفتح العين قياسا، و لكن التلاوة جاءت بكسرهما، و أيضا جاء كثيرا بكسر العين، و هو مذكور فى كتب النحو (١) يراجع تفسير الآية فى سورة البقرة (١٣، ١٣٠).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (٧١).

(٣) محمد على طه الدرّة، تفسير القرآن و إعرابه، و بيانه، مج (١)، ص (١٩٣). و تم نقل معنى الناس و غيرها إلى تفسير الآية، (١٤٢)

كى يتم تناسق الاقتباس، و أحلنا القارئ إلى الصفحة التى أخذنا منها.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤٥

من ذلك: المسجد، المنبت و المسقط و المرفق، و المنخر، و التحقيق أنها أسماء نوعية غير جارية على فعلها، و إلا فلا مانع من الفتح.

(تولوا): تتجهوا فى صلاتكم.

(فتم): هناك ... (وجه الله): جهته التى ارتضاها قبلا و أمر بالتوجه نحوها.

(واسع): يسع فضله كل شىء.

(عليم): بتدبير خلقه، و مصالحهم و أعمالهم فى الأماكن كلها» (١).

نلاحظ مما سبق أنه لم يستدل بالأحاديث النبوية، و لم يذكر وقائع من حياة الصحابة جاءت مساعدة على توضيح مرامى هذا النص الكريم ...

و هذا لا يعنى أن المؤلف لم يستشهد بالأحاديث البتة إنما استشهد بأحاديث شريفة فى مواضع قليلة من تفسيره مثال ذلك عند تفسيره

لسورة النحل و ذلك فى قوله تعالى: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» (١) و ذكر أسباب نزولها أيضا.

يقول المؤلف: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ): أى عقابه لمن أقام على الشك و تكذيب رسوله صلى الله عليه و سلم فلا تستعجلوه: فلا تستعجلوا

عقابه و كان الكفار يستعجلون عقابه استهزاء و سخرية حتى قال النضر بن الحارث: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ...» (٢) و قيل: المراد بأمر الله يوم القيامة، قال ابن عباس رضى الله عنهم لما نزل قوله تعالى:

«أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَ أَنْشَقَ الْقَمَرُ» (١) قال الكفار: إن الرجل يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا و

انتظروا فلم يروا شيئا، فقالوا: ما نرى شيئا فنزل قوله تعالى: «أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ فَأَسْفَقُوا وَ انتظروا قرب الساعة، فلم يروا شيئا ...

فقالوا: ما نرى شيئا ... فنزل: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ» فوثب رسول الله صلى الله عليه و سلم و المسلمون، و خافوا فنزل: (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) فاطمأنوا،

فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «بعثت أنا و الساعة كهاتين» (٣) و أشار بإصبعه: السبابة و التى تليها.

الأسماء و الصفات فى تفسير القرآن و إعرابه و بيانه:

يظهر من خلال تفسيره بعض الآيات أن المؤلف يتبنى القول بتأويل الصفات و ذلك حرصا و حذرا من الوقوع بالتشبيه، و يدعو إلى

تأويل هذه فى كل المواقع التى يمكن أن (١) محمد على طه الدرّة، تفسير القرآن الكريم، و إعرابه و بيانه مج (١) ص (١٩٣).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٣٢).

(٣) أخرجه البخارى فى (الحديث: ٦٥٠٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤٦

توهم بالمشابهة، لذا فإنه فى آية من آيات سورة الأعراف يفسر الاستواء بالاستيلاء. «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» (١).

(استوى): استولى، و لا يجوز تفسيره باستقر و ثبت فيكون الله من صفات الحوادث، و هذا التأويل ينبغى أن يقال فى كل ما يوهم

وصفا لا يليق به تعالى» (٢).

(العرش): ينقل طه الدرّة عن الراغب فى المفردات: «عرش الله عزّ و جل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة، و ليس هو كما

تذهب إليه أوهام العامة، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له، تعالى عن ذلك» (٣).

و مع أنه لجأ إلى تأويل استوى باستولى، قال بعد قليل: «إن المنقول عن جعفر الصادق و الحسن و أبى حنيفة و مالك رضى الله عنه:

إن الاستواء معلوم، و الكيف مجهول، و الإيمان به واجب، و الجحود به كفر، و السؤال عنه بدعة» (٤).

تفسير القرآن و إعرابه و بيانه و النسخ و المنسوخ:

قال فى تفسيره لقوله تعالى: ما نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا «٥».

(نسخ): النسخ فى اللغة إزالة الصورة عن الشيء، و إثباتها فى غيره، و فى الشرع:

انتهاء الحكم الشرعى المطلق الذى تقرر فى أوامنا استمراره بطريق التراخى، فكان تبديلا فى حقنا، بيانا محضا فى حق صاحب الشرع «٦» و يقرر النسخ بأنواعه: «و النسخ واقع فى القرآن الكريم بكثرة، و هو على أنواع: منه ما نسخ تلاوة و حكما، و منه ما نسخ تلاوة لا- حكما، و منه ما نسخ حكما لا- تلاوة، و سأعرض لكل نوع فى مكانه إن شاء الله تعالى» «٧» ... أى المؤلف سيذكر الآية الناسخة و المنسوخة ساعة وصوله إليها ..

و الملاحظ أن المؤلف قرر أنواع النسخ دون بحث مفصل، و هذا جار وفق ما أراد على نحو أساسى: و هو تفهيم المعنى العام للقرآن- و ذكر وجوه الإعراب الواردة فى الآيات الكريمة. (١) سورة الأعراف، الآية: (٥٣).

(٢) محمد على طه الدرّة، تفسير القرآن و إعرابه و بيانه، مج (٤)، ص (٤٨٣).

(٣) راجع المفردات للراغب، و راجع تفسير الخازن.

(٤) محمد على طه الدرّة، تفسير القرآن و إعرابه و بيانه، مج (٤)، ص (٤٨٣)، و راجع النسخ فى تفسير آيات الاستواء.

(٥) سورة البقرة، الآية: (١٠٦).

(٦) محمد على طه الدرّة، تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه، مج (١)، ص (١٨١).

(٧) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤٧

الظاهرة النحوية و الصرفية فى تفسير القرآن و إعرابه و بيانه:

ظهر الإعراب واضحا فى تسمية الكتاب ... و هذا وحده كاف للإشارة على المساحة الواسعة التى حازها الإعراب فى هذا العمل العلمى.

و الحق أن الرجل تناول إعراب القرآن الكريم كلمة كلمة، و حرفا حرفا. كما أعرب الجمل- و ناقش الظواهر الصرفية فى الكلمة أى ما اعترها من ظواهر الاشتقاق و التغيير كالأفعال و الإبدال و غير ذلك. و ذكر وجوه القراءات المؤثرة على توليد وجوه إعراب جديد أغنت معنى الآيات، و أكسبتها معان جديدة، و دلالات عديدة، من ذلك إعرابه لقوله تعالى من سورة الأنعام: وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُزِدُوهُمْ و لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ «١٣٧» (١).

(زَيْن لكثير ...): فى هذه الجملة قراءات، و المتواتر منها ثنتان: الأولى: قراءة العامة مينا للفاعل.

و قرأ ابن عامر (زين) مينا للمفعول، و رفع قتل على أنه نائب فاعل، و نصب أولادهم على أنه مفعول به للمصدر (قتل). و (شركائهم) بالجر على أن المصدر مضاف إليه، قال البيضاوى: و هو ضعيف فى العربية معدود من ضرورات الشعر كقول الشاعر:

فزججتها بمزجة زج القلوص أبى فزاده

و قرأ النخعى (و ليلبسوا) بفتح الباء و الصحيح أن لبس بالكسر بمعنى لبس الثياب و بالفتح بمعنى الخلط، و الصحيح أنه استعار اللبس لشدة المخالطة الحاصلة بينهم و بين التخليط حتى كأنهم لبسوها كالثياب، و صارت محيطه بهم.

و لنأخذ بعض الكلمات المعربة من الآية السابقة «٢».

(و كذلك): الواو حرف عطف ... (كذلك): جار و مجرور متعلقان بمحذوف بصفة لمفعول مطلق محذوف عامله ما بعده. التقدير: زين لكثير من المشركين تزيينا كائنا مثل ذلك التزيين لهم فى الشرك و قسمة الأموال و غير ذلك، و اللام للبعد و الكاف للخطاب. (زين): فعل ماض. (لكثير): متعلقان به. (من المشركين): متعلقان بصفة محذوفة من كثير ... (١) سورة الأنعام، الآية: (١٣٧). (٢) أى الآية: (١٣٧) من سورة الأنعام: وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُزِدُوهُمْ و لِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١٣٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤٨

(قتل): مفعول به، و هو مضاف.

(أولادهم): مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، و فاعله محذوف و الهاء فى محل جر مضاف إليه.

(شركاؤهم): فاعل زين. و الهاء: فى محل جر بالإضافة. هذا على قراءة البناء للمجهول.

(فقتل بالرفع): نائب فاعل مرفوع، (و أولادهم) بالنصب مفعول به للمصدر (قتل).

(و شركائهم بالجر): بإضافة قتل إليه. و أقحم المنصوب بين المتضايين.

و جملة (كذلك زين ... الخ). معطوفة على ما قبلها فى الآية السابقة، و الاستئناف ممكن بالإعراض عما قبلها.

(ليزدوهم): مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. و علامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، و الواو فاعله، و الهاء

مفعوله، و الميم فى الكل حرف دال على جماعة الذكور، و أن المضمرة و الفعل المضارع بتأويل مصدر فى محل جر باللام، و الجار

و المجرور متعلقان بالفعل زين. التقدير: لإردائهم.

(و ليلبسوا): معطوف على ما قبله، و هو مثله فى إعرابهم.

(عليهم): متعلقان بما قبلهما.

(دينهم): مفعول به منصوب. و الهاء: فى محل جر بالإضافة «١».

(و لو): الواو حرف استئناف. لو: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره.

(شاء الله): فعل و فاعل و المفعول محذوف. تقديره و لو شاء الله «توحيدهم».

(ما): نافية: فعله: فعل و فاعل. و الألف: للتفريق.

(فذرهم): الفاء فاء الفصيحة. لأنها أفصحت عن شرط مقدر، ذرهم: أمر. و الفاعل أنت. و الهاء: مفعول به. ما: تحتل الموصوفة و

الموصولة و المصدرية، فعلى الاعتبارين الأولين: مبنية على السكون فى محل نصب، معطوفة على الضمير المنصوب و الجملة الفعلية

بعدها صلتها أو صفتها، و العائد أو الرابط محذوف. إذا التقدير: الذى، أو شيئا يفترونه و على اعتبار ما مصدرية: تؤول مع الفعل بعدها

بمصدر، فى محل نصب معطوف على الضمير المنصوب. التقدير: فذرهم و افتراءهم. هذا و جواز اعتبار الواو للمعية فتكون (١) محمد

على طه الدرّة، تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه، مج (٤)، ص (٢٨٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٤٩

(ما) على الاعتبارين الأولين فى محل نصب مفعول معه و الجملة الفعلية (فذرهم ... الخ) لا محل لها من الإعراب. لأنها جواب للشرط

المقدر إذ التقدير:

و إذا كان ما ذكر واقعا و حاصلا فذرهم ... الخ «١».

و من هذا يظهر الإعراب الدقيق لكل كلمة فى الآيات الواردة فى القرآن، و تظهر الوجوه الإعرابية أيضا.

لقد كان كتاب «تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه» مشتملا على بيان المفردات و الشرح العام للآيات ... مع خلو من مناقشة الأحكام الفقهية، إلا ما كان نادرا و مقتضيا، مع خلوق هذا التفسير من الإسرائيليات. أما بيانه لمعنى الآيات فكان واضحا لوضوح لغته و سهولتها من دون خروج على آراء جمهور المفسرين و الإعراب كان شاملا على الرغم من الإيجاز.

هذا الكتاب يستفيد منه المدرسون و الدارسون المتقنون لقواعد النحو العربى العامة ... و بهذا العمل أضاف المؤلف إلى المكتبة العربية و الإسلامية عملا علميا نافعا لمستويات علمية متعددة من أبناء الأمة.

(١) نقلنا إعراب تكملة الآية: «و لو شاء ربك ما فعلوه فذرهم و ما يفترون» من مج (٤)، (٢٤٥).
التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥٠

الفصل الثامن التفسير الحدائى

إشارة

- الكتاب و القرآن: قراءة معاصرة، محمد شحور.
التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥٢

الكتاب و القرآن: قراءة معاصرة محمد شحور

محمد شحور و مؤلفه: الكتاب و القرآن - قراءة معاصرة:

يظهر على نحو جلي أن الدكتور محمد شحور مؤلف كتاب «الكتاب و القرآن- قراءة معاصرة» لم يكن مختصا بهذا النوع من الدراسات من خلال كثير من الدراسات التى تناولت كتابه هذا ... إنما هو مختص بالهندسة. و فى عام ١٩٩٠ صدر كتابه المسمى «الكتاب و القرآن» قراءة معاصرة- و ذكر فيه أن له صديقا أطلعته على أسرار اللسان العربى، و أن أطّاع المؤلف على تلك الأسرار قد مكّنه من أن يؤول القرآن تأويلا مستحدثا يصلح لكل زمان و مكان «١». و الحق أن مثل هذا المؤلف أثار عددا من الدارسين و الباحثين فى مجال الدراسات الإسلامية و القرآنية على وجه الخصوص فانبهروا رادين على المؤلف «محمد شحور». أقول بداية: أن الكتاب و القرآن- قراءة معاصرة». هو لون من ألوان الدراسات «الحدائيه» التى تناولت المعارف بأنواعها فى السنوات العشرة السابقة ...

إذ ظهرت دراسات معرفية، تناولت دراسة الثقافة العربية الإسلامية بنتائجها المتنوعة دراسة نقدية، استهدفت أصول هذه الثقافة، أو الأسس التى أنتجت العقل العربى و كونه عبر فترة مديدة من السنين ... و هذه الدراسات الحدائيه الفلسفية استعارت أدواتها من (١) المقصود بهذا الصديق الدكتور جعفر دك الباب الذى ساعده فى المسائل اللغوية المتعلقة بإنجاز هذا الكتاب. و المعلوم أن جعفر دك الباب من الذين أشادوا بجهد محمد شحور فى هذا الكتاب «الكتاب و القرآن. قراءة معاصرة»، و من المناسب أن تراجع: رسالة «سليم الجابى المفتوحة إلى جعفر دك الباب فى القراءة المعاصرة بمجرد تنجيم»، السليم الجابى ص (٣٤١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥٤

مدارس أخرى- و أراد أصحابها تطبيق مناهج و أدوات غير عربية و غير إسلامية فى فهم و تحليل الناتج المعرفى للثقافة الإسلامية،

معتبرين أن عدم عروبته وإسلاميته هذه المناهج المعتمدة فى دراسة الثقافة و العلوم الإسلامية ليس أمرا معيبا من شأنه أن يقلل من قيمة هذه الدراسات و السبب لأن هذه المناهج علمية حيادية و ليست خاصة بأصحابها أو بالأمة التى أنتجت هذه المناهج. و الملاحظ أن هؤلاء لم يفرقوا: بين ما هو منهج علمى محض كمنهج البحث فى العلوم الكونية التجريبية المخبرية. و لا شك أن هذا إنسانى محض، يؤخذ بقطع النظر عن الأمة أو جنسية الناس الذين أنتجوه ... و بين ما هو مرتبط تمام الارتباط بشخصية أمة ما من الأمم كأن تدرس الإنكليزية بمنهج تحليلية عريية، أو يدرس الشعر العربى القديم وفق مناهج غربية، أو أن يدرس القرآن وفق قواعد منهجية ناجمة عن الفلسفة الوجودية أو الماركسية أو الفرويدية أو الذرائعية و غير ذلك ... يقينى أن كل معرفة تنتج أدواتها المنسجمة معها، و أن أى عملية تأليف أو تليفق بين مناهج نشأت فى بيئات مختلفة و محاولة استجراها إلى ساحة غير ساحتها التى نمت فيها و ترعرعت بها، من شأنه أن يجعل هذا الاستجرا ممجوجا، و تأتى ثمار تطبيقه فى حقول الدراسات المعرفية الأخرى الناجمة عن بيئات مغايرة غير صادقة و غير معبرة تعبيراً صادقا عن طبيعة تلك المعارف المدروسة بمنهجيات غربية. لأن هذه المنهجيات نتاج ظروف و ثقافات متباينة مختلفة كل الاختلاف مع هذه المعارف التى يراد إخضاعها للدرس و النقد وفق هذه المناهج الوافدة من خارج الإطار المعرفى الخاص لأمة ما من الأمم. و الذى يتابع الدراسات الحداثية التى ظهرت فى سوق الثقافة العربية فى العقدين الماضيين لا يخالجه الشك أنها قسرت الثقافة العربية الإسلامية لكى تخضعها على المقاس المسبق الذى فصلته لها هذه المناهج الغربية عنها ... و هذا ما نراه واضحا من خلال دراستنا لكتاب محمد شحرور المعنون ب «الكتاب و القرآن: قراءة معاصرة».

المسائل اللغوية فى كتاب محمد شحرور:

كتاب الأستاذ محمد شحرور يحتوى على مقدمتين اشتملتا معا على خمسين صفحة: المقدمة الأولى: أنشأها أستاذ المؤلف، وصف الأستاذ منهج التلميذ بأنه منهج تاريخى علمى - و هذا المنهج طبقه على كتاب الله فأحسن تطبيقه». و المقدمة الثانية: كتبها المؤلف محمد شحرور و فيها «يعترف بجميل أستاذه» الذى التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥٥. قدّم الكتاب للقراء و علمه أسرار اللسان العربى» و عرّفه آراء الفراء «١» و أبى على الفارسى «٢» و تلميذه ابن جنى «٣»: يقول: «و قد تعرفت عن طريقه على آراء الفراء ...» «٤». و يتحدث محمد شحرور أن كتابه ألف بمراحل: المرحلة الأولى: فى دبلن. و المرحلة الثانية: بدأت فى الاتحاد السوفيتى حيث لقي «أستاذه فى اللغة العربية». و المرحلة الثالثة: كانت من عام ١٩٨٦ - ١٩٩٠.

مصطلحات المصحف عند محمد شحرور:

يقول محمد شحرور «٥» «إن فى المصحف أربعة مصطلحات هى: الذكر و القرآن و الفرقان ...؟ .. و بدأ المؤلف يعرف هذه المصطلحات:

- الكتاب و القرآن:

الكتاب من كتب، و الكتاب فى اللسان العربى تعنى جمع أشياء بعضها مع بعض لإخراج معنى مفيد أو لإخراج موضوع ذى معنى متكامل» (٦).

ينسب هذا الكلام الذى قاله للسان العربى:

«و اللسان العربى إنما هو القرآن و الحديث و كلام العرب» (٧).

و ما دام مؤلف الكتاب و القرآن ينسب تعريفه للكتاب للسان العرب أى للغة العرب، فإننا سنعود إلى مصادر هذا اللسان فإننا نجد: (الكتاب): اسم لما كتب مجموعا، و يقول ابن منظور فى الكتاب: ما كتب فيه» (٨). (١) الفراء: يحيى بن زكريا (١٤٤-٢٠٧ هـ) إمام الكوفيين، و أعلمهم بالنحو و اللغة و الأدب و كان يقال:

الفراء أمير المؤمنين بالنحو. من كتبه: معانى القرآن. انظر مقدمة معانى القرآن.

(٢) الفارسي: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار- أبو على (٢٨٨-٣٧٧ هـ) أحد أئمة العربية، من كتبه المسائل العسكرية- «المسائل البصريات».

(٣) ابن جنى: أبو الفتح، عثمان بن جنى (٣٢٢-٣٩٢ هـ) من أهم كتبه «الخصائص» و سر الصناعة، و شرح ديوان المتنبي، انظر مقدمة نسب ابن جنى فى الخصائص.

(٤) محمد شحرور، الكتاب و القرآن: قراءة معاصرة، دار الأهالى ط (١)، (١٩٩٠) ص (٢٠).

(٥) المصدر نفسه، ص (٥١).

(٦) المصدر نفسه

(٧) يوسف الصيدواوى، بيضة الديك، نقد لغوى لكتاب: الكتاب و القرآن، ط (١)، د. ت، ص (١٢).

(٨) ابن منظور، اللسان، مادة كتب.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥٦

و ساق ابن منظور الحديث الشريف: «من نظر فى كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر فى النار» (١).

و الحق: أن ابن فارس قال فى كتب: الكاف و التاء و الباء أصل صحيح واحد يدل على جمع شىء إلى شىء ... من ذلك الكتاب و الكتابة» (٢).

أما قول الشحرور: الكتاب: تعنى جمع أشياء بعضها مع بعض لإخراج معنى مفيد أو لإخراج موضوع ذى معنى متكامل» فهو ليس موجودا لأن الذى «يعرفه الناطقون باللسان العربى، أن الكتاب له تعريفات مختلفة، و لكن ليس أحدها أنه «جمع أشياء» إذ الأشياء- كما تعرف الشعوب و الأقوام من كل جنس لا من العرب و وحدهم- لا تجمع لإخراج معنى» (٣).

ثم يقول محمد شحرور: و عكس كتب من الناحية الصوتية «بتك» و يمكن قلبها بحيث تصبح «بكت». و جاء فعل بتك فى قوله تعالى: فَلْيَبْتَكَنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ (٤). فالكتاب فى المعنى عكس البتك أو البكت» (٥).

و لست أدرى ما علاقة هذا الكلام بالبحث الذى أراده محمد شحرور.

و يقول المؤلف محمد شحرور:

«و عند ما نسمى فلانا كاتبنا نقصد المواضيع و تأليف الجمل و وضع بعضها مع بعض، و ربط أحداث بعضها إلى بعض و عند ما نقول ذلك لا نقصد الخط بتاتا، و إنما نقصد صياغة الجمل و ربطها لإخراج موضوع ما» (٦).

و فى هذا تخطيط فى التعبير «فعند ما نسمى فلانا نجارا نقصد الأخشاب، و عند ما نسمى فلانا جزارا نقصد البقر ... الخ» (٧). و مثله عند ما نسمى فلانا حدادا نقصد الحديد.

و عند ما نسمى فلانا ربانا نقصد السفينة أو الطائرة!! ...

و كذلك فإن المؤلف بذل جهدا كبيرا كى يصل إلى تشكيل مساواة لغوية غير صحيحة هي: الكتاب الموضوع. (١) اللسان، مادة كتب ص (٦٩٨)، ط دار صادر.

(٢) ابن فارس، المقاييس، انظر باب الكاف و التاء و ما تليهما، (٥/ ١٥٨)، ط دار الجيل ت عبد السلام محمد هارون.

(٣) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٢).

(٤) سورة النساء، الآية: (١١٩).

(٥) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ص (٥١).

(٦) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (١٧).

(٧) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ص (٥٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥٧

هذا كى يؤسس لفكرة مأخوذة من قوله:

«و بما أنه أوحى إلى محمد صلى الله عليه و سلم عدة مواضع كل موضوع منها كتاب فمن هذه الكتب القيمة كتاب الخلق كتاب الساعة، كتاب الصلاة- كتاب الصوم- كل هذه المواضع هي كتب» «١» و هنا يصل إلى استنتاجه غير الصحيح البتة:

«من الخطأ الفاحش أن نظن أنه عند ما ترد كلمة كتاب فى المصحف فإنها تعنى كل المصحف لأن الآيات الموجودة بين دفتى المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس تحتوى على عدة كتب «مواضع» «٢».

و يقول: «مجموعة المواضع التى أوحيت إلى محمد صلى الله عليه و سلم هي مجموعة الكتب التى سميت الكتاب» ... و هذا الكتاب هو مجموعة المواضع التى أوحيت إلى محمد صلى الله عليه و سلم.

و يقول: «و عند ما تقول: أصدر رئيس الوزراء كتابا نقصد به المعنى الموضوع «لا الخط حيث يجب علينا متابعة القول بأخبار موضوع الكتاب و إلا يصبح المعنى ناقصا كأن تقول: أصدر رئيس الوزراء كتابا بشأن كذا و كذا، و إذا قلنا كلمة كتاب و لم نعطفها إضافة لتوضيح الموضوع يصبح المعنى ناقصا» «٣».

و هذا تخطيط لا فائدة فيه، و تعميم دونما برهان. و انظر الآيات التالية التى ورد فيها الكتاب دونما إتباع لها بكلمة واحدة، قال تعالى: وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) «٤». و قال تعالى: وَ أذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا «٥» كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا «٦». و قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا «٧» «٧».

يقينى من قال إن هذا الكلام ناقص المعنى فقد انحدر إلى هاوية الجهل و الانحطاط، لأنه نسب النقص لله تعالى الذى أنزل على عبده و رسوله القرآن.

و ظنى أن محمد شحرور يقع فى هذه التعميمات، و الأخطاء القاتلة لعدم استقرائه (١) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ص (٥٢). (٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص (٥٢).

(٤) سورة النبأ، الآية: (٢٩).

(٥) سورة مريم، الآية: (١٦).

(٦) سورة الإسراء، الآية: (٥٨).

(٧) سورة الفرقان، الآية: (٣٥).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥٨

النصوص القرآنية و الحديثية و اللغوية الأخرى، و لو استقصى لظهر له خطأ أحكامه إن كان يريد إنصافا و بحثا عن الحقيقة، إذ وردت

كلمة الكتاب فى القرآن «معرفاً و منكرًا غير موصوف و لا مضاف إلى ما بعده، و لا متبوع بموضوع فبلغ ذلك نحوًا من مائة و تسعة و خمسين موضعًا فى الأقل...» (١). و من البديهي لو كان هذا الكلام صحيحًا لتسرب النقص إلى القرآن، و لاعتراه العيب أيما اعتراء!! و يقول مؤلف القراءة المعاصرة:

«و عند ما نجمع أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم حسب المواضيع كأن نجمع ما قاله النبى صلى الله عليه و سلم حول الصلاة نسميه كتابًا حيث نقول كتاب الصلاة» (٢). ثم يتابع ليفسر لنا عبارته: «فعد ما نقول:

الصلاة كتاب يعنى أن الصلاة هى من المواضيع التعبيرية» (٣).

و هنا لا بد من ملاحظة ما يلى:

عند ما يبوب المحدثون موضوعات الأحاديث و يقولون هذا كتاب الجهاد، هذا كتاب الصلاة، هذا كتاب المعاملات ... الخ. فهم يعنون بالكتاب «كل شىء يكتب فيه» وفق ما ورد بعبارة ابن منظور فى اللسان (٤) و الكتاب: هو الصحيفة (٥). و تأسيسًا على ذلك إن الذى أرادوه: الصحائف التى كتبت فيها أحكام الصلاة أو الزواج ...» (٦). و إنما فعلوا لأن القرآن أرشدهم: وَ الطُّورِ (١) وَ كِتَابٍ مَّشْطُورٍ (٧).

و على ذلك فإذا قال أئمة الحديث: هذا كتاب الصلاة «فهم يريدون أن هذا الكتاب الذى جمعت فيه و سطرته فيه، و كتبت فيه أحكام الصلاة، لا أنك إذا قلت: «الصلاة كتاب» فالمعنى: الصلاة من المواضيع التعبيرية» (٨). ووفقًا لما ذكره مؤلف الكتاب و القرآن و المشكلة أن مؤلف القراءة المعاصرة يطلق العنان للسانه و قلمه فى القول و الكتابة دون تدبر و اف لما يبنى عليه مفارقات معنوية بين التعبيرين فلاحظ الفرق الشاسع بين قوله:

كتاب الصلاة و قوله: «الصلاة كتاب» ... و يبدو واضحًا مرادنا إذا مثلنا بأمثلة: كتاب (١) يوسف الصيداوى، بيضه الديك، ص (١٩).

(٢) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ص (٥٢).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن منظور، اللسان/ مادة: كتب، ص (٦٩٨).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) يوسف الصيداوى، بيضه الديك، ص (٢٠).

(٧) سورة الطور، الآية: (٢).

(٨) سورة النساء، الآية: (١٠٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٥٩

الرجل، و الرجل كتاب» أو كما يقول محمد يوسف الصيداوى: امرأة الرجل، و «الرجل امرأة!» و أتابع المسيرة مع المؤلف:

قال تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١).

يقول الشحرور عن الآية: «هذا يعنى أن الصلاة هى من المواضيع التعبيرية» (٢) لقد فات المؤلف أن فعل كتب و ما يدور حوله من كلمات- إذا تعدى بحرف الجر «على» كما ترى فى قوله تعالى: كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا اكتسب معنى جديدًا هو فرض و الآيات كثيرة فى القرآن التى تشير إلى تضمين كتب معنى فرض، لأن فرض تأتي متعدية بحرف الجر فرض الله عليكم خمس صلوات ... و كتب تضمن معنى فرض إذا تعدت بحرف الجر «على» يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ (٣). وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ... (٤) وَ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ (٥). و كل ما سقناه من تعدى فعل كتب بحرف الجر على تضمن معنى فرض. و إلى هذا أشار أئمة اللغة: الزبيدى و أحمد بن فارس فى تاج العروس، و فى المقاييس.

و قول الله تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ينبى بفرضية الصلاة على المؤمنين، و لا- ينبى أن الصلاة موضوع

تعبدى!! و يقول مؤلف الكتاب و القرآن:

«و بما أنه أوحى إلى محمد صلى الله عليه و سلم عدة مواضع مختلفه كل موضوع منها كتاب قال:

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٦) فمن هذه الكتب القيمة: كتاب الخلق، و كتاب الساعة، كتاب الصلاة، كل هذه المواضع هى كتب» (٧).

و من يمتلك أدنى درجه من درجات المعرفة يظهر له أن كلمه «قيمه» تصف الكتب، و القيمه هى المستقيمه التى لا ميل فيها و لا عوج. و الكتب فى الآيه ليست مواضع إنما هى أحكام. و الكتاب بمعنى «الحكم» جاء كثيرا فى القرآن الكريم من ذلك: (١) سورة النساء، الآيه: (١٠٣).

(٢) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ص (٥٢).

(٣) سورة البقره، الآيه: (١٨٣).

(٤) سورة المائده، الآيه: (٤٥).

(٥) سورة البقره، الآيه: (١٧٨).

(٦) سورة البينه، الآيتان: (٢، ٣).

(٧) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ص (٥٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٠

لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) «١» لو لا حكم من الله سبق. و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله «٢». أى فى حكمه. و قوله: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فى كتاب الله «٣». أى: فى حكمه.

إذا الكتب القيمة فى قوله تعالى: يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ «٤» ليس معناها مواضع مستقيمه كما تزعم القراء المعاصره. و إنما معناها أحكام مستقيمه أى: يتلو صحفا مطهرة فيها أحكام مستقيمه لا ميل فيها عن الحق و لا زيغ، يدلك على ذلك الآيه الخامسه من السوره نفسها، و فيها: وَ ذَلِكَ دِينَ الْقَيِّمَةِ «٥» أى: ذلك دين المله المستقيمه التى لا عوج فيها، المستمره فى جهه الصواب «٦».

و لو راجعنا فهم المؤلف لمعنى الكتاب «جمع أشياء» المتوجب عليه أن يبرر قول الزمخشري أو يصفه بالخطا. فعند ما سمى معجمه «كتاب أساس البلاغه» و ليس كما نسميه نحن اختصارا أو تجوزا «أساس البلاغه» «٧» لكان المعنى «جمع أساس البلاغه». نعم لو كان المؤلف أى «لو كان الزمخشري سمى معجمه كتاب أساس البلاغه» لأمكن أن يلج المؤلف من هذا الشق فيقول: المعنى هو «جمع أساس البلاغه» «٧» و لكن ذلك لم يكن، فهذا الشق إذا غير نافذ و المؤلف فى العراء!!».

لا وجود للأشياء إلا فى عالم الكتب:

إنها لمجازفه خطره تلك التى أتى بها مؤلف القراءه المعاصره إذ راح يطلق أحكامه دونما حدود من أن لا وجود لشيء فى الكون إلا من خلال الكتب!! لذا قال الله تعالى:

وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) «٩»!!.

قال المؤلف: «لذا لا يوجد شيء فى أعمال الإنسان و فى ظواهر الطبيعه إلا من (١) سورة الأنفال، الآيه: (٦٨).

(٢) سورة الأنفال، الآيه: (٧٥).

(٣) سورة التوبه، الآيه: (٣٦).

(٤) سورة البينه، الآيتان: (٢، ٣).

(٥) سورة البينه، الآيه: (٥).

(٦) أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى، مجمع البيان لعلوم القرآن ج (١٠)، ط (١٩٩٧)، رابطة الثقافة و العلاقات الإسلامية، طهران، ص (٤٦٧).

(٧) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٢٨).

(٩) سورة النبأ، الآية: (٢٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦١

خلال الكتب و لذا قال: وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) «١».

و (كتابا): فى هذه الآية ليس معناها الكتب أو مجموعة العناصر، و الصواب: (أن كتابا) فى هذه الآية معناه (الكتابة)! و ذلك أن الكتاب من الوجهة الصرفية مصدر كتب يكتب، يعلم ذلك من يعلم و يجهله جاهل. ففعل «كتب» له مصادر مختلفة هي: «كتبا» و كتبه، و كتابة، «و كتابا». و أشار إلى هذا الراغب «٢». و أشار إلى ذلك الطبرسى فى مجمع البيان بقوله: «و كل شىء أحصيناه كتابا» كتابا: منصوب على المصدر. لأن كتب بمعنى أحصى. و يجوز أن يكون فى موضع الحال أى نكتبه. و التقدير: أحصيناه كاتبين». و قال الطبرسى فى مجمع البيان وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ أى: و كل شىء من الأعمال بيناه فى اللوح المحفوظ، و مثله وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فى إمام مبین «٣». و قيل معناه: و كل شىء من أعمالهم حفظناه لنجازيهم به «٤». ثم يظهر الطبرسى النكتة البلاغية الجميلة التى لم يفتن لها أصحاب القراءات المعاصرة، بل عموا عليها تشويها: «ثم بين أن ذلك الإحصاء و الحفظ وقع بالكتابة لأن الكتابة أبلغ فى حفظ الشىء من الإحصاء» «٥». و الكتابة طريقة من طرق الإحصاء، غير أنها أشدها تثبيتا للمادة المحصية.

آيات من الكتاب الكريم أساء المؤلف فهمها:

و الغريب أن المؤلف لم يتنبه إلى سياق الآيات الكريمة و الموضوعات التى تناولها هذه الآيات على الرغم من تركيزه على الكتاب موضوع أو مواضع.

قال تعالى: الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ «٦» فهذا لا- يعنى كل آيات المصحف، و إنما يعنى مجموعة الآيات المحكمات ... و عند ما قال: كِتَابًا مُتَشَابِهًا «٧». فإنه لا يعنى كل المصحف، و إنما يعنى مجموعة آيات متشابهات «٨». لو أنه تمعن نص الآية فى سورة هود: الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ (١) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ص (٥٢).

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات، مادة كتب، ص (٤٢٥).

(٣) سورة يس، الآية: (١٢).

(٤) الطبرسى، مجمع البيان، (١٠ / ٢٧٢).

(٥) المصدر نفسه، (١٠ / ٢٧٦).

(٦) سورة هود، الآية: (١).

(٧) سورة الزمر، الآية: (٢٣).

(٨) الألوسى، روح المعانى، ط دار إحياء التراث العربى، (١٩٨٥)، (٣ / ٨٠).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٢

خَبِيرٍ (١). و تمعن آية الزمر: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعْرُقُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣). لوجد أن الإحكام فى سورة هود اشتمل على كل آيات الكتاب «القرآن» لأنه أراد الإحكام بيانا و بلاغة و سبكا. و لم يقصد «الآيات المحكمات» التى أشارت إليه الآية فى

سورة آل عمران «مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ». فمحكمات فى آية آل عمران «صفة آيات: أى واضحة المعنى ظاهرة الدلالة، محكمة العبارة، محفوظة من الاحتمال و الاشتباه» (١). لذا فإنهن «أم الكتاب». «و كتابا متشابهة» فى سورة الزمر لم يقصد بها المتشابه الذى ورد فى آل عمران أيضا «وَأَخْرَجُ مُتَشَابِهَاتٍ» فمعنى المتشابهات فى آل عمران: «هى فى الحقيقة صفة لمحذوف» أى احتمالات لمعان «متشابهات لا يمتاز بعضها عن بعض فى استحقاق الإرادة و لا يتضح الأمر إلّا بالنظر الدقيق، و عدم الإيضاح قد يكون للاشتراك أو للإجمال، أى لظاهرة التشبيه، فالمتشابه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى ...» (٢).

أما آية هود التى تحدث عنها المؤلف بقوله: فهذا لا يعنى كل آيات المصحف». قال الرازى: «أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ» نطمت نظما، رصيفا محكما لا يقع فيه نقص و لا خلل كالبناء المحكم المرصف» (٣). و الإحكام: «عبارة عن منع الفساد من الشىء» (٤). و إلى مثل هذا ذهب الشوكانى فى فتح القدير (٥). أما آية سورة الزمر التى سقناها قبل قليل فهى لا علاقة لها بآية آل عمران: «وَأَخْرَجُ مُتَشَابِهَاتٍ» إنما المقصود بالجزء الذى استشهد به صاحب الكتاب و القرآن كتاباً مُتَشَابِهَاتٍ أى: أن الكتاب «يشبه بعضه بعضا فى الحسن و الحكم، و يصدق بعضه بعضا، ليس فيه تناقض و لا اختلاف، و قال قتادة: يشبه بعضه فى الآى و الحروف ...» (٦).

و من جانب آخر فحجج الكتاب مدحوضه بقواعد العربية: الر كتاب أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ، ما إعراب جملة أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ لا تكون من الناحية الإعرابية إلا صفة لكتاب أى: كتاب محكمة آياته، و هذا النعت «أتى به لتخصيص المنعوت (١) الألوسى، روح المعانى، ط دار إحياء التراث العربى، (١٩٨٥)، (٣ / ٨٠). (٢) المصدر نفسه.

(٣) الرازى، مج (٦)، تفسير سورة هود، ط دار إحياء التراث العربى، ص (٣١٢).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) انظر الشوكانى، فتح القدير، ط دار الحديث، (٢ / ٦٧١).

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الزمر، ص (٢٣٨).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٣

و هو كتاب بعد أن كان عاما، فكلمة كتاب قبل أن تنعت كانت تنطبق على كل كتاب فلما أريد تخصيصها، جىء بالنعت بعدها أى: كتاب أحكمت آياته كتاب محكم الآيات كتاب محكمة آياته، فباعد ذلك بينه و بين كل كتاب عموما» (١). و السؤال: إذا كانت جملة أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ نعت لكتاب فهل النعت تنعت جزءا من المنعوت أو تنعت كل المنعوت؟ «فإذا قلنا: هذا كتاب أحرقت صفحاته» فمعنى قولك أن صفحات هذا الكتاب قد أحرقت بغير استثناء، لا أن بعضها قد أحرقت، و بعضها بقى سليما لم يحرق» (٢).

و ما قلناه فى قوله تعالى: أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ نقول فى الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا فَكَذَلِكَ مُتَشَابِهًا نعت، و لا حاجة للإعادة ... غير أن فارقا موجودا هو: أن فى آية هود توجد كلمة آيات، أما فى آية الزمر فلا وجود لهذه الكلمة الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا. فتأتى كلمة متشابهة فى صيغة اسم فاعل مفرد، و أما المؤلف فيقول: مجموعة آيات متشابهات فيأتى بكلمة «آيات» من عند نفسه، ثم يجعل صفتها فى صفة اسم فاعل مجموع «متشابهات» و شتان ما بين مفرد مذكر، و جمع مؤنث!!!» (٣).

*** لقد استقرّ فى ذهن المؤلف أن الكتاب غير القرآن فلما أراد البرهنة على صحة دعواه «لم يجد سبيلا إلى هذه البرهنة إلا بأن يقطع القرآن قطعاً، كل قطعة منها لها صفة تخالف صفة الأخرى فهذه آيات محكمات، و هذه آيات متشابهات و هذه آيات لا محكمات و لا متشابهات ...» و ما كان هذا ممكنا لو ظل القرآن كتابا واحدا ... فهات الفأس» (٤).

القرآن غير الفرقان فى القراءة المعاصرة:

أورد مؤلف القراءة المعاصرة أحكاما فى غاية الغرابة مبنية على حكم إعرابى مؤداه العطف ... و العطف فى العربية ينجم حكم المغايرة فالمعطوف مغاير للمعطوف عليه كقولك: آمنا بالله و الملائكة و الكتب و الرسل ... إلخ. فكل معطوف فى هذه الجملة مغاير للمعطوف عليه. (١) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٣٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه ص (٣٤، ٣٥).

(٤) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٤

هذا صحيح بلا ريب. و لكن الحكم الذى ذهب إليه المؤلف جعل المعطوف المجرور معطوفا على مرفوع! إذ عطف «الفرقان» (بالجر) على القرآن المعطوف عليه و حركته الرفع ليخرج بحكم أن الفرقان غير القرآن ... لأن المعطوف غير المعطوف عليه. قال تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَانِ «١» ثم علق على ذلك فقال: «و بما أن الفرقان جاء معطوفا على القرآن يستنتج أن الفرقان غير القرآن» «٢».

كما هو واضح عطف الفرقان المجرور بالكسرة معطوفا على القرآن المرفوع بالضمه!

و جعل الفرقان المعطوف بالواو على الهدى معطوفا على «القرآن»، و الخطورة الفظيعة فى المسألة أن جعل هذا الخطأ النحوى الكبير أساسا يركز عليه، و يعتمد فى حكمه القائل: «و بما أن الفرقان جاء معطوفا على القرآن يستنتج أن الفرقان غير القرآن» و راح ليقول: «جاء لفظ القرآن فى ستة مواضع من الكتاب» «٣».

و الحق أنه جاء فى سبعة مواضع فى الكتاب لا ستة، و تابع صاحب القراءة المعاصرة قوله: «و فى هذه المواضع الستة جاء معرّفا» «٤». نعم هو معرف فى هذه المواضع الستة و لكنه جاء فى الموضوع المكتوم منكرًا لا معرّفا و ذلك قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ «٥».

و الحق أن «فرقانا» معناها التفريق حصرا أى بقيت مصدرية- و لم تنقل إلى الاسمىة على نحو ما حصل لكلمة الفرقان التى هى مصدر فى الأصل، و لكن العرب قد تنقل المصدر المعنوى إلى ساحة الاسمىة الحسية فنسمى بالمصدر أشياء محسوسة، مثل كلمة خلق فهى فى الأصل مصدر و لكنهم انتقلوا به من هذا إلى المخلوق نفسه، قال تعالى:

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ أَى: هذا مخلوقه «٦» و الأمثلة كثيرة فى هذا الباب.

إذا الفرقان فى الأصل مصدر ... و لكن نقل إلى الاسمىة فسمى به كتاب الله لأنه (١) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٢) محمد شحور، الكتاب و القرآن: قراءة معاصرة، ص (٦٥).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة الأنفال، الآية: (٢٩).

(٦) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٣٧، ٣٨)، و الآية من سورة لقمان، الآية: (١١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٥

يفرق بين الحق و الباطل، و منه قوله تعالى: وَإِذِ اتَّيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ «١» و الفرقان:

بمعنى التفريق بين الحق و الباطل «٢». و الفرقان: الفرج من الكرب. و «المخرج» «٣» من الضيق بتفريقه بين الحق و الباطل. و الفرقان

فى آل عمران: التفريق بين الحق و الباطل «٤».

و قد تحتمل كلمة الفرقان معانى «الحجة و النصر» «٥».

«و فرقانا» فى سورة الأنفال لا- مجال إلا أن تكون مصدرا، و من الاستحالة أن تفهم بأنها قسم من الكتاب: «إن تتقوا الله يجعل لكم قسما من كتاب الله» و العجب كل العجب لما ذا لم يذكرها صاحب القراءة المعاصرة.

و الفرقان: يوم بدر: ذلك اليوم الذى نصر الله فيه جنده بإمداد من الملائكة، و إنزال من الغيث: * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِأَيِّدِ الْقُرْبَىٰ وَ الْأَيْتَامِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) «٦».

و الفرقان فى هذه الآية: يوم بدر الذى فرق الله فيه بين الحق و الباطل يوم التقى جمع المؤمنين بجمع المشركين. و الغريب أن صاحب الكتاب و القرآن يفسر «يوم الفرقان» فى سورة الأنفال بقوله: «فهنا أخبرنا أن الفرقان أنزل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فى معركة بدر لذا سُمى بيوم الفرقان بقوله: وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ برأيه يوم الفرقان: يوم أنزل قسم من كتاب الله. و الناظر فى الآيات الكريمة متتابعة يظهر لها جليا الضمير فى قوله «ما أنزلنا»:

فالذى أنزله الله تعالى فى تلك المعركة فى الآيات من سورة الأنفال: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (٩) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِطَمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّبُكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيُزَيِّطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنى مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢). (١) سورة البقرة، الآية: (٥٣).

(٢) محمد بن طالب القيسى، العمدة فى غريب القرآن، ط (١)، (١٩٨١)، ص (٧٥).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٣).

(٤) محمد بن طالب القيسى، العمدة فى غريب القرآن، ص (٩٦).

(٥) يراجع معنى الفرقان فى مواطن ورودها فى تفسير القرطبي.

(٦) سورة الأنفال، الآية: (٤١).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٦

بهذا الإمداد و هذا التأييد الذى أنزله الله على رسوله عقب استغاثته ربه كان انتصار المسلمين يوم بدر، و به كان الفرقان «التفريق بين الحق و الباطل و يجمعون أيضا على أن الله تعالى إنما قال عن يوم معركة بدر إنه «يوم الفرقان» «١»، التفريق بين الحق و الباطل.

و ليس الفرقان فى الآية يوم أنزل قسم من الكتاب، و بالتالى: الفرقان غير القرآن على نحو ما أراده صاحب القراءة المعاصرة.

و يوم الفرقان جار على سنن العرب فى تسميتها أيامها و حروبها فهناك يوم العذيب، و يوم حليمة و يوم عكاظ ... إلخ.

و من هذا يظهر أن الفرقان عند المؤلف هو اسم عين و ليس مصدرا أى: هو شىء ينزله الله فهو إذا شىء محسوس آياته محددة تكتب باليد و ترى بالعين، و تقرأ باللسان. و هذا الشىء المحسوس أنزل يوم بدر، و اسمه الفرقان، أما الذى أنزل فى غير يوم بدر

فاسمه القرآن، و هو إذا شىء آخر، و بناء على ذلك فإن القرآن غير الفرقان «٢». فى عرف محمد شحور مؤلف الكتاب.

و يستحسن أن نذكر أن الفعل المبني للمجهول سُمى بذلك لجهالتنا بفاعله. كقولك:

سرق المال، كسر الزجاج- فليس بالإمكان القول: «سرق» حتى نقول ما الذى سرق ...

و لا بالإمكان القول كسر حتى نقول ما الذى كسر؟

و لكن القراءة المعاصرة تقول: «لذا سُمى بيوم الفرقان» و تسكت فلا تذكر نائب فاعل، أى لا تقول ما هذا الذى سُمى بيوم الفرقان، أما

لما ذا لا نذكر نائب الفاعل، فالجواب عنه سهل واضح و هو أن نائب الفاعل غير موجود أصلاً. و لذا النص: «فهنأ أخبرنا أن الفرقان الذى أنزل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فى معركة بدر لدا سمي بيوم الفرقان بقوله: و مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ، مَا هَذَا الَّذى سَمِيَ بِذَلِكَ؟» (٣).

و نلخص رءوس المسائل كما يلى: (١) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٣٩).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤٠).

(٣) المصدر نفسه.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٧

القراءة المعاصرة:

١- عطف المحرور على المرفوع:

القرآن، و الفرقان.

٢- هنا أخبرنا.

٣- أنزل الفرقان على النبى يوم الفرقان.

٤- إرجاع العائد الضمير إلى غير مرجعه.

٥- لذا سمي بيوم الفرقان.

٦- يوم التقى الجمعان بدل من يوم قسم من كتاب الله.

٧- قطع السياق للبرهنة على أن الفرقان أنزل و نار الحرب تتقد.

التعليق:

١- هذا العطف بدع فى اللغة يستحق أن يؤلف فيه كتاب عنوانه «النحو و الصرف- قراءة معاصرة»! ٢- ليس فى الآية إخبار لنا و لا لغيرنا.

٣- بل الذى أنزل يومها التأيد بالملائكة ... الخ.

٤- اعتبار تنكره اللغة و لا يؤيده السياق.

٥- استنتاج لم تصح مقدمته و فعل مبنى للمجهول ليس له نائب فاعل.

٦- يوم التقى الجمعان بدل من يوم التفريق بين الحق و الباطل.

٧- هذا تليفق، قد يقع فيه شاعر من الشعراء، و أما القرآن فقمه أدبية تسمو على مثل ذلك و تعلقو على الكذب الفنى علوا كبيرا «١».

(١) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٤٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٨

القراءة المعاصرة و المرأة:

كانت عادتنا فى تناولنا للدراسات القرآنية السابقة أن نذكر مثالا فقهيا، غير أنى فى دراسة «الكتاب و القرآن». تهييت من ذكر عنوانه هذا البحث بمثال فقهى من القراءة المعاصرة لأنى لم أر بحثا فقهيا- و أترك الحكم النهائى للقارئ المنصف- و إن كان عبد الرحمن

الميدانى عنون لجزء من كتابه «التحريف المعاصر فى الدين» ب «حول نموذج لما أسماه [أى الشحرور]: الفقه الجديد فى دراسة موضوع المرأة: ما ذا يقول صاحب الفقه الجديد [الشحرور]؟
قال تعالى:

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ النِّبِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) «١». و قوله فى سورة البقرة: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ... «٢».

يقول: «فى هاتين الآيتين وردت لفظه النساء، فإذا كانت النساء هنا جمع امرأة وقفنا فى طريق مسدود لا مخرج منه، و هو فى آية آل عمران ورد اسم إشارة بقوله: ذلك متاع الحياة الدنيا، ففى هذه الآية أصبحت المرأة متاعا «ما ينتفع به من الأشياء» و قد عوملت فعلا هكذا على مدى قرون على أنها شىء من الأشياء- و فى آية البقرة: فتناقضت الآية التى قبلها و هى الآية رقم (٢٢٢) و التى جاء فيها: وَ يَسْتَمْلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَمَا عَتَرُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٣).

هذا الفهم الخاطى أدى لاعتبار المرأة شيئا من الأشياء، و مع شديد الأسف فإن الفقه الإسلامى الموروث يعتبرها كذلك و ينسب ذلك إلى الله و رسوله.

و المدقق يرى:

أن اسم الإشارة «ذلك» فى آية آل عمران يشير إلى ما يلى:

١- الشهوات من النساء لا إلى ذوات النساء.

٢- البنين هم الأولاد الذكور.

٣- القناطر المقنطرة من الذهب و الفضة. (١) سورة آل عمران، الآية: (١٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٢٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٦٩

٤- الخيل المسومة.

٥- الأنعام.

٦- الحرث أى: امتلاك الأراضى الزراعيه و البساتين و الجنات و استغلالها و الانتفاع منها. و كلمه «ذلك» فى اللغة العربيه يشار بها إلى العقلاء فيقال لغة: ذلك الرجل، و يشار بها إلى غير العقلاء من الأحياء و الأشياء.

و هى هنا أشارت إلى الشهوات من النساء، لا إلى أشخاص النساء و ذواتهن «١».

«أشارت لفظه ذلك فى الآية إلى أشخاص البنين و هم أولاد الإنسان الذكور فهل جعلتهم الآية من الأشياء لمجرد جمعهم مع الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث فى محبوبات الناس من الحياة الدنيا.

إذا قال إنسان ما: أنا أحب أبى و أمى و أولادى و الذهب و الفضة و اقتناء الخيول و الأنعام و امتلاك الأراضى فهل يقول له عاقل من الناس: قد جعلت بهذا الجمع أبويك و أولادك أشياء لا عقل لها و لا علم عندها؟ «٢».

و يعجب الميدانى من صاحب القراءة المعاصرة من تفسيره كلمه بنين فى آل عمران بالأبنية ... و يكتشف أن قوم عاد أول من اكتشف عمارة الأبنية و ذلك من قوله تعالى:

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَيْنِينَ (١٣٣) «٣».

و يعجب الميدانى و حق له أن يتعجب «و لست أدري كيف يتناقض الإذن بإتيان الحرث- أى موضع الإخصاب من النساء بالجماع- على أية كيفية شاء الزوج، من جهة وجهها فى مكان الحرث المأذون به، و هو الفرج، أو من جهة ظهرها فى مكان الحرث المأذون به

و هو الفرج و ذلك فيما يكون أصل الجماع مأذونا به، و هو حالة الخلو من المحيض، كيف يتناقض هذا مع النهى عن إتيان النساء فى زمن الحيض أو وجوب اعتزالهن فيه «٤»!!! و أما تحريفه لنص تعدد الزوجات، و هو قول الله عزّ و جل فى سورة النساء / ٤ مصحف ٩٢ نزول: وَاِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) «٥». (١) عبد الرحمن الميدانى، التحريف المعاصر فى الدين: تسلل فى الإنفاق بعد السقوط فى الأعماق، دمشق، دار القلم، ط (١)، (١٩٩٧)، ص (٢٢٩).

(٢) عبد الرحمن الميدانى، التحريف المعاصر فى الدين، ص (٢٣٠).

(٣) سورة الشعراء، الآيات: (١٣١-١٣٣).

(٤) عبد الرحمن الميدانى، التحريف المعاصر فى الدين، ص (٢٣٢).

(٥) سورة النساء، الآية: (٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧٠

جعل صاحب القراءة المعاصرة الإذن بتعدد الزوجات مقتصرًا على حالة أن تكون الثانية و الثالثة فالرابعة من الأراامل أو المطلقات لا من الأبكار، و من شاء أن يتزوج أرملة أو مطلقة لها أولاد فعليه أن يتحمل إعالة أولادها...!
و إن شئت انظر فى الصفحتين ٦٠٨-٦٠٩ من كتابه إلى تحريفه كلمة «نساءهن» فى الآية: ٣١ من سورة النور / ١٤ مصحف / ١٠٢ نزول، إذ جعل المراد من المؤخرين الذكور الذين لم يذكروا مع المحارم و اعتبر لفظ «نساء» من النسب الذى هو التأخير، و على العموم يعتبر الميدانى أن الكتاب «و القراءة المعاصرة» جاء مؤسسًا على النظرية الماركسية بأسسها المادية الجدلية، و المادية التاريخية.

مسألة فى دراسة فهمه «و لِيَضْرِبَنَّ بِخَمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ» «١»:

الضرب: الإسدال، قال الراغب: الضرب: إيقاع شىء على شىء «٢».

(الخمار): مفرد، و الجمع خمر. و الخمار: ما تغطى به المرأة رأسها. و قال ابن فارس فى المقاييس: الخمر: يدل على التغطية، و الخمار: خمار المرأة. و امرأة حسنة الخمر: أى لبس الخمار «٣».

(الجيوب): جمع مفردة جيب. و الجيب: القميص و الدرع، جبت القميص: قورت جيبه، و حديث على: أخذت إهابا معطونا فجويت وسطه، و أدخلته فى عنقى «٤».

قال ابن منظور: «جوب و جيب. ألفاظ اقتربت أصولها، و اتفقت معانيها» «٥».

و معنى الآية: و ليسدلىن (خمرهن) أى أغطيهن رءوسهن على نحورهن - و الجيب: هو الطوق المنفتح، فالأدلة عليها كثيرة من المعاجم و كلام العرب، قال عنترة:

فإن متّ فانعنى بما أنا أهله و شقى علىّ الجيب يا ابنه معبد

و قال الفراء: «إن نساء الجاهلية كنّ يسدلىن خمرهن من ورائهن فيتكشف ما قدامها فأمرن بالاستتار» «٦». غير أن مؤلف الكتاب و القرآن أجاز للمرأة أن تظهر كل جسدها ما (١) سورة النور، الآية: (٣١).

(٢) الراغب، المفردات، ص (٢٩٨).

(٣) ابن فارس، المقاييس، ط دار الجيل، ترجمة «خمر». ص (٢١٥، ٢١٦).

(٤) اللسان، انظر مادة جوب. و جيب. (٢٨٧).

(٥) اللسان، انظر مادة جيب، ص (٢٨٨).

(٦) الفراء، معانى القرآن، (٢ / ٢٤٩).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧١

عدا: ما بين الثديين- و تحت الثديين- و تحت الإبطين، و الفرج، و الألتين،- صَوَّبَ يوسف الصيداوى ذلك «١»- و هذه الخمسة يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها، و ما عدا ذلك فمباح إظهاره بنص كتاب الله!
و لما جاء إلى جسد المرأة قال:

الزينة المكانية و الشئيه معا جاءت فى قوله تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ «٢» و قوله: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَنْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «٣» (٢٤) «٣»
أى أن التطور العلمى سيملاّن الأرض بالزيتين المكانية و الشئيه، فإذا كانت الزينة مكانية فجسد المرأة كله زينه، و الزينه حتما ليست المكياج و الحلى و ما شابه ذلك و إنما هى جسد المرأة كله، هذا الجسد يقسم إلى قسمين: قسم ظاهر بالخلق.

لذا قال و لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا فهذا يعنى أن هناك بالضرورة زينه مخفيه فى جسد المرأة، فالزينه الظاهرة هى ما ظهر من جسد المرأة بالخلق أى ما أظهره الله سبحانه و تعالى فى خلقها كالرأس و البطن و الظهر و الرجلين و اليدين، و نحن نعلم أن الله خلق الرجل و المرأة عراة دون ملابس، و قسم غير ظاهر بالخلق: أى أخفاه الله فى بنيه المرأة و تصميمها هذا القسم المخفى هو الجيوب و الجيب جاء من جيب كقولنا جيب القميص أى قورت جيبه و جيته أى جعلت له جيبا، و الجيب كما نعلم له طبقتان لا طبقة واحدة، لأن الأساس فى جيب هو فعل «جوب» فى اللسان العربى له أصل واحد و هو الخرق فى الشىء، و مراجعة الكلام السؤال و الجواب، فالجيوب فى المرأة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق، و هى ما بين الثديين و تحت الثديين، و تحت الإبطين و الفرج و الألتين هذه كلها جيوب، فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها لذا قال: وَ لِيُضْرَبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ «٤»!! و السؤال: هل خلق الرجل و المرأة عراة دليل على جواز تعريتهما فى حياتهما؟

يقول المؤلف أن ولادة الذكر و الأنثى عراة دليل على إباحة إظهار جسد المرأة عاريا للنظارة كما خلقه الله ما عدا خمسة جيوب ذكرناها سابقا و ثبتناها من نصه و لا حاجة (١) يوسف الصيداوى، بيضة الديك ص (٧٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٣٢).

(٣) سورة يونس، الآية: (٢٤).

(٤) محمد شحور، الكتاب و القرآن، ص (٦٠٦، ٦٠٧).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧٢

لإعادتها. و هنا السؤال: لما ذا لم يطبق المؤلف نظريته فى الكشف على الرجل، إنما طبق نظريته على المرأة فقط. علما أن الاثنين خلقهما الله عراة!! ... و لما ذا سكت الآية عن الرجال و قالت للمرأة يحق لك أن تكشفى عن ... و عن ... الخ.

و لو كانت ولادة الذكر و الأنثى عراة تقوم دليلا على إباحة عريهما، و لو بلغا مبالغ الرجال و النساء لما قال الله فى آيتين متتابعين ليس بينهم فاصل: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَآتِكُمْ ... يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَآتِهِمَا «١».

لو كان العرى مباحا فى الإسلام ما سماه الله «سواة»، و لو كان العرى مباحا ما هرع آدم و حواء يغطيان سواتهما بورق الشجر «٢». لقد كان عبدة الأوثان إذا طافوا حول البيت خلعوا ثيابهم، و قالوا: لا تطوف فى ثياب عصينا الله فيها، و ما عداه فهم يلبسون ثيابا يورى سواتهم.

و الغريب كيف جعل من نفسه فاهما مقاصد النص القرآنى و أخذنا منه حكما لموضوع لا وجه لمستدل به البتة!! قال تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ «٣» ثم يدلى بحجة أخرى فى الصفحة نفسها هى قوله: «نحن نعلم أن الله سبحانه

خلق الرجل و المرأة عراة دون ملابس».

و نقول: ليس الرجل و المرأة وحدهما يولدان عاريين، بل كل ذى روح يولد عاريا غير أن الإنسان يعقل و يعى فيستر سواته، و أما النص فلا علاقة له بالكشف و التعزى.

وقفه عند الجيب و الجيوب:

الجيب كما قلنا هو طوق القميص الذى يدخل منه الرأس عند لبسه. و بقى الجيب كذلك حتى القرن الثامن الهجرى، قال ابن تيمية: أن العامة فى زمانه استعملت الجيب بمعنى آخر. قال أحمد رضا: الجيب عند العامة [لا فى كتاب الله ما يشق فى جانب الثوب، له كيس صغير متصل بالشق توضع فيه الأشياء الخفيفة الحمل و هو الجيبه أيضا، و كل هذا و هذا المعنى درج على ألسنة العوام فى الحواضر و المدن حتى قالوا: اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب]— أما البوادى فما يزال الناس يحتفظون للجيب و الجيوب (١) سورة الأعراف، الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٢) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٨٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٣٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧٣

بمعناها و استعمالها الفصيحين ... و ساق يوسف الصيداوى قصة ذهبية كشفت على لسان أحد أعراب البادية و هو فروان السوادى من عشيرة البوخميس فى المنصورة من الرقة، و كان يحكى لعرب البادية قصة «عذرا و جلال» و يحكى قصته ببعض الشعر، فقال على لسان عذرا البدوية:

يا ويلك يا جلال إن مت عدنا «عندنا» غريب و ما ينشق ع الغريب جيوب
فأجابها جلال:

يا ويلش «يا ويلك» يا عذرا إن مت عدكم «عندكم» فوق الجيوب ينشقن على قلوب

و بعد حوار ليوسف الصيداوى مع فروان— قال:

قلت لفروان: فأشر بإصبعك إلى جيبيك، فأشار بإصبعه إلى طوق قميصه المنفتح على نحره، و سألتهم: و هذا الكيس المخيط فى جانب الثوب عن يمينه و يساره ما ذا تسمونه؟

قالوا: نسميه «المخبأة» و هذا اسم مكان على «مفعلة» إذ هو مكان الخبء. و يطلقونه على ما تسميه العامة عندنا «الجيبه» «١».

هذا هو جيب القميص الذى ظل فى الأقل منذ أيام طرفه بن العبد حتى أيام فروان السوادى فى البادية السورية (١٩٩٢) هو الطوق المنفتح على النحر لم يتغير و لم يتبدل، فيا عجبا، كيف انقلب هذا الطوق عند المؤلف إبطين و فرجا و ألبتين؟! «٢» نعم كان مؤلف القراءة المعاصرة عاميا جدا فى فهمه الجيب إذ قال: «و الجيب كما نعلم هو فتحة لها طبقتان لا طبقه واحده»، و تلاحظ أنه لم يقل صراحة: الجيب هو الشق عن يمين الثوب و يساره و له طبقتان فهذا لو قاله لكان فضيحة لغوية، مؤداها أن القرآن كلمات عامية استحدثت بعد ثمانية قرون من وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم ثم رجعت القهقرى إلى زمن نزول الوحي و لذلك كتم المعنى العامى لكلمة الجيب و صرح بصفاته «الجيب كما نعلم— هو فتحة لها طبقتان».

غير أن هاتين الطبقتين لا- وجود لهما فى اللغة، و مع ذلك أضاف المؤلف العبارة التالية: (١) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٨٣، ٨٤)، و راجع قصة يوسف الصيداوى مع فروان السوادى كاملة فى الصفحتين السابقتين فإنها قصة ذهبية نافعة.

(٢) يوسف الصيداوى، بيضة الديك، ص (٨٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧٤

«فالجيوب فى المرأة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق».

لقد أضاف كلمة أو كلمات كى تستقيم له على مراده.

«تقول هذا كأن اللغه عجين صلصالى يتشكل كما يريد عاجنه لقد احتاجت إلى كلمة الخرق كى يصل إلى القول أو الحكم الذى يريده:

«فالجيوب فى المرأة طبقتان أو طبقتان مع خرق، وهى ما بين الشديين و تحت الشديين و تحت الإبطين و الفرج و الأليتين هذه كلها جيوب. فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها لذا قال: وَ لِيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ!!**»

«كلمات الله» فى القراءة المعاصرة:

و تناول المؤلف فى كتابه القراءة المعاصرة بعض المسائل المتعلقة بالألوهية: فقال:

«لو كان النص القرآنى المتلو أو المكتوب الموجود بين أيدينا هو عين كلام الله، فهو يعنى أن الله له جنس، و جنسه عربى، و أن كلام الله ككلام الإنسان يقوم على علاقة دال و مدلول. و لكن بما أن الله أحادى فى الكيف قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ «١» قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ «٢»، و أن الله ليس عربيا و لا- إنكليزيا. لزم أن يكون كلامه هو المدلولات نفسها، فكلمة الشمس بالنسبة لله تعالى هى عين الشمس و كلمة القمر هى عين القمر و كلمة الأنف هى عين الأنف، أى: أن الوجود المادى «الموضوعى» و نواميسه العامة هى عين كلمات الله، و كلمات الله هى عين الوجود و نواميسه العامة، و من أجل تعليم الإنسان صاغ الله الحقيقة المطلقة و هى الوجود و نواميسه العامة و أسماءه الحسنى صياغة لسانية إنسانية» (٣).

الملاحظ من الكلام السابق للمؤلف أنه نفى الجنس عن الله أى أن الله ليس عربيا و لا إنكليزيا ... لكنه قال: «لزم أن يكون كلام الله، هذه المدلولات نفسها ككلمة الشمس بالنسبة لله هى عين الشمس.

فهل ثمة علاقة بين كون النص المكتوب أو المتلو الموجود بين أيدينا هو عين كلام الله و بين أن الله له جنس ...

و كأن المؤلف يريد أن يقول: «إذا كان هذا الكلام المتلو الموجود بين أيدينا هو عين (١) سورة الإخلاص، الآية: (١).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٩).

(٣) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ط (١)، ص (٧٢).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧٥

كلام الله، فإن هذا الكلام عندئذ يشبه كلام الناس لأن كلام الناس يقوم على دال و مدلول.

فالدال: الأصوات ذات الوجود المادى (الموضوعى) و دلالات هذه الأصوات فى الذهن هو المدلول. و اجتماع الدال و المدلول تميز بهما كلام البشر عامة.

و النص الذى بين أيدينا هو صياغة لسانية إنسانية من جانب كونها صيغت بلغة تتكلمها الإنسانية، و تفهمها الإنسانية أيضا.

أقول: إن محمد شحرور يقر أن القرآن صيغ بلسان عربى مبین، و هذا يلزمه بالقول إن النص القرآنى ذو دلالة و مدلولية أو هو دال و مدلول. من حيث إن الرسول صلى الله عليه و سلم «سمعه بأصوات أحرفه. ذات الوجود المادى. و مدلول: من حيث دلالات أصوات هذا الكلام الإلهى فى أذهاننا، و لم يعد هناك- و الحال هذه- من حاجة لبحث هل لله جنس أ هو عربى أو غير عربى» «١». و بالتالى طرح السؤال لا حاجة له أبدا.

نعود ثانية إلى قول المؤلف (صاحب القراءة المعاصرة): «لو كان هذا النص القرآنى الموجود بين أيدينا هو عين كلام الله فهذا يعنى أن لله جنسا» نسال:

و ما ذا يريد المؤلف من قوله: «عين كلام الله»؟ بتقديرنا أن طريقة البحث هذه ستقودنا إلى بحوث أشبعت بحثا حول كلام الله أ

مخلوق هو أم ليس مخلوقا.

ولكن العجب: أن المؤلف أقرّ «من أجل تعليم الإنسان، صاغ الله الحقيقة المطلقة و هي الوجود و نواميسه العامة و أسماؤه الحسنی صياغة لسانیة إنسانیة» بهذا الكلام أقرّ أن القرآن مصوغ صياغة لسانیة و أنه دال و مدلول- و لا داعی للسؤال هل الكلام هذا هو عين كلام الله أو لا، يكفي أن هذا القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه و سلم هو كلام الله و كفى. غير أن الشكوك تظهر للقارئ و الباحث من التساؤلات.

و مرة أخرى يقول: «لو كان النص القرآنى هو عين كلام الله فهذا يعنى أن الله له جنس، و جنسه عربى».

نقول: «إن احتجاج صاحبنا بهذا الأمر هنا هو احتجاج باطل يقينا. فلو قرأ أحدنا فى صحيفة ما على سبيل المثال، خطابا لرئيس تركى مترجما إلى العربية، فهل يمكن أن يتخذ وجود الخطاب مكتوبا باللغة العربية دليلا على كون الرئيس التركى عربيا لغة و جنسا؟! و ما دمنا لا نعتبره كذلك لأن الخطاب إنما كان بالتركية و قد صيغ بالعربية بالترجمة نقلا ... أ فكان يخطر ببالنا مثل هذا التساؤل عن جنس المتكلم و لغته» (٢)؟ (١) سليم الجابى، حقيقة القراءة المعاصرة مجرد تنجيم، ط (٢)، (١٩٩٢)، (٢ / ٢٢).

(٢) المصدر نفسه، (٢ / ٢٣).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧٦

و لتتابع هذه الفقرة:

«و لكن بما أن الله أحادى فى الكيف قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

و أن الله ليس عربيا و لا إنكليزيا لزم أن يكون كلامه هو المدلولات نفسها، فكلمة الشمس بالنسبة لله تعالى هو عين الشمس ...».

و نسأل صاحبنا: «من أين جاء بلزومه المذكور هذا» لأن اللزوم: هو ما يوجه العقل لعلة من العلل الملزمة. أما أن يكون اللزوم ظنا، أو تخمينيا فهذا ما لا يلزم أحدا بهذا الملزوم الذى أراده المؤلف.

ما العلاقة اللزومية الضرورية الموجبة بين أن يكون الله أحدا لا إله إلا هو و أن تكون الشمس عين كلام الله؟

«يبدو أن صاحبنا نسى هنا نظرية الانفجار الكونى الذى ردها فى قراءته المعاصرة و التى ذكر فيها أن الشمس التى هى عين كلام الله فى نظره كانت فى البداية ذرات هيدروجين ثم أصبحت هذه الذرات كتلة ملتهبة عظيمة اشتقت عنها الشمس التى تضىء لنا ما حولنا. و نسى أن أبحاث علماء الفلك قرروا أن الشمس آيلة إلى الزوال فى يوم من الأيام أيضا» (١).

ثم لا بد من السؤال لصاحب القراءة المعاصرة: «أوجدت الشمس أولا أو كانت اللغة العربية هى السابقة فى وجودها؟ أوجد اللسان العربى قبل الانفجار الكونى أم بعده؟

إن كنت واقعا و قلت: وجد اللسان العربى بعده. سألناك: من أى أصل اشتقت كلمة الشمس؟ و من هو الذى اشتق هذا الاسم حتى وافق اشتقاقه عين كلام الله على زعمك؟» (٢).

و لنضرب مثلا على عهدنا القريب الحاضر: «إن مجامع اللغة العربية فى عصرنا حاولت تعريب كلمة *noisivelet*، التلفزيون، فمنهم من عزّبه بكلمة تلفاز و منهم من عزّبه بلفظ «الرائى» و معلوم أن جهاز التلفزيون من المخترعات المعاصرة فعلى تعبير المؤلف فإن التلفاز «خارج الوعى الإنسانى، و داخل الوجود و نواميسه العامة» قلنا: و كيف عجز أهل المجامع اللغوية فى عصرنا عن الاتفاق على اسم واحد لهذا الجهاز مع ما بلغته البشرية فى هذا العصر من الرقى؟ و كيف أمكن للغابرين من العرب أن يستشفوا للشمس اسمها الذى هو «عين كلام الله» و قد كانوا دون أهل هذا العصر من الرقى فهل بإمكان صاحبنا أن يفسر (١) سليم الجابى، حقيقة القراءة المعاصرة، (٢ / ٢٣، ٢٤).

(٢) المصدر نفسه، (٢ / ٢٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧٧

لنا حدوث ذلك...» (١).

إن هذه الأسئلة ما كانت لتطرح لو لا لزوميات المؤلف للقراءة المعاصرة.

«فسواء اعتبرنا النص القرآنى هو عين كلام الله، أو اعتبرناه صياغة إلهية بلغة إنسانية مطواعة فهل يغير هذا شيئا من عقيدتنا الإسلامية من أن النص القرآنى هو كلام الله المقدس؟ إنه كلام الله المقدس فى جميع الأحوال سواء كان عينا أو مصوغا» (٢).
«و مسألة تكليم الله تعالى رسله ثابتة بالأدلة القاطعة، فقد كلم موسى تكليما، و كلم محمدا صلى الله عليه و سلم بطرق الوحي الثلاثة المعروفة، لهذا فإن قول المؤلف للقراءة المعاصرة: كلام الله هو عين الحقيقة، لمسألة سفسطائية قد أثارها ... و ليس وراءها محصول» (٣).

القدر و القضاء فى القراءة المعاصرة:

لم يكن صاحب القراءة المعاصرة صاحب مفهوم واضح شامل عن مفهوم القضاء و القدر، بل جاءت أقواله مبهمه مضطربة، إنما كل الذى أورده بهذا الخصوص أن القضاء هو «معنى الاختيار السلوكى، و يفهم من (القدر): الحتم فى قوانين الكون و حياة الإنسان» (٤).
قال مؤلف القراءة المعاصرة: «إن آيات القرآن فيها القدر، فالقدر وجود موضوعى، و القضاء سلوك إنسانى واع» و يلاحظ أنه أعطى القضاء معنى الاختيار ... و معانى كلمة قضى «لغة» لا تسعفه؛ فقد ورد القضاء بمعنى البيان و الحتم، و الحكم، و الأمر، و القتل، و الإتمام و الأداء، و التوصية، و الإنفاذ، و بلغ أقصاه أو انتهاه.

و على ما يبدو لنا أن لا سند لغوى للمؤلف فيما ذهب إليه من جعله القضاء اختيارا سلوكيا.

و قال فى القدر: «الحتم فى قوانين الكون و حياة الإنسان»، و هذا لا حجة لغوية فيه فالقدر فى اللغة جاء بمعنى: التضييق، و العلم، و الاقتدار، و التعظيم، و التدبير و القياس، و التقدير ... و لم يرد القدر بمعنى الحتم فى شىء من نصوص اللغة المعتمدة. و ما دام لم يأت بسند من اللغة فقد كفانا مثنوئة الإيغال فى البحث. (١) سليم الجابى، حقيقة القراءة المعاصرة، (٢/٢٤).

(٢) المصدر نفسه، (٢/٢٥).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) محمد شحرور، الكتاب و القرآن، ط (١)، ص (٥٤).

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٧٨

و أما مفهوم القضاء و القدر فى التصور الإسلامى فتراجع هاتان المسألتان فى مظانهما من كتب التوحيد حيث يجد القارئ بغيته من مصادر العلم الأصلية.

خاتمة:

نعم إن هناك بحوثا أخرى تحتاج إلى دراسة فى الكتاب و القرآن قراءة معاصرة.

أهمها: موقفه من السنة النبوية إذ اعتبرها انفعالات الرسول تجاه النص فى وقته، و يمكن لغيره أن يتفاعل مع النص فى وقته أيضا! و أنكر أهمية السنة النبوية فى التفسير، أو التخصيص للعلم، أو التقييد للمطلق، و هناك بحوث أخرى حول مواقفه من السنة عموما سندا و متنا، و عملا.

نحن اكتفينا بقدر بسيط جدا مما قاله بعض الباحثين الجادين فى القراءة المعاصرة فى القسم المتعلق بالقرآن. و ركزنا على المسألة اللغوية بوصفها الركيزة الأساس فى فهم النص القرآنى، فوجدنا صاحب القراءة المعاصرة غير متمسك بنصوص اللغة بل كان يرتجل

دونما مبالاة، واضعا لنفسه قناعات مسبقه أو آراء أراد أن ينصرها بكل السبل المتاحة.

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٧٩

الفهرس

تقديم ٥ المقدمة ٧ المعجزة و المنهج: الكتاب «القرآن» ٧ و ختاماً ١٠ الباب الأول: القرآن لفظ القرآن و معناه ١٧ القرآن و لغة العرب ٢٠ دليل نزول القرآن الكريم على الأحرف السبعة ٢٢ أقوال العلماء فى المقصود بالأحرف السبعة ٢٢ ما كل كلمة فى القرآن تقرأ على سبع لغات ٢٣ ابن حجر يجمع بين القولين ٢٤ رأى ابن قتيبة فى الأحرف السبعة ٢٤ رأى أبى الفضل الرازى فى الأحرف السبعة ٢٧ آراء أخرى ٢٨ رأى الإمام الطبرى فى الأحرف السبعة ٢٨ الخلاصة فى مسألة القراءات السبع و الأحرف السبعة ٢٩ مكى بن أبى طالب القيسى يجزم أن الأحرف السبعة غير القراءات السبع ٢٩ كيفية إنزال القرآن الكريم ٣١ الحكمة من نزول القرآن منجماً ٣٢ معرفة أسباب النزول ٣٣ ما كل الآيات لها سبب نزول ٣٦ السبيل إلى معرفة سبب النزول ٣٦

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٠

الفصل الثانى: الوحي و القرآن ظاهرة الوحي ٤١ معانى الوحي ٤١ كفيات الوحي ٤٤ الأدلة العقلية على ثبوت ظاهرة الوحي ٥٠ من الشبه المطروحة حول مسألة الوحي ٥٢ الفصل الثالث: نشأة علوم القرآن علوم القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه و بقیة الصحابة الخلفاء ٦٠ المكى و المدنى من القرآن الكريم ٦٢ فائدة العلم بالمكى و المدنى ٦٤ عدد السور المكية و المدنية ٦٥ خصائص الآيات المكية ٦٥ خصائص الآيات المدنية ٦٥ علم الناسخ و المنسوخ ٦٦ الناسخ و المنسوخ و كلام أهل العلم فيه ٦٨ علم المحكم و المتشابه ٧٠ خلاصة فى المحكم و المتشابه ٧١ رأى أبى الراغب الأصفهاني ٧٣ و للعلماء فى متشابه الصفات مذهباً ٧٤ نماذج من الآيات القرآنية لتوضيح المذهبين من المتشابه ٧٤ المعالجة و المناقشة ٧٥ الفصل الرابع: التفسير و التأويل معنى التفسير لغة، و اصطلاحاً ٨٠ التفسير فى الاصطلاح ٨١ التفسير فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته الكرام تمهيد ٨٢ النبى صلى الله عليه و سلم و فهمه للقرآن الكريم ٨٣ تفاوت الصحابة فى فهمهم القرآن ٨٤

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨١

المصدر الثانى لتفسير القرآن: النبى صلى الله عليه و سلم ٨٧ السنة المفسرة للقرآن الكريم ٨٨ مناقشة آراء الفريقين ٨٩ التفسير فى عهد الصحابة ٩٠ وسائل الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة ٩٠ التفسير فى عهد التابعين ٩١ طبقة التابعين من أهل المدينة ٩٢ طبقة أهل العراق ٩٢ تطوّر الأوضاع التفسيرية ٩٢ ترجمة القرآن الكريم المعنى الاصطلاحى للترجمة ٩٧ أنواع الترجمة ٩٧ شروط لا بد من توافرها فى الترجمتين الحرفية و التفسيرية ٩٨ فى الترجمة الحرفية بعد الشروط السابقة لا بد من أمرين ٩٨ التفسير و الترجمة ٩٩ معنى الترجمة و دلالتها ٩٩ التأويل ١٠٠ الفرق بين التفسير و التأويل ١٠١ رأى الشاطبى فى ترجمة القرآن ١٠١ موقف الشاطبى من الترجمة الحرفية ١٠٢ الباب الثانى الدراسات القرآنية الحديثة الفصل الأول: التفسير العام أولاً: تفسير التحرير و التنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٠٩ محمد الطاهر بن عاشور ١٢٩٦-١٣٩٣ هـ ١٨٧٩-١٩٧٣ م ١٠٩ صاحب «التحرير و التنوير تفسير قرآن كريم» ١٠٩ ابن عاشور و موقفه من قدماء المفسرين ١١٠

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٢

موقف ابن عاشور من التفاسير السابقة ١١٠ مقدمة ابن عاشور الأولى فى التفسير و التأويل ١١١ التأويل عند ابن عاشور ١١٢ موقف ابن عاشور من التفسير بالرأى ١١٧ ما الأغراض المقصودة من التفسير حسب ابن عاشور ١٢١ هل يشتمل القرآن على كل العلوم؟ ١٢٣ ابن عاشور و اللغة ١٢٧ ترجيحات لابن عاشور فى معانى لعل ١٣١ الجانب الفقهي فى تفسير ابن عاشور (التحرير و التنوير) ١٣٣ ابن عاشور

و مسائل العقيدة ١٣٨ ١- مسألة الوحي كما طرحها ابن عاشور ١٣٨ ٢- موقف ابن عاشور من صفة الكلام ١٤٢ تفسير ابن عاشور و النظريات العلمية ١٤٦ تفسير ابن عاشور و الحديث النبوى الشريف ١٤٩ موقفه من الإسرائيليات ١٥٠ خاتمة ١٥٢ ثانيا: تفسير محاسن التأويل لجلال الدين القاسمى ١٥٣ تفسير القاسمى المسمى: محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمى:

التعريف بالمؤلف ١٥٣ عقيدته ١٥٤ مؤلفاته ١٥٤ قاعدة فى أمهات مأخذه [مأخذ التفسير] ١٥٦ قاعدة فى معرفة صحيح التفسير، و أصح التفاسير عند الاختلاف ١٥٨ أما مراتب التفسير ١٥٨ قاعدة فى معرفة سبب النزول ١٦١ قاعدة فى النسخ و المنسوخ ١٦٣ قاعدة فى القراءة الشاذة و المدرج ١٦٥ قاعدة فى قصص الأنبياء و الاستشهاد بالإسرائيليات ١٦٥ القاسمى و معنى ما نقل أن للقرآن ظاهرا و باطنا ١٦٧ متى يكون الباطن مرادا ١٦٨ وجهة نظر أخرى حول وجود المجاز فى لغة العرب ١٧٣

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٣

رأى القاسمى بفواتح السور ١٧٦ التصوير فى القرآن عند القاسمى ١٧٦ الأسماء و الصفات عند القاسمى ١٧٨ اللغة عند القاسمى فى المحاسن ١٧٩ تفسير القاسمى و الأحكام الفقهية ١٧٩ القاسمى و الحديث الشريف ١٨٠ القاسمى و الإسرائيليات ١٨٠ الخاتمة ١٨١ ثالثا: صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ١٨٣ صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ١٨٣ مصادر هذا التفسير ١٨٣ رأى العلماء بهذا التفسير ١٨٤ الأسباب الداعية لتأليف «صفوة التفاسير» ١٨٤ منهج صفوة التفاسير ١٨٤ الجانب الفقهى ١٨٥ الاهتمام بالحديث الشريف فى صفوة التفاسير ١٨٦ الجانب اللغوى فى صفوة التفاسير ١٨٦ البلاغة فى صفوة التفاسير ١٨٧ المحكم و المتشابه فى صفوة التفاسير ١٨٨ الجانب العقيدى فى صفوة التفاسير ١٩٠ النسخ فى صفوة التفاسير ١٩٢ خاتمة ١٩٢ الفصل الثانى: التفسير المنهجي أولا: التفسير الواضح لمحمود حجازى ١٩٥ التفسير الواضح لمحمد محمود حجازى ١٩٥ منهجه فى التفسير ١٩٦ الجانب العقيدى فى سورة الأعراف ١٩٧ المسألة الفقهية فى التفسير الواضح ١٩٨ ملاحظات ٢٠٠ الاستشهادات بالأحاديث الشريفة بالتفسير ٢٠٠

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٤

الإسرائيليات فى التفسير الواضح ٢٠١ اللغة فى التفسير الواضح ٢٠١ النسخ و المنسوخ فى التفسير الواضح ٢٠١ هل كان النسخ لجهل الشارع بالحكم ٢٠٢ خاتمة ٢٠٣ ثانيا: التفسير الوسيط للدكتور وهبة الزحيلي ٢٠٥ التفسير الوسيط لوهبه الزحيلي ٢٠٥ مؤلفاته ٢٠٥ ميزات التفسير الوسيط ٢٠٦ مثال ٢٠٦ محارم النساء ٢٠٧ اللغة فى التفسير الوسيط ٢٠٧ التفسير الوسيط و التوسل ٢٠٨ التفسير الوسيط و الحديث الشريف ٢٠٩ من مسائل العقيدة فى تفسير الوسيط ٢١١ معجزة القرآن الكريم كما فى الوسيط ٢١١ طلب المشركين آيات تعجيزية ٢١٣ تفسير الوسيط و آيات الصفات ٢١٤ تفسير الوسيط و الموقف من صفة الكلام ٢١٥ التفسير الوسيط و المسألة الفقهية ٢١٥ واجب الشهود فى شهاداتهم ٢١٦ التفسير الوسيط و الإسرائيليات و الأحاديث الواهية ٢١٧ الخاتمة ٢١٨ ثالثا: تفسير الشعراوى الشيخ محمد متولى الشعراوى ٢١٩ جهد الشعراوى فى تفسيره ٢١٩ القرآن لا يمكن تفسيره ٢١٩ منطقية الرسول صلى الله عليه و سلم مع قدراته ٢٢٢ القرآن معجزة مستمرة لكل الأجيال فى كل العصور ٢٢٢ الجانب البلاغى فى تفسير الشعراوى ٢٢٣ دلالة مفهوم الأمة فى القرآن وفق فهم الشعراوى ٢٢٤ جمالية التشبيه و حسن الأداء فى القرآن على سبيل المثال لا الحصر ٢٢٤

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٥

خواطر الشعراوى حول «الصبغة» أو فى ظلال الصبغة ٢٢٦ الدقة البلاغية فى القرآن ٢٢٦ الإشارات العلمية فى تفسير الشعراوى ٢٢٧ دوران الأرض فى القرآن الكريم ٢٢٨ مرور الجبال مَرَّ السحاب فى الدنيا و ليس فى الآخرة ٢٢٩ تحديد معنى العلم عند الشعراوى ٢٢٩ لما ذا كان تحدى القرآن بالعلم ٢٣٠ تحدى القرآن بحقائق الكون ٢٣٠ دقة اللفظة القرآنية فى التعبير عن حركة الجبال ٢٣١ مدى اعتماد الشعراوى على الحديث فى تفسيره ٢٣١ «إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلّى الجبار بالمغفرة» ٢٣٣ مناقشة القرآن للكافرين كما ورد فى تفسير الشعراوى ٢٣٣ نكت الشعراوى اللغوية وفق تجليات النص ٢٣٥ خاتمة ٢٤٠ رابعا: التفسير السهل الميسر المختار من تفاسير القرآن الكريم د. أحمد إسماعيل الصباغ ٢٤١ موجز عن حياة المؤلف ٢٤١ ظروف نشأة التفسير السهل الميسر ٢٤١

منهج المؤلف فى إعدادة التفسير السهل الميسر ٢٤٢ الجانب اللغوى ٢٤٣ صرفه العبارات إلى غير ظاهرها تحقيقا لمقاصد النص ٢٤٤ عدم دخول الصباغ فى الفروع و الجزئيات ٢٤٤ محاولات الصباغ التوفيق بين القرآن و العلم الحديث ٢٤٥ الحديث النبوى فى تفسير الصباغ «السهل الميسر» ٢٤٥ التفسير الميسر و آيات الصفات ٢٤٦ خاتمة ٢٤٦ الفصل الثالث: التفسير الموضوعى أولا: أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطى ٢٤٩ موجز حياة المؤلف ٢٤٩ منهجه و دراسته العلمية ٢٥٣

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٦

منهجه فى أضواء البيان ٢٥٣ القراءة التى اعتمدها فى بيان القرآن بالقرآن ٢٥٣ مسائل أخرى حواها «أضواء البيان» ٢٥٤ من أنواع البيان فى القرآن كما بينه صاحب أضواء البيان ٢٥٦ أقسام البيان بالنسبة إلى المنطوق و المفهوم ٢٦٤ المسائل الفقهية فى تفسير «أضواء البيان» ٢٦٦ مسائل تتعلق بالاضطرار إلى أكل الميتة ٢٦٩ هل يجب أكل الميتة و نحوها إن خاف الهلاك أو يباح من غير وجوب؟ ٢٧١ الشنقيطى و طريقته بالترجيح ٢٧٢ أهمية الحديث النبوى فى تفسير القرآن بالقرآن ٢٧٣ استعانة الشنقيطى بأقوال المفسرين السابقين ٢٧٣ فهم الشنقيطى للتأويل، و علاقة ذلك بفهم آيات الصفات ٢٧٤ مناقشة الشنقيطى لأقوال العلماء فى تفسيرهم الآية و الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ... ٢٧٦

الشنقيطى و آيات الصفات ٢٧٨ خلاصة رأى الشنقيطى فى آيات الصفات ٢٨٣ الشنقيطى يبرئ أبا الحسن الأشعري من التأويل ٢٨٣ وجهة نظر فى آيات الصفات ٢٨٥ موقف صاحب أضواء البيان من التقليد ٢٨٦ الجانب اللغوى فى أضواء البيان ٢٨٩ خاتمة ٢٩٢ ثالثا: الدراسات القرآنية عند عبد الله سراج الدين ٢٩٣ الشيخ عبد الله سراج الدين و التفسير ٢٩٣ اللغة فى دراسات عبد الله سراج الدين القرآنية ٢٩٥ الدراسات القرآنية و الحديث الشريف عند الشيخ عبد الله سراج الدين ٢٩٧ خاتمة: ٢٩٧ الفصل الرابع: التفسير الأدبى الاجتماعى أولا: تفسير القرآن الحكيم للشيخ محمد رشيد رضا و معه تفسير الشيخ محمد عبده ٣٠١ مقدمة: اللون الأدبى الاجتماعى ٣٠١ تفسير المنار لمؤلفيه محمد عبده و رشيد رضا ٣٠٢ -١- الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥ م) ٣٠٢

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٧

٢- محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤ / ١٨٦٥-١٩٣٥ م) ٣٠٣ تفسير المنار: أحد نماذج التفسير الأدبى الاجتماعى ٣٠٤ تمهيد ٣٠٤ طلب الجمعية الخيرية الإسلامية من محمد عبده أن يفسر لها جزء عم ٣٠٤ منهاج محمد عبده فى التفسير ٣٠٥ القرآن و العقيدة الإسلامية كما بينها المنار ٣٠٧ عدم اعتماد محمد عبده على كتاب عند ما فسر القرآن ٣٠٧ محمد رشيد رضا يتحدث عن طريقة محمد عبده فى التفسير ٣٠٨ محمد عبده يركز على أهمية التدبر و العمل بما ورد فى القرآن ٣٠٨ محمد عبده و الإسرائيليات ٣٠٩ كيف عالج محمد عبده المسألة الاجتماعية فى تفسيره؟ ٣١١ محمد عبده يربط بين الفرد و المجتمع ربطا محكما ٣١٢ القرآن و العلوم الحديثة فى تفسير محمد عبده ٣١٣ موقف محمد عبده من حقيقة الملائكة و إبليس ٣١٤ محمد عبده و موقفه من السحر كما ورد فى المنار ٣١٥ إنكار محمد عبده لبعض الأحاديث الصحيحة ٣١٦ محمد رشيد رضا و اتصاله بمحمد عبده ٣١٧ محمد رشيد رضا و إنتاجه التفسيري ٣١٧ مصادر رشيد رضا فى تفسيره ٣١٨ هدفه من التفسير ٣١٨ منهج محمد رشيد رضا فى التفسير ٣١٨ آراؤه فى التفسير ٣١٩ رأى رشيد رضا فى من ارتكب الكبائر من الذنوب ٣١٩ آراؤه فى قصة آدم ٣٢١ لجوء رشيد رضا إلى المجاز و التشبيه ٣٢١ رأى فى السحر ٣٢٢ رأى فى الشياطين و سلطانهم على البشر ٣٢٢ رأى فى الجن ٣٢٢ رأى فى معجزات الرسول صلى الله عليه و سلم ٣٢٣ بعض الآراء الفقهية لرشيد رضا ٣٢٣

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٨

ثانيا: تفسير المراغى أحمد بن مصطفى المراغى ٣٢٥ المراغى (...، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م) ٣٢٥ المراغى يعلل كتابته التفسير «المراغى» ٣٢٥ منهج المراغى فى التفسير ٣٢٧ موقفه من التفاسير السابقة ٣٢٨ قصة استخلاف الإنسان و حوار الملائكة مع الله تعالى و تأثر المؤلف بمحمد عبده ٣٢٨ تفسير المراغى و الوقوف عند النص القرآنى فى قصصه ٣٣٠ الحديث النبوى فى تفسير المراغى، و مراعاته

أسباب النزول ٣٣١ تفسير المراغى و استفادته من المعارف الحديثة ٣٣٥ تفسير المراغى و الأحكام الفقهية ٣٣٧ حالات أجاز البعض فيها الفصل ٣٣٩ اللغة و الأسلوب فى تفسير المراغى ٣٤٠ تفسير المراغى و علم الكلام ٣٤١ خاتمة ٣٤١ تعليق و مناقشة لآراء محمد عبده و رشيد رضا و المراغى ٣٤٣ ثالثا: فى ظلال القرآن لسيد قطب ٣٤٧* المؤلف - سيد قطب ٣٤٧ مرحلة البدايات (المرحلة الفطرية) ٣٤٨ ١- تصوير المعانى الذهنية ٣٤٨ ٢- تصوير الحالات النفسية ٣٤٩ ٣- تصوير الحالات الواقعية ٣٥٠ ٤- التصوير بضرب المثل ٣٥٢* مشاهد الطبيعة المصوّرة ٣٥٣* تصوير مشاهد القيامة ٣٥٤* تصوير مشاهد النعيم ٣٥٥* المسائل الفقهية ٣٥٥* صاحب الظلال يرد على من يقول أن الترخص بالعبادات قد يؤدي إلى إهمال هذه العبادات ٣٥٦* خاتمة ٣٥٨

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٨٩

الفصل الخامس: التفسير الفقهى أولا: روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام لمحمد على الصابونى ٣٦١ «روائع البيان، تفسير آيات الأحكام من القرآن» لمحمد على الصابونى ٣٦١ الطلاق قبل المساس ٣٦٣ وجوه القراءات ٣٦٦ وجوه الإعراب ٣٦٦ الأحكام الشرعية ٣٦٧ أدلة الشافعية و الحنابلة ٣٦٧ أدلة المالكية و الحنفية ٣٦٨ الحديث الشريف فى تفسير آيات الأحكام ٣٧٠ اللغة فى تفسير آيات الأحكام ٣٧٠ الخاتمة ٣٧٠ ثانيا: تفسير آيات الأحكام للسايس و آخرون ٣٧١ تفسير آيات الأحكام للسايس ٣٧١ المنهج المتبع فى الكتاب ٣٧٢ رأى الكتاب فى الناسخ و المنسوخ ٣٧٣ الموقف من إعجاز القرآن ٣٧٤ الموقف من آيات الصفات فى تفسير الأحكام ٣٧٤ ١- الوسطية و الاعتدال فى أمة الإسلام ٣٧٦ حدّ الزنى ٣٧٨ الزانية و الزانى يشمل المسلم و غيره ٣٨٠ أما فى حكم التغريب بعد الجلد ٣٨٠ أدلة الخوارج المنكرة للرجم ٣٨٠ الردّ على أدلة الخوارج ٣٨١ الحديث فى تفسير آيات الأحكام ٣٨٢ اللغة فى تفسير آيات الأحكام ٣٨٢ الخاتمة ٣٨٢ الفصل السادس: التفسير الإشارى المنح الفاخرة فى معالم الآخرة لمحمد شاكر الحمصى المصرى ٣٨٥ حياة المؤلف ٣٨٥

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٩٠

علومه ٣٨٥ شيوخه ٣٨٥ طريقته الصوفية ٣٨٦ المناصب التى تولاها ٣٨٦ أهم مؤلفاته ٣٨٦ عنوان الكتاب: المنح الفاخرة فى عوالم الآخرة ٣٨٧ سبب تأليف الكتاب ٣٨٧ المنح الفاخرة فى أحوال الآخرة، لما ذا؟ ٣٨٨ مصادر المؤلف فى كتابه المنح الفاخرة فى عوالم الآخرة:

مصادره ٣٨٨ ميزات كتاب المنح الفاخرة فى معالم الآخرة ٣٩٠ من مزايا هذا التفسير ٣٩٠ المعاصرة فى تفسير المنح الفاخرة فى معالم الآخرة ٣٩٢ الحروف المقطعة فى المنح الفاخرة فى عوالم الآخرة ٣٩٣ تحليل تمثيل الحق بما ينفع و تمثيل الباطل بزبد يدفع ٣٩٤ الجانب الصوفى فى المنح الفاخرة فى معالم الآخرة ٣٩٥ وجوه الشبه ٣٩٦ بين يدى الساعة ٣٩٧ خاتمة ٣٩٨ الفصل السابع: التفسير البلاغى أو لآل: الإعجاز البيانى فى القرآن لعائشة عبد الرحمن ٤٠١ مقدمة فى تاريخ التأليف فى الإعجاز البيانى ٤٠١ هدف تأليف كتاب الإعجاز البيانى لعائشة عبد الرحمن ٤٠٥ مفهوم الإعجاز ٤٠٦ فواتح السور و سرّ الحرف ٤٠٧ أول ما لفت الباحثة إلى سرّ الحرف و الكلمة القرآنية ٤٠٨ دلالات الألفاظ و سرّ الكلمة فى القرآن ٤٠٩ أمثلة تطبيقية على دلالة الألفاظ و سرّ الكلمة ٤١٠ ١- الرؤيا و الحلم ٤١٠ ٢- التأى و البعد ٤١٢

التفسير و المفسرون فى العصر الحديث(عبد القادر)، ص: ٤٩١

٣- النعمة و النعيم ٤١٤ الأساليب و سرّ التعبير ٤١٧ الاستغناء عن الفاعل ٤١٧ من مسائل نافع (أبو راشد الذهلى رأس الأزارقة (٦٥ هـ) و ما كان من حرصه على طلب العلم و تحريره عن الحق قبل الابتلاء بالفتنة) ٤١٩ ١- شرع و منهاجا ٤٢٠ ٢- ريشا ٤٢١ ٣- يباس ٤٢٢ ٤- يحور ٤٢٣ ٥- أدنى ألما تعولوا ٤٢٤ خاتمة ٤٢٥ ثانيا: إعراب القرآن و بيانه محيى الدين الدرويش ٤٢٧ محيى الدين درويش و كتابه (إعراب القرآن و بيانه) ٤٢٧ الإعراب ٤٢٩ البلاغة ٤٢٩ مثال آخر ٤٣٠ الإعراب ٤٣١ البلاغة ٤٣٢ أهم الجوانب البلاغية فى الآيات الكريمة:

١- التغليب ٤٣٤ ٢- الاحتراس ٤٣٥ المسائل العقيدية في إعراب القرآن و بيانه ٤٣٥ رأى القرطبي ٤٣٦ الحكمة من المتشابه كما في إعراب القرآن و بيانه ٤٣٨ خاتمة ٤٣٩ ثالثا: تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه لمحمد على طه الدرّة ٤٤١ منهج المؤلف في تفسير القرآن الكريم و إعرابه ٤٤٢ السنة النبوية في تفسير القرآن الكريم و إعرابه ٤٤٣ الأسماء و الصفات في تفسير القرآن و إعرابه و بيانه ٤٤٥ تفسير القرآن و إعرابه و بيانه و الناسخ و المنسوخ ٤٤٦ الظاهرة النحوية و الصرفية في تفسير القرآن و إعرابه و بيانه ٤٤٧ التفسير و المفسرون في العصر الحديث (عبد القادر)، ص: ٤٩٢

خاتمة ٤٤٩ الفصل الثامن: التفسير الحدائى الكتاب و القرآن: قراءة معاصرة محمد شحرور ٤٥٣ محمد شحرور و مؤلفه: الكتاب و القرآن- قراءة معاصرة ٤٥٣ المسائل اللغوية في كتاب محمد شحرور ٤٥٤ مصطلحات المصحف عند محمد شحرور ٤٥٥- الكتاب و القرآن ٤٥٥ لا- وجود للأشياء إلا- في عالم الكتب ٤٦٠ آيات من الكتاب الكريم أساء المؤلف فهمها ٤٦١ القرآن غير الفرقان في القراءة المعاصرة ٤٦٣ القراءة المعاصرة ٤٦٧ التعليق ٤٦٧ القراءة المعاصرة و المرأة ٤٦٨ مسألة في دراسة فهمه «وَلْيُضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ» ٤٧٠ وقفه عند الجيب و الجيوب ٤٧٢ «كلمات الله» في القراءة المعاصرة ٤٧٤ القدر و القضاء في القراءة المعاصرة ٤٧٧ خاتمة ٤٧٨

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ و أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).
قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا و يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رحمه الله" - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشئته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافتهم الثققلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسائل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المبتدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافته على أساس معارف القرآن و أهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

- (ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول
- (ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...
- (د) إبداع الموقع الانترنتى " القائمية " www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أحر
- (ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية
- (و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)
- (ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيرة SMS
- (ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جمران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين فى الجلسة

(ى) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسى: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد/ " ما بين شارع " پنج رمضان " و "مفترق" و "فائى/ " بنايه " القائمية " تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبية، تبرعية، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافى الحجم المتزايد و المتسع للامور الديتية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً مترائداً لإعانتهم - فى حد التمكن لكل احد منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

